قضايا المرأة والفكر والسياسة

نوال السعداوي

قضايا المرأة والفكر والسياسة

تأليف
نوال السعداوي

هنداوي

قضايا المرأة والفكر والسياسة

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٥ ١٤٩٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2018 Hindawi Foundation C.I.C.
All rights reserved.

المحتويات

ثمن الكتابة ٩

فن وإبداع ١٥

الإبداع والتمرد في حياة المصرية ١٧

الكحل والجنس وقهر النساء ... على خشبة المسرح ٢٩

أسئلة الإبداع المعلَّقة ٣٣

رواية السيرة الذاتية ٣٩

كسر الحدود ٥٣

عصر المجهول ٥٥

لذة الإبداع ٥٧

حرية التعبير تستيقظ ٥٩

رؤية نقدية لفن محمود سعيد ٦١

الفن في مواجهة السياسة ٦٧

المرأة والنقد الأدبي ٧١

الضرورة الحيوية ٧٥

المرأة ٧٧

قضية تحرير المرأة المصرية ٧٩

فلسفة المرأة في القرن القادم ٨٣

عن شهرزاد ومي زيادة ٨٧

الوعي النسائي العربي ٩١
شهر مارس وتحرير المرأة في أفريقيا ١٠٣
الدكتورة سهير القلماوي كما عرفتها ١٠٧
الوعي القومي بين الحركة الوطنية والحركة النسائية ١٠٩
فلوس المرأة، هل هي عورة؟ ١١٥
طريقي ليس إلى بكين! ١١٩
وماذا تقول المرأة في القرن الواحد والعشرين ١٢١
المرأة لا تولد امرأة ... بل تصبح امرأة! ١٢٣
مظاهرات النساء في أوروبا ١٢٧
المرأة وتوازن القوى في العالم ١٢٩
في الطريق إلى المؤتمر العالمي للمرأة في نيروبي ١٣٥
ولماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية؟ ١٣٧
مي زيادة في ذكراها الرابعة والأربعين ١٤١
إنجي أفلاطون ١٤٣
فدوى طوقان ١٤٥
رسالة إلى الشهيدة نعمات في ذكرى الأربعين ١٤٩
محاولة عزل قضية المرأة ١٥١
المرأة المصرية والمشكلة الاقتصادية ١٥٧
جوهر قضية المرأة العربية ١٦١
آخر قلاع الملكية الخاصة ١٦٩

فكر وثقافة ١٧٣
إعادة قراءة تاريخ مصر القديم! ١٧٥
تأثيم المعرفة ١٧٩
اكتئاب المثقفين ومسئولية الحوار مع السلطة! ١٨٣
الأرض مقابل الختان ... أوقفوا ختان الذكور! ١٨٧
تأملات على بحيرة مارينا ١٩٥
الاغتصاب ومفهوم الشرف والأخلاق ١٩٩
ولماذا لا يدور حوار فكري خلاق؟ ٢٠٥

العدل مطلوب في جميع القوانين الخاصة والعامة ٢٠٩
أنا لا أُفكِّر إذن أنا موجود! ٢١٣
عن انتحار الكُتَّاب والكاتبات ٢١٧
نقد موجه لجريدة الدستور ٢١٩
التخويف والترغيب والجوائز ٢٢٣
حديث مع توفيق الحكيم ٢٢٧
الفرق بين الراقصة الشقراء والراقصة المحجَّبة ٢٣٣
الحنين إلى الدفء والعدل ٢٣٧
لماذا لا يكون في بلادنا وزيرة للعدل؟ ٢٤٣
خمسمائة رسالة إلى النخبة الثقافية! ٢٤٩
التمرد وثقافة الصابون ٢٥٣
التناسب العكسي ٢٦١
على موسيقى الشعر ... ترقص الخيول ٢٦٥
حول جائزة نوبل ٢٦٧
الكاتب الكبير والكاتب الحر ٢٧١
تعليق على مقال الدكتور يوسف إدريس ٢٧٥
ماذا يقول هؤلاء الكُتَّاب؟ ٢٧٩
طفل الأنبوبة وصراع العصر ٢٨٥
أيتها السنة ... كوني جديدة ٢٩١

سياسة ٢٩٧
عولمة من قاعدة الهرم ... والوعي النسائي العربي ٢٩٩
تأملات على شاطئ فلوريدا ٣٠٥
رحلة الصيف إلى الجنوب الأفريقي ٣١١
أشياء صغيرة ... مفسدة للفرح ٣١٧
في ذكرى مرور نصف قرن على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ٣٢٣
اختلاف الآراء ضرورة ٣٣١
ثلاث رحلات إلى بغداد ٣٣٥
تحت عيون الجميع ٣٤١

حول الحوار الفكري مع الرئيس	٣٤٣
رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة	٣٤٥
كيف يحدث التزوير في التاريخ	٣٤٩
الصمت جريمة ... ومعًا نكسر باب السجن	٣٥٣
الاستخراب وليس الاستعمار	٣٥٩
آلهة ورجال	٣٦٣
عودة إلى الوطن	٣٧٣
المواطنون سواء في الظلم	٣٧٩
بين الطب والأدب	٣٨١
سمعة مصر	٣٨٧
مأزق الصحافة الرسمية في مصر	٣٨٩
أزمة الخليج والاستعمار	٣٩٣
محاكمة جورج بوش	٣٩٧
أيهما نلوم: الكبار أم الصغار؟	٤٠١
رحلة الأيام الستة	٤٠٥
المبالغة في مدح رئيس الدولة	٤١١
الطاعة والمعارضة في السياسة وغيرها	٤١٥
حدث في صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٨١م	٤٢١

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يُكشِّر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تُدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تَناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يَذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، أمال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يَحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مُبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليَشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟
– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
– ليه؟
– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[1]

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

[1] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

فن وإبداع

١٢ مقالًا

الإبداع والتمرد في حياة المصرية

مقدمة

أكتب هذه الورقة للمؤتمر الذي يُعقَد بالقاهرة من ٢٣-٢٤ أكتوبر ١٩٩٩م، تحت عنوان: «مائة عام على تحرير المرأة»، أكتبها هنا في بيتي في ولاية فلوريدا، إصبع صغير من الأرض محدود في جوف المحيط الأطلنطي وبحر المكسيك شمال جزيرة كوبا، تبعد عن الوطن عشرين ألف ميل، واليوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر ١٩٩٩م، إجازة في الجامعة، وكل المدارس والمحلات مغلقة، وآلاف الناس تركوا بيوتهم هربًا من العاصفة المسماة «هوريكين فلويد» القادمة من المحيط بقوةٍ لم تحدث منذ ثلاثين عامًا، تهدد بتحطيم البيوت والأشجار، لم أعرف إلى أين أذهب، بقيت في البيت وحدي أتابع أخبار الهوريكين على شاشة التِّليفزيون وعيناي تتابعان حركة الرِّياح خارج النافذة تضرب الأشجار، تخيلت أنَّ الشجرة الضَّخمة المجاورة للنافذة سوف تسقط على البيت تهدمه، وأموت تحت الأطلال.

بدت الكوارث السياسية والاجتماعية في الوطن أقلَّ خطرًا من الكوارث الطبيعية في أمريكا الشمالية، عجز العلم والتكنولوجيا الحديثة عن التصدي للهوريكين أو التورنيدو وغيرها من العواصف القادمة من المحيط الأطلنطي، المذيعون والمذيعات في القناة رقم «٢» المحلية يُذيعون لحظة بلحظة اقتراب الهوريكين من شاطئ فلوريدا، يبدو الرعب على وجوههم، صور السيارات المتزاحمة على الطريق تحمل الرِّجال والنِّساء والأطفال بعيدًا عن الشاطئ، يسمُّونه بالإنجليزية «بالم بيتش»، إنه الشاطئ الذي أسكن فيه، شاطئ بديع تُظلله أشجار النخيل، كان هادئًا منذ أيام قليلة، مشيت حافية فوق الرمال، وسبحت في المياه الدافئة تحت أشعة الشمس، وسمعت إلى جواري صوتًا يقول: «أتكون الجنة أجمل من هذا؟»

أطرد من رأسي فكرة الموت بالهوريكين في ولاية فلوريدا، أفكر في الورقة التي أكتبها لمؤتمر المرأة في القاهرة، إذا كان الموت يقترب لحظة بعد لحظة، فلماذا أُسرع بكتابة الورقة بعنوان التمرد والإبداع في حياة المرأة المصرية؟

لكن فكرة الموت تطرد الأفكار الأخرى من رأسي، لا أكاد أذكر إلا أنَّني جئت إلى هنا منذ عشرين يومًا فقط، غادرت القاهرة فجر يوم ١٤ أغسطس ١٩٩٩م، حلقت في الجو أربعًا وعشرين ساعة داخل ثلاث طائرات، هبطت الأولى في فرانكفورت، والثانية هبطت في شيكاغو، والطائرة الثالثة حملتني جنوبًا إلى مطار ميامي، ثُمَّ حملتني السيارة السوداء الطويلة الليموزين إلى بيتي على شاطئ النخيل، تُشبه السيارة التي يركبها رؤساء الدول، من الداخل الصَّالون الأنيق، بار صغير من البلور، تُطل منه زجاجات وكئوس صحون صغيرة بها أنواع من المكسرات والبندق واللوز والفستق وأشياء أخرى لا أعرفها، موسيقى حالمة تنبعث من سقف السيارة، أتمدد فوق الأريكة الناعمة الوثيرة، أذنيَّ مسدودتان بفعل الضغط الجوي داخل الطائرة النفاثة، السائقة امرأة أنيقة تبدو كأنَّها أستاذة بالجامعة، قالت لي: «ويلكام (يعني أهلًا) بروفوسير إل ساداوي.»

انتهيت إلى صوت المذيع في التليفزيون يقول: إذا ضربت العاصفة نوافذكم الزجاجية ابتعدوا بسرعة وادخلوا الحمَّام، أعِدُّوا من الآن البطاطين داخلَ البانيو حتى لا يصيبَكم الزجاج المكسور بأذًى، ربما تخلع العاصفة سقف البيت، حينئذٍ اخرجوا من البيت، اتركوا باب البيت مفتوحًا، احملوا معكم زجاجات ماء وطعامًا وبطاطين، ربما تنقطع الكهرباء عن المدينة عدة أيام بعد العاصفة، ولا بُدَّ أن يكون معكم طعام وماء وأدوية للمرضى أو العجائز، خذوا أيضًا لُعب الأطفال ليلعبوا بها.

ضحكت وقلت: لُعب أطفال؟ تذكرت طفولتي وطفولة الناس في قريتي التي خلَتْ من لُعب الأطفال، لكننا كنا نركب الحَمِير، ونجد متعة كبيرة في القفز على ظهر الحِمارة، نضرب بطن الحِمارة بأقدامنا فتنطلق بنا تسابق الريح على شاطئ النِّيل، بدت طفولتي أجمل طفولة في العالم، لا بد أن موتي أيضًا سيكون أجمل موت في العالم، سأموت على شاطئ النخيل، أجمل شاطئ في العالم، يضعونني في صندوق منقوش عليه الاسم واللقب العظيم «بروفسير إل ساداوي!» لم يعد اللقب يُبهرني ولا الاسم ولا أيُّ شيء، لا أرغب إلا في شيء واحد، أن أعود طفلة في السابعة من العمر، تجري في الحقول الخضراء الواسعة وراء الفراشات الملونة، الطفولة هي عمري الذهبي، هي النهر الذي تتدفق منه كل أفكاري، هي منبع الإلهام والإبداع في حياتي كلها حتى اللحظة التي سوف تضرب فيها الهوريكين سقف البيت وأموت تحت الشجرة وفي يدي لُعبتي.

بين أصابعي في تلك اللحظة كان القلم، يتحرك فوق الورقة بأشكال غريبة ورسوم أطفال، أشجار نخيل ساقطة على الأرض، البيوت بلا سقوف ولا نوافذ ولا جدران، الأطفال يلعبون خارج البيوت، تذكرت أنَّني كرهت البيوت في طفولتي، والجدران الأربعة والسقف، وكنت أحلم بأنَّ الجدران سقطتْ والسقف انخلع وخرجتُ لألعب مع الأطفال، كنت أبكي داخل الجدران، أُطل من بين قضبان النافذة على الأطفال وهم يلعبون ومنهم أخي.

لماذا يخرج أخي ليلعب خارج البيت مع الأطفال وأنا أبقى مع أمي لأطبخ وأنظف المرحاض؟! وبدا هذا السؤال مناسبًا لأبدأ به ورقتي عن التمرد والإبداع في حياة المرأة المصرية.

(١) الأسئلة الطفولية

في طفولتي دارت في رأسي أسئلة طبيعية ترِد لكل الأطفال الذكور والإناث، كُنَّا نتطلع إلى السماء في الليل يبهرنا ضوء النجوم، ونسأل بالفطرة والطبيعة: مين خلق النجوم دي كلها؟ ويأتي الجواب: ربنا خلق النجوم، ويأتي السؤال الطفولي طبيعيًّا بعد ذلك: «ومين خلق ربنا؟» لكن هذا السؤال يبدو للأهل كأنَّما هو غير وارد، أو المفروض ألا يَرِد، ولا بد من سد الطريق على عقل الطفل أو الطفلة حتى لا يسأل مزيدًا من الأسئلة قد تمس المحَرَّمات.

تحت اسم المحَرَّمات يتوقف عقل الأطفال عن طرح الأسئلة الطبيعية، وإن كان الطفل أنثى فإن المحَرَّمات تكون مضاعفة؛ لأن القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي تحكم الذكور ليست هي القيم التي تحكم الإناث؛ بسبب هذه الازدواجية يتوقف عقل البنت عن التفكير في أشياء قد يُفكِّر فيها أخوها الولد، قد يحلم الولد أن يكون طيَّارًا يحارب الأعداء، لكن أحلام البنت تختلف، قد تحلم البنت بالزواج وولادة الأطفال دون أن تشعر بإثم اللذة الجنسية.

يرتبط الإبداع في حياة الإنسان بالحُلم الطفولي: ماذا أريد أن أكون في حياتي؟! السؤال الأول الذي يُبنى عليه الحُلم. قالت إحدى البنات لأبيها وهي في السابعة من العمر: «عاوزة أكون طيَّارة أضرب الإنجليز بالقنابل من الجو.» كان الأب يحكي لأطفاله عن الأعداء الإنجليز، وكيف ضربونا بالقنابل من الجو؟ وكان من الطبيعي لفتاة طبيعية أن تحلم بركوب الطائرة وتضرب الإنجليز كما ضربونا، كان أبوها يقول: الضارب يُضرَب، والقاتل يُقتَل، والعين بالعين والسِّن بالسِّن والبادي أظلم.

وقالت طفلة أخرى في السابعة من عمرها لأمها: «عاوزة أكون كاتبة زي بابا.» كان الأب كاتبًا يُمسك القلم ويكتب أشياءَ تثير خيال الطفلة، لكن الأم كانت في المطبخ معظم الوقت تقشر البصل والثوم، ولم تكن الطفلة تحلم أن تكون مثل أمها.

وماذا تفعل البنت بأحلامها الطفولية غير المقبولة من أمها وأبيها أو المجتمع من حولها؟! ولماذا يحلم أخوها بأن يكون كاتبًا مثل أبيه وعليها هي أن تحلم أن تكون مثل أمها؟! ويأتي الرد الشائع الذي تصمت بعده البنات: لأنكِ بنت وهو ولد، وإن سألت البنت سؤالًا آخر يقولون: ربنا قال كدة! ما إن تسمع البنت كلمة «ربنا» حتى تصمتَ تمامًا، ويكفَّ عقلها عن التفكير في الأمر، إن ما يقوله الله تعالى هو الحق، والله لا يُسأَل عن شيء، وتكف الطفلة تمامًا عن الأسئلة وترضى بالمصير الذي أراده الله لها.

ومَنْ هي الطفلة التي يمكن أن تتمرد على إرادة الله وتختار لنفسها مصيرًا آخر؟! يحتاج الأمر إلى شجاعة وثقة بالنفس حتى تتحدى إرادة الله وتحلم بمصير آخر غير مصير البنات مثيلاتها، يحتاج الحُلم إلى خيال وأمل وإصرار على تحقيق الحلم، لكن الإنسان لا يمكن أن يتخيل شيئًا لا يعرفه، وإن لم تعرف الطفلة أن لها عقلًا مثل أخيها الولد وأنها يمكن أن تكون كاتبة مثله أو مثل أبيها فإنها سوف تعجِز عن الحُلم بما لا تعرف، فكيف تعرف الطفلة أن لها عقلًا مثل أخيها الولد؟!

إن هذه المعرفة تُولَد مع الإنسان أو الإنسانة، يدرك بالفطرة أنَّه إنسان مثل الآخرين، أو إنها إنسانة قادرة على التفكير مثلهم. حين ذهبت إلى المدرسة وأنا طفلة أدركتُ أنني أفهم مثل أخي وزملائه الأولاد، بل أتفوق عليهم، لماذا لا أحلم إذن بأن أكون أستاذة أو كاتبة أو دكتورة أو طيارة أو فنانة في السينما أو المسرح أو أي شيء آخر أحبه.

تحتاج الطفلة في أول حياتها إلى مَنْ يساندها في حلمها في البيت أو في المدرسة أو أي مكان آخر، كالنبت الأخضر الصغير يحتاج إلى سند يحميه من الرياح التي يمكن أن تقضي عليه، إن حُرِمَت الطفلة هذا السند، إن لم تجد أحدًا يشجِّعها، فسوف يموت الحلم وتنشأ كما يريدون لها أن تكون.

لكن الحلم لا يموت تمامًا طالما هي تعيش، إنها تدفنه في جزء عميق من عقلها، كالصندوق المغلق تخفي فيه أحلام الطفولة والأسئلة الطفولية، تدفن فيه الوعي الطفولي الذي وُلِدَت به، الوعي الفطري الذي يُشكِّل الأنا الحقيقية وماذا تريد أن تكون، ربما يظل الصندوق مغلقًا طوال حياتها، تتزوج وتنجب وتعيش وتموت دون أن تفتح الصندوق، قد تتسرب من الصندوق أشياء أثناء نومها تراها في الأحلام ثُمَّ تنساها حين تصحو وتصحو معها الأنا الاجتماعية المصنوعة غير الطبيعية.

هذه الأنا الاجتماعية المزيفة أصبحت تحمل في العلم والطب النفسي لقبًا رفيعًا هو «الأنا العليا» أو «الأنا الواعية» أو «الوعي»، وأصبحت الأنا الحقيقية حبيسة الصندوق المغلق هي الأنا الدنيا أو الأنا غير الواعية أو «اللاوعي».

انقلبت الأوضاع في العلم والطب النفسي، وأصبحت الأنا المزيفة هي الأنا العليا الواعية، والأنا الحقيقية هي الأنا الدنيا غير الواهية، وتسعى وسائل التربية والتعليم (منذ نشوء العبودية) إلى تثبيت هذا الوضع المقلوب وفرضه على النِّساء والعبيد، باعتباره الوضع الطبيعي أو القانون الإلهي.

أقدَمَ العبيد والأُجَراء على ثورات امتدت في التاريخ البشري حتى يومنا هذا، إلا أن ثورة النساء لم تحدث بعدُ في أي بلد من بلاد العالم، إن الثورة تبدأ بالتمرد، وقد أصبح التمرد صفة ذكورية قد تنطوي على ميزات الرجل ذي الرجولة الصحية القائمة على القوة والشجاعة والإقدام والتمرد والثورة، قد يصبح الرجل المتمرد أو الثائر بطلًا شعبيًّا يحترمه الناس، لكن المرأة الثائرة المتمردة تبدو للناس غير طبيعية أو ناقصة الأنوثة.

وهذه إشكالية لا يفطن إليها الرجال الثوار أو الأحزاب السياسية التقدمية التي تحارب الظلم أو العبودية أو الاستعمار القديم أو الجديد، وكذلك أطباء النفس ونُقَّاد الأدب.

(٢) تحطيم الأنا العليا المزيفة

ترتبط صفات الأنوثة منذ نشوء العبودية بالخضوع والطاعة والاستسلام للمصير الأنثوي الذي فرضه الله والمجتمع، منذ الولادة تدرك الطفلة بالوعي الطبيعي الفطري أنها لا تقبل الخضوع ولن تستسلم للظلم، منذ الطفولة الأولى تدرك البنت القيود التي تُفرَض عليها، وهي تقاومها على نحو طبيعي تلقائي، إنها تتمرد على القيود بالوعي الذي وُلِدَت به، ولكن هذا التمرُّد سُرعان ما يتوقَّف حين يختفي الوعي الطبيعي تحت طبقات الوعي المزيَّف مع نمو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة، المضلَّلة بالقيم الأنثوية السائدة والقيم الأخلاقية التي يؤمن بها المجتمع، تتحول الطفلة إلى زوجة خاضعة يحكمها قانون الطاعة، وإلى أم مثالية مُضحِّية من أجل أطفالها وأسرتها، تملأ الرفوف في بيتها بالمساحيق والكتب التي تشيد بالأنوثة الكاملة والأمومة العظيمة، تردد ما تقوله أمها والنساء من حولها، قد تفوز بجائزة الأم المثالية أو الطبيبة المثالية أو الأديبة المثالية، وكلها جوائز تؤكد بها أنوثتها وأمومتها وقدرتها على الخضوع للقيم التي يحترمها الناس في المجتمع.

في الحُلم قد تتضخم الأنا الاجتماعية المزيفة وتصبح عملاقًا كبيرًا يشبه الصنم الضخم أو الإله المعبود تحمله فوق رأسها كالتاج، يتحول في الحُلم إلى حيوان مفترس أو ثعبان يهبط من رأسها ويلتف حول عنقها، تصحو من الحلم مذعورة ثُمَّ تنام وفي الصَّباح تنسى الحلم، إن لم تَنْسَهُ وحكَتْه لأحد أطباء النفس يُفسِّر لها الحُلم على الطريقة الفرويدية الحديثة، هذا الثُّعبان هو اللاوعي أو الأنا الدنيا أو «الإد» غير الواعي، حيث تكمن غريزة الحياة أو شهوات الجنس، ينصحها الطبيب النفسي أن ترقى بنفسها إلى القيم العليا أو الأنا العليا لتكون امرأة مثالية مُحترَمَة من الجميع ولا يتهمها أحد بالتمرد أو عدم التكيف مع المجتمع، وتقول لها جدتها: هذا الثعبان في الحلم هو عدوك؛ فاقتليه قبل أن يقتلَك. وتنسى الفتاة أحلامها وكلام جدتها؛ لأنَّها تخاف من الثعبان، ولا تعرف كيف تقتله.

النسيان هو المقبرة الذي يُدفَن فيه الإبداع أو الوعي الحقيقي الطفولي الذي أصبح يحمل اسمًا علميًّا لا يدل عليه، وهو «اللاوعي»، والذي أصبح يشتمل على غريزة الحياة ومعها غريزة الجنس والشهوات وكل ما يبعث على الخزي والعار في حياة المرأة المثالية ذات الأنا العليا المتضخمة.

هذا التناقض هو أساس الفكر العبودي السائد في العالم حتى اليوم، إن غريزة الحياة التي هي أقدس شيء في الحياة تحافظ على حياة الإنسان هي نفسها شهوة الجنس أحط شيء في نظر الناس، خاصةً بالنسبة للمرأة، هذا التناقض نفسه موجود في العلم والطب النفسي، إن أقدس شيء في الحياة (غريزة الحياة أو شهوة الجنس) يكمن في اللاوعي أو ما يسمونه اللاوعي أو الأنا الأدنى أو الشيطان محطم الإنسان. والحقيقة أن الأنا الأعلى هي التي تقتل في الإنسان أقدس ما لديه؛ وهو حياته وعقله وإبداعه الفطري الطبيعي.

وأصبح على الإنسان (امرأة أو رجل) أن يحطم هذه الأنا الأعلى المزيفة من أجل أن يكون مُبدعًا، أصبح على المرأة المبدعة أن تحطم هذا الصنم المزيف المصنوع اجتماعيًّا منذ الطفولة حتى الموت.

إنها عملية صعبة، قد تبدو مستحيلة في حياة النساء؛ لهذا تعيش وتموت أغلب النساء دون أن يُسهِمن في الأعمال الإبداعية، ويتساءل نقاد الأدب: «لماذا يزيد عدد الأدباء المبدعين عن عدد النساء؟! لماذا يزيد عدد العباقرة من الرجال عن عدد النساء؟!» لا يدرسون التاريخ منذ نشوء العبودية، لا يعرفون شيئًا عن القيم الطبقية الأبوية السائدة حتى اليوم، لا يعرفون شيئًا خارج تخصصهم (النقد الأدبي) ويردون على أنفسهم قائلين: «العبقرية صفة ذكورية.»

إن أفلتت امرأة من القيود وحطمت الأنا الأعلى المزيفة ومعها القيم الطبقية الأبوية السائدة وأبدعت شيئًا في مجال العلم أو الأدب، فإنهم لا يفهمونه، يبدو لهم إبداعها نوعًا من الخروج عن القيم، يحكمون عليه حُكمًا أخلاقيًّا أو سياسيًّا دون أن يفهموه، وكم تُدفَن الأعمال الإبداعية للنساء لهذا السبب! يتم تجاهلها باعتبارها غير أخلاقية أو غير وطنية مؤمنة بالدين، وقد يشخصها أطباء النفس بأنها غير معقولة أو غير عاقلة ومكانها الصحيح هو المستشفى النفسي.

(٣) عملية الكبت «المكبوت منذ الطفولة»

يسعى الوعي أو الأنا العليا الاجتماعية المزيفة (خاصةً في حياة النساء) أن تجعل نفسها غير واعية بشهوة الحياة أو غريزة الجنس أو غيرها من الرغبات القوية في حياة الإنسان، بمعنى آخر تصبح الأنا العليا غير واعية بالقوة الإنسانية المبدعة في أعماقنا التي تحافظ على حياتنا، تصبح الأنا العليا غير الواعية بالنهر المتدفق في أعماقنا منذ الطفولة، ويمكن لهذه الأنا العليا أن تؤلف العديد من الكتب والمقالات التي يهلل لها النقاد وتحظى بالجوائز، إلا أنها تظل أعمالًا خاليةً من الإبداع لا تمس وجدان الناس، أو لا تصل إلى النهر المتدفق داخل الإنسان المكبوت منذ الطفولة.

إن هذا النهر الطُّفولي المبدع موجود لدى كل إنسان امرأة أو رجل، إنه منبع الإبداع يتدفق مع صحوة الذاكرة، إنه ليس صفة يحظى بها فقط العباقرة، إنه ليس إلهامًا يسقط علينا من السماء، إنه موجود داخل صدورنا وعقولنا منذ وُلِدنا من بطون أمهاتنا، إنه حقيقة لا يعرفها العلماء والأطباء الذين يُطلِقون عليه اسم اللاوعي أو الأنا الأدنى.

إنه حقيقة لا يعترف بها أصحاب وصاحبات الأنا العليا المتضخمة اجتماعيًّا، أو الناجحة سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا؛ لأنها تتعارض مع إحساسهم بالتميز أو العبقرية.

عملية الكبت تحدث في حياة جميع الأطفال، ذكورًا وإناثًا، لكنها تحدث بدرجة أشد في حياة البنات؛ فالبنت تشعر بالعار وإن كانت ضحية اعتداء أو اغتصاب، البنت تشعر بالإثم وإن كانت طفلة لا تعرف ما هو الإثم، تحاول البنت التكفير عن ذنوبها بمزيد من الطاعة والصلاة والخضوع. منذ السابعة من عمري وأنا أركع وأصلي وأطلب من الله أن يغفر لي ذنوبي، ثُمَّ بدأت أدرك أنني بريئة ولم أقترف ذنبًا، كنت أتصور أن ما يحدث في أعماقي جريمة، وما يدور في رأسي من أفكار وما يظهر على جسدي كلها آثام تستوجب

دخول النار، ثُمَّ تحررت من الإثم حين سمعت أمي تقول: «مافيش نار ولا حاجة.» لقد فتحت هذه العبارة الصغيرة الطريق أمامي، تحررت من الخوف من نار الآخرة وبدأت أفكر في حياتي التي أعيشها في الدنيا.

ما درجنا على تسميته اللاوعي هو الوعي الأعلى، منبع الإبداع، ما درجنا على تسميتها الغرائز الدنيا هي غريزة الحياة العليا، هي نهر الوعي الغزير الذي نسد عليه الطريق تحت الضغوط الاجتماعية، تبدأ عملية الإبداع بالكف عن عملية الكبت، بإزالة الأحجار التي سددنا بها مجرى النهر.

الإبداع هو اكتشاف هذا النهر وفتح الطريق أمامه، نحن لا نخلق هذا النهر، إنه موجود في أعماقنا منذ الطفولة.

الإبداع ليس إلا اكتشاف ما هو موجود، وإعادة اكتشافه في ضوء جديد، الإبداع هو العودة إلى المعرفة الفطرية التي عرفناها في الطفولة.

أدركت مؤخَّرًا وبعد أن تجاوزت الستين من عمري أنني لم أكتب شيئًا لم يكن كامنًا في صدري منذ الطفولة، همست بهذه الحقيقة في أذن أحد الشعراء في جنوب أفريقيا؛ فصاح قائلًا: «كنت أظن أنني الوحيد الذي أشعر بهذا.»

يحتاج الأمر إلى شجاعة لطرح السؤال الطفولي الأول من نوع: «من خلق ربنا؟» هذا السؤال الطفولي المكبوت هو الذي قاد إلى أعظم الاكتشافات في عالمنا الحديث ومنها الكمبيوتر والإلكترون والكويكر وعلم الكون الجديد، منذ أدركنا أن الأرض كروية وليست مسطحة، وأنها تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون لم يُخلَق في ستة أيام بل في ملايين السنين، وأن المرأة لها عقل وذكاء مثل الرجل؛ وبالتالي لا يحق له أن يسيطر عليها أو يحبسها في البيت لتطبخ له، أو يفرض عليها الحجاب والعزلة بعيدًا عن الحياة العامة.

إلا أنَّ المؤسسات السياسية والدينية في المجتمع تقاوم هذه الأفكار المتدفقة من المخزون الطفولي القديم، وإلا لانهارَ النظام الطبقي الأبوي، وتحررت الأغلبية الساحقة من البشر من قمع الطبقة الحاكمة أو الأقلية التي تملك النفوذ والمال. وكيف يمكن للأقلية أن تسيطر على الأغلبية الساحقة وتسرق قوتهم وعرقهم؟! كيف يمكن للرجال أن يسيطروا على النساء ويسرقوا منهن الشرف بالإضافة إلى العرق والجهد؟! كيف يمكن أن تستغل الحكومات شعوبها، وكيف يمكن أن يسيطر منطق القوة المسلحة على الحق في السياسات الدولية والمحلية؟! كيف يتحقق ذلك دون تخويف الأغلبية الساحقة من النساء والرجال بالقوة

المقدسة في السماء والقادرة على البطش بالمتمردين والمتمردات الذين يرفعون راية العصيان ضد إرادة الله والوطن والملك.

في طفولتنا في المدارس كنا ننشد كل صباح في الطابور قبل الدخول إلى الفصول: الله، الوطن، الملك، ننطق الثلاثة في نفس واحد، كأنما الثلاثة شيء واحد، ومن يعصِ أحدَهم فقد عصَى الآخر، أو من يهتف بسقوط أحدهم فقد هتف بسقوط الآخر.

بعد سقوط الملك عام ١٩٥٢م خطر لي السؤال الطفولي: أيسقط معه الاثنان الآخران؟ وظل السؤال مكبوتًا في المخزون الواعي العميق المُسَمَّى باللاوعي حتى بلغت الخمسين عامًا ودخلت السجن حيث أدركت أن الملك لم يسقط؛ فقد تغير اسمه.

(٤) الإبداع والشيطان

مع تصاعد القوى السياسية الدينية في بلادنا منذ السبعينيات من القرن العشرين اشتدت القيود على النساء والفقراء. لقد زاد الفقراء فقرًا، وحُرمت الأغلبية الساحقة من الضرورات المادية، ولا بد من قمعهم بالوسائل الروحانية ومزيد من المواعظ الدينية، انتشرت ظاهرة التدين بين الرجال وظاهرة الحجاب بين النساء، اشتدت عمليات التخويف من عذاب القبر والحرق في نار جهنم الحمراء، وتعليق المرأة من شعرها يوم القيامة إن خالفت الله أو الأب أو الزوج. تختلف القيم التي تحكم الذكور عنها عند الإناث، يهتف الذكور: الله، الوطن، الملك. لكن الإناث يهتفن: الله، الأب، الزوج.

في ندوة بإحدى كليات جامعة القاهرة عام ١٩٩٢م وقفت إحدى الأستاذات الكبيرات تعارض ما قلته عن العلاقة بين التمرُّد والإبداع، كانت تلف رأسها بحجاب سميك، وهتفت بغضب: طاعة الزوج من طاعة الله! ثُمَّ أضافت أن ما أقوله ينتمي إلى الشيطان.

وتساءلت: لماذا ارتبط الإبداع بالشيطان؟ لماذا نقول مثلًا شيطان الفن أو شيطان الشِّعر؟ ولماذا نشعر بلذة حين نقرأ قصيدة من الشعر، أو حين نسمع قطعة موسيقية، أو نرى لوحة فنية، أو نقرأ رواية، أو نشهد رقصة بديعة؟

إن ارتباط الشيطان بهذه اللذة الفنية لا يمنعنا من الإحساس بها، وبالمثل إن ارتباط الشيطان باللذة الجنسية لا يمنعنا من الإحساس بها، فهل توجد علاقة بين لذة الإبداع ولذة الجنس؟!

حاول العلم أو الطب النفسي حل هذه الإشكالية أو هذا التناقض، بالنظرية القائلة إن منبع هذه اللذة هو اللاوعي أو الأنا الأدنى، حيث تكمن الشهوات الشيطانية والغرائز

(منها غريزة الحياة)، ولا بد أن منبع الإبداع هو هذا اللاوعي؛ ومن هنا ارتبط الإبداع بالشيطان.

كيف إذن نشجع أطفالنا من الذكور والإناث على الإبداع وهو يرتبط بالشيطان؟! كيف نصور لهم أن لذة الجنس آثمة وفاسدة مع أنها غريزة الحياة الواعية القادرة على حمايتنا؟

لولا غريزة الحياة القوية المبدعة لاندثرت الحياة من فوق الأرض، لولا الإبداع الإنساني المستمر ضد الموت والقيود والقمع لاندثرت الحياة فوق الأرض؛ لهذا يبدو الرجل المبدع متمرِّدًا ثائرًا ضد كل القيود التي يمكن أن تضعف وعيه وإبداعه، ومنها القيود الجنسية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وقد يغفر المجتمع للرجال المبدعين لأنهم رجال، ولأن الرجل لا يعيبه إلا جيبه، أمَّا النساء أو الفقراء من الرجال المبدعين، فإن المجتمع لا يغفر لهم شيئًا، بل إن حسناتهم قد تنقلب إلى سيئات، ويحظى بالجوائز قلة من الرجال يحملون لقب عباقرة، يضربون مثلًا شائعًا للإبداع بأنه الفوضى وعدم المسئولية والتعددية الجنسية. وكم اشْتَهر هذا الشاعر الكبير بأنه زير نساء، أو اشْتَهر هذا الأديب الكبير بأنه يشرب الخمر أو مدمن على الفساد، ولا يحافظ على مواعيده أو وعوده، ولا يكاد يُفيق من غيبوبة الإبداع أو اللاوعي.

إلا أن هذه الغيبوبة وهذه الفوضى أو اللامسئولية لا تحدث له مع أصحاب النفوذ والسلطة؛ إذ سرعان ما يُفيق هذا العبقري الكبير ويصل قبل موعده المحدد مع الوزير أو الرئيس، نحن نعيش هذه الازدواجية في القيم كلَّ يوم أن ندركها، لكنها تمر علينا، نتقبلها صاغرين لأنها القيم السائدة، قد يعتبرها بعض المفكرين الكبار جزءًا من هُويتنا الوطنية الأصيلة يجب الحفاظ عليها كما نحافظ على ختان الإناث وفرض الحجاب عليهن حفاظًا على الفضيلة والعفة والأخلاق.

حقيقة الأمر أنَّ الإبداع لا يعني الفوضى واللامسئولية والعربدة في حانات الليل أو الانتقال من امرأة إلى امرأة أو من رجل إلى رجل، إن صفة «الدون جوانية» نقيض الإبداع في الرجال والنساء، إن هذا الأديب الكبير الدون جوان لم يعرف لذة الجنس ولا لذة الإبداع؛ وبالتالي فهو دائم البحث عنهما دون جدوى، كالمعدة المريضة لا يزيدها الماء إلى ظمئًا. قد تظهر لنا صورة هذا الأديب (أو الأديبة) في الصحف كل يوم أو كل أسبوع، قد يكتب الآلاف من المقالات والمئات من الكتب، قد يمارس الجنس مع نساء العالم، قد يحظى بالجوائز الكبرى والصغرى، إلا أنَّه يظل دائمًا كالمعدة المريضة لا يزيده الماء إلا عطشًا.

إن انتشار هذه الصورة عن الشخص المبدع لا تعني أنها الحقيقة، إن انتشار القيم المزدوجة في بلادنا لا تعني أنها القيم الإنسانية الصحية؛ لأن الازدواجية في حد ذاتها مناقضة للأخلاق. إنها تعني الكذب وتعني الظلم، والسبب في انتشارها آلاف السنين واستمرارها حتى اليوم (ومنذ نشوء العبودية) ليس لأنها صحيحة وعادلة، بل لأنها تُفرَض بالحديد والنار على الأغلبية الساحقة، بقوة البطش السياسي والديني معًا، وقد يكون هذا البطش خفيًّا مستترًا وراء كلمات جميلة من نوع الطاعة والفضيلة والإيمان والمثالية والوطنية والشرف والأخلاق والأمومة والأنوثة ... إلخ.

(٥) لذة الإبداع

ترتبط قوة الإبداع باللذة الكبيرة المصاحِبة لعملية الإبداع ذاتها بصرف النظر عن العواقب أو النتائج، وهي تشبه قوة غريزة الحياة، بل إنها هي قوة غريزة الحياة ذاتها، إنها الوعي الأعلى الإنساني الذي تم تجهيله وتأثيمه وتسميته اللاوعي.

هذه اللذة يحسها الأطفال في بداية الطفولة الأولى، يلعبون، ينتفض كيانهم بلذة طاغية تشمل الجسد والعقل والروح في كيان كلي لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. هذه اللذة تفوق اللذة الجنسية ولذة الأكل ولذة النوم، ويعرف المبدعون والمبدعات هذه اللذة، التي تجعل الواحدة أو الواحد منهم ينسى الأكل والنوم والجنس، ويستغرق في الكتابة أو الرسم أو أي عمل آخر.

هذه اللذة الطاغية تتضاءل إلى جوارها ملذَّات الدنيا والآخرة، هذه اللذة الطاغية قادرة على تحويل أي خسارة إلى مكسب، وأي يأس إلى أمل، وأي ضعف إلى قوة.

هذه اللذة تصاحب العمل الإبداعي وتنتهي بانتهائه، وهي التي تجعل المبدعة أو المبدع يبدأ ويعمل من جديد، لا يتوقف عن الإبداع حتى الموت، يتلاشى الماضي والحاضر والمستقبل في لحظة واحدة هي لحظة الإبداع، هي اللحظة الحاضرة الممدودة إلى الأبد، هنا والآن.

«أنا أكتب رواية»، تنطقها الكاتبة الأديبة بلذة أكبر من أن تقول «أنا كتبت رواية»، إن الفعل في الحاضر هو اللذة وهو الإبداع، وليس هو الفعل الماضي.

ألهذا السبب يبدو كل عمل إبداعي ناقصًا لا يكتمل أبدًا، إن العمل الإبداعي ما هو إلا إشارة إلا عمل إبداعي آخر أكثر إبداعًا.

إذا ركزنا على العملية الإبداعية ذاتها أثناء حدوثها هنا والآن فإنها تبدو موحية أكثر، تصبح مغامرة ممتعة في المجهول وليست إنتاجًا من الأعمال أو الكتب أو اللوحات التي تبدو ناقصة عقيمة.

إن لذة الإبداع مثل لذة الحياة تبلغ ذروتها هنا والآن.

نَوَال السعداوي

بوكاراتون، فلوريدا، ١٣/ ٩/ ١٩٩٩م

الكحل والجنس وقهر النساء ... على خشبة المسرح[1]

جاءتني دعوة لمشاهدة مسرحية جديدة تُعرَض في مسرح الطليعة، كنت قد شاهدت للمخرج ذاته مسرحية منذ أكثر من عشر سنوات، حاول فيها التجديد من خلال منهج المسرح الصَّوتي المتعدد الصور والمستويات، محاولة فنية معروفة باسم «المسرح البولوفوني»، تنبع من تعدد الأصوات والإيقاعات الجسدية والصَّوتية في التعبير عن أعماق الإنسان أو الإنسانة.

اسم المخرج: انتصار عبد الفتاح. واسم المسرحية: مخدة الكحل. قال لي في الدعوة: إن المسرحية رحلة داخل عالم المرأة العميق، بآلامها وأحلامها، والمسرحية زمنها ساعة واحدة فقط. وأنا أحب هذا الإيجاز في التعبير الفني أو البلاغة في توصيل الفكرة دون حشو وإطناب.

كانت الرِّحلة من بيتي إلى مسرح الطليعة بميدان العتبة مؤلمة، لم أشهد ميدان العتبة الخضراء منذ أكثر من عشر سنوات، لا أذكر رائحة المراحيض العامة كانت تفوح بهذا الشكل، كان هناك رصيف أمشي عليه حول حديقة الأزبكية، أصبح الرصيف أكوامًا من الطوب والحجارة وبِرَك الماء أو المجاري مع الزحام الشديد كأنه يوم الحشر، مواقف أتوبيسات وميكروباصات وعربات أجرة.

---

[1] روز اليوسف، ١٨/ ١/ ١٩٩٩م (٣٦٨٤) (٦٣).

معظم الحوائط في العتبة الخضراء ملزوق عليها إعلانات شويبس وصور ممثلات نصف عاريات في أيديهن مسدسات، وجوه النجوم أو ما يُطلَق عليهم نجوم، بعضهن سمينات ممتلئات باللحم والشحم. وأنا أمشي أتعثر في أطفال شحاذين راقدين على الأسفلت، وطفلة بلا ساقين تزحف فوق قطعة خشب لها عجلات، وامرأة عجوز تحتضن طفلًا ضريرًا، وبياعين البخور والمصاحف والمسابح وأحجبة وكتب الجان وتسخير الشياطين لإعادة الرجل إلى زوجته المهجورة، وشابات واقفات في الطابور يشترين هذه الكتب ورءوسهن ملفوفة بالأحجبة، عيونهن مرسومة بالكحل يطرقعن باللبان والضحك.

قال لي المخرج: إن المسرحية ستبدأ في العاشرة مساءً بالضَّبط، ويُغلَق الباب بعد ذلك فلا يدخل أحد. وصلت المسرح أنا وزوجي (الدكتور شريف حتاتة) الساعة التاسعة والنصف ... تركنا السيارة في مكان آمن بجوار بنك مصر، ثُمَّ سِرنا على الأقدام هذه الرِّحلة إلى المسرح، شاهدنا فيها ما يُمكن الكتابة عنه مقالات أو مسرحيات. حرصنا على الذَّهاب قبل الموعد لنضمن عدم التأخير، وبحثنا عن مكان نستريح فيه قبل أن يفتح المسرح أبوابه، عثرنا على ما يُسَمَّى «كافيتريا» بالقرب من مسرح الطليعة، شربت فيها فنجان شاي مع قطعة من البسكويت أصابتني بالتسمم الغذائي لعدة أيام وليالٍ، لا بد أنه البسكويت المستورد الذي وُزِّع على المدارس فأصاب المئات من التلاميذ والتلميذات بالتسمم الشهير.

لم تبدأ المسرحية إلا الساعة الحادية عشرة؛ تأخرت «النجمة» عن الحضور في موعدها، أصبح المخرج غاضبًا وهو يشكوها إلى مدير المسرح، واعتذر لنا، وقلنا الكلمة الشهيرة في القاموس المصري «معلهش.» وانتظرنا في مكتب أمين شلبي مدير المسرح، الذي قدَّمَ لي قدحًا ساخنًا من الينسون خفف قليلًا من الآلام المعوية إثر قطعة البسكويت.

ثُمَّ بدأ العرض بوصول النجمة متأخرة ساعة كاملة عن الموعد. باختصار انتظرنا ساعة ونصف الساعة لنشهد مسرحية زمنها ساعة واحدة، إلا أن الغضب تلاشى مع بدء العرض ... ربما تلاشت أيضًا بعض الآلام الجسمية الناتجة عن التسمم العضوي والنفسي خلال الرحلة إلى المسرح. استرخى جسمي في المقعد تمامًا وأنا أتابع هذا العرض المسرحي البديع. ساعة واحدة من الفن المقطَّر، خلاصة مركَّزة من العطاء الفني، خاصةً الأداء الحركي الراقص الرفيع المستوى للفنانة «يسار عنتر»، وهي النجمة التي تأخرت، وقد غفرتُ لها هذا التأخير حتى آخرِ قطرة. كانت ترقص بكل خلية من عقلها وجسمها وروحها، الْتحم الثلاثة، روحها وجسمها وعقلها، في كيان واحد، يتحرك بمرونة السائل الشفاف داخلَ إناء ليس له جدران، فإذا بالرقص مثل الفكرة الفلسفية الجسدية تصيب الجسد باللذة بمثل ما تُصيب العقل.

والفنانة القديرة سميرة عبد العزيز كانت تروي الحكاية وهي تدير ماكينة الخياطة، لهجتها صعيدية حميمة، ملامحها مصرية صميمة، صوتها دافئ قوي حنون يدخل القلب، ليس مثل تلك الأصوات المعدِنية لبعض النجوم المشاهير أو الفنانات النجمات اللائي تطاردنا أصواتهن وصورهن ليلَ نهارَ. لقد استطاع المخرج انتصار عبد الفتاح أن يوظف عددًا من الطاقات الفنية، رقصًا وغناءً وموسيقى وإيقاعًا متعدد الأصوات في تقديم عرض فني جميل. استطاع أن يجمع فريقًا من الفنانين والفنانات، ويصور من خلال حركتهم وأصواتهم القهر الواقع على البنات والنساء.

هنا تظهر براعة المخرج في تحريك هذا العدد الكبير من الفنانين والفنانات بطريقة مبدعة سهلة وممتعة، مثل قصيدة شعرية تترابط أجزاؤها في انسجام كامل كأنما هي عبارة واحدة أو لحظة مكثفة بإيجاز وبلاغة، تهز الوجدان، وتقدم من خلال رؤية صوتية موسيقية تشكيلية لآلام المرأة في بلادنا.

إلا أن نهاية المسرحية جاءت مفجعة، بعد كل هذا الصراع الذي شهدناه للخروج من القهر وكسر القيود وتمزيق الخباء، والدوس بالقدمين على طشت الغسيل، والصمود القوي في وجه الشهوة أو الجنس أو الخضوع للرجل، وهذا الصوت القوي الدافئ لأحمد حجازي مع دقات التخت، القانون والناي والرقص، وضربات مخرطة الملوخية، ودوران ماكينة الخياطة، والثورة النسائية الجماعية ضد الخنوع والإذلال، ضد التفرغ للتزين والتكحل وإشباع شهوات الرجل. بعد كل هذه الثَّورة ضد الألم والظلم تعود المرأة إلى ما كانت عليه، تعود وتقبل كل ما ثارت ضده، بما في ذلك مخدة الكحل والناموسية والجنس والولادة.

يمكن القول: إن المسرحية نجحت من الناحية الفنية، لكنها فشلت من الناحية الفكرية ... عجزت المسرحية عن الخروج من آلام المرأة إلى أحلامها وطموحاتها الجديدة في الحياة.

بعد هذا العرض الشيِّق، وبعد هذا الصراع النسائي الجماعي للتحرر من بؤرة القهر، وهي الكحل والجنس وجسد الرجل والولادة والخياطة، بعد كل هذا تعود المرأة إلى سجنها بكامل إرادتها، تعود إلى الكحل والولادة وإدارة ماكينة الخياطة كأنما هذا هو مصيرها المحتوم ولا أمل في التغيير.

ربما تعبر المسرحية عن هزيمة النساء في صراعهن الطويل المرير ضد القهر الطبقي الذكوري عبر آلاف السنين، ربما هي تعبر عن الواقع في حالات كثيرة، حين يحدث النكوص والارتداد إلى الخلف بدلًا من التقدم إلى الأمام.

ربما لهذا السبب خرجت من المسرحية بقلب ثقيل، وعادت إليَّ الآلام الجسمية منذ أكلت قطعة البسكويت المسمَّمة. أحسست ثقل الواقع والهزيمة، خرجت صامتة على غير عادتي حين أشهد عملًا فنيًّا جميلًا. وسألني زوجي: ما رأيك في المسرحية؟ قلت: كان يمكن أن تكون عملًا عظيمًا لولا تخلف الفكرة التي قامت عليها.

فالفن العظيم يحتاج دائمًا إلى فكر عظيم يتجاوز آلام الواقع إلى آمال وطموحات أكبر.

أسئلة الإبداع المعلَّقة[1]

هل يكتب المبدعون ما يجول في أذهانهم، أم يُنصتون لآراء الآخرين ويضعونها في اعتبارهم؟ ولماذا يُفرِّق النحاتون والرسامون في المعاملة بين الموديل الأنثى والموديل الذكر؟ وهل يخشى الناس الإبداع لأنَّه يخلخل لهم قناعات ثابتة موروثة؟

في معارض الفنانين الرواد ممن يُطلَق عليهم العباقرة كان يصدمني دائمًا ذلك العدد الهائل من اللوحات لنساء عاريات، كنت أسأل نفسي دائمًا: لماذا يكون جسد المرأة العاري هو الموديل لهؤلاء الفنانين الرجال؟!

كنت أحرص على رؤية معارض الفنانات من النساء، ولم يكن لي (مهما حاولت) أن أعثر على لوحة واحدة لرجل عارٍ! وأسأل نفسي: لماذا تُعطي الفنانة للرجل (الموديل) الحرية في أن يبقى بملابسه، على حين يفرض الفنان الرجل على الموديل أن تكون عارية؟

أحيانًا يأتيني بالبريد إنتاج شابات أو شباب يكتبون الشعر أو القصة أو يرسمون اللوحات أو يؤلِّفون الموسيقى أو الأغاني، وغير ذلك من ألوان الإبداع المتعددة. وقد ألتقي بهم وأسمع منهم حكايات تُذكِّرني بنفسي حين كنت في مثل عمرهم، فتاة صغيرة قادمة من الريف لا تملك سوى كشكول أزرق وقلم رصاص، وحُلم كبير أكبر من الهرم الأكبر يتلخص

---

[1] الأهالي، ٩/ ١٢/ ١٩٩٨م.

في جملة واحدة بسيطة: «أن أعبر عن نفسي بالكلمات المكتوبة أو المنطوقة أو الرسم أو بالموسيقى، أو أي شيء آخر موجود في هذا الوجود.»

إذا عُدت بذاكرتي إلى الوراء أكثر من أربعين عامًا، حين كنت في العشرين من العمر، كيف كانت الطرق مسدودة، كيف كان أغلب الناس من حولي يقولون لي: لا يمكن أبدًا أن تكتبي ما يجول في دماغك! اقرئي ما كتبه العباقرة والرواد واكتبي مثلهم! لا يمكن أن تكتبي الأدب إذا لم تدرسي الأدب! حين يعرفون أنني أدرس الطب وليس الأدب يصيحون: مش معقول! إيش جاب ده لده!

لو سمعت كلام الناس من حولي لما أقدمت على الكتابة، فما بال أن أكتب ما يجول في دماغي؟ لولا الثقة التي أعطتها لي أمي وأبي منذ الطفولة لفقدت الثقة تمامًا في ذلك الشيء الذي أسميه دماغي، ربما توقف دماغي عن العمل واعتمدت في حياتي على دماغ الآخرين ممن يسمونهم العباقرة أو الرواد أو كبار المفكرين.

في أعماقي كنت أقول لنفسي: «هل هؤلاء العباقرة لهم دماغ أعظم من دماغي؟ ألم تلدهم أم مثل أمي؟» إنها عبارة كنت أسمعها من أمي، ومن جدتي لأبي الريفية، سمعتها ذات يوم وأنا في الخامسة من عمري تقول لابنها: «ويعني هو الملك أحسن منك في إيه يا ابني، مش والداه بطن زي بطني دي؟!» وتخبط جدتي بيدها الكبيرة المشققة على بطنها الضامر وتضحك بصوتها المنطلق، تؤكد بصوتها وحركتها القوية أن بطنها مثل بطن المرأة التي ولدت الملك!

كنت في الخامسة من العمر، وانحفرت في ذهني فكرة أن بطون كل النساء واحدة، وأن أبي مثل الملك، وُلد من بطن من هذه البطون، ويمكن لأبي أن يكون الملك أو أفضل من الملك كما تقول جدتي، المهم هو الإرادة والإصرار والجهد!

في العاشرة من عمري حين سمعت الناس من حولي يقولون إني بنت ولا يمكن أن أفعل ما يفعله أخي؛ لأنَّه ولد، كنت أثور عليهم وأقول لهم عبارة جدتي: ويعني هو الولد أحسن مني في إيه، مش والداه بطن أمي زي ما ولدتني؟!

أصبحت هذه العبارة في دماغي، أدافع بها عن حقي في الحياة والإبداع، وكل شيء مثل أخي وأكثر، إذا كنت أكثر منه إرادةً وتصميمًا وجُهدًا، المسألة إذن هي الإرادة والتصميم والجهد وليس أي شيء آخر.

عادت إليَّ هذه الذكريات وأنا أجلس مع عدد من الشابات والشباب المبدعين الذين يسمعون من الناس كل يوم ما يُثبط همتهم، ويقتل حماسهم، ويُفقدهم الثقة في أنفسهم، هذه العبارات التقليدية التي تعوَّد الناس في بلادنا أن يقولوها للشباب أو الشابات:

- قصائد شعر إيه يا ابني! خليك في الكيميا والعلوم.
- يعني إيه ترسمي يا بنت؟ اطلعي دكتورة في الطب تكسبي فلوس!
- يعني إيه تكتب مِن دماغك يا ابني! لازم تقرأ اللي كتبوه غيرك اللي أحسن منك؟
- فاكر نفسك عبقري؟! كان غيرك أشطر!

دار الحديث بيني وبين هؤلاء الشباب والشابات، قالوا لي: لا أحد يساعدنا، والجميع يضعون أمامنا العراقيل. قلت لهم: هذا طبيعي؛ فالإبداع في حد ذاته شيء جديد يفزع منه الناس لأنه يختلف عن القديم الذي ورثوه عن الأسلاف.

أحد هؤلاء الشباب اسمه «هاني طنطاوي»، طالب بكلية الصيدلة لكنه يكتب الشعر، يقول له الناس من حوله: ما علاقة الصيدلة بالشعر؟ ويرد عليهم هاني بأبيات من الشعر فيقول:

لأني أحب الشعر،
وشيء في صدري يتفجر،
هو حياة كالماء،
في حيوية هو يتحرك،
وفي قوته كالداء،
ترى هل يكون حبًّا حقًّا،
أم هو سراب في الهواء؟

جاءني شعر «هاني طنطاوي» بالبريد، قصائد تنفجر كالنافورات، أحاسيس مكبوتة من الحب والحنين والرغبة في التعبير عما يجول في قلبه ودماغه، لا أحد يريد أن ينشر كلماته الساخنة الخارجة لتوها من القلب الموجوع. قلت له: اكتب واكتب، واسكب نفسك على الورق، ولا يهمك ما يقوله الناس لك. أنت تريد أن تكون شاعرًا، وهم يريدون لك أن تكون أجزجي أو صيدلي، لكن إرادتك أقوى من إرادتهم؛ فالمهم هو الإرادة والتصميم والجهد وليس أي شيء آخر، ويمكنك أن تكون صيدليًّا وشاعرًا في الوقت ذاته.

وفتاة شابة من الريف الفقير اسمها «ناهد العاصمي»، تدرس العلوم السياسية، لكنها تحب الأدب والقصة، أرسلت إليَّ بعض قصصها القصيرة، سألتني: هل يمكنني الجمع بين الأدب والسياسة؟ قلت لها: إن الفاصل بين الأدب والسياسة غير موجود مثل الفاصل بين الطب والأدب، مثل الفاصل بين العمل والفن، إن أردت التعبير عن نفسك بصدق فسوف تكتشفين أن كل هذه الفواصل مزيفة ومصنوعة.

وشابة من القاهرة اسمها «أمل محمود»، درست الفن التشكيلي، أرسلت إليَّ صورًا لبعض لوحاتها، تريد أن تنزع الأقنعة عن الوجوه، إحدى لوحاتها تقول: لا نعرف أنفسنا ونخشى النظر في المرآة؛ لأننا قد نجد صورًا مشوهةً تعكس صراعات عالم قبيح، أو قد لا نجد صورة على الإطلاق، لتكن هذه اللوحة دعوة لمحاربة مسوخ المستقبل «أنفسنا»، دعوة لمواجهة عالم قبيح، دعوة لمعرفة الحقيقة، دعونا ننظر في المرآة بلا أقنعة.

هذه ليست إلا نماذج قليلة لما يأتيني في البريد من إبداعات الشابات والشباب، إبداعات تشق طريقها بصعوبة في عالم قبيح لا يفهم إلا لغة المال أو الربح، وفي مجال الفن لا يفهم إلا «العُري» باسم الحداثة أو ما بعد الحداثة، أو «التغطية» باسم الأصالة أو القيم الأصيلة.

بين هذين الاتجاهين يتمزق الشباب والشابات، وخاصةً في مجال الفن التشكيلي. سألت أحد الفنانين المعروفين من رواد الحداثة أو ما بعد الحداثة: لماذا لا محجبة؟ ابتسم وشرد طويلًا ثُمَّ قال: مش عارف ليه!

معظم هؤلاء الرجال الفنانين يرَوْن المرأة موديلًا صامتًا وعاريًا، الصمت والعري هما اللوحة الغالبة عند هؤلاء الرسامين، أو المرأة المتوارية وراء حجاب، المختزلة إلى خطوط تجريدية دينية، ترمز إلى الملاك الطاهر، السيدة مريم العذراء، أو واحدة من نساء النبي المقدسات، أو تكون العكس تمامًا، المرأة الشيطان حواء الآثمة العارية.

لم أجد نفسي ولا أمي ولا جدتي في أية لوحة من لوحات هؤلاء الفنانين الرجال العباقرة الرواد! لم أجد بنات البلد الشغالات في البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات، وجدت نساء عاريات جالسات في وضع ساكن صامت أمام الفنان الرجل.

أنا لست ضد التعرية من أجل الكشف في الطب أو العلم والفن، لكن في هذه اللوحات لماذا لا يحدث العري إلا للموديل الأنثى الشابة؟! لم أشهد لوحة واحدة لرجل عارٍ! لم أشهد لوحة واحدة لعجوز عارٍ أو عاريةٍ.

لماذا يدور هذا الفن دائمًا حول جسد الأنثى الشابة الموديل الأثيرية عند معظم الفنانين؟!

ألا يمكن للمرأة المرتدية ملابسها أن تشغل خيال هؤلاء الفنانين من الرجال؟

وهل الرجل العاري هو الموديل عند النساء الرسامات الفنانات؟

نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية، حين انفصل جسد المرأة عن روحها، وأصبحت المرأة مجرد الجسد، يُعرَّى أو يُغطَّى حسب الحاجة. إن الرجل لا يُعرَّى في الفن إلا يُغطَّى بالحجاب؛ لأنه لا يعتبر نفسه مجرد جسد.

إن المرأة الفنانة لا تفرض على الرجل الموديل أن يتعرى من ملابسه، كما يفرض الفنان الرجل على الموديل الأنثى أن تتعرى. ترسم المرأة الرجل في أدواره المختلفة في الحياة، وهو يزرع، وهو يحارب، وهو يتكلم ... إلخ.

تنظر المرأة الفنانة إلى الرجل كإنسان متعدد الأدوار في الحياة، أمَّا الرجل الفنان فهو ينظر إلى المرأة داخل دور واحد محدود بحدود الجسد العاري أو الجنس.

هذا عن الرواد وعباقرة الماضي، أمَّا اليوم فإن الشباب يثورون على هذه النظرة التقليدية في الفن، بدأت عين الرجل أو الشاب الفنان الجديد تنجذب إلى نساء غير عاريات وغير محجبات، إلى نساء يشتغلن، أيديهن وعقولهن، ويكافحن في الحياة مثل الرجل.

لم تعد الموديل المثالية هي ذات الأنامل الناعمة الرقيقة العاطلة عن العمل، بل الأصابع القوية التي تمسك القلم كما تمسك المشرط وتفتح بطن المريض، أو التي تمسك الفأس وتزرع لنا ما نأكل، تشبه يد جدتي الفلاحة الكبيرة المشققة، تخبط بها على بطنها وتقول: كلنا خرجنا من البطن دي!

رواية السيرة الذاتية

(١) البدايات

منذ علمتني أمي الحروف عرفت تكوين كلمة ذات معنى هو اسمي، بدأت أكتبها كل يوم، أربع حروف متشابكة، «نوال»، أحببت شكل الاسم ومعناه النوال أو العطاء. ارتبط بي، أصبح جزءًا مني. عرفت اسم أمي، «زينب»، كتبتُه إلى جوار اسمي فوق كراستي الصغيرة، أحببت شكل الاسمين معًا ومعناهما كما أحببت نفسي وأمي. أكبر حب في حياتي مُنذ وُلدت كان لنفسي ولأمي، بعد ذلك يأتي الآخرون، منهم أبي، شطب على اسم أمي، وضع اسمه إلى جوار اسمي، ثُمَّ وضع اسم أبيه «السعداوي»، رجل مات قبل أن أُولَد.

ودار في عقلي السؤال: لماذا يشطب أبي اسم أمي؟ ولدتني، أرضعتني، علمتني الكتابة، ترعاني كل يوم؟! يضع مكانه اسم رجل غريب لم أره في حياتي، مات قبل أن أُولد؟ كرهت اسم الرجل «السعداوي»، يلغي اسم أمي من الوجود. سألت أبي عن السبب، فقال لي: إنها إرادة الله.

كلمة «الله» سمعتها لأول مرة في حياتي من أبي، عرفت أنَّه يسكن السماء، هو المسئول عن شطب اسم أمي، لم يكن لي أن أحب من يشطب أمي واسمها زينب، أحبها باسمها، جسمها، شكلها، أصابعها الحانية الدافئة تداعب وجهي كشعاع الشمس، صوتها يُناديني في الصُّبح، كلَّ يومٍ جديد تعلمني كلمات جديدة.

كان لي أخ أكبر مني بعام واحد، كان بليدًا في المدرسة وفي البيت، لا يفعل شيئًا إلا اللعب والصُّراخ والنوم والأكل، لا يُرتِّب سريره ولا يغسل صحنه. أنا أصغر منه؛ مع ذلك أرتب له سريره وأغسل صحنه، أتفوق عليه في واجبات المدرسة وأعمال البيت.

أبي كان يحبه أكثر مني، يُدَللُــه ويشتري له طيارة بزنبلك وبسكليتة في العيد، يعطيه ضعف ما آخذ من قروش أو ملاليم. حين أسأل أبي: لماذا؟ يقول: الله قال في كتابه الكريم «البنت نصف الولد».

أصبح الله هو المسئول عن التفرقة بيني وبين أخي دون وجه حق، كما أصبح المسئول عن شطب اسم أمي دون وجه حق أيضًا. قال أبي: إن الله هو الحق. لم أفهم هذه العبارة، فكتبت رسالة إلى الله أسأله، كانت أول رسالة أكتبها في حياتي كالآتي: يا ربي، إذا كنتَ أنت الحق، فلماذا تُفرِّق بيني وبين أخي، ولماذا تُفرِّق بين أبي وأمي؟

قالت أمي: إن الله لا يقرأ ولا يكتب. كنت أظن أنَّه كتب القرآن، أبي يسميه كتاب الله. لم أُرسل إلى الله رسالة أخرى، أصبحت أوجه الرسائل إلى أبي، كنت أدرك الصِّلة بينه وبين الله. كانت رسائلي إلى أبي لا تصل إليه، أحرقها قبل أن أرسلها، كما حرقت رسالتي الأولى إلى الله. بدأت أدرك أنَّ الله يملك نارًا حمراء تحرق جلود الناس، تتجدد الجلود بعد الحرق لتُحرَق مرة أخرى، يستمر الحرق إلى ما لا نهاية. عرفت أنَّ مصيري النار؛ لأنِّي أسأل الله، المفروض أن الله لا يُسأل عن شيء؛ فهو يفعل ما يشاء دون أن يحق لمخلوق أن يوجه إليه سؤالًا.

قال أبي: إن الله هو الخالق الكامل، جميع أعماله كاملة، خلق أجسادنا على أحسن تقويم. وجاءت الداية بالموس في ليلة مظلمة وأنا في السادسة من العمر، قطعت عُضوًا من جسدي، قالت: إنه أمر الله. لم أستطع أن أسأل الله كيف يأمر بقطع عضو خلقه في أجسادنا. سألت أبي فقال إن عملية الختان سُنَّة عن رسول الله وليست فرضًا لأنها لم ترِد في كتاب الله. ولم أعرف ما الفرق بين السنة والفرض، ورقدت في الفراش أنزف بعد انصراف الداية صاحبة الموس، نزفت أكثر من أسبوعين، الألم كالنار التي تحرق بعد الموت. شُفيت بعد ثلاثة أسابيع، نسيت الحادث ربع قرن من الزمان، حتى تخرجت في كلية الطب، واشتغلت طبيبة في الريف، بدأت أرى الدايات بأمواسهن الملوثة تقطع في أجساد البنات الأطفال، ينزف الجرح حتى الموت، أو ينز الدم والصديد، يترك في جسد كل طفلة عاهة مستديمة.

لم نتعلم في كلية الطب شيئًا عن الختان، لم تكن أعضاء المرأة الجنسية ضمن المقرر، فقط الأعضاء التناسلية والمجاري البولية، أمَّا تلك الأعضاء التي تتعلق باللذة الجنسية أو الرذيلة فهي غير موجودة في كتب الطب الإنجليزية أو العربية.

في طفولتي المبكرة لم أعرف ما هي الرذيلة، قال أبي: إن الشيطان مسئول عنها واسمه إبليس. أصبحت أراه في الحُلم على شكل رجل يهمس في أذني باللذة المحرمة، التي تحولتْ إلى ألم يرتبط على نحو ما بالعضو المبتور بالموس في جسدي. كنت أرى الله أيضًا في أحلامي على شكل رجل يحذِّرني من إبليس، لم أعرف كيف أُفرِّق بين الله وإبليس، كلاهما أراه في الحُلم على شكل الرجل.

في التاسعة من عمري وقع لي حادث آخر مؤلم، نزيف دموي أصابني من حيث لا أدري، أشد خطورة من حادث الختان؛ لأنه يتكرر لمدة أربعة أيام كلَّ شهر، لا ينقطع عني إلا بعد أن يبلغ عمري نصف قرن، ورد ذكره في كتاب الله أنه «أذًى» بمعنى النجاسة، على الرجال أن يهجروا النساء في هذه الأيام حتى يَطْهُرن.

كنت أنكمش في الركن بعيدًا عن الناس أُخفي الألم، لم يكن لي أن أسأل سؤالًا دون أن أمس المقدس «الله في سمائه العلياء»، أمَّا إبليس فقد قرأت قصته في المدرسة، أمره الله بالسجود لآدم فرفض، قصة لا علاقة لها بالختان أو المحيض أو آلامي الجسدية والنفسية. أدركت وأنا في العاشرة من العمر أن إبليس بريء على نحو ما، لم يصل هذا الإدراك إلى عقلي الواعي أو ذاكرتي الإرادية التي أحفظ فيها ما يرضي الله وأبي والمدرسين في المدرسة.

ومضى نصف قرن من الزمان تقريبًا، كنت أزور ابنة عمتي في قريتنا، سمعت حفيدتها الطفلة تسألها عن الله وإبليس، الجدة تلسعها بالعصا الخيزران. كانت الطفلة في العاشرة من عمرها، بشرتها سمراء بلون بشرتي، عيناها السوداوان الواسعتان تتطلعان إلى السماء في حَيرة ورهبة، كأنما تبحثان عن موقع الله. تذكرت نفسي في مثل عمرها، الحركة نفسها والحيرة نفسها، عادت إليَّ ذاكرتي المفقودة، في الخمسين من عمري لم أملك الشجاعة التي ملكتها بعد أن تجاوزت الستين من العمر، لم أكتب سيرة ذاتية في ذلك الوقت، ترددت طويلًا في الكشف عن ذاكرتي الطفولية، كتبت رواية جعلتُ الطفلة فيها تسأل جدتها الأسئلة نفسها التي راودتني في طفولتي، أعطيتها اسم «جنات»، لم يُقدِم أي ناشر في مصر على طبعها، أخذتها إلى ناشر في بيروت، وافق على نشرها بعد حذف وتغيير عنوانها من «براءة إبليس» إلى «جنات وإبليس».

تعرضت الرواية للهجوم من بعض النقاد، قالوا: إنها لا تنتمي إلى الرواية أو السيرة الذاتية أو الشعر أو النثر أو أي شيء من هذه الأجناس الأدبية المعروفة. أحد النقاد قال: إنها تنتمي إلى قلة الأدب أو الرذيلة.

(٢) مذكرات طفلة اسمها سعاد

في الثَّالثة عشرة من عمري كنت تلميذة بالمدرسة الثانوية في حلوان، طلب مِنَّا أحمد أفندي مدرس اللغة العربية أن نكتب شيئًا من الذاكرة في كراسة الإنشاء، كانت ذاكرتي الطفولية قد اندثرت تحت اسم المحرم، الجنس أو الدين، نسيتهما مع أحداث طفولتي بما فيها الحب الأول وأنا في العاشرة من العمر، ومفهوم الشرف يتعلق بغشاءٍ خلقه الله في أجساد البنات فقط، لم يخلقه في أجساد الأولاد؛ لأنَّ الذكور ليس لهم شرف يتعلق بشيء في أجسادهم.

كتبت لأحمد أفندي في كراسة الإنشاء سيرة ذاتية لطفلها اسمها سعاد، غيرت اسمي واسم أبي وجدي السعداوي حتى لا يدرك أحمد أفندي أنَّني أكتب عن نفسي، تفاديت المحَرَّمات الكبيرة التي تتعلق بالرءوس الكبيرة، مثل: أبي والله وجدي وعمي الشيخ محمد وخالي يحيى وزكريا وغيرهم من الذكور.

إلا أنَّ ذاكرتي اللاإرادية كانت تتسرب من بين السطور، في المساحات الخالية بين السطر والسطر، كنت أكتب على سطر وأترك سطرًا خاليًا يتسع لأي شيء. وقد سألَتْ سعاد أباها سؤالًا لم أسألْه لأبي، وهو: كيف ينفذ الله من خلال الجدران ويراها في دورة المياه؟ كانت سعاد تخجل من رفع ملابسها، تتصور أنَّ الله رجلًا يطل عليها من السقف. وقال لها أبوها إن الله ليس ذكرًا أو أنثى، وهو روح بلا جسد. كان أبوها يخاطب الروح بصيغة المؤنث، فيقول الروح لا يعلمها أحد، وبدأت سعاد تخاطب الله بصيغة المؤنث باعتباره روحًا؛ غضب أبوها، أمرها أن تشطب على صيغة المؤنث، مع ذلك كان يؤكد لها أنَّ الله روح فقط يختلف عن الإنسان الذي يملك الروح والجسد، تصورت سعاد أنَّ الإنسان يملك أكثر مما يملكه الله؛ لأن عنده الجسد أيضًا بالإضافة إلى الروح.

كانت سعاد تحب المدرسة، إلا أنها تكره المدرسين والجلوس ساعات طويلة وراء التخت الخشبي، وحفظ الآيات عن ظَهْر قَلْب دون فهم شيء، وإن نسيتْ كلمة أو أخطأتْ في حرفٍ لَسَعها المدرس بالعصا الخيزران، لم يكن يلسع زميلتها مختارة ابنة المأمور، كانت بليدةً لا تحفظ شيئًا، لكن المأمور كان عنده عساكر تضرب الناس، وأبوها لم يكن عنده عسكري واحد.

قرأ أحمد أفندي «مذكرات الطفلة سعاد»، وأعطاني صفرًا في كراسة الإنشاء، بقلمه الأحمر كتب بجوار الصفر: «التلميذة في حاجة إلى تقوية في اللغة والدين.» أخفيت الكراسة في درج سفلي بغرفتي، كنت أخشى أن تقع في يد أحدٍ خاصةً أبي. كان يهددني بإخراجي من المدرسة إن لم أحصل على درجات التفوق، كانت المدرسة — رغم أحمد أفندي والمدرسين —

هي الأمل الوحيد أمامي للانعتاق من عبودية المطبخ وجدران البيت الأربعة. كانت الكتابة هي حلم حياتي، لم أرَ نفسي في أحلامي طبيبة، رأيت نفسي كاتبة أو شاعرة أو موسيقية.

منذ هذا الصفر الأحمر تحولت الأحلام إلى كوابيس على شكل دوائر حمراء، ألسنة من اللهب، وتوقفت ذاكرتي عن العمل، أحمد أفندي لم يتوقف عن أن يطلب مِنَّا أن نكتب من الذاكرة في كراسة الإنشاء. أصبحت أعتمد على مصادر أخرى غير الذاكرة، منها كتاب المطالعة الرشيدة، والكتب المقررة في المدرسة من تأليف رجل مثل العقاد، ومكتبة أبي في البيت، وكتاب الله الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ.

لم تعد الكتابة ممتعة، لكن أحمد أفندي أصبح يعطيني درجات التفوق، أفرح بها وأفخر أمام زميلاتي، ينقلب الفرح في أعماقي إلى حزن غامض، كأنما فقدتُ شيئًا غاليًا، أغلى مما بتره الموس من جسدي، شيء في الرأس، في الخيال، وليس بين الفخذين.

كان يمكن أن أستمر على هذه الحال لأصبح مثل أغلب النساء، امرأة فاقدة الذاكرة والخيال، وربما أصبحت كاتبة تحصل على الجوائز، لقب كاتبة خبيرة، وزيرة أو وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى.

إلا أن «مذكرات الطفلة سعاد» وقعت بالصدفة في يد أمي، كانت أمي تقرأ وتكتب، جذبها العنوان فقرأت الكراسة كلها، حين عُدت من المدرسة رأيتها ترمقني بعينيها العسليتين يكسوهما بريق، صوتها في أذني له رنين الفضة: عندك موهبة يا نوال. كان ذلك في صيف عام ١٩٤٤م، مضى على هذا اليوم نصف قرن وأكثر، لكن صوت أمي يرن في أذني كأنما بالأمس، وصورتها أمامي بلحمها ودمها داخل قميص نومها الأبيض المنقوش بالزهور، أراها في الحُلم وأعلم أنها ميتة.

سمعتُ العبارة ذاتها من أبي بعد أن قرأ كراستي، إلا أن عبارة أمي كانت الأسبق والأعمق، والأكثر حرارة، ذاكرتها تشبه ذاكرتي، حين ولدتْها أمها لم تنطلق الزغاريد، أصبح وجه أبيها كظيمًا، كان يريدها ذَكرًا تحمل اسمه واسم أبيه.

كرهت أباها وأمها وجدتها وكل النسوة، لم تشأ أن تكون مثلهن راكدة في البيت، لم تحلم بالزواج أو فستان الزفاف، كانت تنام وتحلم أنها تطير في السماء تركب الخيل والطائرة، تعزف الموسيقى وتؤلف الألحان. أخرجها أبوها من المدرسة بالعصا، كانت في السادسة عشرة من عمرها، زوَّجها لأبي، عاشت حياتها ما بين المطبخ وغرفة النوم. وَلدت تسعة من الأطفال ثُمَّ ماتت في ريعان الشباب ويدها في يدي، اتسعت عيناها لحظة الموت بالدهشة الطفولية كأنما عادت إليها الذاكرة فجأة.

لولا أمي ربما ضاعت حياتي ما بين المطبخ وغرفة النوم، إلا أنها قرأت مذكرات الطفلة سعاد، أرادت أن تنقذ ابنتها بعد أن عجزت عن إنقاذ نفسها، وتعوض فيها أحلامها المجهَضة.

(٣) مذكرات فتاة غير عادية

كنت في أول الشباب حين ماتت أمي، مات أبي بعدها بشهور قليلة. قبل أن يموت بأيام قليلة قال لي: أنتِ مسئولة عن إخوتك وأخواتك من بعدي. لم يقل هذه العبارة لأخي الأكبر، أصبحتُ ربة أسرة كبيرة العدد، أقوم بالدورين الأب والأم، والرجل والمرأة، الإنفاق والرعاية والحنان.

بدأت في تلك الفترة من شتاء ١٩٥٩م أكتب سيرتي الذاتية تحت عنوان: «مذكرات فتاة غير عادية». كنت أشتغل طبيبة جراحة في مستشفى الصدر بالجيزة، وعيادتي الطبية في ميدان الجيزة، أتحمل في البيت مسئوليةً لا يتحملها الرجال، في المستشفى والعيادة أعالج الرجال والنساء، أُنقذ أرواحهم وأجسادهم من الموت، إلا أن القانون والشرع يرياني نصف رجل، لا أستطيع أن أُدليَ بشهادة في المحكمة كإنسانة كاملة، ليس لي حق الولاية على أخواتي القاصرات، لا يمكن لي السفر دون إذن مكتوب من زوجي، يملك حقوقًا لا أملكها، منها الطلاق، تعدد الزوجات، ما سُمِّي «قوامة الرجل على المرأة» رغم أنني أتحمل مسئولية الإنفاق.

رفضت كل هذا، كان معي المنطق والعدل والحق، إلا أن الشرع والدين لم يكونا معي، هنا اصطدمتُ بالمقدس، بدأت أبحث كيف نشأ هذا المقدس في التاريخ. وصلت إلى الحضارة المصرية القديمة، كانت الإلهة الأنثى رمز المعرفة والعدل والصحة، الإلهة «سخمت» نقيبة الأطباء في مصر منذ سبعة آلاف عام، «معات» هي رئيسة القضاة وإلهة العدل. لا يمكن للمرأة أن تكون قاضية اليوم.

في طفولتي سمعت أبي يقول: الجنة تحت أقدام الأمهات. أحد النصوص المقدسة. بعد موت أمي رأيتها في الحُلم تعاني الوحدة والحزن في حياتها الجديدة بالجنة. كان أبي مخلصًا لها طوال حياته، في الجنة تخلَّى عن هذا الإخلاص، تركها وحيدة وانشغل بالعذراوات والحوريات، يشف بياضهن من تحت الساق، له منهن اثنان وسبعون حورية، تعود الواحدة منهن عذراء بعد تمزق الغشاء، ليتمزق من جديد كالجلود المحروقة في النار تتجدد.

كان أبي رقيق الطبع، فهل يتحول بعد الموت إلى آلة ذكورية شديدة القسوة والغباء، لا عمل لها إلا تمزيق أغشية العذراوات؟ أمي حكت لي آلامها ليلة الزفاف، هذا الألم تعرفه كل امرأة، فكيف تتكرر هذه المأساة كل ليلة؟

ألا تكون النار أفضل للنساء من الجنة؟ وكيف تتحول أمي إلى عذراء بعد أن ولدتْ تسعة من العيال؟!

راحت «مذكرات فتاة غير عادية» إلى العدم، لم ينشرها أحد في مصر أو بيروت، لم يبقَ منها ضمن أوراقي القديمة إلا قصة قصيرة بعنوان «ليس لها مكان بالجنة»، بقيت في الدرج الخفي خمسة وثلاثين عامًا، وافقت على نشرها إحدى المجلات الأسبوعية بمصر بعد الحذف والتعديل عام ١٩٨٩م.

أمَّا «مذكرات الطفلة سعاد» فلم ينشرها أحد، بقيت كامنة في الدرج أكثر من أربعين عامًا، ثُمَّ نشرتها عام ١٩٩٠م دار جمعية تضامن المرأة العربية قبل أن تغلقها الحكومة بعام واحد.

(٤) مذكرات طبيبة

إنها رواية تأخذ شكل السيرة الذاتية، فيها بعض أجزاء من حياتي، وأجزاء أخرى من حياة زميلاتي الطبيبات وصديقاتي. نشرت الرواية على شكل حلقات في إحدى المجلات الأسبوعية في مصر عام ١٩٥٩م بعد الحذف والتعديل، ثُمَّ صدرت على شكل كتاب عام ١٩٦٠م، نشرته إحدى دور النشر في مصر بعد الحذف والتعديل أيضًا. خرج الكتاب كالطفل المبتور الأعضاء، أو الطفلة يستأصلون بمقص الرقيب أجزاء من جسدها، لم ينشغل النقاد إلا بسؤال واحد: أهي سيرة ذاتية؟ وسؤال آخر كان يشغلهم: ما علاقة الطب بالأدب؟ كيف أكتب أدبًا وأنا طبيبة؟

«مذكرات طبيبة» كتبتها بلغة مختلفة عن لغة الأدباء والأطباء، لم تندرج تحت العِلم أو الفن، وانشغل بعض النقاد باللغة فحسب، هل هي أدبية أو علمية، فصلوا الكلمات عن معناها، فصلوا العلم عن الفن كما فصلوا الطب عن الأدب. وانشغل بعض النقاد بالمعنى فقط، تساءلوا ما معنى ما كتبت؟ ولماذا يخرج عن المفاهيم الموروثة مثل إباحة المحَرَّمات؟ وقد حكيتُ عن خادمة صغيرة في الرابعة عشر من عمرها، جاءت إلى عيادتي تطلب مني إجهاضها. لم يكن للطفلة الحامل سفاحًا أن تعود إلى أبيها في القرية فيقتلها، لقد اغتصبها

في ظلمة الليل سيدُها البيه العجوز، وابنُه الشاب كان يتدرب على إثبات ذكورته معها، وطردتها سيدتها خوفًا من الفضيحة وحماية لرجل العائلة الكريمة. وكتبت في «مذكرات طبيبة» أقول: كيف لا أنقذ هذه الضحية البريئة والمجتمع يطلق سراح الجاني؟ حين دخلت الطفلةُ عيادتي تذكرت طفلةً تشبهها كانت خادمة في بيت جدي، طردَتْها خالتي فهيمة من البيت، أخذَتْها إلى القطار وعادتْ بدونها، لم أعرف هل قتلها أبوها أم ألقتْ نفسها في النيل؟ كنت طفلةً صغيرة وعجزتُ عن إنقاذها. وفتاة أخرى عجزت عن إنقاذها في القرية وأنا طبيبة بالوحدة الصحية عام ١٩٥٧م، رأيتهم ينتشلون جثتها من النيل في يوم رَمادي أغبر. وحين جاءتني تلك الخادمة إلى عيادتي قررتُ إنقاذها، كان الإجهاض ممنوعًا في القانون، وفي نقابة الأطباء نقسم عند التخرج القسَمَ الموروث منذ أبقراط: «وألَّا أُجهض حاملًا»، وطلبت تغيير القَسَم، إلغاء هذه العبارة، واستبدالها بعبارة أخرى نقسم بها نحن الأطباء «ألا نستأصل من جسد الطفل الذكر أو الطفلة الأنثى أي جزء سليم تحت اسم الختان»، ورفض أطباء النقابة طلبي بالإجماع.

كنت كأنما أمشي في حقل الألغام، والأطباء في التاريخ هم ورثة الكهنة الذين آمنوا أن الماء المقدس يشفي الأمراض، والازدواجية في القوانين هي القاعدة، والعدالة عمياء، فهذا الرجل الكبير الذي اغتصب الفتاة تسقط عنه التهمة ولا يُعاقَب إن تزوجها، هكذا يكافئ القانونُ الرجلَ المغتصِب بالزواج من البنت التي اغتصبها، ويعطيه القانونُ الحقَّ في تطليقها في أي وقت يشاء، ويخرج من الجريمة بريئًا طاهر الذَّيْل، أمَّا الفتاة فهي تروح ضحية جريمتين: الاغتصاب والزواج بالرجل الذي اعتدى عليها، ثُمَّ الخروج إلى الشارع بعد الطلاق لتمارس البغاء، أو تعود إلى الخدمة بالبيوت لتعيش الاغتصاب مرة أخرى.

كانت مهنة الطب تكشف لي أمراض المجتمع، عن مآسي النساء، خاصةً النساء الفقيرات، وأصبح القلم كالمشرط والطب كالأدب، يسعى نحو الثورة ضد الظلم، ينشد العدل أو الحرية أو الحب أو الجمال أو الفضيلة، وكلها شيء واحد، ينسكب رغم إرادتي فوق الورق على شكل كلمات لم يألفها النقاد، والمعاني أيضًا لم يألفوها، لا تتسق مع الموروث أو التراث، لا تدخل ضمن القوالب النقدية، هل هي رواية أو سيرة ذاتية؟ هل تنتمي إلى الأدب الواقعي أو غير الواقعي؟ هل هي أدب نسائي أم غير نسائي؟ ما هي علاقة النص بالمنصوص؟ ما مرجعيات النص وما علاقة الذات بالآخر؟ هذا النوع من الأسئلة التي تشغل عقول النقاد.

(٥) مذكراتي في سجن النساء

كتبت هذه السيرة الذاتية في خريف ١٩٨١م، على مدى ثلاثة أشهر قضيتها في سجن النساء بالقناطر الخيرية، في بلادنا يتمتع رئيس الدولة بقداسة الآلهة، لا يمكن أن ينقده أحد إلا بعد موته، وكان رئيس الدولة حينئذٍ قد أعلن أن الحكم في بلادنا أصبح ديموقراطيًّا، وأن المعارضة أصبحت شرعية والنقد مباح، بدأت أنقد وأنشر رأيي، فإذا بي داخل السجن.

تجربة السجن ضرورية للإبداع الأدبي، سواء كان رواية أو سيرة ذاتية، شعرًا أو نثرًا، هذه الفواصل تسقط مع سقوط الفاصل بين الجسد والروح والماضي والحاضر والزمان والمكان.

كنت أخاف السجن قبل أن أدخله، نحن لا نخاف السجن ولكننا نخاف المجهول، فإذا أصبح الموت معلومًا ربما فقدنا خوفنا منه، تصحو الذاكرة اللاإرادية حين نتحرر من الخوف.

حين نخرج من قبضة الحاضر، حين نتخلص من المشاغل اليومية ومشوِّشات العقل مثل قراءة الصحف أو متابعة خطب الرؤساء.

في السجن شعرت بحرية الخروج من قبضة الحياة اليومية ومطالبها، لم أعد مسئولة عن شيء في حياتي، أصبحت حياتي في يد الآخرين، وتفرغت أنا لكتابة سيرتي الذاتية، أصبحت أعيش كأنما خارج الكون، أطل عليه من بعيد دون أن أكون جزءًا منه، نحن في حاجة إلى هذه المسافة لنرى أنفسنا والآخرين.

لم يكن في الزنزانة ورقة وقلم، كل يوم يأتينا المسئول البوليسي مهدِّدًا: «الورقة والقلم أخطر من الطبنجة.» إلا أنني حصلت على قلم صغير من إحدى الفتيات السجينات في عنبر الدعارة المجاور لنا، وحصلت على لفة من ورق التواليت من إحدى النساء القاتلات. كنت أكتب في الليل، وفي النهار أُخفي القلم والورق داخل عُلبة صفيح تحت الأرض، كانت الكراسيُّ من الممنوعات، أجلس فوق قعر صفيحة مقلوبة وأمامي قعر صفيحة أخرى مقلوبة أجعلها مكتبًا. كان الليل طويلًا ممدودًا إلى ما لا نهاية، والقلم يمشي تلقائيًّا على الورق، تُحركه ذاكرتي اللاإرادية، عُدت في الزمان والمكان كما أشاء؛ في القرية وعمري خمس سنوات، في المدينة وعمري أربعون عامًا، جدتي تنهض من قبرها وتمشي أمامي، أبي وأمي أيضًا ينهضان من الموت، زميلاتي في المدرسة الثانوية وكلية الطب، الأقارب والقريبات، الزوج الأول والثاني أيضًا ينهضان من العدم. لم يكن الأول راضيًا عن نجاحي في الطب، كان يُغضبه أن تتفوق زوجته عليه، أمَّا الثاني فلم يكن راضيًا عن كتاباتي،

وجاءني في يوم يقول: «عليك أن تختاري؛ أنا أو كتاباتك.» وقلت: «كتاباتي.» موقف غريب لا يعيشه الرجل الأديب، وإن جاءته زوجته وقالت: «أنا أو كتاباتك.» تصبح الزوجة مجنونة أو شاذَّة في نظر الناس، وإذا اختار الرجل الأديب كتاباته فهو إنسان طبيعي مبدع، أمَّا المرأة الأديبة التي تختار كتاباتها فهي غير طبيعية أو شاذة، والمفروض أن تختار زوجها؛ فهو حياتها، لا حياة للمرأة بدون الرجل، تعيش من أجله وتموت من أجله، تُخلص له في الحياة وبعد الموت، أمَّا الرجل فهو يعيش للأعمال الكبرى في العلم أو الأدب، والمرأة في حياته تشغل جزءًا صغيرًا من أجل الترفيه عن العمل، لا يُخلص لها في حياته أو بعد موته، يندرج «عدم الإخلاص» تحت بند الرجولة والقانون والشرع.

كانت حياتي عندي أثمن من رجال العالم أجمعين، وحياتي هي أوراقي، أكتبها بلغتي وقلمي وعقلي وذاكرتي، أعشق موسيقى الكلمات، وعبيرها يشبه الزهور تتفتح في الصبح. كلمة «زواج» تثير نفوري، تعيد إلى ذاكرتي رائحة المطبخ والبصل والثوم. وقال أحد النقاد عن كلماتي إنها غير طبيعية؛ فالمفروض أن «الأنا العليا» عند المرأة ناقصة ولا يشغلها الأدب أو الثقافة.

في «مذكرات السجن» تذكرت أحداثًا تاريخيةً هزَّت الوطن، مثل ثورة ١٩٥٢م، والمؤتمر الوطني للقوى الشعبية عام ١٩٦٢م، وجدت نفسي جالسة مع الرجال في القاعة الفسيحة، فوق المنصة رئيس الجمهورية من حوله رجال الدولة، إنهم يبحثون عن تعريف للعامل الفلاح، وأنا في مقعدي أتلفت حولي في اندهاش: من هو الفلاح؟ السؤال يرنُّ في أذني غريبًا، منذ وُلِدت في القرية وأنا أعرفه، الجلباب الأجرب القديم، الوجه الضامر الممصوص، اليدان المشققتان المحروقتان بالشمس، يأكل الجبن الحادق مع المخلل، يبول الدم في البول، منذ الطفولة سمعت جدتي الفلاحة تقول: «البول الأحمر دليل الصحة والعافية.»

كل الفلاحين كان بولهم أحمر في مصر، لم يكن فلاح واحد ينجو من مرض البلهارسيا، إلا أن السؤال كان يرن في أذني: من هو الفلاح؟ الرجال في الصفوف الأمامية يتبادرون للرد أمام رئيس الدولة، في حضوره يصبح الرجال أكثر أدبًا، أكثر رقةً، صوتهم يصبح ناعمًا كأصوات النساء. وجاء دوري في الكلام، كنت أجلس في الصفوف الخلفية ضمن الشباب الصغار المجهولين، كعب حذائي متآكل قديم، وجَّهُوا إليَّ السؤال: من هو الفلاح؟ قلت: الفلاح هو الذي بوله أحمر. وقال أحد رجال الصحافة: إن مثل هذه الكلمات غير أدبية، خاصةً في حضور كبار رجال الدولة. رأيته فيما بعدُ يركب سيارة طويلة سوداء، بين شفتيه سيجار ضخم، لقد دخل مجلس الشعب ضمن الفلاحين، أمَّا أنا فقد دخل اسمي القائمة السوداء ولم يخرج منها حتى اليوم.

في «مذكرات السجن» كانت الأحداث العامة تذوب في الأحداث الخاصة، لا يمكن الفصل بين حياتي العامة وحياتي الخاصة، وهل يتغير الإنسان لمجرد خروجه من باب بيته؟! إلا أن الأحداث الخاصة كانت أكثر حميمية؛ فهي ترتبط بجسدي وعقلي وغرفة نومي وحياتي وموتي، إن أكبر حدث في حياتي هو موتي، أمَّا موت رئيس الجمهورية فهو أقل أهمية. وقال أحد النقاد: هذه كاتبة تكتب عن ذاتها ولا تنشغل بالهموم الوطنية الكبرى. وقال ناقد آخر: هذه هي الطبيعة الأنثوية؛ فالمرأة ذاتية، أمَّا الرجل فهو موضوعي.

لم يكن يشغلني هذا الفاصل المصنوع بين الذات والموضوع، أو الأنا والآخر، أو أدب المرأة وأدب الرجل، أو أدب الشرق أو أدب الغرب، كنت مشغولة بالتعبير عما يجول في خاطري دون تفكير في العواقب، وأكثر ما يرضيني هو أن تصلَني رسالة من قارئ أو قارئة تقول لي: قرأت مذكراتك في السجن وتغيرت حياتي.

(٦) أوراق حياتي

بدأت هذه السيرة الذاتية في شتاء عام ١٩٩٣م، بعد أن تجاوزت الستين من العمر، وأصبحت أعيش في المنفى، في مدينة صغيرة تشبه القرية اسمها «ديرهام» على بُعد أكثر من عشرة آلاف ميل من الوطن.

تجربة المنفى تشبه تجربة السجن، التحرر من قيود الزمان والمكان، وسقوط كثير من الأقنعة أو المحظورات والمخاوف. أكبر خوف من حياتنا هو الخوف من الموت، هربت من الموت بعيدًا عن الوطن، لقد دخل اسمي ما سُمِّيَت قائمة الموت، وهي شيء غامض يزيد غموضًا عن القائمة السوداء، إلا أنني رأيت الحراسة المسلحة أمام بيتي في إحدى الليالي الحارَّة الغبراء من شهر يونيو ١٩٩٢م، وبودي جارد يرافقني أينما ذهبت، واندهشت، كيف تتحمس الحكومة لحماية حياتي ولم يجفَّ مِداد قرارها بإغلاق الجمعية التي أنشأتُها ومجلتها «نون»؟! كنت في ذلك الوقت أكتب رواية طويلة جديدة. «شبح الموت» طرد الرواية من خيالي، تضاءلت أحداثها إلى جانب الحدث الذي يهدد حياتي، وهل في حياتنا حدث أهم من موتنا؟!

ربما يكون لموتي فوائد جمة، إلا أن أهم فائدة هي إدراكي لقيمة حياتي؛ فالحياة مثل أي شيء في حياتنا، لا ندركها إلا حين نفقدها أو نُهدَّد بفقدانها.

أغلب الناس، خاصةً النساء، لا يقدمن على كتابة السيرة الذاتية لسبب بسيط، هو عدم الإدراك لقيمة حياتهن. إن حياة الرجل أو المرأة العادية مليئة بالتجارب الثرية، إلا أننا

نتربى على احتقار ذواتنا وتجاربنا، منذ الطفولة نفقد الإحساس بقيمة حياتنا، رغم أن كل حياة لها قيمتها وأصالتها وتميزها مثل البصمة لا تتكرر وليس منها نسخة أخرى.

إن حياة الإنسان في بلادنا رخيصة، خاصةً إذا كان فلاحًا فقيرًا ليس عُضوًا في الطبقة الحاكمة، أمَّا المرأة الفقيرة فإن قيمتها تهبط إلى نصف قيمة الرجل الفقير من طبقتها، وإن كانت هذه المرأة زوجته فإن قيمتها تهبط إلى الثمن حسب الميراث في الشرع.

في المنفى أصبحت أستاذة للإبداع الأدبي في جامعة ديوك في ولاية نورث كارولينا، على الشاطئ الشرقي الجنوبي للمحيط الأطلنطي بأمريكا الشمالية، وأنا لا أحب التدريس أو المدرسين، كنت أطلب من الطلبة والطالبات أن يكتبوا عن طفولتهم، مع الكتابة تنمو الذاكرة. في أول العام كان بعضهم لا يكتب شيئًا، إحدى الطالبات — وهي أمريكية — قالت إنها لا تذكر شيئًا هامًّا في طفولتها، وليس في حياتها شيء يستحق الكتابة، وفي نهاية العام كتبت هذه الشابة — وعمرها عشرون عامًا — قطعة أدبية من السيرة الذاتية. تذكرت أنها في السادسة من عمرها تعرضت لحادث اغتصاب ليلة الكريسماس، وارتبط مولد المسيح في ذاكرتها بحادث الاغتصاب الجنسي، إلا أن الفاعل ظل مجهولًا. في الليل حين تنام يأتيها على شكل رجل له لحية طويلة يشبه بابا نويل، ولم تعرف ما هي الهدية، إلا أنه يهمس في أذنها بصوت رقيق: سوف تحملين بالمسيح ليكون ابن الله الذي ينقذ العالم من الظلم!

قرأت هذه القطعة على الطلبة والطالبات في نهاية العام، وتشجَّع الجميع، لم يعد الاغتصاب في الطفولة مبعث خزي أو عار، إنه حدثٌ عامٌّ، يحدث لأغلب الأطفال ذكورًا وإناثًا. وكان في الفصل طلبة وطالبات من القارَّات الخمس، من آسيا وأفريقيا وأوروبا وأستراليا والأمريكتين، رغم اختلاف الأديان واللغات والثقافات، إلا أن المحظورات الدينية والجنسية في الطفولة متشابهة، ينسى الأطفال حوادث طفولتهم، ظاهرة تُسَمَّى في الطب «فقدان الذاكرة عند الأطفال» أو باللغة الإنجليزية الطبية Childhood Amnesia.

ترتبط عملية الإبداع بنمو الذاكرة، يكتشف كل إنسان كنوز الحياة، وبدأت هذه اللحظات المضيئة تومض في حياتي وأنا في المنفى البعيد، مثل النجوم التي انطفأت وماتت منذ ملايين السنين، مع ذلك يصلنا ضوءها ونراها بعيوننا في السماء متألقة في الليالي غير القمرية.

وعاش معي المنفى زوجي شريف، وهو أديب مبدع في الطب والأدب والسياسة؛ لهذا السبب قضى من حياته خمسة عشر عامًا في السجن، وأعوامًا أخرى في المنفى، كُنَّا نمشي معًا على العشب الأخضر على شاطئ الأطلنطي، تعود إلينا رائحة العشب في الوطن على

ضفاف النيل؛ فنستشعر الحنين إلى الوطن والأهل، تبرز من الماضي حياتنا السابقة وتلتحم بالحاضر في نسيجٍ واحد.

وتربط السيرة الذاتية بين الخيال والواقع والحلم والحقيقة في سياق ينساب تلقائيًّا مع نمو الذاكرة اللاإرادية، إلا أن الخيال في بلادنا يرسف في القيود، خاصةً الخيال الأدبي العلمي، أو الخيال المادي غير المنفصل عن الواقع، لا يُشجَّع في بلادنا إلا الخيال الخرافي النابع من الأوهام أو الإيمان بأشياء لا وجود لها، مثل العفاريت والشياطين.

ربما تكون السيرة الذاتية أكثر صدقًا من الرواية، أو أكثر فنًّا وإبداعًا؛ لأنها تكشف عن الذات بمثل ما تكشف عن الآخر. كتبت أوراق حياتي في خمس سنوات خارج الوطن، كان القلم في يدي مثل المشرط يكشف عما تحت الجلد، تحت العضل، يصل إلى جذور الأجزاء المبتورة من الجسد أو العقل أو الذاكرة، ثُمَّ يُحلِّق بي السماء السابعة لأرى أشياءَ لم أكن أراها وأنا أمشي فوق الأرض.

تضاءلت كنوز الأرض والسماء إلى جوار ما أكتب في «أوراق حياتي»، غمرني فرح لم أشعر به منذ كنت في السابعة من عمري، أفرد ذراعيَّ وأتمطَّى، وأحتضن الكون وأمشي في غابة ديوك بين سيقان الأشجار، وشعاع الشمس يلامس وجهي دافئًا حانيًا كأصابع أمي وأنا في الخامسة من العمر.

إن أسهل وأصعب الكتابات هي السيرة الذاتية، هي السهل الممتنع، هي بديهيات الحياة، نعرفها في الطفولة، ثُمَّ نفقدها بالتدريج مع التعليم والإيمان بأن الروح يمكن أن تنفصل عن الجسد، نتخبط في شبابنا وكهولتنا مع الثنائيات المفروضة علينا منذ نشوء العبودية.

رغم كل القيود يظل الإنسان المبدع أو الإنسانة المبدعة قادرة على الإمساك بذاكرتها المفقودة، فلا شيء ينتهي تمامًا طالما أن الإنسان حي، والطفلة أو الطفل لا يموت أبدًا داخلنا، ويمكن في أواخر عمرنا أن نسمع في أعماقنا العميقة صوت عقولنا الحبيسة، هذا الصوت الذي لم ينقطع أبدًا عن الهمس لنا، فالذاكرة لا تموت كليًّا، تظل في مكان ما داخل خلايا العقل؛ ومن هنا تنشأ الرغبة الملحَّة في كتابة السيرة الذاتية؛ فهي ليست إلا محاولة لاستعادة ذكائنا الفطري حين كُنَّا في السابعة من العمر.

وتنبع متعة الكتابة من هذا الإحساس الجديد، أننا وحدة كاملة مع أجسامنا وعقولنا وأرواحنا، نعيش الطفولة مع شبابنا، مع كهولتنا، يلتحم الحاضر بالماضي والزمان بالمكان مع وجودنا هنا والآن في هذه اللحظة الممدودة إلى الأبد.

كسر الحدود[1]

منذ وُلدتُ وأنا أسمع الناس من حولي يقولون: لا تتجاوزي الحدود!

أصبح بيني وبين كلمة «الحدود» عداء، فما هي هذه الحدود؟ ومن يضعها؟ سؤال كان يراودني دائمًا في طفولتي، وما زال حتى اليوم يراودني كلما قال لي أحد: لا تتجاوزي الحدود!

وأردت مرة أن أكتب قصيدة شعر وأنا طفلة، لكن جدي (والد أمي) رمقني بنظرة ساخرة كأنما الأطفال بلا عقول وليس في قدرتهم كتابة الشعر، رغم أن الإبداع شعرًا كان أو موسيقى أو رسمًا أو أدبًا أو أي نوع آخر من الإبداع يبدأ في الطفولة.

لكن الناس يضعون «الحدود» لما يفعله الطفل أو الطفلة؛ لهذا كرهت كلمة «الحدود» في طفولتي، وتولدت في أعماقي العميقة رغبة ملحة لتجاوز هذه الحدود، وهي رغبة طبيعية في كل طفل وطفلة، لكن الناس تصورها كأنما هي رغبة غير طبيعية.

من أجل أن تظل الطفلة أو الطفل طبيعيًّا يحظى برضا الآخرين واقتناعهم بطبيعيته، فإنه يلزم هذه الحدود التي يضعها الآخرون أمامه؛ وبالتالي يفقد الإبداع.

«أنا» والآخرون، أو «أنا» والآخر، مشكلة تواجه الإنسان المبدع منذ الطفولة، وكل إنسان يُولَد مُبدِعًا، ويواجه كل إنسان هذه المشكلة، علاقته بالعالم الخارجي.

حتى هذه اللحظة أنا أواجه هذه المشكلة، إن العالم من حولي يَموج بالصراعات، كالغابة يأكل الكبير الصغير، من يملك السلاح النووي تكون له المكانة والكلمة العليا.

---

[1] القاهرة، الجريدة اليومية «العالم اليوم»، ص١٤، السبت ١١ يناير ١٩٩٢م.

من يملك المال والمنصب أو السلطة تكون له الغلبة على من يملك العطف والرقة والإنسانية.

العالم الخارجي يُغضبني، وكلما وعَيْت العالم الخارجي ووعَيْت قيمه وقوانينه زاد غضبي.

فالإنسان الطبيعي يغضب حين يرى الظلم، لكن هذا الغضب الطبيعي أصبح كأنما هو غير طبيعي، كأنما الظلم هو الطبيعي وعلينا أن نتقبلَه بسرور ورضا، أو على الأقل الصمت وعدم الاحتجاج، لكن الصمت موت، والاحتجاج على الظلم أولى الخطوات نحو الإبداع.

الطفل الذي يرى أمامه الخادمة الصغيرة في مثل عمره تُكوَى بالنار أو تُضرَب بالكرباج بيد أبيه وأمه (لأنها كسرت كوبًا)، ويظل صامتًا راضيًا لا يتألم ولا يحتج، تموت فيه بذرة الإبداع، ويتعود أن يرى الظلم ويسكت، بل يشارك فيه.

الإبداع هو الجمال، والعدل هو الجمال في قمة مظاهره الإنسانية والاجتماعية.

الإبداع كالبذرة في الأرض، تحتاج إلى الري والماء، هذا الماء هو حب العدل، أي حب الجمال والحرية، لا يوجد جمال بغير عدل أو حرية، مبدأ إنساني أولي.

«الحرية» كلمة إنسانية جميلة، تغنى بها الشعراء والمبدعون والفنانون، الحرية هي نقيض القيود أو الحدود.

كل إنسان يُولَد حُرًّا، وكل إنسانة تُولَد حُرَّة، هذه حقيقة طبيعية، لكن هناك حقيقة أخرى طبيعية، هي أن الإنسان يعيش داخل مجتمع فيه «آخرون»، وكل فرد من هؤلاء الآخرين له الحرية نفسها التي أريدها لنفسي.

أنا والآخر نستحق الحرية والعدل والجمال، فلماذا أعتدي على حرية الآخرين؟ ولماذا يعتدي الآخرون على حريتي؟

هل الاعتداء على حرية الآخرين وحقوقهم الإنسانية جزء من الطبيعة البشرية؟ هل الظلم طبيعة الإنسان أم أنه نظام اجتماعي؟!

سؤال تاريخي قديم يراود كل إنسان مبدع أو كل إنسانة مبدعة.

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال دون قراءة التاريخ البشري، ومحاولة الوصول إلى الجذور الأولى التي نشأ منه الظلم أو العبودية.

لكن قراءة التاريخ أو إعادة قراءة التاريخ إلى إبداع أو إحساس جديد يلتقط الحقائق ويتجاوز حدود التاريخ الرسمي المحدود.

عصر المجهول[1]

الإبداع إحساس جديد يبدأ غامضًا، رغبة ملحة في تجاوز الحدود القديمة إلى آفاق من الحياة أوسع وأرحب وأكثر جمالًا وحريةً وعدلًا.

لكن عبارة «لا تتجاوزي الحدود» تصاحبني منذ الولادة حتى الموت، قد أخضع لهذه العبارة وأَلْزم الدار والجدران الأربع، أجلس في مقعدي وأُغلق عيني وأذني عما يحدث في العالم الخارجي.

إنه نوع من الراحة لا شك، يصاحب الإنسان حين يتخلى عن المسئولية ويقول لنفسه: وأنا مالي؟ فليذهب العالم إلى الحرب أو للنهاية، وليُقتَل الآلاف ويجوع الآلاف، إنها ليست مسئوليتي، لست مسئولًا عن العالم!

قلت لنفسي ذلك، وأغلقت نفسي عن العالم، لم أعد أتابع الأخبار أو الإذاعات العالمية أو المحلية، شعرت بنوع من الراحة المؤقتة، لم أعد أسمع أخبار الحروب والكوارث والمجاعات والجرائم والقتل والاعتداءات على أرض الغير وحقوق الآخرين.

كلما كنت أتابع هذه الأخبار يزداد يقيني بأننا نعيش في غابة كبرى، يحكمها قانون عالمي يفتقد العدالة في عالم قبيح. هناك ارتباط وثيق بين العدل والجمال أو بين الظلم والقبح، إنه الترابط بين الإبداع والرغبة في التعبير عن هذا الظلم أو هذا القبح لتصبح الحياة أكثر جمالًا أو أقل قبحًا.

---

[1] الجريدة اليومية «العالم اليوم»، ص١٤، ١٩ يناير ١٩٩٢م.

ومن هنا ارتباط الإبداع بحرية التعبير، الإبداع يعبر عن نفسه بالضرورة، فإذا فرضنا عليه الصمت مات.

لهذا لم أَلْزم داري طويلًا؛ فالصمت قاتل للنفس الإنسانية، لا يمكن أن يعيش الإنسان وحيدًا داخل جدران أربعة، لا بد أن يخرج إلى العالم وإن كان قبيحًا، لا بد أن يسمع الأخبار والإذاعات وإن كانت مؤلمة.

ثُمَّ من أين يأتي الإبداع إذا أغلقتُ عيني وأذني عما يحدث حولي في العالم الكبير؟ هل يمكن لهؤلاء الذين نسميهم مبدعين أو فنانين أو أدباء أو أديبات؟ هل يمكن أن يعيشوا في عزلة عن الحياة؟

هل يمكن مثلًا أن تقوم الحرب العالمية الثالثة دون أن يتأثر هؤلاء المبدعون والمبدعات؟

لقد غيرت الحرب العالمية الأولى ثُمَّ الثانية كثيرًا من القيم الإبداعية، بما فيها الفن والعلم والفلسفة والتاريخ وكل مجالات المعرفة، ومنها معرفة النفس أو علم النفس.

لقد قلبت الثورة الرأسمالية في أوروبا كثيرًا من قيم العصور الوسطى رأسًا على عَقِب.

وفي جامعات أوروبا اليوم مواد علمية جديدة تقوم على محاولة إنسانية جديدة لإعادة فهم وتفسير الفلسفات والنظريات التقليدية وتطويرها بحيث تكون وسيلة لتحرير الإنسان وليست وسيلة للقهر والاستعباد.

ويتبنى هذا الاتجاه الجديد بعض الحركات في أوروبا مثل الخضر والشباب والنساء والسود وغيرهم.

كذلك أحدثت الثورة الاشتراكية في روسيا هزة في العالم شرقًا وغربًا، نتج عنها الكثير من التغيير في القيم الاجتماعية والإبداعية.

وأحدثت حرب الخليج هزة في العالم وفي بلادنا العربية لا يمكن أن ينجوَ من آثارها أيُّ إنسان مبدع. كذلك الهزة التي صاحبت انهيار الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية، وهذه الأزمات الاقتصادية الحادة التي تواجه دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وتُنذِر بانهيار الإمبراطوريات الرأسمالية أيضًا.

نحن نعيش عصر التغيرات الكبرى، وهو عصر يبدو للكثيرين مُخيفًا مُرعِبًا يقود إلى المجهول، لكنه عصر الإبداعات الكبرى أيضًا إلى تميز فترات الانتقال من عصر إلى عصر أو من حضارة إلى حضارة.

لذة الإبداع[1]

الإبداع مرآة تعكس حياة البشر؛ لذلك ينعكس العالم بما فيه من تغيرات أو حروب أو ثورات في الأعمال الإبداعية على اختلاف أنواعها.

إن قصيدة من الشعر ضد الحرب مثلًا قد تكون أقوى أثرًا في نفوس الناس من أي شيء آخر. وفي تاريخ الفن نماذج إبداعية هزَّت وجدان البشر بأكثر ما تفعل الزلازل.

وهناك أعمال إبداعية بقيت رغم زوال العهود التي ظهرت فيها، وكم من ألحان باقية يتغنى بها الناس وإن ضاع اسم مؤلفها مع الزمن.

وكم من أساطير وقصص باقية رغم مرور القرون، وأعمال فنية إبداعية وتماثيل منحوتة بقيت وإن مات أصحابها. في الحضارة المصرية القديمة كان هناك فلاسفة وفنانون مبدعون، نساءً ورجالًا، وما زال الفن المصري القديم موجودًا، يراه الناس بعيونهم، ويأتون إليه من مختلف القارات، يتحملون مشاقَّ السفر، ينفقون الأموال من أجل رؤيته.

لماذا يسعى الإنسان لرؤية الفن والإبداع؟ لماذا نسعى لسماع قطعة موسيقى أو قراءة رواية أو رؤية نحت في الحجر؟!

سؤال كان يراودني دائمًا منذ حياتي المبكرة، كنت أدرك أنني حين أسمع الموسيقى أو أقرأ رواية جميلة أشعر بالمتعة.

ومن أجل هذه المتعة يسعى الإنسان إلى الأعمال الإبداعية، لكن لماذا هذه المتعة؟

وماذا في الإبداع يثير هذه المتعة في نفوس الناس؟

[1] الجريدة اليومية «العالم اليوم»، ص١٤، ٢٧ يناير ١٩٩٢م.

حين قرأت رواية «الأيام» لطه حسين وأنا تلميذة صغيرة بكيت من الألم، لكني رغم الألم أحسست بمتعة، خليط غريب من الأحاسيس يفجره الإبداع في النفس البشرية.

هذه اللذة الممزوجة بالألم هي السر في بقاء الفن، والسر في قوته وتأثيره على البشر وقدرته على تغيير الإنسان والعالم أيضًا.

الإبداع قادر على تجاوز حدود الواقع إلى واقع آخر أكثر رحابة، وأهم ما يتجاوزه الإبداع هو «القيم» الراسخة في النفوس والمتوارثة عبر الأجيال.

يتجاوز الإبداع حدود القيم السائدة، ويخلق قيمًا جديدةً أكثر إنسانية وعدالة؛ ولهذا يبدو الإبداع مخيفًا.

ولهذا قد يُحكَم على المبدعين أحيانًا بالموت أو السجن أو النفي، لكن ما إن ينقضي ذلك الزمن أو العهد حتى يدركَ الناس قيمة ذلك العمل الإبداعي، ويُقام تمثال مُجسَّم للفنان المبدع على حين يموت المسئول الذي أصدر الحكم ضده.

يلعب الإبداع دورًا في تشكيل القيم التي تُبنى عليها الحضارة الجديدة التي لم تُولَد بعد.

ونحن نعيش هذه الفترة الانتقالية بين القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين بين حضارتين، واحدة في طريقها إلى الزوال والأخرى قادمة. فترة انتقالية صعبة مخيفة، لكنها هي أكثر الفترات ملاءمة للإبداع؛ فالإبداع لا يحدث إلا في هذه اللحظة الحرجة، لحظة الانتظار بين موت القديم وولادة الجديد، لحظة أشبه بالعدم، مُعلَّقة بين الموت والولادة، متأرجحة بين المعلوم والمجهول.

لحظة يكون فيها الإنسان وحده تمامًا، يواجه نفسه، يستلهم عقله الواعي وغير الواعي، يعتمد على نفسه تمامًا فيُبدع شيئًا جديدًا، ويلعب دوره في تشكيل المستقبل، أو يسقط مع الساقطين في خِضَم الخوف والتشبث بذيل الماضي كما يتشبث الطفل بذيل أمه لا يعرف كيف يمشي وحده.

الإبداع استقلال مبكر واعتماد منذ الطفولة على النفس وليس على الآخرين.

حرية التعبير تستيقظ[1]

ظاهرة طيبة أن يتحمس لحرية التعبير عدد من الصحفيين في بلادنا بمناسبة صدور حكم بالحبس ٨ سنوات على كاتب روائي.

لكن لماذا لم يحدث ذلك الحماس إلا بعد أن أُذيع الخبر في الإذاعة البريطانية، ثُمَّ انتشر عبر موجات الإذاعات الخارجية ووكالات الأنباء.

كيف عمَّ الصمت عامين تقريبًا منذ نشر أحمد بهجت مقاله في جريدة الأهرام ٣/٣/١٩٩٠م يتهم مؤلف الرواية بالإلحاد ويطلب تقديمه للنيابة العامة.

كان المفروض أن تحدث الضجة الصحفية في هذا الوقت، ويتصدى لأحمد بهجت كلُّ هؤلاء المتكلمين الآن عن حرية التعبير، لكن أحدًا لم يكتب. أرسلت ردًّا إلى جريدة الأهرام لم يُنشَر، قلت فيه: إن عمل الصحفي ليس استدعاء النيابة للمؤلفين، بل الدفاع عن حرية التعبير.

ولم يُدهِشني مثل هذا الصمت؛ فهو مألوف تمامًا، ومن النادر أن يدخل أحد في معركة ضد صحفي معروف بالأهرام من أجل كاتب غير معروف ليس له مؤسسة ولا رابطة بالسلطة.

وفي عام ١٩٩٠م طلبتني محكمة أمن الدولة بمصر القديمة لأُدليَ بشهادتي في تلك الرواية، وكان المؤلف علاء حامد قد طلب شهادتي بعد أن أرسل إليَّ نسختين دون أن أعرفه شخصيًّا ودون أن نلتقي. وقرأت الرواية، وذهبت إلى المحكمة وأدليت بشهادتي في

[1] جريدة الأهالي، ص١٠، ٨ يناير ١٩٩٢م.

صف المؤلف وحقه الكامل في حرية التعبير، خاصةً في الأعمال الأدبية الخيالية التي لا يجب الحكم عليها بالمقاييس الدينية، وليس من حق الأزهر الحكم على الأعمال الفنية والأدبية، وأن الرد على مثل هذا الكتاب يكون بكتاب آخر وليس بالنيابة.

لكن بعد عامين من الصمت على هذا الموضوع فوجئت بهذه الضجة الصحفية الآن، بعد أن أُذيع الخبر في الإذاعة البريطانية وغيرها من الموجات الأثيرية، هب الكثيرون وخرجوا من الصمت، وكتبوا دفاعًا عن حرية التعبير. وهكذا أصبح على كل من يتعرض للظلم في بلادنا أو يصدر ضده قرار جائر أن يلجأ إلى الإذاعة البريطانية أو صوت أمريكا حتى تنتبه إليه الصحافة في بلادنا. وقد قرأت لأحد الصحفيين الحكوميين يندد بهذا القرار الذي يحبس مؤلِّفًا ٨ سنوات بسبب رواية بلا قيمة ومؤلف بلا قيمة، وأن مثل هذا القرار يُسيء إلى سمعة الدولة والحكومة في الخارج، ولا بد من إلغائه ليحتفظ النظام المصري بصورته المشرقة عن الديمقراطية في الخارج.

كأنما الذي يهم فقط هو سمعة الحكومة لدى الأجانب، وليس هذا الظلم والحبس ٨ سنوات لمؤلف كاتب، بصرف النظر عن قيمته الأدبية.

هل الكاتب البعيد عن الأضواء والسلطة والشلل الصحفية يصبح كاتبًا بلا قيمة؟ وهل الدفاع عن سمعة الحكومة في الخارج يتطلب إهانة كاتب بهذا الشكل لمجرد أنه بلا سلطة ولا يملك الرد في هذه الأزمة التي يتعرض فيها للحبس؟

لقد أصبحت مأساة هذا المؤلف مضاعفة، وبالرغم من أنني لا أعرفه شخصيًّا، ولم ألتقِ به أبدًا، إلا أنني أحترم قدرته على الصمود أمام كل هذا.

رؤية نقدية لفن محمود سعيد[1]

هذه رؤية مختلفة لفن محمود سعيد من وجهة نظر المرأة التي يُفرض عليها «العري» أحيانًا باسم الحداثة والفن وكسر المحَرَّمات وإطلاق حرية الغريزة، ويُفرض عليها «التغطية» أحيانًا باسم الأصالة والأخلاق والقيم والأعراف واحترام التراث الديني والهوية.

بين هذين الفريقين تسقط المرأة ضحية، فهي إمَّا جسد يُعرَّى لتبحلق فيه عين الفنان، وإمَّا جسد يُغطَّى حتى لا يراه الرجل، كلاهما وجهان لعملة واحدة، أن المرأة فقط هي الجسد.

هذه الإهانة (لفصل روح المرأة وعقلها عن جسدها) لا يشعر بها الرجل ولا يعرفها؛ لأنها إهانة بعيدة عن جسده وعن روحه، سواء كان من المدافعين عن الحداثة والفن وحرية الغريزة أو المدافعين عن الأصالة والقيم والأخلاق والدين.

هؤلاء جميعًا قد يختلفون وقد يتفقون، إلا أن شيئًا واحدًا يجمعهم، هو تحويل المرأة إلى أداة للفن والثقافة وليست شريكًا في صنع الفن والثقافة.

لهذا لم يكن غريبًا أن ينعقد في القاهرة مؤتمر كبير عن مستقبل الثقافة العربية، فلا توجَّه الدعوة إلى امرأة واحدة لتجلس على المنصة مع الرجال وتتحدث عن وجهة نظرها في مستقبل الثقافة في بلادنا.

الرجال المدافعون عن حرية «عري» المرأة أمام عين الفنان لا يريدون سماع رأي المرأة في الثقافة والفن؛ لأن المرأة في نظرهم ليست إلا «موديلًا» يتعرى من أجل حملقة الرجل.

---

[1] القاهرة، ١٩٩٠م.

المرأة ليست الجسد والروح والعقل في كيان إنساني واحد قادر على الجلوس فوق المنصة مع الرجل والكلام في الثقافة أو الفن أو السياسة أو غيرها.

المرأة عندهم موديل صامت ساكن تمامًا، بشرط أن يكون عاريًا أيضًا، الصمت والعري والسكون الكامل هي الموديل المثالي أمام محمود سعيد.

هنا حرية المرأة «في ألا تكون عارية» مفقودة، حريتها أيضًا في ألا تكون متوارية في الأيقونة القبطية أو مختزلة في الفن الإسلامي إلى خطوط تجريدية على الأواني والنقوش أو مجرد جسد يُغطيه الحجاب.

أنا لم أجد نفسي ولا أمي ولا جدتي في لوحات محمود سعيد، لم أجد بنات البلد الشغالات في البيوت والحقول والمصانع والمدارس والمستشفيات.

وجدت نساء عاريات مثل جواري هارون الرشيد جالسات في وضع ساكن صامت أمام المصور.

أنا بالطبع لست ضد العُري في الرسم والفن والعلم والطب، لست ضد العري إذا كان العري من أجل مزيد من الكشف والصدق والحرية والعدل، ولكن في هذه الحالة لماذا لا يحدث العري إلا للنساء الشابات؟ لماذا لا يحدث العري للرجال والأطفال والعجائز؟

يقولون إن جسد الرجل ليس جميلًا، أو عري الرجل لا علاقة له بالحرية وليس مُحرِّضًا لتفجير المشاعر؛ لأن المشاعر التي ستنفجر هنا هي مشاعر المرأة، والمفروض ألا نفجِّر بالفن إلا مشاعر الرجال.

كما أن الجميل والقبيح لا علاقة له بجنس الجسد، وهناك شعوب وجدت في جسد الرجل العاري فنًّا جميلًا رفيعًا كما وجدت في جسد المرأة العاري فنًّا جميلًا رفيعًا، يأتي رقي الفن من النظرة العادلة لجسد المرأة والرجل؛ فالجمال هو العدل والفضيلة هي العدل.

ولماذا هذه النظرة غير المحترمة لهؤلاء العاريات؟ يستمتع الرجل بالعري لإشعال مشاعره، ثُمَّ يلفظه كما يلفظ امرأةَ الهوى بعد زوال الشهوة.

يقولون عن محمود سعيد إنه فنان حسي، يصور الأجسام النُّحاسية وأشعة الحرارة التي تنبعث منها كأنها شمس داخلية تضيئها. هذا جميل، إنه يشرك الحواسَّ في الاختراق بصور العين والوجدان لسطح اللوحة والنفاذ إلى الحقائق الباطنة. هذا جميل، نحن نتحدث هنا عن حرية الفن في إثارة الحواس، والارتفاع بالجسد العاري إلى قمة الفضيلة، إنها محاولة لإعادة الروح إلى الجسد، إلى تجاوز الواقع المحدود، إلى الارتفاع على فئات الأيام لنعيش امتدادات بعيدة.

والسؤال هو: ألا يمكن للمرأة الموديل العارية أن تحلم وتتجاوز واقعها المحدود وهي مرتدية ملابسها؟! وهل العري الجسدي للمرأة هو شرط ارتفاع الرجل عن واقعه المحدود؟ ألا يمكن للمرأة غير العارية أن تشغل خيال الرجل وتفجِّر مشاعره؟ إن الرجل غير العاري يمكنه تفجير مشاعر المرأة، ما علاقة الملابس بتفجير المشاعر؟!

نحن هنا أمام مشكلة تاريخية منذ نشوء العبودية وانفصال الجسد عن الروح فيما يخص المرأة (الروح تشمل العقل أيضًا) والرجل أيضًا، حين يلتحم جسد المرأة بروحها تصبح الملابس ثانوية لا علاقة لها بالحرية الفنية أو الجسدية؛ فالمرأة الفنانة الإنسانة لا تفرض على الرجل العري الجسدي، بل ترسمه وهو بطل يحارب، وهو يزرع، وهو يتكلم، وهو يتعرى أيضًا إذا كان العُري مطلوبًا.

يقولون: الثلاثينيات كانت أخصب فترات حياة محمود سعيد، أخذ في هذه الفترة يتعقب التفاصيل المثيرة في جسد الأنثى العاري، وينقل إلينا نبض الجسد الأنثوي الفائر بالرغبة. أي رغبة؟ ورغبة من؟

هل كان العري رغبة الموديل أم رغبة الفنان؟ هل سمعنا الموديل تتحدث عن رغبتها أم جلست صامتة ساكنة تمامًا؟! يقولون: أراد محمود سعيد أن يهرب من النساء الأرستقراطيات الباردات المزيفات إلى بنات البلد الساخنات الصادقات في مشاعرهن. فهل هذا صحيح؟ هل لوحات محمود سعيد تعبر عن بنت البلد؟ أي بنت بلد هذه التي تكشف عن نهدَيْها وفخذَيْها تحت الملاية اللفة؟ أهي من جواري هارون الرشيد؟ وهل هؤلاء الجواري والغواني هن بنات البلد اللائي يهرب إليهن محمود سعيد؟!

هذه أيضًا مشكلة ناتجة عن هروب الفن الأرستقراطي من الزوجة الباردة المحترمة إلى نساء فقيرات ساخنات غير محترمات. هذا الانقسام مفروض على النساء، فلا يمكن للمرأة أن تكون ساخنة ومحترمة. وهنا السؤال: لماذا لم يرسم محمود المرأة المطحونة في زواجها وحقلها وفقرها وقدمَيْها المشققتين ويدَيْها الخشنتَيْن؟ ألا يمكن للمرأة العارية الفقيرة أن تكون ساخنة جنسيًّا إلا إذا تفرغت لمهنة الهوى في بيوت اللذة؟!

لوحات محمود سعيد لا تكشف انحيازه للنساء بنات البلد، بل لفئة صغيرة من النساء الخادمات الجواري والغواني، إنه يتطلع سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا إلى النساء من الطبقة الحاكمة العليا، لكنه يتطلع جنسيًّا وحسيًّا لنساء الطبقة الأدنى.

يقولون: اكتشف محمود سعيد تناقض بنت البلد؛ تجمع بين الصفاء الروحي والاشتعال الجنسي، بين المرح الباسم والحزن القاتم؛ فهل هذا التناقض لا يسري على

النساء من الطبقة العليا وعلى الرجال أيضًا؟ هذا الانفصام بين قدسية الروح الباردة وبين دنس الجسد الساخن؟!

يصور محمود سعيد جسد المرأة العارية تنتظر الرجل البطل كما كانت مصر تنتظر سعد زغلول، وكما انتظرتْ إيزيس أزوريس.

هنا يقع محمود سعيد فيما وقع فيه توفيق الحكيم حين كتب مسرحية إيزيس، وصورها مجرد زوجة تنتظر زوجها، مثل شهرزاد ومثل بنيلوب اليونانية، كل منهن لا يشغلها في حياتها إلا زوجها، انتظار عودة زوجها إليها، الانتظار في سكون وصمت تام الموديل الجالسة أمام الفنان.

«حميدة» الخادمة السمراء الفقيرة هي الموديل المثالي في حياة الفنان الأرستقراطي، شهوانية غليظة الشفاه، سمراء بحرقة الشمس، عيناها شاردتان بعيدًا عنه حزينتان، تجترُّ حزنَها وحدَها، فهو لا يعرف هذا الحزن العميق داخلَ المرأة، الحزن لأنها تجلس عارية سلبية مطيعة تنتظر أوامره؛ فهو يشتهي هذا الحزن، يريدها متألمة موجوعة مذبوحة بالفقر والقهر، يثبتها في هذا الوضع، يحملق فيها، تشتد شهوته باشتداد حزنها وألمها، إنها سادية الرجل، لا يدركها، يخدع نفسه، يتصور أنه متعاطف مع بنت البلد الفقيرة، هو في الحقيقة يستغلها، يحوِّلها إلى أداة لفنِّه وإشباع نزواته.

هذا هو الفن الذكوري الطبقي، جزء من الثقافة الطبقية الأبوية السائدة، تجعل الرجل هو الفنان الخلاق، يرسم، يبدع، يفكر، المرأة هي المخلوقة الجسد العاري الموضوع بلا ذات.

إنها أزمة الثقافة تقوم على هذه الازدواجية، تقوم على رؤية الرجل، لكن رؤية المرأة غائبة؛ فالرجل يرى المرأة، يحملق في جسدها العاري، المرأة لا تحملق في جسد الرجل وإن كان مرتديًا ملابسه كاملة.

إن تعرية جسد المرأة فنيًّا واجتماعيًّا لا يشكل تحديًا حقيقيًّا للتخلف الثقافي، بل هو أحد أسباب التخلف الثقافي والفني؛ لأن الفلسفة وراءه متخلفة، فلسفة طبقية أبوية، يسود فيها فكر الطبقة الأعلى والجنس الأعلى من الذكور.

ما يحدث في الثقافة والفن اليوم هو هذه الرؤية الذكورية الأحادية للأشياء، المتجسدة في تعرية جسد المرأة (عند التيار الحداثي)، أو تغطية جسد المرأة (عند التيار الأصولي الديني)، كلاهما يقتل روح المرأة وعقلها من أجل التركيز على جسدها عاريًا أو مُحجَّبًا.

كلاهما ضارٌّ بالثقافة والفن، كلاهما في حاجة إلى تعرية حتى نعرف عورات الثقافة السائدة وكيف نعالجها.

أولى خطوات العلاج هو تقديم رؤًى نقدية جديدة قادرة على إدراك هذه التناقضات وكشف السلبيات في تيار الحداثة والتيار الديني الأصولي، وكشف التشابه بينهما رغم الاختلاف.

إلا أن هذه الرؤى المغايرة قليلة نادرة أو غير موجودة؛ فالمرأة في بلادنا التي نالت قدرًا من التعليم قد تبنَّت فلسفة الرجل ورؤيته للفن، لم تعد قادرة أن تقدم فلسفة جديدة؛ وبالتالي فنًّا جديدًا إلا في حالات نادرة.

الفن في مواجهة السياسة[1]

مئات الوجوه العربية والإنجليزية تملأ القاعة الكبيرة في جامعة لندن (كلية الدراسات الشرقية والأفريقية)، رجال ونساء من فلسطين (ومن بلاد عربية أخرى)، هربوا بأرواحهم وأطفالهم، تاركين الأب العجوز أو الأم. كبر الأطفال وأنجبوا، وأصبح الشباب كهولًا. في قلوبهم حنين موجِع ودموع لم تسقط، بحَّة في الصدر كالصوت المشروخ لا تخرج، عيونهم مرفوعة تحدق. فوق خشبة المسرح تجسَّدت المأساة، واللحن الفلسطيني القديم يغنيه محمد البكري، يملأ الجو بعبق التاريخ. أغنية شعبية كان الأطفال في حيفا يغنُّونها قبلَ عام ٤٨ حين كان المؤلف طفلًا.

لا زالوا يحفظون الأغنية عن ظَهْر قَلْب. تدوِّي القاعة بصوت غنائهم مع اللحن الراقص، ثُمَّ يدب الصمت فجأة، يكتشفون أنهم في لندن وليسوا في حيفا، وأنهم كهول وليسوا أطفالًا. يدب الصمت داخل الصمت، لا أسمع فيه إلا الأنفاس، وخفقة قلب تعانق الصمت كأنه الأم أو الأب الغائب في الوطن والبيت القديم وذكريات الطفولة ورائحة الهواء، والاسم المحفور على جذع الشجرة.

ويبدأ محمد بكري الحكاية: سعيد ابن النحس المتشائل، يتشاءم ويتفاءل، وينهزم وينتصر، ويحب ويتزوج، ويلد، ويضعف، ويفرح ويحزن، لكنه أبدًا لا يترك مكانه، وأبدًا لا يكفُّ عن الضحك حتى على نفسه في قمة أزمته.

---

[1] جريدة الأهرام، ص١١، ٢٤/ ٩/ ١٩٨٧م.

أجمل ما في الفن أنه يُضحكنا على أنفسنا قبل أن يُضحِكنا على الآخرين، وإذا ضحك الإنسان على نفسه فارقه الخوف من نفسه، اكتسب قوة جديدة في مواجهة أعدائه. كنت أجلس ومن حولي يرنُّ الضحك بصوت فيه شجاعة جديدة وإعجاب بالإنسان، حتى في لحظة سقوطه.

وإلى جواري، المؤلف جالسًا يضحك هو الآخر كأنما يسمع كلامًا جديدًا كتبه غيرُه. وجهه العريض الأسمر مرفوع، وعيناه الكبيرتان متسعتان، وفي اتساعهما دهشة المؤلف بعمله. وتلتقي عيون الممثل بعيون المؤلف لحظة ارتفاع الأكف، مئات الأكف تصفق، والفرح في العيون يلمع، انتصار الفن على أكاذيب السياسة.

جاءتني الدعوة من النادي العربي في لندن لأشهد المسرحية (١٠/ ٩/ ١٩٨٧م) عن رواية «المتشائل» للمؤلف الفلسطيني «إميل حبيبي»، مشهد واحد لا يتغير وممثل واحد ... محمد بكري، الشاب الفلسطيني لعب الدور في فيلم كوستا جافرا «حناك»، محمد بكري الممثل المسرحي يتفوق كثيرًا على «محمد بكري» الممثل السينمائي.

ساعتان نحدق فيه وهو يتحرك فوق خشبة مسرح خالية إلا من سرير كالكنبة ومقشة رز لها يد خشبية طويلة. تحولت هذه الأشياء إلى كائنات حية تتبادل معه الأدوار، يد المقشة أصبحت زوجته الحبيبة تشاركه السرير.

لم يكن محمد بكري يمثل، كان يعيش أمامَنا الأزمة وراء الأزمة، عاشها الإنسان الفلسطيني البسيط، لم يهرب، وظل في الوطن موجودًا وحيًّا جيلًا بعد جيل، لا يستطيع الاحتلال إزالته من الوجود.

إننا نعرف الكثير عن الفلسطينيين خارج فلسطين، لكننا لا نكاد نعرف شيئًا عن الفلسطينيين داخل فلسطين المحتلة، وخاصةً هذا الإنسان الفقير الذي اضطرته الظروف أن يعمل تحت حكم الاحتلال وأن يحمل بطاقة هُوية عليها أختام العدو.

كيف استطاع هذا الإنسان الريفي البسيط الاحتفاظ بهُويته الفلسطينية العربية مع احتفاظه في جيبه بهُوية العدو؟

كيف استطاع أن يلد أطفالًا ثوّارًا لا يعرفون اليأس وهو «سعيد ابن النحس؟» وأضحكنا التناقض حتى انقلب اليأس أملًا، والضعف قوةً، والحزن فرحًا.

وفي نهاية المسرحية عانقتُ الممثل والمؤلف معًا، ومئات الأذرع تمتد لتعانقهما معي. الممثل شاب طويل نحيل كالشجرة المعتدلة الفتية، والمؤلف كهل مربع عريض كالمبنى القديم المتين.

وقلت «لإميل حبيبي»: هذا عمل فني بديع، يوقظ الحمِيَّة ويُذكِّر بالقضية، فلماذا لا تعرضونه في مصر؟ قال: نحن نأتي إذا تلقينا الدعوة، لكن هناك مشكلة؛ فأنا أحمل جوازَ سفرٍ إسرائيليًّا.

قلت: لكنك فلسطيني عربي، والعبرة ليست ماذا تحمل في جيبك من بطاقة هُوية، ولكن العبرة ماذا تفعل من أجل وطنك. إن الفلسطيني الذي ظل فوق أرضه رغم الاحتلال، وظل يقاوم من الداخل، أقوى من الفلسطيني الذي فر إلى الخارج. لو أن جميع الفلسطينيين بقوا في ديارهم وأرضهم لما كان هناك احتلال.

لماذا لا ندعو إميل حبيبي ومحمد بكري ومسرحية المتشائل إلى مصر؟ لقد آن الأوان لأن يلعب الفن الصادق دوره السياسي بشجاعة.

المرأة والنقد الأدبي[1]

تعاني المرأة الكاتبة أو الأديبة من تجاهل بعض النقاد لأعمالها، هذه ظاهرة ليست خاصة بالمرأة العربية في بلادنا، ولكنها ظاهرة عالمية، تبدو واضحةً في بعض المجتمعات أكثر من غيرها حسب وضع المرأة في المجتمع والأسرة، والقيم الاجتماعية والأخلاقية السائدة.

لا يمكن أن ننكر أن نظرة المجتمع لدور المرأة في الحياة تختلف عن نظرته لدور الرجل؛ ففي أكثر المجتمعات الصناعية تطورًا لا زال دور المرأة الأساسي في الحياة هو دور الزوجة والأم، أي الدور داخل البيت لرعاية الأطفال والحفاظ على الأسرة، هو دور الخدمة وتلبية حاجات أفراد الأسرة من مأكل وملبس ونظافة إلى غير ذلك. وقد يشجع المجتمعُ المرأةَ على العمل خارج البيت إذا احتاج إليها، في الحقل أو المصنع أو المستشفى أو المدرسة أو الحرب، ثُمَّ يعيدها إلى البيت حين يستغني عن عملها في الخارج.

وعلى هذا فإن النظرة العامة إلى المرأة أنها أداة للخدمة داخل أو خارج البيت أكثر منها إنسانة لها عقل خلاق يُفكِّر ويبدع فكرًا أو أدبًا أو فلسفةً.

وإذا حدث أنْ مارست المرأة هذا الإبداع وفرضته على المجتمع على شكل قصة أو رواية أو مسرح أو شعر، فإن أعمالها قد تُهمَل من ناحية النقاد، أو يُنظَر إليها باستخفاف، أو تُنقَد بشدة وقسوة إذا ما تجرأت ومسَّت في إبداعها الأدبي أحد أو بعض المحظورات الأساسية التي تتعلق بالسياسة أو الدين أو الجنس.

[1] هنا لندن، يونيو ١٩٨٧م، العدد ٤٦٤.

وهل يمكن لأي إنسان خلاق أن يكتب شيئًا ذا قيمة دون أن يمس تلك النواحي الهامة في حياتنا العامة والخاصة؟ يتمتع الرجل بصفة عامة بحقوقٍ وحريات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية أكثر من المرأة؛ وبالتالي يمكن للكاتب الأديب أن يحظى بإعجاب النقاد على عمل أدبي جديد، ويوصف هذا الأديب بأنه شجاع أو لديه شجاعة أدبية، أمَّا الكاتبة الأديبة فيمكن أن تُوصَف بالجرأة بدل الشجاعة، وأحيانًا بالبجاحة أو عدم الحياء؛ فالمفروض أن حياء المرأة لا بد أن يكون أكثر من حياء الرجل، ومن الصفات السلبية للرجل أن يكون مُغمَض العينين، أمَّا صفة القطة المغمضة فهي صفة إيجابية في المرأة.

كيف إذن تغمض الأديبة الخلاقة عينيها عن التناقضات في الحياة والصراعات العامة والخاصة داخل بيتها وخارجه؟ وما هو الأدب؟ أو ما هي القدرة على الإبداع الأدبي؟ أليست هي تلك القدرة على رؤية التناقضات وكشف المحظورات والصراعات وتغيير القديم إلى جديد أفضل.

ألا تحتاج هذه القدرة إلى عين مفتوحة وعقل متفتح يعمل بنشاط ولا يخشى التفكير حتى في المقدسات؟

مشكلة المرأة أن دورها المفروض عليها يجعلها تهتم بجسمها أكثر من عقلها؛ فالنظرة السائدة عنها أنها جسد يمتلكه الرجل، جسد يُغطَّى حسب بعض القيم الدينية السائدة في بلادنا العربية، أو جسد يُعرَّى ليلبيَ احتياجات الاستهلاك وتغير موضة الأزياء وإنتاج المصانع الرأسمالية من مساحيق زينة وتجميل. وسواء تغطَّت أو تعرَّت فالمعنى واحد، هو أنها جسم فقط.

وقد تُنتج المرأة عملًا أدبيًّا بارزًا بالفعل، يؤثر في قلوب وعقول الناس العاديين من القراء، لكن النقاد لا يحكمون على الإنتاج الأدبي بدرجة تأثيره في الناس، بل يُطبِّقون عليه مقاييس شبه أكاديمية أو مهنية عقيمة، إنهم لا ينظرون إلى العمل الأدبي الخلاق ككائن حي يُنظَر إليه ككل وينال الإعجاب والتقييم ككائن مستقل له صفاته الخاصة وميزاته وجماله، لكنهم ينشغلون بتطبيق نظرياتهم في النقد عليه ويحاولون تصنيفه حسب المدارس التي درسوها، ويصبحون بذلك كمن يقتل الطفل الحي من أجل تشريح جسده، وبالطبع يفقد جماله الخاص به وحياته وحيويته.

إن قليلًا من النقاد من يتعامل مع النقد على أنه عملية خلاقة مُبدعة وليس مجرد تطبيق مقاييس معينة على العمل الأدبي. وإن معظم النقاد رجال لم يتفقوا بعدُ ولم يتعرفوا

بعدُ على القدرة الخلاقة عند المرأة الأديبة، ليس لأنها امرأة، وإنما لأن تجرِبتها تختلف عن تجرِبة الرجل، وتاريخها أيضًا يختلف؛ وبالتالي فإن تعبيرها الأدبي يختلف، هذا الاختلاف لا يرجع إلى الفكرة التقليدية السائدة بأن المرأة تحس والرجل يُفكِّر أو أن إنتاج المرأة الأدبي يعتمد أساسًا على عواطفها وأحاسيسها أكثر من عقلها، وأن المرأة ذاتية والرجل موضوعي.

لكن الاختلاف يرجع إلى اختلاف الأدوار في الحياة واختلاف بنية النساء عن الرجال، واختلاف الاهتمامات. وكلها ترجع إلى ظروف اجتماعية وسياسية وتاريخية وليس لأسباب بيولوجية أو طبيعية.

والحل الأساسي لمشكلة إهمال النقاد لإنتاج الأديبات من النساء هو أن تبدأ المرأة الخلَّاقة في خوض مجال النقد الأدبي؛ ليصبح لدينا الناقدات القادرات على فهم الإنتاج الأدبي للنساء وإعطائه حقه من التقييم والنقد.

الضرورة الحيوية[1]

هذا السؤال يطرحه الكاتب على نفسه أو الكاتبة، منذ اللحظة التي فرضت نفسها عليَّ، إنها عندي مثل التنفس؛ بمعنى أنها شيء طبيعي، إذا لم تحدث يشعر الكاتب أو الكاتبة بنوع من الاختناق النفسي؛ أعني الكتابة التي تكون جزءًا حقيقيًّا من الكاتب ومن حياته، لا تنفصل عنه، فلا يكتب من أجل الثراء أو الشهرة أو الانتماء لمهنة الكتابة أو لأي سبب آخر لا يتصل بالضرورة الحيوية للكاتب نفسه أو الكاتبة نفسها.

هذه هي النقطة الأولى …

النقطة الثانية: حينما تكون الكتابة بهذا الشكل، فهي تعبر بالضرورة عن رغبة الكاتبة أو الكاتب في تغيير المجتمع إلى الأفضل، سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وتربويًّا وأخلاقيًّا، وتصبح الكتابة مثل العمل الفدائي، ويصبح القلم كالسيف الذي يحارب به الإنسان، وقد تدفعه الكتابة إلى السجن أو الموت أو أشكال القهر المختلفة.

والكاتب دائمًا — بحكم فنه وصدقه ووعيه، وارتباطه الحميم بآمال وآلام مجتمعه — مرتبط بالجديد والتقدم، ولا مهرب له من التصدي للقضايا الوطنية الكبرى مثل الحرية وعدم المساواة؛ لأن كل هذه الأمور تؤرِّق الكاتب والكاتبة وتُعَدُّ تحدِّيًا للقوى المتخلفة التي تحافظ على القديم.

لهذا أكتب.

وبصفتي كاتبة وامرأة، فإن المشاكل والتحديات التي أواجهها تتضاعف؛ لأن ما يقبله المجتمع ويحتمله من الكاتب يرفضه هو نفسه من الكاتبة؛ لأنه ينظر إليها كامرأة، وعليها

---

[1] المساء، ١٧ / ١٢ / ١٩٧٦م.

أن تلتزم بحدود القيم الأخلاقية المفروضة على المرأة، والتي لا تبيح لها تناول أمور مباحة للرجال؛ مثل الثالوث المحرم: السياسة والدين والجنس.

إذا تكلمت المرأة في الدين فكلامها يثير حساسية أكثر من كلام الرجل في الدين، وكذلك تعرضها لموضوع الجنس يجعل المجتمع أكثر حساسية في تلقي ما تكتب، وما يسري على الدين والجنس يسري أيضًا على السياسة. وحتى تسقط هذه التفرقة من جذورها أمسك القلم وأكتب.

المرأة

٢٣ مقالًا

قضية تحرير المرأة المصرية[1]

يتصور بعض الرجال في بلادنا أن قضية تحرير المرأة المصرية قد بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين، وهم بهذا يتجاهلون جهود النساء المصريات لتحرير أنفسهن في القرون السابقة من نشوء العبودية (أو النظام الطبقي الأبوي) وحتى يومنا هذا. إن إعادة قراءة التاريخ توضح كيف لعبت المرأة المصرية القديمة دورًا في الثورات الشعبية والنسائية ضد بطش الفراعنة والسلطة المطلقة للحاكم في الدولة والعائلة. وقد حرق المصريون والمصريات القصرَ الملكي ذاته (عام ٢٤٢٠ قبل الميلاد)، ونادَوْا بتكافؤ الفرص بين الأغنياء والفقراء وبين النساء والرجال، إلا أن المؤرخين الرجال المتحيزين للسلطة الحاكمة قد تجاهلوا جهود النساء في هذه الثورة التي عُرِفَت باسم ثورة «منف».

وقد أُجهضت هذه الثورة بعد فترة، وعاد الحكم الفرعوني بسطوته مرة أخرى. ثُمَّ قامت الثورة الشعبية الثانية يقودها النساء والرجال (عام ١٢٦٠ قبل الميلاد)، وجاءت الأسرة العاشرة (ونظام الرودو) الذي أعاد للمرأة المصرية حقوقها المسلوبة، وتم القضاء على نظام التسرِّي، وتساوت المرأة في الحقوق العامة والخاصة مع الرجل، إلا أن هذه الثورة فشلت وعاد نظام الإقطاع والبطش الفرعوني (عام ١٠٩٤ قبل الميلاد)، ينزع من النساء والفلاحين حقوقهم، وأصبح للرجال فقط حق الطلاق والنسب والكهنوتية. ثُمَّ ثار الشعب المصري نساءً ورجالًا مرة ثالثة (عام ٦٦٣ قبل الميلاد) واسترد الفقراءُ والنساءُ بعضَ حقوقهم المسلوبة.

[1] الأهرام، ٢٢ / ٥ / ١٩٩٩م.

لقد تم تجاهل دور النساء في مصر القديمة بمثل ما تم تجاهل دورهن في مصر الحديثة؛ لأن معظم الذين يكتبون التاريخ رجال يتطلعون إلى السلطة، ويحتقرون الشرائح الفقيرة والضعيفة في المجتمع ومنهم النساء.

لهذا لا أُدْهَش كثيرًا حين يكتب بعض الرجال في بلادنا قائلين إن قضية تحرير المرأة المصرية بدأت وانتهت بكتاب قاسم أمين. وأنا في حاجة إلى كتاب جديد يتناول قضية المرأة؛ لندخل القرن الجديد والألفية الجديدة. إنهم بذلك يتجاهلون تسعين عامًا من جهود المرأة المصرية خلال القرن العشرين وجهودها في القرون السابقة على ظهور قاسم أمين.

لن أتعرض لكتابات النساء التحريرية خلال العقود الماضية؛ فهي معروفة ومقروءة على نطاق واسع في مصر والعالم العربي من مثيلات هدى شعراوي وسيزا نبراوي ودرية شفيق، لكني سأذكر بعض الكاتبات اللائي شاركن في النضال لتحرير المرأة المصرية منذ بداية هذا القرن، ومن هؤلاء النساء الكاتبة عائشة التيمورية، وجاءت بعدها زينب فواز، أمَّا ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم باحثة البادية (١٨٨٦–١٩١٨م) فقد شاركت بقلمها القوي في الكتابة لتحرير المرأة، وكانت معاصرة لقاسم أمين، وأصبحت آراؤها تكملة لدور رفاعة الطهطاوي، لكنها كانت أكثر تقدُّمًا من الطهطاوي وقاسم أمين؛ لأنها اعتبرت دعوة الطهطاوي إصلاحًا فحسب، أمَّا قاسم أمين فقد اعتبر أفكار الطهطاوي تحريرًا.

فلماذا اشتهر قاسم أمين في التاريخ على حين توارت ملك حفني ناصف وغيرها من الكاتبات الأكثر تقدُّمًا من قاسم أمين؟! لماذا يتم (حتى يومنا هذا) تجاهل الكتابات النسائية التحريرية التي لعبت دورًا في تقدم المرأة المصرية أكثر من أي كتابات أخرى؟! هناك عوامل متعددة تلعب دورًا في تفسير هذه الظاهرة:

(١) أصبحت قضية تحرير المرأة من القضايا الاجتماعية والسياسية المهمة محليًّا ودوليًّا. لم تعد شائكة أو محرَّمة كما كانت بالنسبة لهؤلاء النساء اللائي دفعن ثمنًا غاليًا من أجل قضية المرأة، بل ربما تكون من القضايا ذات البريق (الأدبي أو المادي)، فلماذا لا يركب هذه الموجة الصاعدة بعض الرجال الذين تعوَّدوا ركوب الموجات الصاعدة.

(٢) من السهل جدًّا طرد المرأة من أي مجال، وإن كان المجال الذي يخصها قبل غيرها؛ حيث إن الرجل لا يزال هو الأقوى سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، ويمكنه أن يستوليَ على قضية المرأة أيضًا ضمن ما يستولي عليه من أشياء أخرى.

(٣) من السهل الاعتراف بقيادة الرجل للمرأة حتى في المجالات التي تخصها؛ لذلك يريدون أن يظل قاسم أمين قائدًا لحركة تحرير المرأة حتى يأتيَ رجل آخر ليحل محله ويتوارث التركة رجل وراء رجل.

(٤) يسهل على بعض الرجال منافسة المرأة فيما يخص قضيتها عن أن ينافسوا زملاءهم الذكور في القضايا السياسية الأكثر أهمية (في نظرهم).

(٥) تجميد الحركة النسائية أو الفكر النسائي عند قاسم أمين ليس فقط تجاهلًا لجهود النساء في هذا المجال، بل محاولة لإيقاف مسيرة الحركة النسائية وفكرها المتقدم.

(٦) يحاول هؤلاء الرجال أن يكونوا هم المتحدثين باسم المرأة (كالزوج الذي يتحدث نيابةً عن زوجته)، إنهم يتصورون أنهم أقدر منها في التعبير عن نفسها.

(٧) لا يريد هؤلاء الرجال التنازل عن مكانتهم في المجتمع أو على الأقل بالنسبة للنساء. إن تصدي النساء لقضية تحرير المرأة يهدد مصالحهم ومكانتهم؛ لأن معنى ذلك أنها ستأخذ المبادرة في جوانب كثيرة من الحياة.

(٨) من الناحية العملية، إن تحرير النساء لن يتحقق أساسًا إلا بجهود النساء أنفسهن، وإن ساعدهن بعض الرجال، فإن وجود النساء ضروري كقوًى أساسية فكرية وسياسية واجتماعية.

من المعروف أن أي فئة مقهورة في المجتمع لن يمكنها التحرر إلا بجهودها.

إن المقياس الأول لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة المصرية هو مدى مشاركة النساء المصريات في هذه المسيرة لتحرير أنفسهن، ومدى إدراكهن لأهمية هذه المشاركة. يزداد هذا الإدراك بازدياد خروج النساء للتعليم والعمل بأجر، والمشاركة في المهن المختلفة، والنشاط السياسي والاقتصادي والثقافي، وتحمل المسئوليات في المستويات المختلفة، وممارسة اتخاذ القرارات في الدولة والعائلة، والمشاركة في الفكر والأدب والكتابة والإعلام والبحوث العلمية والاجتماعية ... إلخ.

هناك جوانب عديدة ومؤشرات متنوعة لمدى تقدم أو تخلف مسيرة المرأة التحريرية، وليس فقط التمثيل النيابي، لا شك أن عدد النساء في البرلمان أو المجالس النيابية أحد المؤشرات، إلا أنه قد يكون مُضلِّلًا في كثير من الأحيان؛ إذ قد تدخل البرلمان نساء لا علاقة لهن بقضية تحرير المرأة، بل قد يعملن ضدها، كما هو يحدث في كثير من برلمانات العالم، بل قد تصبح المرأة رئيسة لحزب سياسي أو رئيسة الوزراء وتُصدر قرارات ضد مصالح النساء، كما حدث مع مارجريت تاتشر في إنجلترا؛ إذ فقدت النساء في عهدها الكثير من حقوقهن المكتسبة عبر السنين.

وكم صمتت عضوات البرلمان في بلادنا عند مناقشة القوانين التي تهم المرأة، على حين ارتفعت أصوات النساء خارج البرلمان في الجمعيات النسائية الأهلية أو الشعبية أو المنظمات غير الحكومية.

ولا تزال قضية تحرير المرأة في حاجة إلى مزيد من الفهم، ولا تزال الحركة النسائية المصرية في حاجة إلى الكشف عن جوانبها المتعددة في الماضي والحاضر على السواء.

فلسفة المرأة في القرن القادم[1]

ربما يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة، لو ربطنا بين المطبخ والمرأة، أو بين طبق اليوم والمرأة، كان ذلك في نظرهم طبيعيًّا يتمشى مع الطبيعة الأنثوية أو الفطرة؛ يقولون «الفطرة» هي القانون الإلهي أو القانون الطبيعي أو «البيولوجي».

إلا أن التاريخ البشري يثبت لنا أن الذي بدأ الفلسفة في الحضارات القديمة هي المرأة أو النساء، سواء في مصر القديمة أو اليونان أو العراق أو فلسطين أو الهند أو الصين، أو أية بقعة في العالم القديم في أفريقيا أو آسيا أو أوروبا.

كشف علم الأنثروبولوجي (علم الإنسان) في السنين الأخيرة عن حقائق تؤكد أن الفكر والفلسفة واللغة والدين والعلم كلها من اكتشاف النساء القديمات، ليس لأن عقل المرأة أذكى أو الجنس الأنثوي أرقى (كما تحاول بعض النساء إثبات ذلك)، ولكن لأن الرجل البُدائي انشغل بالصيد وقتل الحيوانات في الصحراء أو الغابات، على حين تفرغت النساء لاكتشاف الزراعة ومواد الطعام المطلوبة للحياة اليومية وأدوات الطهي؛ أي تكنولوجيا الحياة والصحة والنمو.

أمَّا الرجال فقد انشغلوا بتكنولوجيا القتل والتدمير.

لم تدخل الهرمونات أو قانون البيولوجيا في هذا التقسيم للعمل بين الذكور والإناث، كما تصور بعض العلماء والفلاسفة الذين نشئوا في عصور العبودية.

---

[1] روز اليوسف، ١ / ٢ / ١٩٩٩م، (٣٦٨٦) (٦٥).

كانت النساء المصريات القديمات هن أمهات الحضارة المصرية الزراعية في وادي النيل، واشتهرت منهن أسماءٌ كثيرة معروفة في تاريخنا، رُمز إليهن بإلهة السماء نوت، وإلهة الحكمة إيزيس، وإله العدل معات، وإله الطب سخمت.

وفي اليونان القديم كانت امرأة اسمها «صوفيا» هي أم الفلسفة؛ لذلك سُمِّي علم الفلسفة «فيلوصوفي»، وتعني «محب صوفي»؛ أي أن الفيلسوف هو «محب صوفي» الأم الكبرى للفلسفة اليونانية.

لماذا إذن يندهش بعض الناس حين نربط بين الفلسفة والمرأة في القرن القادم؟ لقد اعتُبر القرن التاسع عشر «قرن الاستعمار»، أمَّا القرن العشرون فقد اعتُبر «قرن مقاومة الاستعمار»، أو قرن حركات التحرير الشعبية، ومنها الحركة النسائية التي شاركت في ضرب القوى الاستعمارية في عدد كبير من بلاد العالم بما فيها بلادنا العربية، في مصر والجزائر والعراق وسوريا ولبنان والسودان واليمن وتونس وليبيا والمغرب والصومال وغيرها.

بعض الناس يتصورون أن فكرة «تحرير المرأة» فكرة غربية، نشأت في الغرب وجاءت إلينا بحكم التقليد أو الغزو الحضاري ... في حين أن فكرة «تحرير المرأة» بدأت في مصر القديمة حين شاركت النساء مع العبيد في المقاومة ضد الطغيان الفرعوني أو الاحتلال الأجنبي.

لم تكن المرأة المصرية حبيسة الحجاب أو الجدران الأربعة للبيت أو المطبخ، بل كان بين النساء مفكرات وفيلسوفات وعالمات في الطب والفلك والهندسة والقانون والاجتماع والسياسة والاقتصاد والحرب والسِّلْم.

لقد سبقت المرأة المصرية القديمة في تحرير نفسها أخواتها في اليونان وبلاد أخرى، إلا أن التاريخ العبودي قد تجاهل حركة المرأة ونشاطها بمثل ما تجاهل التاريخ الاستعماري الحديث حركة الشعوب ونشاطها.

أصبح التاريخ مقصورًا على حركة الأباطرة والملوك والرجال من الطبقات الحاكمة، واختفت حركة الملايين من النساء والرجال والشباب في جميع بلاد العالم.

حتى اليوم نحن نعيش هذا الفكر التاريخي والإعلامي الذي يُفرد المساحات في الصحف والشاشة لسرد الحكايات التافهة عن الملوك والأمراء والأميرات. لقد احتلت أخبار الأميرة ديانا أو مونيكا (عشيقة كلينتون) مساحات إعلامية ضخمة طغت على قتل الآلاف من الشعوب المقهورة دوليًّا بالاستعمار الجديد والحكومات المحلية الباطشة.

إن علاقة جنسية واحدة لإحدى الأميرات أو أحد الحكام تنال من الاهتمام الإعلامي والتاريخي أضعاف ما يناله تدمير شعب بأكمله بالقنابل الحديثة ... «ليزر» أو «نووية» أو «صواريخ توماهوك» أو «كروز».

لقد تعودنا على استهلاك هذا الإعلام والتاريخ المزيف، فلم نعد نعرف القضايا الجوهرية من القضايا التافهة ... لقد أَدمنَّا هذا النوع من المعرفة الكاذبة، أو الوعي الكاذب، كما يدمن الشاب البانجو والهروين.

أصبحنا نستهلك أخبار ديانا ومونيكا وكلينتون كما نستهلك الشويبس والكولا والكنت والمارلبورو والتيشيرت مكتوبًا عليها «أحب مونيكا».

إلا أن كل ذلك لن يستمر في القرن القادم مع تزايد الوعي بين النساء في العالم والاستفادة من دروس الماضي خلال القرن العشرين، وتقدم الفكر والفلسفة فيما يخص العلاقة بين النساء والرجال.

خلال السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين شاركت أعداد متزايدة من النساء في إقامة فلسفة جديدة أكثر إنسانية وعدلًا في النظر إلى المرأة والمجتمع والسياسة والدين والعلم والطب وغيرها من فروع المعرفة.

مثلًا في الطب استطاع الفكر النسائي العملي الحديث أن يُثبت خطأً كثيرٍ من الأفكار التي دخلت علم الطب كحقائق شبه مقدسة لا يمكن تغييرها.

هناك فكرة في الطب تعلمناها ونحن طلبة وطالبات؛ أن عملية الإخصاب تتم بسبب حركة «الحيوان المنَوي الذكري» نحو «بويضة المرأة الساكنة».

لقد سادت هذه الفكرة الخاطئة عن «سكون» بويضة المرأة أو سلبيتها في علوم الطب والفلسفة والبيولوجيا وعلم النفس أيضًا. لقد ردد هذه الفكرة «أرسطو» في نظريته الفلسفية وقال: إن بويضة المرأة «كائن ميت» أو «وعاء فارغ من الحياة»، لا تدب فيها الحياة إلا بسبب «حركة» الحيوان المنوي الذكري «السبيرماتوزون». وأقام سيجموند فرويد نظريته النفسية على سلبية المرأة وإيجابية الرجل.

إلا أن البحوث العلمية الجديدة التي أجرتها النساء في العالم (وبعض الرجال) قد كشفت عن أن بويضة المرأة ليست ساكنة وليست سلبية، بل هي تتحرك نحو السبيرماتوزون، وأن عملية الإخصاب لا يمكن أن تتم دون هذه الحركة للبويضة. وهكذا تغيرت المفاهيم العلمية عن الإخصاب في البشر، وأصبحت عملية الإخصاب تقوم على حركة البويضة والسبيرماتوزون معًا، إنهما يتحركان تجاه بعضهما البعض، إنه لقاء واندماج معًا لتكوين الجنين الجديد.

لقد تغير علم البيولوجيا أو علم الطب بسبب تزايد قوة النساء الاجتماعية والسياسية ومشاركتهن في البحوث العلمية والطبية التي كانت مقصورة على الرجال منذ نشوء النظام الذكوري الطبقي أو النظام العبودي.

كما تغيرت أيضًا النظرة إلى علم الفلسفة وإلى علم التاريخ واللغة والأدب والدين والاقتصاد؛ بسبب تزايد المشاركة النسائية وإضافة تجرِبتهن إلى تجارِب الرجال وعقولهن إلى عقول الرجال.

لقد تغيرت النظرة إلى المرأة من شيء ساكن سلبي مفعول به إلى إنسانة كاملة الأهلية والحركة والنشاط والإيجابية، وامتدت هذه الفكرة السياسية إلى صُلب علم الطب والبيولوجي. كما تغيرت النظرة إلى الطبيعة من شيء ساكن سلبي يمكن اغتصابه واستغلاله وتشويهه إلى كائن عضوي حي يشمل النبات والحيوان والشجر والهواء والأرض؛ ومن هنا نشأت فكرة الحفاظ على البيئة والتعامل معها باحترام وأيضًا التعامل مع المرأة باحترام.

عن شهرزاد ومي زيادة[1]

امرأة حرة وأصدقاء غير أوفياء

كان أبي يحترم أمي احترامًا كبيرًا، يناديها أمام الناس بلقب زينب هانم، يساعدها في إعداد مائدة الطعام، يرتب ملابسه بنفسه، ولا ينتظر منها أن تخدمه أو تسقيه وهو مضطجع في السرير، أو تسليه بالحكايات حتى ينام مثل الملك شهريار. كان شهريار مثار سخريتنا ونحن أطفال؛ فهو أكثر مِنَّا طفولة لأننا ننام وحدَنا دون الاعتماد على الحكايات، أمَّا شهرزاد فلم تحظَ أيضًا باحترامنا؛ لأنها كانت بلا عمل ولا شيء يشغلها إلا تلهية زوجها بالحكايات مثل الجواري والإماء.

وكان أخي الأكبر يحاول السيطرة على أخواتي الصغيرات، أحيانًا يضطجع في السرير مثل الملك شهريار ويطلب من أختي أن تسقيه، لكن أبي كان ينهره، ويفرض عليه أن ينهضَ ويسقيَ نفسه.

هكذا أدركنا؛ لم تكن شهرزاد مَثَلي الأعلى في الحياة، رغم كل ما قرأت عنها من مديح وثناء على أنوثتها، وأمومتها، وقدرتها بالمكر والحيلة على أن تحوِّل شهريار من سفَّاك للدماء إلى إنسان متحضر. منذ طفولتي لم أحترم وسائل المكر والحيلة، ربما سمعت أبي يذمُّ الماكرين وأصحاب الدهاء والحيلة، يقول عنهم: «المداهِنون»، «المخادِعون»، «المنافقون»،

[1] روز اليوسف، من ١٥: ٢١/ ٥/ ١٩٩٩م (٣٧٠).

«الماكرون والماكرات». ولم تكن أمي ذات مكر وحيلة، بل كانت تواجه المشاكل بشجاعة ووضوح، وبالمنطق دون حاجة إلى الالتواء أو المراوغة.

لقد قرأت الكثير عن شهرزاد، وكيف روَّضَت شهريار، لكنني لم أقرأ عن شهريار، ولماذا تمتع بهذه السلطة المطلقة لسفك الدماء، أو لماذا حظي بهذه الحرية ليقتل كما يشاء، أو لماذا حظي بهذه الفوضى ليفعل ما يشاء؟ فالفرق كبير بين الحرية والفوضى؛ إن الحرية مسئولية ترفع الملك أو الحاكم إلى مستوى الإنسانية، فيحترم حقوق الآخرين، لكن الفوضى تهبط به إلى درك الأنانية والجشع. هذه الفوضى التي حظيَ بها شهريار هي الفوضى ذاتها التي يحظى بها الملوك والحكام في ظل النظام الدكتاتوري منذ نشوء العبودية وحتى يومنا هذا، فهل استطاعت شهرزاد أن تعالج زوجها من هذا الداء بتلك الحكايات المسلية؟!

لم تغير شهرزاد شيئًا من سلطة زوجها المطلقة في الدولة والعائلة، لقد كف عن سفك دماء البنات البريئات، إلا أنه لم يكفَّ عن السلطة المطْلَقة؛ لقد ظل السيد المُطاع دون مناقشة ودون محاسبة، وظلت زوجته شهرزاد أسيرة له، تلعب دور الجارية والعشيقة والزوجة والمسلية، تحكي له الحكايات كالطفل حتى ينام. كان شهريار رجلًا مريضًا بالسلطة المطلقة، مُدلَّلًا كالطفل، لم تعالجه زوجته من هذا المرض، بل زادته تدليلًا وأنجبت له ثلاثة ذكور كأنما لتشبِع ذكورته حتى الثُّمالة.

إن أبرز ما يميز شهرزاد هو الدافع الجنسي الذي يمنحها المكر والدهاء للسيطرة على الرجل، وهنا يكمن الوهم بأنها علَّمَت شهريار الإنسانية، والحقيقة أنها علَّمَت النساء المكر والدهاء، وكيف يسيطرون على الرجال بالخداع والمراوغة، وليس بالمواجهة والشجاعة والمنطق. لم تغير شهرزاد شيئًا من قيم العبودية المتوارثة، والتي تشكل العلاقة بين الرجل والمرأة، أو بين السيد المُطاع والعبد المُطيع، والتي تؤكد العبودية التي تقول إن الطبائع البشرية هي هي في كل زمان ومكان، والمرأة هي هي المرأة، التي هي محل الانفعال أو مكان العاطفة، تتحلى بالطاعة وحب الحكاية والكلام والمحاورة والمراوغة والمكر والكيد، والرجل هو هو الرجل، هو العقل والزمان الفاعل، فيه الصرامة والجد، والعلم والحزم، والميل إلى التفكير والفلسفة والدين والسياسة والحرب.

لا شك أن الأفكار في قصة شهرزاد قد خرجت من المنبع ذاته الذي خرج منه شهريار، وهو العبودية؛ حيث تكون المرأة واحدة من اثنين، الملاك الطاهر، الأم العذراء المضحِّية التي تلد الذكور، أو الشيطانة التي تمارس الجنس دون أن تلد أطفالًا.

لقد كان شهريار ضحية هذه المرأة الفاسدة، لكن امرأة صالحة أخذت بيده وأرشدته كالأم إلى الطريق الصحيح. هنا أيضًا يتضح التناقض؛ فالمرأة هي الفاعلة سواء في مجال الشر أو الخير، والرجل هو المفعول به.

ولم يكن لشهرزاد دور في الحياة خارج بيتها، لقد انحصر دورها داخل الأنوثة والأمومة داخل الأسرة التي يحكمها الزوج، ولم يكن لها دور في الحياة الاجتماعية والسياسية العامة؛ لهذا السبب أصبحت شهرزاد نموذجًا للمرأة الصالحة المثالية حتى يومنا هذا. لم يحكم عليها أحد بالمرض النفسي كما حدث لغيرها من النساء اللائي لم يتزوجن ولم يلدن، وحاولن المشاركة في الحياة، من مثيلات الكاتبة مي زيادة.

لقد ثبت أن مي زيادة لم تكن مريضة نفسيًّا، لم تكن مريضة بعقلها، بل العكس، كانت تتمتع بموهبة عقلية نادرة، إلا أنها لم تكن مثل شهرزاد، لم تلعب مي زيادة الدور الأنثوي الأمومي لرجل واحد، بل فتحت صالونها الأدبي لعدد من الرجال يزيد على العشرين. ولا أدري لماذا لم تفتح مي زيادة صالونها للنساء أيضًا؟ ألم يكن في عصرها نساء أديبات أو على الأقل هاويات للأدب؟ كان هذا السؤال يدور في عقلي كلما قرأت عن صالون مي زيادة الأدبي. لقد ظل صالونها مسرحًا لعالم الرجال، رجال عجائز متزوجون وغير متزوجين، يتبارَوْن في معركة غامضة أيهم يكون الفائز الأول أو الفائز الوحيد، وكانت مي زيادة هي المرأة الوحيدة وسط الرجال، لا تُنافسها امرأة أخرى، يفوح عطرها الأنثوي وشبابها الغض وسط بحر من الكهول الذكور، تركوا زوجاتهم في البيوت وراءَ الحجاب، وانطلقوا للسهر والفرفشة والترويح عن النفس من كآبة الشيخوخة وملل الحياة الزوجية.

كانت مي زيادة أديبة مبدعة وامرأة حرة، عاشت بلا زوج وبلا أطفال، كانت على قدر كبير من الشجاعة، إلا أنها لعبت دورًا في صالونها الأدبي يشبه دور شهرزاد، شهريار لم يكن واحدًا بل عشرين شهريار، بحر من العيون والآذان الذكورية المتطلعة المتعطشة للحب، رجال تجاوزوا الستين عامًا، وعاشوا جدب العواطف داخل مؤسسة الزواج، خرجوا من بيوتهم يبحثون عن الحب تحت وهم الأدب أو الشعر، يستمعون إلى مي زيادة وهي تتحدث بصوتها الأنثوي الناعم فيطربون كما كانوا يطربون لسماع أم كلثوم، يخلعون الطرابيش ويصفقون: الله الله!

وقد يقع أحدهم في حبها أو قد يقع جميعهم، إلا أنه حب هشٌّ لا يصمد أمام ضوء النهار، ويسقط أمام أية محنة أو امتحان.

لهذا السبب تبخَّر هؤلاء الرجال في الهواء حين تعرضت مي زيادة لأزمتها، حين أُودعت المستشفى النفسي في لبنان إثر مؤامرة الأقارب للاستيلاء على أموالها. تلاشت مي زيادة

من خيال هؤلاء الرجال، لم يزرْها أحدهم بالمستشفى، ثُمَّ نجحت مي زيادة في الخروج من الأزمة، وعادت إلى مصر، وبدأت تلقي المحاضرات ويتألق نَجمها من جديد، إلا أنها ظلت وحيدة، ورفضت أن تلتقيَ بهؤلاء الذين تخلَّوْا عنها وقتَ المحنة، وماتت وحيدة. هكذا تفوقت مي زيادة على شهرزاد في الشجاعة والإقدام، واستطاعت أن ترفض الدور العبودي للأنوثة والأمومة، وأن تترك وراءَها ثروة أدبية أكثر أهمية من أن تلد ثلاثة من الذكور.

الوعي النسائي العربي

(١) جدتي وأمي

في بداية القرن العشرين الماضي لم تكن جدتي تقرأ أو تكتب، كانت حياة أمي وخالتي وعماتي تنحصر داخل البيت والمطبخ وولادة الأطفال. كان الأب أو الزوج هو صاحب السلطة في العائلة والمجتمع والدنيا والآخرة. في طفولتي في الأربعينيات من القرن العشرين شعرتُ باختناق، لولا خروجي إلى المدرسة لأقدمت على الانتحار. قاومت محاولة تزويجي وأنا في العاشرة من عمري، لولا مساندة أمي لأصبحت اليوم مثل أغلب النساء في العالم العربي (والغربي أيضًا)، مجرد زوجة وأم وجدة، عجوز بلا اسم ولا كيان، راكدة في الفراش أعاني تصلب المفاصل والشرايين وأنتظر الموت.

منذ أيام قليلة قبل أن يحلَّ بنا القرن الواحد والعشرين عُدت إلى الوطن بعد غيبة، لم تدهشني الردة التي تعاني منها النساء في بلادنا العربية؛ فقد شهدت مثلها في حياة النساء الأمريكيات والأوروبيات، لم يدهشني الحجاب الذي ترتديه النساء في بلادنا تحت اسم الدين أو الإسلام؛ فقد رأيت حجابًا آخر ترتديه النساء الأوروبيات والأمريكيات في عصر ما بعد الحداثة، ليس مصنوعًا من القماش كالحجاب الديني، وإنما من طبقات المساحيق والألوان التي تُخفي بها المرأة وجهها تحت اسم الجمال أو الجاذبية الجنسية.

لهذا أختلف مع هؤلاء الذين يظنون أن النساء تحررن في البلاد الأوروبية أو أمريكا ولم يعُد لديهن مشاكل، يكفي أن نعيش في تلك البلاد فترة، أو نطلع على ما تكتبه النساء هناك حتى ندركَ أن تحرير المرأة لم يتحقق في بلد من البلاد، طالما أن النظام الذي يحكم العالم هو امتداد للنظام الطبقي الأبوي الذي نشأ مع العبودية واستمر حتى اليوم بأشكال مختلفة وأسماء متعددة، أساسها الرأسمالية الحديثة وما بعد الحديثة.

لا يمكن أن أنكر أن حياتي تختلف عن حياة جدتي وأمي، وأنني أقرأ وأكتب بالقلم والكمبيوتر، وأسافر في بلاد العالم، وأناقش الرجال وذوي السلطة في أمور الثقافة والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفلسفة والطب والأدب والجنس وكل شيء. ربما دفعت ثمنًا باهظًا من حياتي الخاصة والعامة نظير الحصول على هذه الحقوق، إلا أنني انتزعتها بقوة الإرادة والتصميم والعمل المستمر وإثبات جدارتي العقلية والجسمية والروحية في كيان واحد. أدركت من خبرتي في الحياة بعد أن تجاوزت الستين عامًا أن قوة الإنسان أو الإنسانية تنبع من هذه القدرة على التحام العقل بالجسم بالروح، أو بعبارة أخرى القدرة على مقاومة الفلسفة العبودية القائمة على فصل الجسم عن العقل عن الروح، هذه الفلسفة السائدة حتى اليوم والتي تجعل من الأديان السماوية وغير السماوية سندًا لها.

(٢) الردة

تتمثل الردة في حياة النساء الأوروبيات والأمريكيات في تصاعد الحركة السياسية المسيحية التي تحاول إعادة المرأة إلى حظيرة البيت، والخضوع لسلطة الأب والزوج تحت اسم الحفاظ على القيم الأسرية أو العودة إلى الروحانيات، وهي حركات سياسية أصبحت تنمو في الثلث الأخير من القرن العشرين بعد انهزام الحركات النسائية التحريرية وحركات الشباب والحركات التقدمية العمالية المناهضة للرأسمالية والعولمة، والتي مهدت لظهور الولايات المتحدة كقوة كبرى أو رأس الرمح الرأسمالي الاستعماري الجديد، وبعد أن تهاوت القوى التحريرية في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والبلاد العربية، وبعد سقوط حائط برلين وتهاوي الاتحاد السوفيتي، ثُمَّ اشتعال حرب الخليج عام ١٩٩١م، وتراجع فكرة الوحدة العربية أو العالم العربي الذي أصبح يحمل اسمًا جديدًا هو الشرق الأوسط.

كل ذلك ليس إلا جزءًا من الردة التي يمر بها العالم في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وهي ردة عالمية ومحلية وعربية في آنٍ واحد؛ لأننا نعيش في عالم واحد (وليس ثلاثة عوالم أو أربعة)، تحكمه قوة دولية واحدة، تستمد قوتها من التفوق العسكري القائم على احتكار السلاح النووي (ونزعه عن البلاد الأخرى في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية والشرق الأوسط فيما عدا إسرائيل)، وتستمد قوتها الاقتصادية من القدرة على سن القوانين التجارية غير العادلة تحت اسم حرية السوق، ويمكنها بعد كل ذلك أن تحتكر القدرة التكنولوجية والإعلامية القادرة على غسل أدمغة ستة بلايين من البشر وإقناعهم على الدوام بأفكار ضد مصالحهم من أجل مضاعفة أرباح القلة الحاكمة.

وكيف تتحرر النساء في ظل نظام عالمي كهذا على تسخير أغلب الحكومات المحلية لضرب أي فرد أو مجموعة تحاول التمرد أو الثورة؟!

(٣) النخبة

في بلادنا العربية استطاعت القوى الحاكمة تدجين أيِّ حركة تنهض لتغيير الأوضاع، لا فرق في ذلك بين حركة نسائية أو عمالية شبابية أو غيرها. يشهد القرن العشرين على ذلك، والأمثلة كثيرة، منها ما حدث في مصر والعراق وسوريا والسودان وتونس والمغرب والصومال وغيرها. لا أظن أن بلدًا عربيًّا واحدًا نجا من هذا المأزق؛ مما أدى إلى ضعف الحركات السياسية المتقدمة في بلادنا، لم يبقَ منها إلا بعض السجلات في التاريخ، وبعض عجائز تجاوزوا السبعين، انعزلوا في بيوتهم يكتبون مذكرات حياتهم، وأحيانًا يخرجون يطلُّون على ما حدث في الأحزاب السياسية، التي تحولت إلى أندية ثقافية مشغولة بفكرة صراع الحضارات أو الأديان أو الهوايات، أو تحولت إلى ما يشبه الإدارات غير الحكومية الخاضعة للحكومة في الواقع والحقيقة.

هذه هي أغلب النخبة المثقفة في بلادنا العربية، التي تقود الرأي العام، وتشغل المساحات في صحف الحكومة والمعارضة الشكلية، وفي المؤتمرات العربية والدولية، يتنافسون على الظهور في الصورة مع الملك أو رئيس الدولة أو رئيس الوزراء أو وزير الثقافة أو الإعلام، يحتكرون الجوائز العربية والعالمية، يحمل كل منهم لقب معارِض أو يساري أو ماركسي، أو ليبرالي عولمي، وغير ذلك من لغة ما بعد الحداثة.

تشتمل النخبة المثقفة على نساء بالطبع، لا يختلفن كثيرًا عن الرجال، تظهر صور بعضهن بالحجاب أو بدون حجاب. لا شك أن حجاب العقل أخطر من أي حجاب آخر؛ لأنه لا يظهر في الصورة، ويوحي بأن المرأة متحررة، رغم أن عقلها لا يختلف عن عقل جدتها (أو الأصح جدها)، وربما يكون أكثر تخلُّفًا.

(٤) الاستهلاك

هذه النماذج من النساء العربيات ضحايا الاستهلاك الفكري الأمريكي الذي تروِّجه وسائل الإعلام في عصر العولمة أو الرأسمالية في نهاية القرن القديم وبداية القرن الواحد والعشرين،

قد تكون الواحدة منهن أستاذة في الجامعة أو عميدة كلية من الكليات أو صحفية أو أديبة أو عالمة ذرة أو عضو في البرلمان أو مجلس الشورى، أو وزيرة من الوزيرات، وربما تكون الواحدة منهن قد تجاوزت الستين وظهرت بعض تجاعيد الزمن على وجهها، فإذا بها تسرع لإخفاء التجاعيد تحت طبقة كثيفة من المساحيق (حجاب ما بعد الحداثة) أو بعملية جراحية لشد الجلد، وتمشي تتأرجح على كعب عالٍ، يتأرجح من أذنيها قرط ضخم ثقيل ينوء به رأسها أو عنقها، أمَّا عقلها فقد تم حشوه بما تكتبه النساء الأمريكيات (من الليبرالية الرأسمالية أو الجبهة السياسية المسيحية المتصاعدة) عن أن الأمومة هي مصدر السعادة الوحيدة للمرأة الطبيعية، وأن خروج النساء إلى العمل ومنافسة الرجال لم يؤدِّ إلى شيء إلا تعاسة النساء وتفكك الأسرة وانحراف الأبناء وانتشار المخدرات وغيرها من المشاكل.

يتبنى الإعلام الأمريكي (وتوابعه في بلادنا العربية) هذه الأفكار ما بعد الحديثة عن فشل حركات تحرير المرأة في إسعاد المجتمع والأسرة، وأن طموح المرأة العلمي أو السياسي أو الفني أو الأدبي قد أدَّى إلى هدم الأسرة، إلى انحراف الشباب، وهذه محاولة إعلامية للتمويه والتغطية على الأسباب الحقيقية التي أدَّت إلى البطالة وتزايد الفقر في ظل الرأسمالية العالمية والمحلية.

لقد تم الكشف عن هذا التمويه الإعلامي العالمي والعربي، والذي قد يرتدي أحيانًا ثوب العلم أو البحوث العلمية الجديدة، إلا أن هذه الكتابات التحريرية كثيرًا ما تُحاصَر أو تُمنَع بواسطة الرقابة الرسمية أو غير الرسمية. لقد دخل اسمي القائمة السوداء في السبعينيات من القرن العشرين، والتي تحولت إلى القائمة الرَّمادية في نهاية القرن وبداية القرن الجديد.

لعل القائمة الرَّمادية أخطر من القائمة السوداء؛ لأنها قد توحي بانعدام الرقابة على الفكر؛ مثل حجاب ما بعد الحداثة الذي قد لا يظهر في الصورة، ولعل الاستهلاك الفكري في العولمة أخطر من استهلاك البضائع الأمريكية أو منتجات الشركات متعددة الجنسيات؛ لأن التخلف العقلي أشد خطرًا من أيِّ تخلف آخر. وأخطر مراحل التخلف العقلي في بلادنا هي عجز النخبة من الرجال أو النساء على إنتاج الأفكار الجديدة القادرة على التغيير. تعتمد النخبة العربية على الاستهلاك لأفكار الآخرين، واجترار النظريات الأمريكية الأوروبية الحديثة أو ما بعد الحديثة، أو اجترار النظريات الروحية أو الدينية القديمة أو ما يُسَمَّى التراث.

الإبداع يعني البدعة، وهي كلمة سلبية في القاموس السياسي الديني في بلادنا. إن كلمة «الخلق» الفكري أكثر خطورة؛ لأنه لا يوجد في الكون إلا خالق واحد، من ينافسه قد يُعرِّض نفسه (أو نفسها) لتهمة الزندقة، وهي تهمة لا تخص القرن القديم فحسب، ولكنها تمتد إلى القرن الجديد، بل تزداد خطورة مع تصاعد التيارات الدينية، التي تعود بنا إلى فكرة أن المعرفة كلها وردت في الكتب الدينية، ودورنا هو مجرد التفسير وليس خلق الجديد.

(٥) قشور التغيرات

خلال القرن العشرين حصلت النساء في بلادنا العربية على بعض الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية. تزايدت أعداد النساء اللائي خرجن إلى التعليم، ويعملن خارج البيت بأجرٍ قد يتساوى أحيانًا مع الرجال، وقد يقل عنه في أحيان كثيرة. تزايدت أعداد النساء اللائي أصبحن مسئولات عن إعالة الأسرة والإنفاق عليها. أدَّت البطالة المتزايدة إلى تزايد عدد الرجال العاجزين عن الإنفاق؛ وبالتالي حصول المرأة القادرة على الإنفاق على بعض الحقوق الجديدة، أو مناقشة بعض الحقوق التي كانت حِكرًا على الأزواج؛ مثل حق الزوج في منع زوجته من العمل خارج البيت، أو حق الزوج في منع زوجته من السفر، أو حق الزوج في إجبار زوجته على البقاء معه وعدم القدرة على تطليقه أو خلعه.

تمت تغيرات جزئية وفرعية في بعض القوانين الخاصة بالزواج والطلاق، إلا أن جوهر سيادة الرجال وسلطته المطلقة على نسائه لم تتغير، بل زادت في بعض الأحيان بسبب الردة والإحياء الفكري لأكثر الأجزاء تخلُّفًا من التراث والأديان، والهزائم العربية المتكررة في الحروب الاستعمارية والإسرائيلية خلال القرن العشرين؛ مما أدى إلى فقدان الثقة في الذات، واستشراء عقدة النقص، ومحاولة التخلص منها تحت ستار من الهُوية المتضخمة، التي قد لا تجد شيئًا تتمسك به ليميزها عن الآخر سوى حجاب المرأة أو ختان الإناث، بل إن أحد المفكرين من النخبة المصرية، وهو أستاذ بالجامعة الأمريكية، قد تأسلم في السنين الأخيرة وأعلن أن الختان والحجاب جزء من الهُوية الأصلية للمرأة العربية المسلمة. وهو يقلد في هذا الاتجاه الأفكار الأمريكية والأوروبية السائدة اليوم عن الهُوية واختلاف الثقافات وموجة الاستشراق الجديدة.

انتشرت في السنوات الأخيرة من القرن العشرين كتابات استشراقية نسائية أمريكية تؤيد حجاب المرأة وختانها تحت اسم احترام الثقافات الأخرى. خلال وجودي في مدينة لندن فتحت جريدة الجارديان (يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩م)؛ فرأيت مقالًا لإحدى النساء الفيمنيست اللائي نادَيْن بتحرير النساء خلال النصف الأخير من القرن العشرين (هي جيرمان جرير)، أكدت في مقالها على تأييد ختان النساء كجزء من الهُوية والثقافة الأصلية في بعض البلاد. وفي مؤتمر المرأة العربية — عُقد بالقاهرة خلال عام ١٩٩٩م — ترددت هذه الأفكار على لسان بعض النساء الأمريكيات اللائي دُعين للمؤتمر. كنت خارج الوطن في ذلك الوقت إلا أنني تابعت بعض ما كان يدور خلال ذلك الأسبوع، وأدركت كم برزت أفكار النساء الأمريكيات في المؤتمر، وسيطرت على عقول النساء والرجال العرب. لاحظت أيضًا أنه قد تم تجاهل أفكار وكتابات النساء العربيات التحريرية المتقدمة وتركيز الأضواء على أفكار النساء الأمريكيات وتوابعهم من العرب، كما تم إبراز أعمال الرجال الذين كتبوا عن تحرير المرأة، رغم أن هذه الكتابات طرحت مشكلة المرأة العربية من وجهة نظر الرجل، وظلت حبيسة الفكر الأبوي الطبقي الديني، أو داخل حدود الخطاب العربي الإسلامي الليبرالي الذي لا يتعرض لجوهر المشكلة وأسبابها الحقيقية، بل يقدم بعض الإصلاحات الجزئية مثل إصلاح التعليم وبعض بنود قانون الأحوال الشخصية، دون تغير النظرة التقليدية إلى المرأة كزوجة وأم، واعتبار دورها الرئيسي في الحياة هو الأمومة وخدمة الأسرة في البيت. وقد نادى هؤلاء الرجال بأهمية تعليم المرأة بهدف تحسين أدائها للخدمة في البيت ورعاية الأطفال، حسب قول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددتَ شعبًا طيِّبَ الأعراق

وكم يتغنى الشعراء في بلادنا العربية بالأم، ويرددون عبارة: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، إلا أن الدراسة العلمية المتعمقة لأحوال النساء في بلادنا تؤكد لنا أن حقوق الأمهات ضائعة في الحياة الدنيا والحياة الآخرة على حد سواء.

إن اسم الأم في بلادنا ليس له قيمة أخلاقية أو اجتماعية، وليس إلا اسم الأب هو الذي يُعطي الشرف والوجود الاجتماعي للأبناء والبنات. وقد استطاعت حركات النساء التحريرية في بلاد أخرى أن تكسر هذا الاحتكار الأبوي لنسب الأطفال، وأصبح لاسم الأم الحقوق المدينة والاجتماعية الأخرى بالإضافة إلى مزيد من الحرية الشخصية للنساء، لكن هذه الحقوق ظلت محدودة محكومة بالنظام الأبوي الطبقي الذي يحكم سياسيًّا

واقتصاديًّا؛ مما يؤكد لنا أن الحرية الاقتصادية والسياسية جزء لا يتجزأ من الحرية الاجتماعية والشخصية.

(٦) القدرة الاقتصادية للمرأة

فتحتُ إحدى الصحف المصرية يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩٩م لأرى في الصفحة الأولى مانشيتًّا كبيرًا عن مشروع جديد لقانون الأحوال الشخصية (بشرط ألا يتجاوز أحكام الشريعة الإسلامية)، وصورة كبيرة لعدد من رجال الحكم وممثلي السلطات التنفيذية والدينية في بلادنا.

كنت عائدة من خارج الوطن بعد غيبة والناس في مصر تستعد للاحتفال بالقرن الجديد الواحد والعشرين، إلا أن كل شيء بدا لي كأنما هو الاحتفال بالقرن القديم أو القرن الذي قبله؛ حيث كان الرجال يشرِّعون القوانين التي تحكم النساء، وأصحاب الأموال والأراضي من الإقطاعيين والرأسماليين هم الذين يُشرِّعون القوانين التي تحكم الأُجراء والعمال والفقراء.

ربما كان ضمن هؤلاء الرجال في الصورة امرأة تحمل لقب وزيرة الشئون الاجتماعية، إلا أنها لم تظهر صورتها على الإطلاق، واكتفى المحرر بذكر اسمها؛ مما يؤكد أنها هامشية ولا قرار لها وسط هذا الخِضَم من الذكور.

وقد أصبحت جميع القوانين في بلادنا مدنية وليست دينية فيما عدا قانون الأحوال الشخصية؛ وذلك لأن تغيير القوانين لا يحدث دون وجود قوة سياسية اجتماعية قادرة على الضغط والتغيير، وهذا أمر لم يحدث للنساء العربيات حتى اليوم، لم تستطع النساء في بلادنا تنظيم أنفسهن داخل قوة سياسية منظمة واعية قادرة على تغيير القوانين.

لقد حاولنا تجميع الحركة النسائية العربية داخل المنظمة تضامن المرأة العربية خلال العَقدين الأخيرين من القرن العشرين، إلا أن هذه الحركة ضُرِبَت بواسطة السلطات السياسية والدينية في مصر والبلاد العربية حين بدأت هذه الحركة تقوى سياسيًّا وتعارض التدخل الأمريكي إبَّان حرب الخليج في بداية عام ١٩٩١م، كما ضُرِبَت أيضًا محاولات تكوين الاتحاد النسائي المصري خلال عام ١٩٩٩م.

يدلُّنا التاريخ على أن الأديان كانت في خدمة الأنظمة السياسية والاقتصادية وليس العكس؛ بدليل ما حدث للأديان من تغيرات مع تغير الأنظمة السياسية. إن معظم المؤسسات الدينية عادةً ما تتبع الحكومة في ظل النظام الملكي أو الجمهوري على حد

سواء، وكم اجتهد رجال الدين أو المشايخ لإعادة تفسير الآيات القرآنية حسب توجيهات المحاكم الشرعية، ومنها تعدد الزوجات وقانون الإرث؟! وهل الشريعة الإسلامية التي تحكم اليمن أو المملكة العربية السعودية هي نفسها الشريعة الإسلامية التي تحكم مصر أو تونس أو المغرب؟!

وفي مصر اليوم يدور الجدل حول مشاكل الاغتصاب والإجهاض وإعادة العذرية والأشكال الجديدة للزواج التي فرضتها التغيرات الاقتصادية، ومنها الزواج العرفي وزواج المسيار وغيرها.

أهم هذه التغيرات الاقتصادية هي أن أعدادًا متزايدةً من النساء المصريات أصبحن يمارسن العمل خارج البيت، وينلن أجورًا عن هذا العمل أكسبَتْهن بعض الحقوق الاجتماعية الجديدة، ومنها رفض سيطرة الزوج والتمرد على قانون الطاعة.

لقد استطاع الرجل بسبب قدرته الاقتصادية أن يسيطر على المرأة سياسيًّا ودينيًّا، يكفي أن نعيد قراءة الآيات القرآنية التي تقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ (سورة النساء، الآية ٣٤).

أصبحت المرأة قادرة على الإنفاق على نفسها وعلى أسرتها كالرجل، وأحيانًا أكثر منه. هكذا ضعف قانون الطاعة، وقد ارتكز قانون الطاعة على الإنفاق الذي كان واجب الرجل فحسب.

وفي المشروع الجديد لقانون الأحوال الشخصية المصري (المنشور بجريدة الأهرام في ١٥ ديسمبر ١٩٩٩م، ص١٣)، تنص المادة رقم ٢٠ على الآتي:

> للزوجين أن يتراضيَا فيما بينهما على الخلع، فإن لم يتراضَيا عليه وأقامت الزوجة دعواها بطلبه، وافتدت نفسها، وخالعت زوجها بالتنازل عن حقوقها الشرعية، وردَّت عليه الصَّداق الذي دفعه لها؛ حكمت بتطليقها منه.

ندرك أن هذه المادة الاقتصادية للمرأة هي أساس حريتها. إن المرأة العاجزة اقتصاديًّا التي تحتاج إلى نفقة زوجها لا تملك حق تطليقها أو خلعه، لا بد أن تعيش معه رغم بغضها له، تُرضي شهوته على حساب كرامتها؛ مثل العبد أو البغيِّ التي تُقدِّم جسدها للرجل مقابل المال أو الإنفاق.

إن شرط الشخصية والاجتماعية أو السياسية هو القدرة الاقتصادية أو الاستقلال الاقتصادي، ويسري هذا المبدأ على الأفراد الرجال والنساء بمثل ما يسري على الدول

والجماعات. وتتجسد أزمة المرأة العربية في عجزها الاقتصادي واعتمادها على الرجال في الإنفاق بمثل ما تتجسد أزمة الأمم العربية في عجزها الاقتصادي واعتمادها على القوى الخارجية في ظل النظام العالمي الجديد أو الاستعمار الجديد.

(٧) الأنوثة المعلبة

إن الصراع الدائم في عالمنا اليوم هو صراع اقتصادي في الأساس، يتخفى تحت رداء ديني أو ثقافي؛ لهذا تظهر على السطح الصراعات الإثنية والعرقية والدينية تروِّج لها وسائل الإعلام، والفكر العالمي والعربي التابع له، ويقرأ الناس في الصحف كلَّ يوم عن الحروب الدينية التي تبغي قتل المسلمين في البوسنة أو الشيشان أو فلسطين أو السودان أو الجزائر أو أفغانستان أو غيرها، ويظن الناس في بلادنا أنها مجرد حروب ضد الإسلام ولا علاقة لها بالبترول أو تجارة الأسلحة أو فتح الأسواق الجديدة أمام القوى العالمية وكسر الحواجز أمام رأس المال الأجنبي أو البضائع الأجنبية والقضاء على الإنتاج المحلي تحت اسم حرية السوق أو العولمة.

لا يدرك الناس العلاقة بين نمو القوى الرأسمالية الاستعمارية الجديدة والتيارات الدينية السياسية اليمينية التي رأت أن سيف الله ينجح أكثر في قتل المعارضين من سيف الحاكم، ويصبح الدين ورقة سياسية رابحة في المعارك الدائرة، ومن يعارض يُتَّهَم بالكفر أو الإلحاد، وهي تهمة أخطر من الخيانة السياسية أو خيانة الوطن.

أمَّا المرأة المعارضة لهذه القوى الحاكمة، فهي تُتَّهَم في أخلاقها وشرفها، بالإضافة إلى تهمة الكفر والزندقة. في عام ١٩٩٢م أصبح اسمي في قائمة الموت مع مجموعة من المفكِّرين العرب، وكان عليَّ أن أعيش خارج الوطن في المنفى أكثر من خمس سنوات، وقد عُدت إلى الوطن أخيرًا، إلا أنه لم يعُد الوطن العربي، أصبح شيئًا يسمُّونه الشرق الأوسط، تحكم فيه قوًى غير عربية، تسود فيه بضائع أجنبية، تغطي على شاشات التليفزيون الإعلانات عن مساحيق الوجه الأمريكية، عن أدوات التجميل بأشكال متعددة، إلى حد أن أصبحتُ أرى الشغالات في البيوت يرتدين تحت الحجاب المساحيق والألوان والعطور الأجنبية الفوَّاحة. لا تختلف أستاذة الجامعة في حجابها ومساحيقها عن الشغالة أو الخادمة في البيوت، إنها الأنوثة المعلبة داخل الإعلام الأمريكي لترويج أدوات الزينة التي تمثل المورد الخامس لأرباح الرأسمالية العالمية، أول هذه الموارد تجارة السلاح ثُمَّ البترول، ثُمَّ المخدِّرات، ثُمَّ الأدوية، ثُمَّ المساحيق وأدوات الزينة.

(٨) طموحات القرن الواحد والعشرين

تابعتُ المظاهرات الشعبية في شوارع مدينة سياتل في نهاية نوفمبر ١٩٩٩م أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية، أدركت أن القوة لا تهزمها إلا القوة، أدركت أن النظام العالمي الطبقي الأبوي لا يسقط (ومعه مؤسساته المالية من نوع منظمة التجارة الدولية) إلا بقوة الشعوب المنظمة الواعية القادرة على ضرب القوة بالقوة، رغم القنابل المسيلة للدموع التي استخدمها رجال البوليس لتفريق المتظاهرين، إلا أن القوة المنظمة للجماهير من النساء والشباب والعمال انتصرت على القوة البوليسية، وفشل اجتماع منظمة التجارة الدولية الذي عُقد في مدينة سياتل، وأصبح على القوة الحاكمة دوليًّا أن تُعيد النظر في قوانين التجارة غير العادلة.

كنت أفحص وجه المتظاهرات من النساء والرجال والشباب وأرى بعض الوجوه العربية، أُغمض عيني لأحلم بأن هذه المظاهرات تحدث في بلادنا العربية ضد البنك الدولي وصندوق النقد ومنظمة التجارة الدولية، إلا أنني أفتح عيني وأدرك أن المظاهرة في مدينة سياتل وليست في أي مدينة عربية.

إن القضاء على القوانين الظالمة التي تحكم الدول أو الجماعات أو الأفراد نساءً أو رجالًا لن يتحقق إلا عن طريق القوة الشعبية المنظمة الواعية من النساء والرجال والشباب، هذا هو الدرس الذي يجب أن تتعلمه الشعوب العربية نساءً ورجالًا. لقد أدركنا على مدى القرن القديم وبداية هذا القرن الجديد أن القوى الدولية وأتباعها من الأنظمة العربية قد فشلت تمامًا في تحقيق الأمن والعدالة والحرية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال، أدركنا أن الحكومات العربية أقدمت على تنازلات حرصًا على مصالحها ومصالح القوى الخارجية، هذه التنازلات لم تمنح الأنظمة العربية جواز المرور إلى القرن الجديد، بل ردتها إلى الوراء، إلى القرون القديمة، وفرضت عليها حلولًا مؤقتةً لا تسمح لها بالخروج من المأزق الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي، ويُضحَّى عادةً بقضية تحرير النساء تملُّقًا للتيارات الدينية أو النظر إليها على أنها مشاكل اجتماعية محدودة لا علاقة لها بالقضايا السياسية والاقتصادية الدولية والمحلية، مثلها مثل قضية الشباب التي يُنظَر إليها كقضية اجتماعية تشمل التأهيل والتوظف والتسكين مع إبعادها عن السياسة. في بلادنا تتحول المعارضة أيضًا إلى أحزاب شكلية دون أي قوة سياسية أو قواعد جماهيرية قادرة على التظاهر ضد القوانين الظالمة محليًّا أو دوليًّا.

رغم إجهاض حركات المرأة العربية التحررية، وتجاهل أغلب كتابات النساء على مدى القرن العشرين، فإن القرن الواحد والعشرين يبشر بأن هناك تغيُّرًا سوف يحدث،

وأن الشعوب العربية نساءً ورجالًا لم تمُت بعد، وقد ساهمت كتابات المرأة العربية مع الكتابات النسائية في بلاد أخرى في كشف الازدواجية والتناقضات داخل النظام الطبقي الأبوي الدولي والعربي، وعلى تفكيك الأيديولوجيا السائدة في أجهزة السلطة، ولا تزال النساء العربيات قادرات على تنظيم أنفسهن وخلق الوعي الجديد رغم العقبات.

شهدت بوادر هذا الوعي في لقاءاتي الأخيرة مع بعض الشابات العربيات أثناء انعقاد المؤتمر الدولي الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية الذي عُقد بالقاهرة خلال أكتوبر ١٩٩٧م، وفي المؤتمرات النسائية داخل الوطن العربي أو خارجه، وقد امتد نشاط النساء العربيات خارج حدود بلادهن، واستطاعت النساء من أصل عربي اللائي هاجرن إلى أستراليا أو كندا أو أمريكا أو أوروبا أن ينظمن أنفسهن داخل جمعيات تضامن المرأة العربية التي انتشرت في العالم، وأصبح لها نشاطها ومؤتمراتها في بلاد المهجر، وقد بدأت الجسور تُقام بين النساء داخل الوطن العربي وخارجه.

لعل آخر هذه المؤتمرات في القرن العشرين نظمته النساء العربيات في كندا خلال أكتوبر ١٩٩٩م، جاءتني الدعوة وحرصت على الحضور، وهناك في مدينة مونتريال التقيت بمئات الشابات العربيات اللائي يدرسن بالجامعات أو اللائي يعملن ويتولين رعاية أسرهن، أو المحامية أو الباحثة في العلوم أو الفنون أو الأديبة أو الشاعرة أو غيرها، وقد تفوقت بعضهن على النساء الكنديات والأمريكيات في مجال العلم أو الفن أو النشاط السياسي.

وعلى شاشة الإنترنت والويب أصبح لجمعية تضامن المرأة العربية الدولية وجودًا تلتقي من خلاله على الشاشة كلَّ يوم آلاف النساء العربيات داخل الوطن العربي وخارجه.

أصبحنا قادرات على متابعة مؤتمرات المرأة العربية ما بين المشرق والمغرب، ومن مالبورن في أستراليا إلى سان فرانسيسكو في أمريكا الشمالية، إلى جنوب أفريقيا وغيرها من بلاد العالم. لا شك أن شاشة الإنترنت والويب أصبحت في نهاية القرن القديم وبداية القرن الجديد وسيلة الاتصال والتواصل بين النساء العربيات في جميع بلاد العالم.

إلا أن حركة المرأة العربية داخل الوطن العربي لا زالت في حاجة إلى مزيد من التنظيم والوعي من أجل تحرير النساء العربيات والوطن العربي كله، ذلك أن نصف المجتمع لا يمكن أن يتحرر في بلاد غير مُحرَّرة.

شهر مارس وتحرير المرأة في أفريقيا

أصبح شهر مارس في العالم هو عيد النساء في مختلف البلاد شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا، تُقام الاحتفالات فرحًا بالانتصارات الجديدة في مجال تحرير المرأة.

أهم دعوة جاءتني بمناسبة هذا الشهر كانت من النساء في غانا، سافرت كثيرًا داخل القارة الأفريقية من السنغال على الساحل الغربي إلى كينيا وتنزانيا في الشرق وجوهانسبرج في الجنوب وأوغندة وإثيوبيا داخل الوسط، إلا أنني لم أسافر إلى غانا، قابلت بعض الشخصيات النسائية من غانا في مؤتمرات دولية، بهرني بعضهن بقوة الشخصية واتساع المعرفة والشجاعة في القول والحركة، ومنهن الكاتبة الشهيرة «أما آتا أوودو»، ولا أنسى أيضًا هذه الأستاذة الجامعية الرشيقة ذات البشرة السوداء والعيون اللامعة التي ألقت علينا في أحد المؤتمرات في نيويورك محاضرة عن تحرير المرأة، تفوقتْ فيها عن النساء الأمريكيات والأوروبيات، وفي المساء تفوقتْ أيضًا في الرقص والغناء.

وتصورت أن الحرية في غانا أكثر من غيرها، لكن الدعوة التي جاءتني كشفت عن أن بعض العادات العبودية لا تزال راسخة هناك، وأن هذه الأستاذة المتحررة عقلًا وجسمًا لا تمثل الأغلبية الساحقة من النساء في غانا، وليس هذا ضدها، بل العكس؛ لأنها استطاعت رغم القيم العبودية في مجتمعها أن تتغلب عليها وأن تفرض نفسها داخل بلادها وخارجها باعتبارها شخصية إنسانية ذات عقل متحرر وجسم كسر القيود وخرج من بين سلاسل القهر رشيقًا قويًّا كالسهم.

وتحتفل النساء في غانا بيوم المرأة العالمي ١٩٩٩م؛ لأن الحركة النسائية هناك نجحت في إلغاء إحدى العادات العبودية التي كانت سارية حتى يونيو ١٩٩٨م؛ أي العام قبل

الماضي فقط، بعد نضال طويل عبر السنين خاضته الحركة النسائية كقوة جماعية، وأيضًا خاضته بعض الرائدات اللائي تمرَّدن لهذه الحركة؛ فالعمل الجماعي يبدأ عادةً بأفراد قلائل من النساء أو الرجال، قد يموتون أو يُسجَنون ويدفنهم التاريخ، إلا أن البذرة تكون قد زُرعت في الأرض، ولا بد من يوم يأتي ليبرز النبات الأخضر فوق السطح تحت الشمس.

في يونيو ١٩٩٨م نجحت الحركة النسائية في غانا في تعديل قانون العقوبات الذي كان يبيح للأب أن يُقدِّم ابنته العذراء لرجل غريب عنها يغتصبها جنسيًّا، ويشغلها في بيته خادمة تطبخ وتغسل، ويشغلها في حقله تزرع وتروي وتحصد، وتحمل وتلد أطفالًا، كل ذلك بلا أي حقوق إلا طعامها.

ولماذا يفعل الأب ذلك بابنته؟!

لأن في غانا عادة عبودية تُسمَّى باللغة المحلية (لغة الأيوى) عادة «التروكوسي»، وتعني عبيد الإله. هذا الإله بالطبع لا يراه أحد، لكن له مندوب على الأرض يحمل لقب «القس»، هذا القس يعيش في معبد اسمه «أولو كورتي»، وهناك في كل قرية عدد من هؤلاء الرجال الذين يحملون لقب القس يسمُّونهم «القساوسة»، وهم في نظر أغلب الناس أرواح بلا أجساد، وإن كان لهم أجساد فهي أجساد طاهرة لا تُمارس ما يمارسه الناس من حياة زوجية مدنسة بالجنس.

إلا أنهم يمارسون شيئًا آخر اسمه «التروكوسي»، يشتمل على الجنس، إلا أنه جنس يباركه الإله فلا يكون مُدنَّسًا.

حسب هذه العادة «التروكوسي» الراسخة في نسيج المجتمع الغاني منذ نشوء العبودية، فإن القس له سلطة الإله ولا أحد يحاسبه على ما يفعل، ومن حقه أن يعيش في أحسن منزل ويستمتع بأحسن طعام وأجمل العذراوات في القرية، كل ذلك تحت اسم «إرضاء الإله».

والناس كلهم يحملون اسم «عبيد الإله»، وعلى كل أب أن يأخذ ابنته العذراء الصغيرة، قبل أن يدركها الحيض، يأخذها إلى «القس»، ينحني أمامه في المعبد، ويسمُّونه «بيت الإله»، ينحني الأب أمام القس ويقول له باحترام ورهبة: «هذه ابنتي العذراء، خذها يا سيدي إرضاء للإله.»

وتصبح البنت الصغيرة مِلكًا للقس، تعيش معه في بيته، تؤدي له الواجبات المنزلية مجانًا، الطبخ والتنظيف والغسل، وتزرع أرضه، وبعد أن يدركها الحيض يُضاف إلى واجباتها الجنس، عليها أن تعاشر القس معاشرة الأزواج.

قد يملك القس من هؤلاء البنات ما يصل إلى خمس عشرة، يطلق عليهم اسم «حريم الإله» مثل حريم هارون الرشيد!

بعد معارك طويلة من الحركة النسائية في غانا، أجاز البرلمان في ١٢ يونيو ١٩٩٨م تعديل القانون بإضافة مادة جديدة رقم ٣١٤ (أ) تعتبر عادة «التروكوسي» جريمة تستوجب السجن ثلاث سنوات على الأقل.

منذ صدور هذه المادة حتى اليوم تحرر ما يزيد عن ألف فتاة من أسيرات التروكوسي في ٣٢ قرية في غانا.

بدأت المعركة ضد التروكوسي تشتد حين كُشفت قصة إحدى البنات واسمها «أبلا كوتور»، عمرها ١٣ عامًا، وقد أخذها أبوها العام الماضي (وعمرها ١٢ عامًا) ووهبها للقس، كتعويض أو تكفير عن عملية اغتصاب أمها (بواسطة خال الأم)، وقد نتج عن هذا الاغتصاب مولد الابنة أبلا كوتور.

بعد ١٢ يونيو ١٩٩٨م أصبحت «أبلا كوتور» حرة من الناحية القانونية وليست ضمن أملاك القس، إلا أن أحدًا من أسرتها لم يتقدم لاستلامها خوفًا من بطش الإله أو القس أو التقاليد الاجتماعية السائدة والتي لم يستطع القانون الجديد أن يغيرها بهذه السرعة.

إن العادات العبودية الراسخة في المجتمع تحتاج إلى وقت وجهد وحملات ثقافية لرفع الوعي لدى الناس، ولا يكفي إصدار قوانين جديدة. أقول هذا لأن كثيرًا من الناس في بلادنا تصوروا أن ختان الإناث سوف ينتهي بعد صدور قرار وزير الصحة بمنعه، إلا أن هذا غير صحيح، وكثيرًا ما يتحايل الناس على القانون لتحقيق عاداتهم القديمة.

وأيضًا بالنسبة لإلغاء المادة ٢٩١ من قانون العقوبات التي تُسقط التهمة عن الرجل الذي يغتصب فتاة إذا تزوجها، وقد سهَّلَت هذه المادة في القانون لبعض الرجال أن يخطفوا ويغتصبوا البنت التي يريدونها، وبعد ذلك يذهبون إلى أسرتها ويقولون: نحن على استعداد للزواج منها. وغالبًا ما ترحب الأسر بهذا الحل إصلاحًا للخطأ أو تسترًا على الفضيحة أو حماية لشرف العائلة. هكذا تروح البنت ضحية جريمتين: «الاغتصاب» و«الزواج من الرجل الذي اغتصبها». وهكذا يُكافأ الجاني بالزواج من الضحية، وتَسقط عنه التهمة والعقاب؛ وهو الإعدام حسب القانون أو السجن المؤبد مع الأشغال.

بدأ بعض الرجال والنساء في بلادنا ينادون بإلغاء هذه المادة ٢٩١ من قانون العقوبات باعتبارها بعض بقايا العبودية أو القهر على الإناث، ولا بد من إلغاء هذه المادة حتى نطهِّر القوانين في بلادنا من رواسب العبودية.

إلا أن تغيير القانون لا يكفي، لا بد من حملات ثقافية وتعليمية وإعلامية ترفع الوعي لدى الناس، وتساعدهم على التخلص من هذه العادات والتقاليد أو العرف، الذي يكون أحيانًا أقوى من القانون لارتباطه بما يُسَمَّى إرضاء الإله أو القس أو رجال الدين أو غيرهم ممن لا يفرقون بين التعاليم الدينية والتعاليم البشرية.

لعل شهر مارس ١٩٩٩م يلعب دورًا في رفع الوعي، والإسهام في هذه الحملات الثقافية والإعلامية.

الدكتورة سهير القلماوي كما عرفتها[1]

كنت طفلة في المدرسة الابتدائية حين سمعت صوتها في الراديو، صوت قوي ممتلئ، يشبه صوت أم كلثوم، إلا أنها لا تغني، لكن تتحدث في الأدب والثقافة وتعليم المرأة.

كان الراديو في الأربعينيات جهازًا سحريًّا (مثل الإنترنت اليوم)، والأصوات تخرج منه شبه سحرية، إلا تلك الأحاديث عن الطبخ والتدبير المنزلي، كنت أهرب منها إلى الأدب والفن. أحرك مفاتيح الراديو لأسمع أم كلثوم وطه حسين وسهير القلماوي. وقال أبي: إنها تلميذة طه حسين، هو الذي شجعها، وهي أول امرأة مصرية تدخل الجامعة.

حين دخلت الجامعة سألتُ عنها، قالوا إنها في كلية الآداب، وكنت أنا في كلية الطب، لم أعرف الطريق إليها، كانت أستاذة كبيرة معروفة وأنا في أول الشباب، تخرجت طبيبة وبدأت أكتب الأدب، نشرت بعض القصص القصيرة، وأول رواية طويلة «مذكرات طبيبة» ظهرت على حلقات في مجلة «روز اليوسف». في يوم دقَّ جرس التليفون في بيتي، جاءني الصوت القوي الممتلئ الذي سمعته في الراديو منذ عشرين عامًا:

أنا سهير القلماوي، قرأت روايتك في مجلة «روزا» وأعجبتني، واصلي الكتابة يا نوال ...

كانت لحظة في حياتي لا أنساها، كان صوتها هو الوحيد بين النساء المعروفات حينئذٍ الذي جاءني، كلماتها شجعتني على الكتابة وملأتني بالأمل. كان أبي يقول دائمًا: «كلما ارتفع الإنسان تواضع.» كانت سهير القلماوي في قمتها الأدبية، وكنت أنا في أول

[1] الأهرام، ٧ مايو ١٩٩٧، ص١٠ (توفيت ٥ مايو ١٩٩٧م).

حياتي، رفعتْ سماعة التليفون وكلمتني، لم تستغرق المكالمة إلا دقيقة أو نصف دقيقة، إلا أنها بقيت في ذاكرتي أربعين عامًا.

إن سهير القلماوي مثل طه حسين، أحد الأعمدة الثقافية والأدبية في بلادنا، يجب ألا تندثرَ أعمالها بوفاتها، فما أسهل أن تندثر الرائدات من النساء.

إن الرواد من الرجال أمثال طه حسين يجدون بعض الاهتمام من الحركة الثقافية والأدبية في بلادنا؛ فهي حركة يغلب عليها الرجال بحكم التاريخ والقوة السياسية، ولا تزال الحركة الثقافية النسائية هامشية، تغلب عليها الصراعات الحزبية، تميل إلى التضحية بقضية المرأة من أجل القضايا الأخرى؛ لهذا السبب اندثرت أعمال الكثيرات من الرائدات المصريات، في حياتهن وبعد موتهن.

سهير القلماوي لها مؤلفات وكتابات تستحق الاهتمام، سواء اختلفنا معها أو اتفقنا، إنها جزء من التاريخ لا بد أن تعرفه الأجيال المتعاقبة.

كانت سهير القلماوي صديقتي، وكنت أختلف معها في الرأي حول أمور كثيرة، إلا أن هذا الاختلاف هو أساس التطور والنمو والإبداع، وهو أساس الصداقات الإنسانية الأدبية القوية، هذه الصداقات تنشأ بين الأنداد ذوي الرأي، وليس بين الإمَّعات التابعين للآخرين. وكانت سهير القلماوي تحترم الرأي المخالف؛ لأنها كانت تحترم رأيها ونفسها. لم تتأرجح سهير القلماوي بين التيارات المسيطرة، حافظت على مبادئها، وإن دخلت في نزاع مع ذوي السلطة، ولم تكن مثل غيرها الذين عاشوا في كل العهود وتربعوا على عرش الثقافة والأدب والمرأة.

هل يمكن لوزارات الثقافة والتعليم والإعلام أن تبذل الجهود لتعريف الشباب والشابات في مصر بأعمال سهير القلماوي؟! لها كتاب بعنوان «أحاديث جدتي»، يمكن أن يدخل المدارس ويقرؤه الأطفال من الأولاد والبنات، ربما تتشجع البنات المصريات على مقاومة الردة الثقافية التي تفرض عليهن الاختفاء وراء الخمار أو جدران البيت والمطبخ.

لا يزال تاريخ سهير القلماوي وأعمالها مجهولة عند الأجيال الجديدة في بلادنا، أخشى أن تندثر تمامًا بوفاتها كما حدث لنساء غيرها؛ فالضربات لا تزال توجَّه إلى الحركة النسائية تحت أسماء ومسميات دينية أو سياسية، ولا يزال عدد المؤرِّخات من النساء قليلًا يُعَد على الأصابع، تنشغل معظمهن بالكتابة عن الرواد من الرجال.

فهل يمكن أن تتبنى الحركة النسائية المصرية مشروعًا جديدًا لإحياء تاريخ الرائدات المصريات، ومنهن الدكتور سهير القلماوي؟!

أرجو ذلك! لا بد!

الوعي القومي بين الحركة الوطنية والحركة النسائية[1]

ما أسهل أن تكتب عن تحرير الفقراء دون أن تُنصِف الخادم الفقير في بيتك، وما أسهل أن تكتب عن «تحرير النساء»، ثُمَّ تسلب زوجتك حقها، أو تسب خادمك (إذا لم يحفظ كلمته)، وتقول له «أنت مَرَة» (يعني امرأة باللغة الفصحى)، وتمدح المرأة الشجاعة ذات الشهامة قائلًا: «إنتي رجل»، كأنما المرأة لا كلمة لها ولا شجاعة ولا شهامة.

هذا التناقض بين القول والعمل لا يخص الأفراد، وليس سمة عصرنا الحديث فحسب، ولكنه يخص الدول والجماعات البشرية منذ نشوء النظام السياسي الاقتصادي الذي عُرف في اللغة باسم النظام «الطبقي الأبوي»، وتعكس اللغة أو الثقافة القيم الأساسية والاقتصادية للطبقات الحاكمة في أي مجتمع.

يكفي أن نتابع الأخبار في العالم أو في بلادنا العربية والأفريقية لنشهد التناقض الصارخ بين ما تعلنه الدول (خاصة ذات القوة العسكرية النووية) من بيانات عن مكافحة الإرهاب والدعوة إلى السلام، وتطالعنا الأنباء كل يوم بصور المجازر البشرية في أفريقيا وبلادنا العربية، أقربها إلينا الاعتداء الإرهابي الإسرائيلي على شعب لبنان وفلسطين المحتلة خلال هذا الربيع الدامي من عام ١٩٩٦م، والذي دعمته الولايات المتحدة الأمريكية بالسلاح العسكري، والفيتو في الأمم المتحدة، وتكنولوجيا الإعلام الحديث، الذي حوَّلَ المذابح أو المجازر البشرية إلى عمل من أعمال السلام والحرية أو الديمقراطية.

---

[1] القاهرة، ١٩٩٦م.

هذا هو النظام العالمي الجديد أو السلام الإرهابي الذي أحرزته البشرية في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، وهو النظام الطبقي الأبوي القديم يتجلى في أوضح صوره الحديثة، ويؤكد لنا كل يوم أنه لا يعرف إلا القوة العسكرية، ولا يؤمن إلا بالربح الاقتصادي، تحت سيطرة الطبقة الأعلى المالكة للمال والسلاح في الدولة، والجنس الأسمى المالك للسلطة والفضيلة داخل العائلة.

أدى هذا النظام في التاريخ البشري إلى تناقضات خطيرة في القيم السياسية والأخلاقية على حد سواء، وتم الفصل التعسُّفي بين الرجال والنساء، وبين أصحاب الأملاك والأجور. أصبح تاريخ الإنسانية هو ذلك الصراع اللانهائي لتحرير النساء والفقراء من عار الفقر وعار المرأة، بعد أن أصبحت كلمة امرأة سُبَّة، وكلمة فلاح إهانة.

لم تكفَّ في التاريخ ثورات النساء وثورات الأجراء أو الفقراء ضد جميع الأنظمة، ابتداءً من العبودية إلى الإقطاعات الزراعية إلى الرأسماليات الصناعية إلى الاشتراكيات المزيفة إلى عصر تكنولوجيا القوى النووية والإعلامية الذي نعيشه اليوم.

كان يمكن للثورة العلمية أو التكنولوجية الحديثة أن تُستخدم في منافع عظيمة لشعوب الكرة الأرضية، وكان يمكن للطاقة النووية أن تُحدث ثورة إنسانية تقضي على مآسي الجوع أو الفقر أو الأمراض، لكنها بدلًا من ذلك فقد استُخدمت لإنتاج القنابل وأسلحة الدمار الشامل، وتبددت البلايين في تنظيم مؤتمرات دولية تنفخ في الأبواق بكلمات خاوية عن السلام، أو البحث في السماء عن ذَنَب فضائي تاه عبر ملايين السنين الضوئية بين النجوم.

لم يقترن «العلم» أو السياسة أو الأخلاق بالضمير الإنساني أو مبادئ العدل أو الحرية والتعاون، بل اقترنت كلها بتراكم الربح والمال وتجميعها بالقوة المسلحة والتنافس.

ارتبطت القيم الأخلاقية بالقوة الاقتصادية والسياسية والإعلامية، وأصبحت القيمة العظيمة لأي دولة في امتلاكها السلاح النووي، والقيمة الكبرى لأي فرد يظهر على شاشة التليفزيون، أو نرى صورته في الصحف كل يوم أو كل أسبوع.

أصبحت الناس تخاف القوة، خاصةً الفلاسفة الذين يعيشون في راحة وأمان داخل أبراجهم العالية؛ فلم نسمع عن فيلسوف واحد في عصرنا استُشهد من أجل الدفاع عن العدل أو الحرية. وفي العصر العبودي استُشهد سقراط في اليونان القديم، واستُشهدت الفيلسوفة المصرية «هيباثيا» في الإسكندرية القديمة منذ ألف وستمائة عام.

لم ينجب عصرنا مثل هؤلاء الفلاسفة أو المفكرين أو المثقفين من الرجال والنساء، من ذوي الشجاعة في قول الحق، وعدم الفصل بين القول والعمل.

رغم تراكم الثراء والمال والتكنولوجيا لم يحقق عصرنا العدل أو الحرية لأغلب سكان الأرض، بل زادت الهُوَّة بين الفقراء والأثرياء، وزادت التفرقة بين الرجال والنساء.

وحين تشتد الأزمات أو المذابح يستيقظ ضمير الفلاسفة أو المثقفين فجأة، يمسكون أقلامهم، يسوِّدون الصفحات البيضاء من الورق، يستنكرون الاعتداء أو الإرهاب، يوجِّهون الإدانات إلى «الضحية» أو الشرائح الأضعف سياسيًّا من الطبقات الأقل أو الجنس الأدنى من النساء، يتفادون الإشارات إلى الرءوس الكبيرة من رجال السياسة أو الحكم.

ونقرأ في الصحف أو الكتب النظريات الحديثة عن فساد عالمنا المعاصر بسبب غياب الأخلاق أو القيم والتقاليد، أو بسبب خروج النساء إلى العمل أو انخراطهن في حركات نسائية، أو بسبب تزايد أعداد الفقراء أو العاطلين وانخراطهم في حركات إرهابية تهدد الأمن العام.

هكذا تضيع الحقائق في خِضَم الكلام أو الكتابة أو الإعلام السائد، ينتشر الوعي الزائف بين النساء والرجال، تنقلب الحركات التحريرية المدافعة عن حقوق الفقراء أو حقوق النساء إلى حركات عنصرية انفصالية تزرع الكراهية أو الحقد بين الجنسين أو بين الطبقات.

في بداية هذا القرن أو نهاية القرن الماضي دُمِغَت حركات تحرير العمال في بلادنا بأنها حركات مشبوهة مستوردة من الغرب، يسيطر عليها الأجانب أو الشيوعيون الملاحدة، هدفهم الأساسي ضرب الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي. وبالمثل أيضًا أُدينت الحركات النسائية بأنها مستوردة من الغرب، تُعلن الحرب على الرجال والأسرة أو الأخلاق والتقاليد، وتؤدي إلى فصل نضال الرجال عن نضال النساء داخل الحركة الوطنية.

خلال القرن العشرين اكتسبت حركات العمال أو العاملين في مجالات الصناعة والزراعة قوة سياسية جديدة بعد انتشار الأفكار الاشتراكية وتقوية اتحادات العمال والنقابات، ولم يعُد الدفاع عن الفقراء يعني الإلحاد الشيوعي، ولم يعد الحديث عن القهر الطبقي كُفرًا بالله وخيانةً للوطن، لكن المشكلة الطبقية ظلت منفصلة عن المشكلة الأبوية، وظل الوعي الوطني العام منفصلًا عن الوعي النسائي.

لم يكن تنظيم النساء سهلًا أو ميسورًا؛ لأن أغلب النساء معزولات داخل الحياة الخاصة أو الأسرة الصغيرة، لا يسهل تجميعهن مثل الرجال داخل المؤسسات العامة مثل النقابات أو الاتحادات أو البرلمانات أو الأحزاب السياسية. وقد نشأت هذه المؤسسات في بلادنا والمرأة محرومة من حقوقها السياسية؛ لهذا أصبحت الأغلبية فيها للرجال،

وسيطرت عليها قلة من الطبقة الوسطى الساعية إلى الحكم أو الارتباط بالطبقة العليا، يملكون الكتابة والتاريخ للحركة الوطنية؛ بل للحركة النسائية أيضًا.

في مصر مثلًا يكتب هؤلاء المؤرخون عن قاسم أمين كأنما هو المحرر الأول والأخير للنساء، ويندثر الدور الذي قامت به المرأة قبل قاسم أمين أو الكتابات التي قدمتها النساء عبر مراحل التاريخ حتى يومنا هذا.

يرتبط التاريخ بالسلطة الحاكمة لا شك، حكومة ومعارضة، ويأتي التاريخ كمحصلة للصراع الحزبي حول السلطة والنفوذ. وكانت المرأة ولا زالت خارج هذا الصراع؛ بسبب ضعف حركتها السياسية وعدم قدرتها على التنظيم، أو مقاومة الوعي الزائف السائد في أجهزة الإعلام والثقافة والتعليم.

يرتكز الوعي الزائف على إخفاء التناقض بين القول والعمل، على تجزئة المعرفة والفصل بين القضايا العامة والقضايا الخاصة، أو بين السياسة والدول والأسرة والأخلاق، أو بين القضية القومية أو الوطنية وبين القضية النسائية.

ويُخفي الوعي الزائف الأسباب الحقيقية للمذابح والمجازر التي تحدث في بلادنا العربية والأفريقية، يحدث الفصل بين القوة والمسئولية، تقع المسئولية على الأضعف وتعاقَب الضحية؛ مثل الأفارقة الفقراء أو العرب الكسالى الخاملين أو النساء العاطلات، بلا وازع ولا ضمير.

إذا أردنا أن نعالج هذا الخراب السياسي والاقتصادي والثقافي والأخلاقي فلا بد من علاجٍ لهذا الوعي الزائف عن طريق الربط الدائم بين السياسة والاقتصاد، والثقافة والأخلاق، والدولة والأسرة، والخاص والعام، والقضية النسائية والوطنية والقومية. هذا الربط ضرورة لعلاج تجزئة المعرفة، ولتشخيص الأزمات تشخيصًا صحيحًا؛ وبالتالي علاجها على النحو الصحيح.

لقد أصبحنا — نحن النساء أو الفقراء أو الأفارقة أو العرب — أول الضحايا لهذا النظام الطبقي الأبوي الجديد، الذي يحمل اسم النظام العالمي الجديد. ويسقط كلَّ يوم مئات القتلى، أغلبهم نساء وفقراء وأطفال وشباب. لقد أصبحنا ضحايا البطش العالمي والمحلي تحت اسم التعاون أو الترابط الدولي أو ما يُسمَّى أحيانًا «الكونية» نسبة إلى كون واحد أو عالم واحد، تسقط فيه الحدود بين البلاد، وتتم الوحدة بين البشر.

إلا أن هؤلاء البشر ليسوا إلا القلة الحاكمة دوليًّا ومحليًّا، المالكة للمال والسلاح، الساعية إلى تفريق الشعوب المحكومة في بلادنا الأفريقية والعربية، وإقامة الحدود بينهم،

وتفتيت قواهم تحت اسم الاختلاف، أو التعددية وتباين الأديان أو الثقافات أو القوميات أو الجنسيات ... إلخ.

وتُستخدَم كلمة مثل «الديمقراطية» كسلاح ذي حدين، أو الكيل بمكيالين، حرية إسقاط الحدود تحت اسم الكونية، وحرية إقامة الحدود تحت اسم التعددية والاختلاف.

هكذا يتخبط المثقفون في بلادنا بين هذه الكلمات الحديثة الرنانة، في هذا العصر الذي يسمونه عصر ما بعد الحداثة، أو عصر ما بعد الاستعمار، أو عصر ما بعد التحكم الاقتصادي، إلى عصر حرية السوق، وحرية النساء والفقراء أو سكان «العالم الثالث».

يقود هذا العصر مفكرون من جامعات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أكاديميون داخل غرفهم المغلقة يدبِّجون الكلمات والاصطلاحات الجديدة، يتقاتلون بالحروف واللغة، ويقولون إن ساحة القتال في عصر ما بعد الحداثة هي الساحة اللغوية أو الثقافية وليس الساحة الاقتصادية. لقد أصبحنا في عصر ما بعد اقتصاد، أصبحنا في عصر اللغة أو الثقافة.

هكذا يتم الفصل مرة أخرى بين اللغة والثقافة وبين الاقتصاد والسياسة، يقود هذا الاتجاه الفكري الجديد رجال ونساء من الطبقة الرأسمالية الحديثة يرفلون في نعيمها الاقتصادي، لكنهم ينسَوْن أو يتناسَوْن هذه الحقيقة حين يُمسكون أقلامهم ويكتبون نظرياتهم الجديدة عن عصر ما بعد الحداثة أو عصر اللغة والثقافة.

وقد أصبح مصيرنا يتوقف على مقاومة الوعي الزائف الذي تسوقه إلينا هذه الطبقة العالمية والمحلية الحديثة، والذي يحمل أغلبهم ألقابًا أكاديمية ضخمة من نوع «مفكر أو فيلسوف»، علينا ألا نُخدَع بهذه الفلسفة اللغوية الثقافية المنفصلة عن الاقتصاد والسياسة والتاريخ؛ فاللغة اجتماعية سياسية اقتصادية، وليست شيئًا عُلويًّا مُعلَّقًا في السماء أو هابطًا من أعلى.

إلا أن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين يضعون «اللغة» في مكان عُلويٍّ يشبه مكانة الدين، هناك من يؤمن أن الخالق الأعظم هو الذي خلق اللغة، وهو الذي يغيِّرها وفق مشيئته وليس لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية تحدث في حياة الرجال والنساء فوق الأرض.

ويحاول هؤلاء المفكرون تطوير اللغة بمعزل عن تطوير الاقتصاد والسياسة، مع أن اللغة أو الثقافة ليست إلا انعكاسًا للقيم الاقتصادية والاجتماعية السائدة.

خلال هذا القرن ومنذ تزايد القوة السياسية والاقتصادية أو الحزبية لطبقة العمال والفلاحين لم تعُد كلمة «عامل» أو «فلاح» إهانة كما كانت، لكن كلمة «امرأة» (مَرَة بالعامية) لا تزال إهانةً ونوعًا من السباب.

يرجع ذلك إلى ضعف القوة السياسية والاقتصادية للنساء في بلادنا؛ فالمرأة هي أضعف شرائح المجتمع سياسيًّا واقتصاديًّا، وهي أول من يُطرَد من الأعمال المنتجة بأجر في الأزمات الاقتصادية، وهي أول من يموت في الحرب مع أطفالها، وهي أول من يُتَّهَم ويُدَان في الأزمات السياسية أو الأخلاقية أو تصاعد النعرات الدينية.

ذلك أن الفلسفة السائدة — رغم تطويرها عبر القرون — لا تزال في جوهرها فلسفة طبقية أبوية، ويحكم العالم دوليًّا ومحليًّا طبقةٌ صغيرة من الرجال يملكون المال والسلاح والدين والدنيا، ويصبح التحدي المُلقى على الحركة النسائية في بلادنا أن تسعى نحو القوة السياسية والاقتصادية والثقافية في جميع المجالات العامة والخاصة داخل الأسرة الصغيرة والمجتمع الكبير سواءً بسواء.

فلوس المرأة، هل هي عورة؟[1]

دقَّ جرس التليفون بمنزلي ليلة الجمعة ٢٠ يوليو ١٩٩٦م، صوت امرأة تُوَلْول عبر الأسلاك: الحقيني يا دكتورة، الأستاذ طلعت في غيبوبة فوق الجهاز!

كنت في غيبوبة النوم: جهاز إيه؟ الأستاذ طلعت أخويا؟ أيوة يا دكتورة، أخوكِ بيموت فوق الجهاز، الحقيني!

انتبهت وتذكرت، كان أخي منذ ساعات قليلة جالسًا إلى جواري يضحك، ويستعد للسفر للإسكندرية لقضاء شهر أغسطس. اتفقنا على اللقاء غدًا في بيته ليعطيني صورنا القديمة منذ الطفولة، انتزعها من بيت جدي منذ أكثر من نصف قرن، واحتفظ بها داخل صندوق مغلق كأنها الجواهر، لم أعرف قيمة هذه الصور إلا الشهر الماضي في لندن، طلب مني الناشر الإنجليزي خمس عشرة صورة لمراحل الطفولة وأول الشباب، سوف ينشر هذه الصور مع كتابي الجديد «أوراقي حياتي».

أصبحت في الشارع ... السيارة تشق الظلمة من شمال القاهرة إلى الجنوب، الضربات تحت ضلوعي تتصاعد مع مطبات الطريق.

هل ألحق أخي قبل أن يموت؟ منذ أيام قليلة نصحه طبيبه الخاص ألَّا يذهبَ إلى المستشفى لعمل غسيل كُلَوي. وسألني الرأي، فقلت له بالحرف الواحد: أنا لا أنصح أي إنسان قريب أو غريب بالذهاب إلى أي مستشفى؛ فأنا اشتغلت طبيبة سنين طويلة في هذه

---

[1] نُشر بجريدة العربي، ٥ أغسطس ١٩٩٦م.

المهنة الكئيبة، أدركتُ حقيقة جوهرية، هي: المستشفيات في بلادنا لم توجَد إلا للإسراع بوفاة الناس، أمَّا هذا الجهاز المُسَمَّى بالغسيل الكُلَوي فليس إلا أداة للقتل.

ضحك أخي، وكان يحب الضحك والمرح منذ الطفولة. أكثر ما كان يحب الموسيقى والعزف على العود، الرجال والنساء في عائلة أبي وأمي كانوا مثل بعض المشايخ اليوم، يرَوْن أن الموسيقى «زنا» كعمل المرأة خارج البيت واختلاطها بالرجال، وهجر أخي الموسيقى ودخل الجامعة ليحمل شهادة عليا، عاش بها ومات بها، موظَّفًا مجهولًا في أحد السراديب.

قبل أن أصل إلى مستشفى ٦ أكتوبر بالدقي مات أخي فوق الجهاز، ألقَوْا به في غرفة قذرة كما يُلقون بالآلاف من الموتى الفقراء المجهولين أو الموظفين تحت مظلة التأمين الصحي بلا واسطة للوزير أو رئيس الجهاز.

أخذوني إلى حيث رأيت الصراصير السوداء تجري فوق البلاط، فوق الترولي رأيت شيئًا ملفوفًا في بطانية قذرة.

قدماه تُطلان عاريتين مرعوبتين بلون الجير الأبيض بلا قطرة دم، عرفته من قدميه، الأصابع الطويلة لها شكل أصابعي، لم أستطع أن أرفع البطانية المهلهلة لأرى وجهه.

قلت للمسئولين عن الجهاز: هذه جريمة قتل، كانوا من زملائي الدكاترة، بعضهم يمسك سبحة صفراء بين أصابعه ويرتدي لحية سوداء طويلة، قالوا: الموت بإرادة الله يا دكتورة، ألا تؤمنين بالله؟ هكذا في غمضة عين انقلب الوضع، كنت أتهمهم بالإهمال إلى حد القتل، أصبحت أنا المتهمة بعدم الإيمان أو الكفر.

الليلة الأخيرة لأخي في هذه الدنيا قضاها عاريًا داخل ثلاجة المستشفى، في الصباح سافر داخل الكفن والصندوق إلى قريتنا كفر طحلة حيث المقبرة.

في القرية تجمعت النساء والرجال من عائلة السعداوي من الفلاحين والفلاحات بالوجوه المُتْرِبة المرهقة والأيادي المشقَّقة.

عائلة شكري بيه سليلة المجد حتى طلعت باشا في إسطنبول (المرحوم جدي والد أمي منح أخي اسم طلعت على اسم جده العظيم في تركيا)، رائحة العرق والطين في الجلاليب القديمة تختلط برائحة العطور الأنثوية في الفساتين والطُّرَح السوداء الحريرية.

أكثرهم شجاعة كانت زينب ابنة عمتي، المرأة الفلاحة الفارعة القادمة، تذكِّرني بجدتي مبروكة (أم أبي)، خطوتها الواسعة تدب فوق الأرض، صوتها مملوء بالقوة: ما تحمليش هم حاجة يا دكتورة، إحنا فتحنا المقبرة وكل حاجة جاهزة عشان الجنازة.

زينب الفلاحة لم تُوَلْول مثل النسوان القادمات من المدينة، الملفوفات في الطُّرَح والفساتين الحريرية، الشاحبات الوجه من عدم رؤية الشمس، أو عدم الحركة أو العمل في الحقل، إنهن من عمر زينب، لكن زينب لا تكفُّ عن الحركة والعمل من طلوع الشمس حتى غروبِها، وهن جالسات متربِّعات فوق الشلت، يولولن أو يثرثرن، أو يتقاسمن الميراث قبل أن يتوارى الجثمان في المقبرة.

كان المنادي في القرية قد طاف قبل صلاة الجمعة يُعلن عن وفاة الأستاذ طلعت السعداوي ابن فلان شقيق فلان وفلانة، هذه الفلانة هي أنا، ذكر المنادي اسمي كاملًا: «الدكتورة نوال السعداوي». تجمع الفلاحون من قريتي والقرى المجاورة فوق الجسر، ينتظرون قدومي، يريدون تقديم العزاء لي، إنهم يعرفونني منذ كنت طبيبة الوحدة الصحية المجمعة في طحلة، وقد سعيت كثيرًا لإدخال الكهرباء والمياه النقية ورصف الطريق الزراعي وفتح المدرسة للبنات ومركز الشباب، وما زلت أسعى حتى اليوم لإدخال شبكة المجاري أو الصرف الصحي.

لم يشعر أحد من الفلاحين أن اسم المرأة عورة إذا نادى به المنادي، أو أن مشاركتها في جنازة أخيها نوع من الزنا مثل خروجها إلى العمل بأجر.

إلا أن بعض الدكاترة من حملة الشهادات العليا من الرجال في العائلة الكريمة كانوا على خلاف مع الرجال الفلاحين، لاحظت أن لبعضهم اللحى الطويلة والمسابح الصفراء، سمعتهم يقولون: اسم المرأة لا يصح أن يُنادى به كما يُنادى اسم الرجل، والمرأة ممنوعة من السير في الجنازات حسب الإسلام الصحيح.

دار النقاش بين الدكاترة والفلاحين حول الإسلام الصحيح والإسلام غير الصحيح، لم أشترك في النقاش، ولم أشارك أيضًا في الجنازة، قلت لنفسي: ربما يتحول الأمر إلى معركة بين الدكاترة والفلاحين، وأهم شيء عندي هو أن يُدفَن أخي وأطمئن على مثواه الأخير قبل أن أعود إلى القاهرة.

بعد الجنازة والدفن، بدأنا نحسب المصاريف، كان الاتفاق أن يدفع ٥٠٪ من المصاريف بعد أن استولت زوجة المتوفَّى على معاشه من الحكومة، والذي صرفه قبل الوفاة بساعة واحدة، وقدره ٦٥٠ جنيهًا مصريًّا؛ إذ دست يدها في جيبه وهو فوق الجهاز، وقبل أن يلفظ أنفاسه؛ وأخي الأصغر يدفع النصف الآخر.

في الطريق الزراعي من القرية إلى المدينة دار في رأسي هذا السؤال: لماذا يكون اسم المرأة عورة ومشاركتها في الجنازة عورة؟

فلماذا لا تكون أيضًا فلوس المرأة عورة؟ ولم يعترض أحد من الدكاترة على أن أدفع المصاريف.

طريقي ليس إلى بكين![1]

منذ مؤتمر المرأة الأول في المكسيك عام ١٩٧٥م دُعيتُ إلى عدد من المؤتمرات الدولية تحت شعار الأمم المتحدة، عددها كبير وأثرها قليل، رغم ما يُنفَق فيها من مال وجهد. وبعد مؤتمر في كوبنهاجن عام ١٩٨٠م بدأت أشك في جدوى هذا العمل، وكنت قد أنفقت عامين من عمري في أديس بابا وبيروت؛ حيث اشتغلت بالأمم المتحدة، مستشارًا لبرامج المرأة في أفريقيا وآسيا (عامي ١٩٧٩م و١٩٨٠م) قدمت بعدهما استقالة صغيرة تتكون من عبارة واحدة هي: «لا أظن أن تحرير النساء في أفريقيا وآسيا سيحدث من خلال الأمم المتحدة.»

وقلت لنفسي — وأنا في طائرة العودة إلى بيتي في مصر: ربما تكون الأعمال الأدبية وكتابة الروايات أجدى وأعمق أثرًا. إلا أن الدعوة جاءتني لحضور مؤتمر المرأة في نيروبي عام ١٩٨٥م، وذهبت واشتركت في مظاهرة نسائية تتكون من ستة آلاف امرأة سوداء ضد المؤتمر الحكومي (الذي عُقد فيما يشبه قصر كينياتا)؛ حيث قرأتْ مندوبات الحكومات خُطبًا مكتوبة من قَبْل «حبرًا على ورق مصقول.»

وتأكدت بعد مؤتمر نيروبي أن تحرير النساء خاصةً «السوداوات الفقيرات في أفريقيا»، لن يكون عن هذا الطريق، وكم تصدعتْ رأسي من قراءة تقارير الأمم المتحدة عن نساء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، أو ما يسمونهن «نساء العالم الثالث» تقارير

[1] نُشر بجريدة الأهرام، ٣٠ / ٧ / ١٩٩٥م.

سميكة تأتيني بالبريد حيث أكون، تشبه قرارات مجلس الأمن لإيقاف المذابح في البوسنة أو فلسطين أو الصومال أو رواندا أو ... أو ... بأنها حبر على ورق.

واليوم في درج مكتبي الدعوة إلى مؤتمر المرأة في بكين (سبتمبر ٩٥م) أُمسكها في يدي، وفي يدي الأخرى صحيفة الصباح تحكي عن المذبحة في شرق البوسنة في «سيربيرنيتسا»، تذكِّرني بمذبحة صبرا وشاتيلا، وعين الحلوة، والكرامة، والرشيدية، وجثث النساء والأطفال الفلسطينيين واللبنانيين، رغم مرور السنين أراها تنزف بمثل ما تنزف هذه الجثث، عيون الأطفال المقتولة لا تزال مفتوحة، تطلُّ على العالم بدهشة، ملامحهم متشابهة، رغم اختلاف البلاد والأديان والألوان، الفم مفتوح والدم متجمد عند النفَس الأخير، والعالم كله يشهد الجريمة، يرى القتلة من إسرائيل أو من الصِّرْب، دون أن يفعل شيئًا، بل إنه يساند القتلة ضد المقتولين، والعناوين الكبيرة في الصحف تقول: هزم الصرب قوات الأمم المتحدة في موقعة سربيرنيتسا شرق البوسنة. هذه القوات الدولية (التي شُكلت عام ١٩٤٨م)، وطائرات حلف الأطلنطي انهزمت أمام قوات الصرب الصغيرة المحدودة؟! فتح الصرب نيرانهم على ٨٠ ألف نسمة سكان المدينة المحاصرة يعيشون منذ ٣ سنوات بلا ماء ولا كهرباء ولا غاز، وممنوع عليهم الإمساك بالسلاح للدفاع عن أنفسهم! وفي الصورة في الصحيفة يبتسم المسئولون عن الأمم المتحدة ويقولون: انتصار الصرب لا يعني فشل الأمم المتحدة لأن خيارنا هو «الحوار» وليس استخدام القوة العسكرية!

يا إلهي! لم نسمع هذه العبارة في يناير ١٩٩١م قبل حرب الخليج التي قُتل فيها نصف مليون نسمة تحت قرار الأمم المتحدة، وخيارها حينئذٍ «القوة العسكرية» وليس الحوار! (أي خيار؟!)

تلعب القوى الدولية — ومعها الأمم المتحدة — دورها المزدوج من وراء الستار؛ فهي تشجب الاعتداء في بيانات ورقية أو كلامية، وتمد الجيش المسلح بمزيد من السلاح، وتمنع عن الشعب الأعزل أي سلاح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه.

نساء وأطفال يواجهون جيشًا مُسلَّحًا بأجسادهم العارية، والدعوات إلى مؤتمر المرأة في بكين تطير عبر البريد إلى النساء، تتنافس عليها النساء، فما أجمل بكين في بداية الخريف، وما أجمل تقارير الأمم المتحدة عن الفقر والنساء في أفريقيا بالذات، إلا أنني تأكدت مما تأكدت منه منذ عشرين عامًا، أن الطريق إلى تحرير النساء لا يكون في بكين أو كوبنهاجن، الطريق إلى تحرير النساء يبدأ من هنا، من مسقط الرأس، من المكان الذي وُلدنا فيه ونموت فيه، وإلا فإن كتابة القصص والروايات أجدى وأمتع!

وماذا تقول المرأة في القرن الواحد والعشرين[1]

العالم ينطلق نحو آفاق في العلم والفن ونظريات المعرفة والسلوك والقيم المادية والروحية على حد سواء، المرأة العربية هي نصف العالم عددًا، عقولًا وأرواحًا، ولا بد أن يكون لها دورها في تشكيل عالم أفضل في القرن الواحد والعشرين، عالم أكثر عدلًا وحريةً وحُبًّا وتعاوُنًا.

هل تظل المرأة العربية غارقة في مشاكل القرن التاسع عشر حائرةً بين العمل أم الزواج، السفور أم الحجاب، الدنيا أم الآخرة ... في الوقت الذي تركب فيه المرأة الإسرائيلية الطائرات العسكرية وتتدرب على السلاح النووي لضرب أي بلد عربي يقول لا.

ليس معنى ذلك أن تنخرط المرأة العربية في القوات المسلحة، وتظل عانسًا بغير زواج أو أمومة أو حب، لكن ما أعنيه هو أن تجمع المرأة العربية بين حياتها الخاصة وحياتها العامة ... أن تدرك أن هذا الفاصل بين الحياة الخاصة والعامة فاصل مزيف يجب أن يزول؛ فالإنسان «رجلًا أو امرأةً» عضو في مجتمع كبير، وعضو في أسرة في الوقت ذاته، ولا يمكن أن يتفرغ الإنسان لحياته الخاصة فقط.

إن حدث ذلك في القرون الماضية فقد كان الناس غير مدرِكين للترابط الوثيق بين الفرد والمجتمع، كان العمل السياسي منفصلًا عن الحياة الاجتماعية والشخصية لملايين من الناس والرجال؛ لهذا السبب كانت الحكومات قادرة دائمًا على البطش بهؤلاء الملايين

---

[1] نُشر بجريدة العربي، القاهرة، ٦ / ٢ / ١٩٩٥م.

واستغلالهم في أعمال السخرة والعبودية، سواء داخل البيت (النساء) أو في الحقول والمصانع والأشغال الشاقة الأخرى. يعملون طول النهار بأقل الأجور، يتم قهرهم ثقافيًّا بالتجاهل الإعلامي، بالتجهيل التعليمي في المدارس، يتدربون على الطاعة العمياء منذ الطفولة، على اعتبار أن الحكام وأولي الأمر هم مندوبو الله فوق الأرض.

هذه بقايا الأفكار العبودية التي حافظ عليها أصحاب السلطة في الشرق والغرب على السواء، في البلاد الإسلامية والمسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية وغيرها.

في القرن الحادي والعشرين يسير الناس نساءً ورجالًا نحو إدراك أكبر، أن طاعة الله في الحرية والعدل والحب، الله في أعماقنا هو الضمير الذي يجعلنا أكثر إنسانية، أكثر تعاطُفًا وتعاوُنًا، وليس هو السيف أو الرصاصة أو القوات البوليسية أو العسكرية.

في القرن الحادي والعشرين يدرك الناس أن العالم أصبح محكومًا بقوة عسكرية نووية دولية تدعمها قوة اقتصادية استعمارية جديدة، تتكلم لغة جديدة، ظاهرها السلام والعدل والمساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية، باطنها الحرب والضرب لكل من قال «لا»، بل لكل من اكتشف الخديعة أو الازدواجية.

الأمل في القرن الحادي والعشرين أكبر من القرن العشرين؛ لأن الازدواجية كُشفت دوليًّا وإقليميًّا في بلادنا العربية، ارتفعت الأصوات الوطنية تسأل عن الترسانة النووية في إسرائيل، لماذا لا يفتشها هؤلاء المندوبون عن الأمم المتحدة في مجلس الأمن كما يفتشون البلاد العربية الأخرى؟

إن عملية تزييف الوعي لن تستمر في القرن الجديد كما استمرت في القرون السابقة، إن انعزال النساء عن الحياة السياسية العامة لن يستمر؛ لأن غياب نصف المجتمع العربي عن العمل العام هو غياب للمجتمع العربي كله عن الحياة السياسية الدولية أو المحلية.

أمام الوطن العربي تهديد كبير بسبب التضاعف المستمر لقوة أمريكا وإسرائيل النووية والاقتصادية، هذا التهديد سيفرض على العالم العربي وعيًا جديدًا وإدراكًا جديدًا بأن النساء العربيات قوة كبيرة كامنة لم تلعب دورها بعد ... قوة كبيرة يريدون عزلها في البيوت وراء الحجاب ... وراء اللاعمل والبطالة أو السخرة بلا أجر داخل الجدران الأربعة، فماذا تقول المرأة العربية في القرن الجديد؟

المرأة لا تولد امرأة ... بل تصبح امرأة!

نحن في فبراير سنة ١٩٩٣م، من نافذتي الزجاجية الفسيحة أُطل على «قمة التشابل» كما يسمُّونها هنا في جامعة «ديوك» ورءوس الأشجار الباسقة تناطح السحاب. الصَّنَوْبر والأرز وأنواع أخرى ضخمة تشبه الأشجار في أفريقيا الاستوائية وغابات الهند وسري لانكا الكثيفة. أمامي فوق المكتب كشف بأسماء الطلاب والطالبات الذين اختاروا الانضمام إلى فصل «المرأة والإبداع»، والذي أقوم فيه بتدريس رواياتي وأعمالي الأدبية، وأعمال أخرى لبعض الأدباء والأديبات من مختلف أنحاء العالم.

الطلبة والطالبات هنا هم الذين يختارون الأستاذ، جاءوا من القارَّات الخمس ليدرسوا هنا في جامعة ديوك في ولاية نورث كارولينا. واحدة منهم اسمها «مايا» من الهند، قالت لي أول يوم دخلت فيه الفصل: قرأت روايتك «فردوس» منذ أربع سنوات؛ فغيَّرت حياتي كلها. وشاب أمريكي يدرس الطب، ومع ذلك أدرج اسمه في كشف فصل المرأة والإبداع، وسألته: لماذا؟ قال: لأني مثلك تمامًا أحب الأدب والطب معًا.

تجرِبة جديدة أعيشها هنا في هذه الجامعة الأمريكية.

تجرِبة الربط بين العلم والفن، والطب والأدب، والحُلم والحقيقة، والجسم والعقل. أحمل لقبًا جديدًا هو «أستاذة زائرة»، أعيش وسط الشباب والشابات، آكل معهم في مطعم الطلاب، أتجنب مطعم الأساتذة، أشعر على نحو غريب أنني أنتمي إلى عالم الشباب وليس الكهول، شعري شاب وابيضَّ منذ زمن بعيد، لكن بشرتي لا تزال مشدودة وقلبي مشدودًا إلى المستقبل. أمشي، أكاد أجري كما كنت وأنا طفلة. لم تتغير خطوتي فوق الأرض، لا أعرف هذه المشية المرتخية البطيئة لنساء الطبقات العليا من ذوات الكعوب العليا الرفيعة.

نحن في فبراير ١٩٩٣م، وأنا أمشي فوق الممرات الطويلة بين سيقان الأشجار الممدودة عاليًا مثل ناطحات السحب، والمباني البيضاء الضخمة ذات الطراز الأمريكي القديم منذ القرن الماضي، والأسقف الحمراء تطل منها المداخن.

أتوقف أمام المبنى الأبيض الغارق في غابة من الشجر، إنه القسم الذي أدرس فيه، أرى اسمي مكتوبًا فوق لوحة صغيرة من تحتها رف صغير يحمل البريد المرسل إليَّ، والأخبار الجديدة عن الأنشطة في الجامعة، جامعة «ديوك»، تنطقها السكرتيرة «جيل» بطريقة غريبة على أُذُني. امرأة أمريكية بيضاء البشرة جاءت من كارولينا الجنوبية؛ حيث تتغير اللهجة مثل لهجة أهل الصعيد في بلادنا. «جيل» تعمل سكرتيرة القسم الأدبي، ثُمَّ تركب سيارتها الحمراء وتعود إلى مزرعتها حيث بيتها وابنتها وزوجها، إنها تملك مع أسرتها خمسمائة فدان وسبعين بقرة تحلبها وتبيع لبنها، وأقول لها: لا بد أنكِ من الأثرياء. وتضحك جيل بصوت عالٍ يشبه صوت الفلاحات في قريتي كفر طحلة، وتقول: لو كنت من الأثرياء ما اضطُررت إلى العمل كسكرتيرة، لا أستطيع أن أعيش أنا وأسرتي من دخل الأرض والبقر؛ لأنه قليل بالنسبة لغلاء المعيشة ومصاريف الأسرة، نحن الفلاحين نعاني هنا من النظام الاقتصادي الذي يجعل أصحاب المصانع، وخاصةً مصانع السلاح، هم الأثرياء، أمَّا أصحاب الأرض من الفلاحين من أمثالي فما زلنا نعاني.

تذكرت، وهي تكلمني، مظاهرات الفلاحين الذين خرجوا بالآلاف من مختلِف بلاد أوروبا، وتجمعوا أمام مقر المجلس الأوروبي في ستراسبورج يوم ١ ديسمبر ١٩٩٢م، وقدموا احتجاجًا ضد الاتفاقية الأمريكية الأوروبية بقطع الدعم الزراعي. وفي برن بسويسرا، وأنا أمشي أمام البرلمان السويسري يوم ١٤ ديسمبر ١٩٩٢م، رأيت مجموعة من الفلاحين، تتوسطهم بقرة ضخمة تسد مدخل البرلمان. كان مشهدًا غريبًا، ذكَّرني على نحو ما بالبقرة المقدسة التي يعبدها بعض الناس في الهند، لكني عرفت أنها مظاهرة احتجاج من الفلاحين (وأبقارهم أيضًا) على قرار الحكومة بشق طريق في الجبال يدمر مزارعهم ومراعيهم. وقال لي واحد من الفلاحين بصوت غاضب: إنهم أهل الصناعة الذين يحكمون ويبطشون بأهل الزراعة من الفلاحين.

إن السكرتيرة «جيل» فلاحة تحلب سبعين بقرة وتكتب على الكمبيوتر، وتعرف قوانين الجامعة، وتحكي لي الكثير عن الصراعات بين أهل الزراعة وأهل الصناعة والسلاح في المجتمع الأمريكي، وهي لا تقف لأحد حين يدخل عليها وإن كان عميد الجامعة أو الرئيس كلينتون، هكذا هي تقول. إنها لا تقف لأحد؛ لأنها تؤدي عملها بالكامل، وليس ضمن واجباتها الوقوف لأي أحد.

إنه يوم الثلاثاء ٩ فبراير ١٩٩٣م، الشتاء هنا يُذكِّرُني بشتاء نيودلهي في الهند، دافئ والشمس ساطعة، الأشجار ساكنة تمامًا بلا ريح. الثلاثاء من كل أسبوع هو اليوم المشحون بالعمل؛ حيث ألتقي مع الطلبة والطالبات في فصل الإبداع والمرأة. حين طلبت مني الجامعة أن أقوم بالتدريس، قلت: «أنا لم أشتغل بالتدريس أبدًا، وكم أكره كلمة التدريس والمدرسين.» لكنهم قالوا لي: التدريس هنا مختلف، ولكِ مطلق الحرية في الاختيار. قلت: اختيار ماذا؟ قالوا: اختيار ما تدرِّسين.

وهكذا اخترت أن أدرِّس أعمالي الأدبية، كم هي تجربة جديدة وشيقة، أن تقوم الأديبة بتدريس رواياتها للطلاب والطالبات، والتدريس هنا يعني الجدل والحوار والنقد. لأول مرة أسمع نقد الطلاب والطالبات لرواياتي وقصصي، بعضهم بدا لي أكثر فهمًا للأدب من بعض النقاد.

في إحدى هذه الأمسيات دار الجدل حول المدرسة الجديدة لنقد الأدب النسائي. ذهبت إلى الأمسية مع شريف حتاتة (وهو أيضًا أستاذ زائر في جامعة «ديوك»، يجمع في محاضراته بين الأدب والسياسة). وتعرفنا على عدد من الطلاب والأساتذة، منهم «توريل موي»، وهي أستاذة للنقد الأدبي النسائي الجديد، أهدتني بعض مؤلفاتها، وآخرها كتاب جديد عن سيمون دي بوفوار.

قرأت الكتاب (٣٥٧ صفحة) في ليلة واحدة، إنه رؤية جديدة أكثر صدقًا وعمقًا لأعمال سيمون دي بوفوار وحياتها، بلا فصل بين الحياة والنص.

وتدعوني «توريل موي» إلى العشاء في منزلها، داخل غابة من أشجار الصَّنَوْبر والأرز، دقيقة الملامح، نحيفة الجسم، تتكلم اللغة الإنجليزية بلكنة نرويجية؛ فهي في الأصل من النرويج، وحماسها للكاتبات من النساء صادق عميق، وخاصةً فرجينيا وولف وسيمون دي بوفوار.

تطل من وراء نافذتها الزجاجية على قمم الأشجار وتقول: لا يمكن الفصل بين حياة الأديب أو الأديبة والنص المكتوب، لا يمكن فصل حياة سيمون دي بوفوار عن كتاباتها وأعمالها المنشورة؛ الإنسان هو ما يكتب من نصوص. سيمون دي بوفوار واحدة من أهم المفكرين في العالم خلال القرن العشرين، وتعرضت لهجوم كبير من النقاد في فرنسا، بعضهم اتهمها بالسطحية أو النرجسية أو التمحور حول الذات، وبعضهم أهمل أعمالها الأدبية ولم يهتم إلا بحياتها الشخصية كامرأة أو علاقتها بسارتر، وبعضهم لجأ إلى الصمت وتجاهل وجودها تمامًا وانشغل بكتاب من الرجال الهامشيين في الأدب الفرنسي.

وأعود بذاكرتي إلى الوطن، يذكِّرني الهجوم على سيمون دي بوفوار بالهجوم الذي تتعرض له بعض الكاتبات في بلادنا. لقد وُلِدَت سيمون دي بوفوار في فرنسا عام ١٩٠٨م، وأنا وُلدت في مصر بعدها بثلاثة وعشرين عامًا، وحين أسمع هجاء النقاد الفرنسيين لها أُدرك كيف يتشابه النقاد في فرنسا ومصر وغيرهما من بلاد العالم رغم اختلاف الزمان أو اللغة أو التاريخ أو الدين أو الثقافة.

ولعل أهم عبارة كتبتها سيمون دي بوفوار في كتابها «الجنس الآخر» (١٩٤٩م)، هذه العبارة التي أصبحت مثل الحكمة النسائية السائدة في أمريكا اليوم ... «المرأة لا تولَد امرأة، بل تصبح امرأة.»

معنى ذلك أن المجتمع هو الذي يصنع شخصية المرأة وصفاتها الأنثوية وليس الطبيعة أو البيولوجيا.

استطاعت هذه الفكرة أن تهدم فكرة سابقة عليها، كان يتبناها سيجموند فرويد تقول: إن الطبيعة أو البيولوجيا هي التي تحدد مصير الإنسان الرجل أو المرأة.

لكن الفلسفة تغيرت، وتغير معها علم النفس وعلم الجسم (البيولوجيا)، وتغير أيضًا الأدب والنقد الأدبي. شارك في هذا التغيير عدد قليل من الرجال المفكرين، وعدد من النساء المفكرات والكاتبات في العالم، منهن سيمون دي بوفوار، ومن قبلها كانت فرجينيا وولف التي وُلدَت عام ١٨٨٢م في إنجلترا، وتعرضت لهجوم أشد مما تعرضت له سيمون دي بوفوار في فرنسا، إلى حد أن قضت أيامها الأخيرة مع المرض النفسي (مثل كاتبتنا العربية مي زيادة)، ثم ماتت منتحرة عام ١٩٤٥م.

حاول النقاد دفن فرجينيا وولف وسيمون دي بوفوار إلى الأبد، فلا يذكرهما أحد، لكن الناقدات الجديدات من النساء بدأن إعادة اكتشاف هاتين الكاتبتين في ضوء المدرسة النقدية الجديدة، وإعادة اكتشاف تلك القيمة الكبيرة لأعمالهما الأدبية غير المنفصلة عن حياتهما ونضالهما من أجل الإبداع والحرية.

في المساء ذهبتُ لمشاهدة فيلم جديد من إخراج مخرجة إنجليزية اسمها «سالي بوتر»، أخذتْه عن رواية فرجينيا وولف «أورلاندو». جيل جديد من المخرجات السينمائيات يحاولن إعادة اكتشاف الأديبات من مثيلات فرجينيا وولف.

ساعتان من المتعة الفكرية داخل عقل هذه الأديبة البريطانية التي لم يحتملْها المجتمع البريطاني في الأربعينيات من هذا القرن العشرين، وقتلَتْ نفسها بيدها، بعد أن خطَّت هذه اليد عددًا من المؤلفات الأدبية، لم تُدرِك قيمتَها الحركةُ النقدية في زمانها.

مظاهرات النساء في أوروبا

في ليلة يوم ١٠ ديسمبر ١٩٩٢م، وجدتُني أسير في مدينة زيوريخ وسط تسعة آلاف امرأة سويسرية يرتدين السواد، يحملن الشموع، درجة الحرارة صفر والصقيع يهبط، يسرن بخطوة واحدة ثابتة في مظاهرة صامتة، يحملن لافتات تقول: «نعلن احتجاجنا على اغتصاب ثلاثين ألفًا من نساء البوسنة بواسطة قوات الصرب»، لا بد من اعتبار «الاغتصاب» جريمة حرب مثل القتل تمامًا، «تسقط العنصرية الجديدة»، «تسقط النازية الجديدة».

«لماذا إرسال القوات المسلحة الأمريكية إلى الخليج العربي وإلى الصومال وليس إلى البوسنة؟!»

«يسقط النظام العالمي الجديد ذو الوجهين!»

«يسقط النظام الطبقي الأبوي ...» إلخ ... إلخ.

وفي كل مدينة في سويسرا نظمت الحركة النسائية المظاهرات احتجاجًا على اغتصاب نساء البوسنة ... آلاف النساء خرجن في الليل المظلم والصقيع يهتفن ضد النظام العالمي الجديد، وضد اضطهاد النساء والفقراء ... سِرت بينهن لا أشعر بالبرد ولا أشعر بالظلام، وأقول لنفسي: ترى هل خرجتْ في بلادنا مظاهرات مثل هذه المظاهرات؟! هؤلاء النساء في أوروبا اللائي يُصوَّرن على أنهن إباحيات ومنحلَّات، هؤلاء النساء كنَّ أقدر من الرجال عندنا على تنظيم المظاهرات بالآلاف ضد اغتصاب النساء المسلمات في البوسنة! هؤلاء النساء كنَّ أكثر وعيًا بالترابط بين السياسة الدولية والدين والاقتصاد والجنس ... ألا يمكن أن نعيد النظر إلى أنفسنا وإلى الآخرين؟ ألا يمكن أن نفكر بعقولنا فيما يحدث في العالم من حولنا؟! ألا نكف عن اعتبار المرأة المسلمة مجرد عورة يجب أن تُغطَّى، أو أن الرجل المسلم ليس إلا ذئبًا شاغله الأوحد في الحياة هو النظر إلى ما قد يظهر من وجه المرأة أو ذراعها أو ساقها؟!

ألا يمكن أن نعيد النظر إلى سياستنا الاقتصادية بحيث نستقل عن الآخرين ونطعم أنفسنا بأيدينا وإنتاجنا وليس عن طريق المعونات والقروض، أن تكون السياحة جزءًا من النشاط الثقافي والاقتصادي وليس المصدر الأساسي لبقائنا على قيد الحياة.

الصمت نوع من العدوان

في اجتماع للكاتبات من مختلف أنحاء العالم في مدينة سان سباستيان بإسبانيا في الفترة من ٢٧–٢٩ نوفمبر ١٩٩٢م، تساءلتْ كاتبة إسبانية من مدريد اسمها «لوزيرا أتكزفيك»: لماذا يصمت النقاد عن إبداع الكاتبات النساء اللائي يكسرن القيود؟!

وردَّت كاتبة شابة لم تَذكر اسمها ولا اسم بلدها، ولكنها استشهدت بقول كاتبة أفريقية معروفة اسمها «أما أتا إيدو» قالت: «إذا رفض أحدُ النقاد الحديثَ عن أعمالك، فهذا نوع من العنف؛ لأنه يسعى إلى قتلك كإنسانة مبدعة.»

هكذا يصبح الصمت نوعًا من العدوان. وفي ختام الندوة اتفقت الكاتبات — رغم اختلاف الجنسية واللون والعقيدة — أن شعارنا يجب أن يكون «كسر الصمت».

لأن «الصمت» وليس «الاختلافات» هو الذي يشل الإنسان الخلاق، امرأةً أو رجلًا.

المرأة وتوازن القوى في العالم[1]

خلال الشهور الأربعة الماضية حضرتُ خمسة مؤتمرات عالمية للمرأة في الولايات المتحدة وإنجلترا والنرويج وتنزانيا والنمسا. وقد عُقد المؤتمران الأخيران خلال أكتوبر الماضي في «أروشا» (تنزانيا) وفيينا (النمسا)، نظمتهما الأمم المتحدة من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة العالمي الذي سيُعقَد في نيروبي (يوليو ١٩٨٥م) بمناسبة انتهاء عقد المرأة (١٩٧٥–١٩٨٥م).

وقد أصبحت قضية المرأة اليوم من القضايا السياسية الهامة التي يمكن أن تُسبب القلق والأرق لكثير من حكام الغرب، ومنهم رئيس الولايات المتحدة. لقد تزايدت التنظيمات النسائية قوةً ووعيًا منذ منتصف هذا القرن، وأصبحت تمثِّل خطرًا متصاعدًا على الأنظمة الرأسمالية العالمية.

ورغم الاختلاف في الآراء والفلسفات بين حركات تحرير المرأة في العالم إلا أنها تتفق في معظمها على فكرتين أساسيتين:

(١) أن التحرير الحقيقي للنساء لا يمكن أن يحدث في ظل مجتمع رأسمالي طبقي.
(٢) أن التحرير الحقيقي للنساء لا يمكن أن يحدث في ظل نظام عائلي أبوي أو قائم على سيطرة الرجل.

[1] نُشر عام ١٩٨٥م.

وقد استطاعت التنظيمات النسائية في أمريكا أن تقود في السنين الأخيرة حملة ضد حكومة الولايات المتحدة، وأن تعلن في اجتماعاتها ونشراتها المطبوعة أن إدارة ريجان هي المسئولة الأولى عن تهديد العالم بحرب نووية عالمية، وإشعال الحروب في بلاد العالم الثالث، ومساندة الأنظمة العنصرية الإرهابية في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية.

وفيما يخص قضية الشرق الأوسط كانت معظم التنظيمات النسائية ترى أن الإمبريالية العالمية والصهيونية مترابطتان، وأنها العقبة الأساسية أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية في بلاد الشرق الأوسط.

لكن التنظيمات النسائية الصهيونية والتي تُسَمِّي نفسها: «التنظيم النسائي اليهودي» كانت تعترض دائمًا على إدانة الصهيونية، وتحاول أن تعكس الأمور فتقول إن الصهيونية حركة تحريرية أمَّا منظمة التحرير الفلسطينية فهي حركة إرهابية، وكانت تعترض أيضًا على ربط قضية المرأة بمشاكل الرأسمالية، مدَّعيةً أن مشاكل المرأة اجتماعية بحتة وليس لها علاقة بالسياسة أو الاقتصاد.

ولم يكن لهذا المنطق أن يسود في المؤتمرات النسائية العالمية وإن عُقدت في قلب الولايات المتحدة ذاتها؛ وذلك أن ثلاثين عامًا من الخبرة والعمل قد سلَّحَت معظم العناصر النسائية بالفهم السياسي الواعي والقدرة على ربط القضية السِّيَاسية بالقضية الاجتماعية.

وقد لمس رونالد ريجان بنفسه في حملته الانتخابية الأخيرة مدى عداوة التنظيمات النسائية العالمية لسياسته، بما فيهم بعض التنظيمات النسائية الأمريكية.

وقبل انعقاد المؤتمر العالمي للمرأة في فيينا أكتوبر الماضي اجتمع ريجان مع المنظمات النسائية اليهودية والصهيونية، وأعلن في الاجتماع أن حكومته لن تسمح بأن ينحرف المؤتمر العالمي للمرأة في نيروبي (يوليو ١٩٨٥م) عن مساره الاجتماعي ليصبح مؤتمرًا سياسيًّا يوجه الإدانة للصهيونية والإمبريالية كما حدث في مؤتمر المرأة السابق في كوبنهاجن (يوليو ١٩٨٠م)، وأنه إذا حدث ذلك فسوف تنسحب الولايات المتحدة من مؤتمر المرأة في نيروبي.

في هذا الجو الملبَّد بالتهديدات الأمريكية الصهيونية عُقد مؤتمر المرأة العالمي في فيينا، وحُشدت له الوفود من المنظمات الصهيونية والأمريكية، ولم يكن هناك منظمة واحدة عربية، مع أن الهيئة الداعية لهذا المؤتمر هي الأمم المتحدة (لجنة التخطيط للإعداد لمؤتمر المرأة العالمي في نيروبي). وسألتُ رئيسة هذه اللجنة «دام نيتا بارو» عن سبب غياب

التنظيمات النسائية العربية، وقالت لي السيدة بارو: لقد أرسلنا دعوات لجميع المنظمات والهيئات النسائية غير الحكومية في جميع أنحاء العالم بما فيها البلاد العربية. ودُهشت فعلًا، هل ضاعت الدعوات في البريد؟ هل وصلت الدعوات ولم يهتم أحد؟ أم أن جميع الهيئات النسائية في العالم العربي حكومية ولا توجد هيئات غير حكومية؟

كان عدد عضوات مؤتمر فيينا مِائتي امرأة من جميع أنحاء العالم، لم يكن بينهن إلا ثلاث نساء عربيات: عصام عبد الهادي وليندا مطر، وقد جاءتا ضمن وفد الاتحاد النسائي الديموقراطي العالمي، وكنت أنا ثالثتهن، وقد سافرت ضمن وفد منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية.

وجاءت النتيجة النهائية لمؤتمر فيينا على عكس ما أرادته القوى الصهيونية الأمريكية، وشمل التقرير النهائي للمؤتمر على هذه النقاط:

(١) قضية المرأة لا تنفصل عن القضايا السياسية والاقتصادية عالميًّا ومحليًّا.

(٢) السلام لا يتحقق بغير عدل.

(٣) الصهيونية والإمبريالية والتفرقة العنصرية والجنسية وعدم عدالة النظام الاقتصادي العالمي كلها أهم العقبات أمام تحقيق السلام والعدالة والتنمية في بلاد العالم الثالث.

(٤) لا تزال النساء — وخاصةً نساء العالم الثالث — هن الفئة الأكثر تعرُّضًا للقتل في الحروب، والأكثر معاناةً من الاستغلال والفقر والهجرة.

(٥) لا تزال النساء (رغم كونهن نصف المجتمع) بغير قوة سياسية فعالة وقادرة على تغيير النظم والقوانين لصالحهن.

إن القوى السياسية الفعالة في العالم اليوم، يمين أو يسار، لا تضم نصف المجتمع من النساء إلا بنسبة ضئيلة (٥٪–١٥٪). لا تزال النساء في لُعبة التوازن بين القوى السياسية مجرد أقلية هامشية، تسري عليها أحكام التفرقة العنصرية والجنسية كما تسري على الأقليات، ويتعرضن لأنْ يكنَّ كبش الفداء حين يقع الصراعُ الحادُّ بين القوى السياسية المتنافسة على السلطة والثروة في أي بلد.

لقد أصبح الصراع حادًّا في معظم بلاد العالم بين اليمين واليسار، ولا شيء يمكن تحقيقه إلى الأمام أو إلى الوراء إلا كمصلحة لتوازن القوى بين الأحزاب السياسية الفعالة؛ فأين قوة النساء في هذه الحلبة أو الساحة المتصارعة؟

من خلال حضوري لمؤتمر النساء في أمريكا وأوروبا أثناء الشهور الماضية لاحظت أن المرأة في الغرب أصبحت تفقد بعض الحقوق التي حصلتْ عليها خلال السبعينيات والستينيات. إن لُعبة توازن القوى السياسية أصبحت تميل ناحية اليمين، وفي اليسار تنقسم على نفسها وتضعف، والأزمة الاقتصادية تترك آثارها السلبية على النساء أكثر من غيرهن؛ فالنساء لا يملكن القوة السياسية المنظمة التي تدافع عن مصالحهن، ولا تزال النساء في الاتحادات العمالية والنقابات المهنية والأحزاب السياسية أقلية غير فعالة (٥٪–١٥٪)، وأغلبهن في القواعد الدنيا، ولا نصيب لهن (إلا نادرًا) في المقاعد العليا حيث يصنع القرار.

وتُدفع المرأة في الغرب إلى العودة إلى البيت كحلٍّ لمشكلة البطالة الناتجة عن الأزمة الاقتصادية الرأسمالية، وتحاول القوى السائدة أنْ تجد حلًّا للأزمة من خلال شعار جديد هو العودة إلى الدين، أو الانصراف عن الماديات إلى الروحانيات.

وليس جديدًا أن يُستخدَم الدين كغطاء لأزمة سياسية واقتصادية، وليس جديدًا أن تحاول القوى السياسية المتصارعة تفسير الدين حسب مصالحها، لكن الجديد هو وعي المرأة المتزايد بأنها تمثل نصف المجتمع، ومع ذلك فهي لا تمثل أي قوة سياسية فعالة في ساحة الصراع، ولا تملك وسائل تفسير الدين حسب مصالحها؛ وبالتالي فإنها أول من يقع عليها الاضطهاد الديني والسياسي والاقتصادي.

وقد نشأت حركة دينية جديدة بين بعض حركات تحرير المرأة وخاصةً في أمريكا، وهي تدعو إلى ما يُسَمَّى: «الثيولوجية النسوية»، وتتركز هذه الدعوة في إحياء الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام والهندوكية والبوذية وغيرها، على أن يُعاد تفسير هذه الأديان من وجهة نظر النساء، وتقود هذه الحركة منظمات النساء اليهوديات والأمريكيات، وهي منظمات تابعة للحركة الصهيونية. وتحاول هذه الحركة تقسيم النساء حسب الدين، وتأكيد شرعية دولة إسرائيل العنصرية القائمة على الدين اليهودي، وكذلك الدولة العنصرية في جنوب أفريقيا القائمة على الدين المسيحي، وكذلك النظام الخميني في إيران الذي يَدَّعي قيامه على الدين الإسلامي.

ورغم عداء هذه المنظمات للثورة الإيرانية في بدايتها الأولى حين رفعت شعارات الحرب ضد الإمبريالية الأمريكية، إلا أنها أصبحت تدعم نظام الخميني؛ فالقوى الصهيونية الأمريكية لا تخشى في العالم الثالث إلا نشوب الثورات السياسية الاقتصادية الاشتراكية، أمَّا الحركات الدينية المتعصبة فهي لا تخشاها، بل قد تدعمها علنًا أو سرًّا.

إن إسرائيل كدولة يهودية عنصرية قائمة على الدين لا يمكن أن تأمن وتستقر إلا وسط دويلات دينية مثلها؛ وهذا هو السبب الأساسي وراء حروب لبنان الطائفية؛ ليصبح المحيط من حول إسرائيل مجرد دويلات صغيرة يحكمها ملوك الطوائف والمذاهب والأديان المختلفة.

إن هذه الصراعات الدينية الجديدة التي أصبحت تشتعل في أماكن متعددة من العالم الثالث بين مسلمين ومسيحيين، أو هندوكيين وسِيخ، أو بين المذاهب داخل الدين الواحد مثل الصراع بين الشيعيين والسنيين، كل ذلك ليس إلا نتيجة وجود دول عنصرية قائمة على دين مثل إسرائيل تدعمها القوى الاستعمارية.

ويربط بين الدول العنصرية رغم اختلافاتها الدينية رغبةٌ واحدة لاستخدام القتل والعنف من أجل اغتصاب حق الآخرين. وليس غريبًا أن إسرائيل هي التي أصبحت تمد «الخميني» بالسلاح الآن، وهي التي ترسل السلاح أيضًا إلى الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا وإلى الأنظمة الإرهابية العنصرية في أمريكا الوسطى (جواتيمالا والسلفادور وغيرها).

وتكون النساء دائمًا أول الضحايا في جميع هذه الأنظمة العنصرية القائمة على استخدام الدين سياسيًّا. ورغم أن إسرائيل تعلن في المؤتمرات الدولية أنها تساوي بين النساء والرجال، إلا أن القوانين اليهودية داخل إسرائيل تجعل الرجل مسيطرًا على المرأة، كما أن فكرة حجاب المرأة أو إخفاء رأسها ووجهها نشأت في العصر العبودي، وظهرت أول ما ظهرت في الديانة اليهودية. وترتكز هذه الفكرة عن نقطتين أساسيتين:

(١) أن المرأة في النظام العبودي كانت تُدرَج ضمن قائمة الحيوانات باعتبارها جسدًا صِرفًا وليس لها رأس أو عقل؛ أي أنها مخلوق ناقص؛ وبالتالي يجب أن تغطي نفسها خزيًا من طبيعتها الناقصة.

(٢) أن الرجل يملك المرأة كما يملك قطعة الماشية، ومن حقه أن يربطها في الوتد أو يغطيها تمامًا عن الأعين؛ خشية أن يراها غيره فيسلبها منه.

وكانت المرأة في المعابد اليهودية تُغطي رأسها ووجهها، وقد رأيت بعض الراهبات في الأديرة والكنائس في روما يرتدين الحجاب الكامل الذي يغطي رءوسهن ووجوههن. وعلى هؤلاء الذين يظنون أن حجاب المرأة قد نشأ في الإسلام أن يعودوا لدراسة التاريخ ونشوء العصر العبودي وبدء الديانة اليهودية.

والسؤال الذي يخطر لي الآن هو: ماذا أعدَّت المنظمات النسائية العربية والأحزاب والهيئات الشعبية العربية لمؤتمر المرأة العالمي في نيروبي؟

إن القوى الصهيونية والأمريكية تحشد صفوفها، وتستعد لإرسال أكبر عدد ممكن من عناصرها إلى مؤتمر نيروبي. إنهم يعملون ليل نهار لإعداد الأوراق والبحوث لإثبات عكس ما يحدث للنساء الفلسطينيات المشرَّدات في الأراضي العربية المحتلة، وفي خيام اللاجئين في لبنان وسوريا وتونس واليمن والجزائر وغيرها من البلاد العربية.

حين عُدت إلى الوطن بعد آخر مؤتمر في فيينا كان أول خبر قرأته هو محاولة تعديل قانون الأحوال الشخصية لإلغاء بعض حقوق المرأة، وخاصةً ذلك البند الذي يعطي المرأة حق طلب الطلاق إذا تزوج زوجها بأخرى.

إن إكراه المرأة على البقاء مع زوج لا تريده (فما بال أن يتزوج بأخرى) ليس من الإسلام، بل إنه بعض بقايا قوانين العبودية، وعلى الذين يظنون أنه من الإسلام أن يعودوا لدراسة القرآن وأحاديث الرسول دراسة متعمقة تتوخى الجوهر والمعنى وليس مجرد الحرف واللفظ.

إن هذه الأزمة الجديدة التي تهدد حقوق المرأة العربية ليست إلا جزءًا من الأزمة الاقتصادية والسياسية العالمية التي تحاول الارتداء أثواب دينية متعددة، والتي تزرع التعصب الأعمى والعنف من أجل الإرهاب والاغتصاب وتقسيم شعوب العالم.

إن دروس التاريخ تؤكد أن الحق بدون قوة يُعرض نفسه للاغتصاب؛ فأين هي قوة النساء العربيات؟ لا تزال النساء أقلية هامشية في جميع القوى والأحزاب العربية يمين ويسار (٢٪ إلى ١١٪). ولا زلنا نلاحظ أنه كثيرًا ما يُضحَّى بحقوق المرأة من أجل كسب قوًى دينية سياسية متصاعدة محليًّا وعالميًّا، وليس أمام النساء العربيات اليوم إلا تنظيم أنفسهن سياسيًّا ليصبحن قوة فعالة في ساحة الصراع السياسي.

في الطريق إلى المؤتمر العالمي للمرأة في نيروبي[1]

تتحرك نساء العالم اليوم للإعداد للمؤتمر العالمي للمرأة الذي يُعقَد في يوليو القادم في نيروبي عاصمة كينيا، وأكثر النساء حركةً الآن هي المنظمات الصهيونية العالمية، وأبرزها المجلس القومي للنساء اليهوديات، النساء اليهوديات الأمريكيات (ويزو) والمجلس العالمي اليهودي والمنظمة الصهيونية الأمريكية.

وقد اجتمعت في باريس مؤخَّرًا أكثر من ١٦٠ مندوبة عن هذه المنظمات للإعداد لمؤتمر المرأة في نيروبي، وفي هذا الاجتماع قررت النساء الصهيونيات إرسال أكبر عدد منهن إلى مؤتمر نيروبي من أجل التصدي لنساء العالم الثالث (في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط) اللائي جعلن من مؤتمر المكسيك ومؤتمر كوبنهاجن (السابقَيْن) مِنبرًا عالميًّا لإدانة الصهيونية كحركة عنصرية، وكذلك حكومة جنوب أفريقيا العنصرية.

وقرَّرت النساء الصهيونيات أنهنَّ لن يسمحن بتكرار ما حدث في المكسيك وكوبنهاجن، وأن أي إدانة لإسرائيل أو الصهيونية ليست إلا نتيجة كراهية اليهود ومعاداة السامية. ووضعت هؤلاء النساء خطة من أجل ضرب أي قوة نسائية تحاول إدانة الصهيونية أو إثارة المشكلة الفلسطينية. وأعلن في باريس سفير الولايات المتحدة في اليونسكو «هون جان جيرالد» أن الولايات المتحدة لن ترسل وفدًا رسميًّا إلى مؤتمر نيروبي إذا ما تكتلت نساء العالم الثالث ضد الحركة الصهيونية.

---

[1] يونيو عام ١٩٨٥م.

وسبق ذلك أيضًا اجتماع ريجان نفسه مع ممثلات المنظمات الصهيونية وإعلانه انسحاب أمريكا من مؤتمر نيروبي إذا ما تكررت مأساة مؤتمر كوبنهاجن والمكسيك، وهذه المأساة هي سيطرة نساء العالم الثالث على المؤتمرين السابقين وإدانة الصهيونية واعتبارها حركة عنصرية مثلها مثل حكومة جنوب أفريقيا.

باختصار شديد: إن جميع المنظمات الصهيونية النسائية وغير النسائية تتحرك ليل نهار من أجل الإعداد لمؤتمر المرأة في نيروبي، فماذا نفعل نحن النساء العربيات لمواجهة هذا؟ الملاحظ أن المنظمات النسائية العربية لا تفعل شيئًا محسوسًا حتى الآن.

والدليل على ذلك أنني لم أجد من النساء العربيات في مؤتمر فيينا (أكتوبر ١٩٨٤م) إلا اثنتين فقط، رغم الأهمية الشديدة لهذا المؤتمر العالمي، والذي عُقد تحت إشراف الأمم المتحدة للإعداد لمؤتمر نيروبي، وحضرتْه أكثر من مِائتي مندوبة عن المنظمات النسائية في العالم، كان معظمهن من المنظمات الصهيونية.

ومثل ما حدث في مؤتمر كبنهاجن حدث في مؤتمر فيينا؛ فقد حاولت المنظمات الصهيونية استبعاد كلمة «الصهيونية» تمامًا من التقرير النهائي، وعدم اعتبارها حركة عنصرية. وحدث صراع طويل على مدى يومين كاملين انهزمت فيه المنظمات الصهيونية أمام تكتل نساء العالم الثالث (من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية) معنا نحن النساء العربيات، وكنا ثلاث نساء عربيات فقط: عصام عبد الهادي وليندا مطر ونوال السعداوي. ونص التقرير النهائي على أن الصهيونية وحكومة جنوب أفريقيا حركات عنصرية استعمارية تَستخدم العنف من أجل اغتصاب حقوق الغير. وتحاول المنظمات النسائية الصهيونية إبراز المشكلة وكأنها معاداة اليهود أو العداء ضد السامية، وهي خدعة سياسية ودينية يحاولن بها التغطية على الحركة الصهيونية كقوة استعمارية سياسية واقتصادية، بالإضافة إلى اغتصابها الوطن الفلسطيني والأراضي العربية، وقيامها بعدد من المذابح التاريخية (صبرا وشاتيلا) في لبنان وغيرها.

والسؤال الآن: ماذا أعدَّت المنظمات النسائية العربية والهيئات الشعبية والأحزاب لمؤتمر المرأة العالمي في نيروبي؟ إن قضية المرأة ليست منفصلة عن قضية تحرير الوطن والاستقلال والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والتنمية الشاملة والوحدة العربية. لقد حاولنا بفضل حماس وتعاون الاتحاد العام للمحامين العرب أن نُجهِّز لندوة عربية دولية للمرأة تُعقَد في القاهرة خلال فبراير للإعداد لمؤتمر المرأة في نيروبي، لكن ندوة واحدة لا تكفي، وحماس هيئة عربية واحدة لا يكفي …

ولماذا لا تدخل المرأة مجمع البحوث الإسلامية؟[1]

الاختلاف في الرأي ظاهرة صحية تحتاج إلى الرعاية لتنمو وتزدهر إرساءً لقواعد الديمقراطية الصحيحة. وأنا أختلف مع الدكتورة سهير القلماوي في رؤيتها لعدد من أمور الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية، ومنها مشكلة المرأة المصرية.

إلا أن هذا الاختلاف في الرأي لا يحول دون الصداقة والعلاقة الإنسانية الواجبة بين الأفراد، وخاصةً بين حملة الأقلام والمدافعين عن حرية الرأي والديمقراطية.

ولن أتعرض في هذا المقال لما أقرؤه أحيانًا على لسان د. سهير القلماوي في تحقيقات صحفية، ووصفها للاجتماعات النسائية غير الحكومية بأنها مجرد شغب أو شرذمة نساء، لن أتعرض لهذا؛ فالتحقيقات قد تنقل بعض الكلمات أحيانًا على نحو غير دقيق.

ولكني أتعرض هنا فقط لما قرأتُه بقلم الدكتورة سهير القلماوي في مقالها بجريدة الأخبار ١٩/ ٦/ ١٩٨٥م، حول قانون الأحوال الشخصية.

ولا أظن أنني أختلف كثيرًا مع د. سهير القلماوي في تفاصيل رؤيتها لمشروع القانون، أو فهمها العميق لجوهر الشريعة. وأتفق معها تمامًا في أن الإسلام لم يُبِح للرجل أن يستعمل رخصة الزواج كيفما أراد، وأن التعدد رخصة مشروطة بالضرورة وبالعدل، وأن الإسلام مسئولية وإرادة وتحكم في الشهوات وليس إطلاقها بغير مسئولية.

[1] نُشر بجريدة الأخبار ٢٥/ ٦/ ١٩٨٥م.

وأتفق أيضًا مع د. سهير القلماوي في أن الزوجة المسلمة تعيش في قلق شبه دائم، وقد تدخر المال أو الذهب بغير علم زوجها توقُّعًا ليوم يطلقها فيه أو يتزوج عليها بأخرى، لكن الأخت المسيحية (لأنها آمنة من هذين الخطرين) تضع مالها على مال زوجها من أجل مشروعات مشتركة تفيد الأسرة.

أمَّا اختلافي مع د. سهير القلماوي فيتركز في نقطة جوهرية، هي كيفية حصول فئات الشعب (ومنهم النساء) على حقوقهن وتغيير التشريعات والقوانين لصالحهن.

ترى الدكتورة سهير القلماوي أن الحكومة هي الجهة المسئولة عن ذلك، والحكومة — في رأيها — تتصرف بكل الحكمة والغيرة على صالح الشعب. وعلى الشعب — ومنهم النساء — أن ينتظروا ما تفعله الحكومة، وكل شيء يجب أن يسير في القنوات الرسمية.

ولا يمكن لأحد أن ينكر أن الطريق عبر القنوات الرسمية هو أحد الطرق، وليس الطريق الوحيد لتوصيل رأي الشعب إلى حيث يصنع القرار.

لكن الديمقراطية الحقيقية تتناقض مع هذه الفكرة القائلة بانتظار الناس حتى تأتيهم القوانين من أعلى؛ فالقانون الذي يأتي من أعلى يمكن أن يضيع من أعلى أيضًا.

تريد د. سهير القلماوي أن يتحول الناس إلى متفرجين، لا مشاركين في صنع القرار، وأن مشاركة النساء في الديمقراطية تكون عن طريق أن ترسل كل سيدة مذكرة برأيها إلى مجمع البحوث الإسلامية؛ فهل الديمقراطية هي مجرد إرسال المذكرات أم أنها مشاركة في صنع القرار؟

ولا تنزعج الدكتورة سهير القلماوي لأن المرأة غائبة في عضوية مجمع البحوث الإسلامية؛ لأن العلماء — في رأيها — لا يمكن أن يدخلوا في لُعبة الحرب بين الرجل والمرأة، القادمة من الغرب.

وهنا أختلف أيضًا مع د. سهير القلماوي، وأعتقد أن المرأة المصرية يجب أن تكون حاضرة في عضوية مجمع البحوث الإسلامية، وفي جميع الهيئات الدينية والتشريعية العليا، وأن حضورها يجب أني يكون متناسبًا مع كونها نصف المجتمع، ولا تكون أقلية هامشية يضيع صوتها في زحمة الأصوات.

إن مشاركة النساء في صنع القرارات العليا ليس بدعة من الغرب، وليست حربًا بين الرجل والمرأة، ولكنها ضمن الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسياسية وجوهر الإسلام أيضًا. لقد شاركت السيدة خديجة زوج الرسول في صنع القرارات العليا الأولى للدعوة الإسلامية، بل إنها هي أول من آمن بنبوة محمد، وهي أول

من قرر أن مُحَمَّدًا رسول الله، قالت له: «انهض، أنت رسول الله، اذهب وانشر دعوة الإسلام.» لولا السيدة خديجة ربما ما جاء الإسلام ولا انتشر ... فكيف تصبح المرأة عندنا (بعد خمسة عشر قرنًا من حياة السيدة خديجة) خارج دوائر صنع القرار، بل خارج الهيئات الدينية جميعًا، بما فيها مجمع البحوث الإسلامية؟!

مي زيادة في ذكراها الرابعة والأربعين[1]

عاشت تكتب، وكان هذا غريبًا في عصرها؛ فالمرأة كانت للإحساس وليس للتفكير. وكانت جميلة، وهذا أيضًا غريب؛ فالجميلة لا تمسك القلم إلا لتلوِّن شفتيها. وكانت أيضًا ذكية، وهذا هو الأغرب؛ فالعقل يُفسد الأنوثة، وهي كما تبدو لهم أنثى.

وكل ثلاثاء يذهبون إليها، ويحدث الجدل والنقاش. كان غرامها الجدل، وكان غرامهم المرأة بغير جدل، القد الممشوق بغير جدل، عيون المَها وبياض الحور بغير جدل.

لم يستطع واحد منهم أن يراها كما رأت نفسها، وفشل الجميع في حبها.

لم تكن مصرية حسب قانون الجنسية، أمها من فلسطين وأبوها من لبنان، لكنها تجاوزت القانون والأرض والمكان وأحبت مصر، وماتت ودُفِنَت في مصر.

رأت الوطن في عقلها قبل أن تطأه بقدمها. الوطن عندها كان الإنسان، وأي مكان؛ حيث الحب وحيث العدل.

كانت سابقة لزمانها، وكانوا سجناء عصرهم، لا يرَوْن الوطن إلا مسقط رأس، أو قطعة أرض؛ كالمرأة تُمتَلك.

كانت في العشرين من عمرها، وكانوا كهولًا فوق القمة، لكن شبابها كان أنضج وأعقل. أرادت أن تكون كما هي، وأرادوها مثل نساء عصرها.

[1] نُشر بجريدة الأخبار، ١٦ / ١١ / ١٩٨٥م، ص٤.

وظلت تدافع عن كيانها كعقل؛ فاتهموها بفقدان العقل، ووضعوها في مستشفى كالسجن؛ فقاومت وأضربت عن الأكل ولم تُضرِب عن الكتابة.

وماتت في شبابها وحيدة بلا أهل، وملايين النساء ماتت يحوطهن الأهل، لكننا نذكرها ولا نذكرهن، أليس هذا عزاءً لها، ولكل امرأة تفكر مثلها؟!

إنجي أفلاطون[1]

رائدة من رائدات الإبداع الفني والفكري في بلادنا، أعطت الفن حياتها، وثابرت بإصرار وصدق على التعبير عن ذاتها والمجتمع.

ودفعت ثمن الصدق، دخلت السجن وعاشت وحيدة بلا زوج ولا أطفال، لكن أعمالها وإنتاجها المبدع الخلاق أكبر أثرًا من أي إنتاج بيولوجي.

لم تفصل بين حركة الريشة فوق الورق وحركة الإنسان داخل مجتمع يموج بالصراعات. وفي تشكيل لوحاتها كانت تسعى دائمًا نحو الحركة والضوء. تترك بين شرائط الألوان فراغات ومساحات يُشع منها النور باحثةً عن الوضوح والعدل. تفتش عن الإنسانية والإنسان المقهور في الظلمة، واستطاعت بضربات فرشاتها أن تكشف عن الظلم. رحيلها اليوم ليس رحيلًا؛ لأنها باقية بأعمالها، وكل لوحة من لوحاتها تجسد حياة بأكملها. وأعظم تكريم للفنانة المبدعة إنجي أفلاطون هو أن يُسلَّط الضوء على أعمالها، وأن يزداد عدد الذين يرَوْن لوحاتها يومًا بعد يوم داخل البلاد وخارجها.

إن الفنانات المبدعات والفنانين المبدعين ليسوا في حاجة إلى كلمات رثاء وتأبين، ولكنهم في حاجة إلى أن تظل أعمالهم معروفة ومنشورة ومرئية، لا تختفي تحت غُبار التاريخ.

وما أحوجنا اليوم إلى إحياء أعمال المبدعين من النساء والرجال، وخاصةً هؤلاء الرائدات الراحلات من الفنانات أو الكاتبات اللائي طواهن التاريخ.

لقد آن الأوان لأن تحظى المرأة المبدعة الخلاقة بما تستحقه من اهتمام وتقدير.

---

[1] نُشر بجريدة الأهرام، ٢٧ / ٤ / ١٩٨٩م، ص١٣.

فدوى طوقان[1]

رحلة جبلية صعبة

منذ أيام قليلة، جمَعنا مكان واحد فوق الجبل في الضفة الشرقية، رأت بعينيها الأطفال يقيمون المتاريس ويواجهون رصاص العدو. كلهم أطفالي. هكذا قالت، ثُمَّ ضمَّت كفيها الصغيرتين فوق صدرها تحت الشال الصوفي الأخضر: ولي هنا طفلة اسمها «طروب» أجيء إليها عبر الحدود، وفي كل مرة أقف أمام شباك التصاريح، ولي عنها قصيدة في ديواني الأخير (تموز والشيء الآخر) مُهداة إلى «طروب»:

آهٍ يا غنوة حب عذبة، يا لحن مزهر،
اقرئيني في الغد الآتي وإذ تصبحين يا حلوة أكبر،
اقرئيني في الغد الآتي؛ فشعري
صورة من واقع جهم مكدر،
أمس يا حبة عيني
فاض بي شوق إلى مرآك، شوق لا يصوَّر.

[1] نُشر بجريدة الأهرام، ٢٤ فبراير ١٩٨٨م، ص١١.

وجهها وهي تنشد الشعر أضاء وتورَّد، وأصبح كوجه فتاة عاشقة في العشرين. توقفت عن الإنشاد فجأةً وصمتت؛ فهبط الحزن فوق ملامحها كالشيخوخة المفاجئة.

سبعون عامًا — ربما منذ وُلِدَت في «نابلس» — لا تعرف تاريخ ميلادها بالضبط. كانت أمها في «نابلس» (مثل جدتي في «كفر طحلة»)، تؤرخ الوقائع حسب تغيرات الجو أو الأحداث الكبيرة تقول مثلًا: جرى ذلك عام الثلجة الكبيرة أو عام الجراد أو عام الزلزال. وحين سألتْ أمها: متى وُلِدت؟ قالت: كنتُ يومها أطهي عكوب (بقلة شائكة تنبت في جبال نابلس في شهور فبراير ومارس وإبريل). هذه هي شهادة ميلادها الوحيدة، لكنها تذكر أنها خرجت إلى الدنيا والإمبراطورية العثمانية تلفظ آخر أنفاسها، وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربي جديد (١٩١٧م). وفي سبتمبر تم احتلال باقي فلسطين، وفي نابلس ألقى الإنجليز القبض على أبيها ونفَوْه خارج وطنه. لم تفرح أمي بولادتي! تُرى هل ربطت مقدمي إلى العائلة بالنحس الذي طرأ عليها؟ أعني إبعاد الإنجليز لأبي منفيًّا؟!

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة واهنة، وظل وجهها نحيلًا حزينًا، واشرَأبَّت أذناها مرهفتَيْن لأي صوت يحمله الهواء عبر الحدود، جسمها الصغير الضامر انتفض فوق الكنبة البيضاء: هذه طلقة رصاص، وطفل آخر يسقط، كلهم أطفالي في نابلس والضفة، وهنا لي طفلتي طروب. أهي ابنتك؟ لا، أكثر من ابنتي، بيتي في نابلس حيث وُلدت، وحيث كتبت الشعر، لم أهجر وطني أبدًا، ولم أهجر الشعر أبدًا، كان عليَّ أن أختار بين الزواج والشعر فاخترت الشعر، وأنجبت كل أطفال نابلس، وطروب أيضًا:

فاض بي شوق إلى مرآك، شوق لا يصوَّر؛
فتجهزت بتصريح لكي يأذن ضباط وعسكر،
بعبوري نهرنا العاني على حلم التحرر،
ولدى الشباك في الجسر انتظرت الدور في صمت وفي صبر.
حان دوري فتقدمت أحث الخطو جذلى،
ولتعسي رد لي الجندي تصريحي وأقصاني بعيدًا وتأمَّر:
«ارجعي من حيث أقبلْتِ.»
«لماذا؟»
«ارجعي من حيث أقبلْتِ.» وزمجر.
قلت: ما ذنبي؟ أنا لم أعصِ أمرًا ولا زعزعتُ أمنًا،

لا ولا حرضت أو شاغبت في دولة «قيصر»،
... خبروني ... أين ألقى ضابط الجسر؛
عسى يشرح الضابط لي ما لم يفسر،
فأنا من فرط حرصي، وأنا من فرط حبي لبلادي وأرضي،
ولبيتي ولبستاني وجيراني وللأشجار والأطفال والأحجار،
«والدوار» والسوق وأصحاب الدكاكين،
ومن خوفي من الإبعاد والنفي الذي يقطع مثل خنجر،
لم أزل أحتمل الإذلال والقهر وأصبر.
صاح في حدَّته القصوى: «افهمي يا هذه ما قلتُ
هيا وارجعي من حيث أقبلت.» وأقصاني بعيدًا وتوتر ...
فتراجعت بخطو يتعثر،
إي وربي لم أعد أفهم شيئًا،
غير كوني في زمان اليتم والحكم اليهودي المقدَّر،
ليس لي «معتصم» يأتي فيثأر،
لا ولا «خالد» في اليرموك يظهر ...
عُدت أدراجي وجرح القلب يدمى وبعيني دموع تتحدر.

رسالة إلى الشهيدة نعمات في ذكرى الأربعين[1]

قرأت وأنا خارج الوطن عن استشهادك تحت الرصاص وأنت تمارسين حقك السياسي في الانتخابات الأخيرة.

وكنت أظن أنني سأعود إلى الوطن فأجد اسمك في كل مكان، أو على الأقل أرى لك تمثالًا في أحد الميادين الكبيرة.

لكني عدتُ ولم أجد إلا الصمت والنسيان، لماذا؟ لماذا يحاولون ردم التراب على دمك وقد دفعتِ حياتك كلها ثمن الدفاع عن كرامة الوطن وكرامة المرأة؟ وهل هناك كرامة لوطن بغير حرية أو ديمقراطية؟ وهل هناك كرامة للمرأة أكثر من إصرارها على المشاركة في صنع الحرية؟

لو كنتِ يا نعمات وزيرة أو حرم وزير أو أي رأس كبير لما جفَّت الأقلام من التغني بشجاعتك، ولدخلتِ التاريخ كواحدة من أبطال الوطن.

لكن التاريخ لا زال — يا نعمات — لا يحكي كفاح البسطاء من الشعب أمثالك، ولا زال يحوِّل دمهم الساخن المسفوك إلى ماء بارد تشربه الأرض، ويُهال عليه التراب. ولا زلنا لا نقرأ في التاريخ إلا عن تفاهات الملوك والسلاطين، ونزهات زوجاتهم الترفيهية بين الفقراء والمعدمين.

[1] نُشر بجريدة الشعب، ١٧ يوليو ١٩٨٤م …

وهل يَذكُر التاريخ امرأة مصرية اسمها شفيقة محمد؟ هذه المرأة مثلك سقطت شهيدة تحت رصاص الإنجليز يوم ١٤ مارس ١٩١٩م، وقد خرجت مع رجال قريتها إلى الطريق الزراعي تقطع أسلاك التليفون وتنزع قضبان السكك الحديدية لتمنع قطارات السلطات الإنجليزية من التقدم. وفي هذا اليوم سقطت برصاص الإنجليز حمدية خليل من كفر الزغاري بالجمالية، وسيدة حسن وفهيمة رياض وعائشة عمر.

هل يذكر التاريخ هؤلاء النساء شهيدات ثورة ١٩، واللائي لم يفصلن بين كرامة الوطن وكرامة المرأة.

لماذا لم يصبح ١٤ مارس هو يوم المرأة المصرية، نحتفل به كلَّ عام كما نحتفل بيوم ٨ مارس الذي يرمز إلى نضال نساء في بلاد أخرى؟ ولماذا لم يسجل التاريخ عن ثورة ١٩ إلا أسماء زوجات الباشوات والحكام، ولم يحدث أن دفعتْ واحدة منهن حياتها أو دمها فداءً للوطن مثلما فعلت هؤلاء الشهيدات؟

وها هو ذات التاريخ مرة أخرى يُهيل التراب — وأمام أعيننا — على دم شهيدة جديدة سقطت تحت الرصاص وهي تدافع عن حقها وحق الوطن في الحرية والعدالة والديمقراطية.

كيف يمكن لنا يا نعمات أن نوقِف عجلة هذا التاريخ المزيف؟ كيف يمكن للشعب المصري رجالًا ونساءً أن يفرض على التاريخ الأحداث الصحيحة والأبطال الحقيقيين؟!

إن الطريق لا زال طويلًا وشاقًّا أمام البسطاء من الشعب ليكتبوا تاريخهم؛ فكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب يعرف القراءة والكتابة أولًا ولا تعاني أغلبيته من الأمية، وكتابة التاريخ تحتاج إلى شعب له قوة سياسية واعية.

وكيف يمكن للشعب المصري أن يكون قوة سياسية واعية، وهناك قوانين مُسلَّطة على عنقه، أحدها قانون الانتخاب ذاته؟

ولم يكن غريبًا أن يُحجم أغلب الشعب عن الذهاب إلى صناديق الانتخاب، وليس غريبًا أن يُهال التراب على دم نعمات؛ فلا زال الطريق طويلًا، ولا زال الخوف يعشش في القلوب، ونفاق السلطة يجري في العروق.

وكم هو مخجل أن ينقضي أربعون يومًا على استشهادك دون أن تصبح ذكراك مناسبة وطنية يحتفل بها الشعب المصري كله، أو على الأقل نساء مصر. فأين هن نساء مصر والجمعيات النسائية وجمعية هدى شعراوي، وقد قدمتِ لوطنك — يا نعمات — من دمك وحياتك أضعاف ما قدمتْه هدى شعراوي حين خلعت الحجاب؟

محاولة عزل قضية المرأة[1]

إن قهر المرأة واستعبادها واستغلالها ليس حالة خاصة بالمجتمع العربي أو الشرقي في بلاد العالم الثالث، ولكنها ظاهرة تدخل في صلب النظم السياسية والاقتصادية والثقافية، سواء كانت إقطاعية متخلفة أو صناعية متقدِّمة تكنولوجيًّا؛ ذلك أن مشكلة المرأة في عالمنا الإنساني الحديث قد نتجت عن ذلك النظام الذي جعل طبقة تسود على طبقة، وجنس الرجال يسود على جنس النساء. إنها مشكلة طبقية وجنسية في آنٍ واحد.

إلا أن هناك بعض الناس الذين يغضُّون أعينهم عن لُب مشكلة المرأة العربية؛ لتنعزل جهود النساء من أجل تحرير أنفسهن عن جهود الثورة الشعبية، رجالًا ونساءً، التي تهدف إلى تغيير تركيبة المجتمع تغييرًا جذريًّا، يقضي على سيطرة الرجل على المرأة في المجتمع الكبير وداخل الأسرة الصغيرة. تلك الأسرة التي هي بؤرة النظام الطبقي الأبوي، ومن خلالها تتوالد القيم والأخلاقيات والمقدسات الأبوية والطبقية على مر الأزمان والأجيال.

ويحاول بعض الناس — وخصوصًا في الدوائر الغربية الاستعمارية — أن يصوِّروا مشكلة المرأة العربية على أنها مشكلة خاصة بالدين الإسلامي، محاولين أن يردُّوا التخلف الذي تعاني منه البلدان العربية إلى أسباب دينية وتاريخية وليس إلى أسباب اقتصادية وسياسية، قوامها أن موارد العرب تُستنزَف وتُستغَل بواسطة الاستعمار الغربي الجديد؛

[1] نُشِرَ بمجلة الأسبوع العربي، بيروت، ٢ / ٧ / ١٩٧٩م.

ولهذا هم يفصلون بين تحرير العرب الاقتصادي والسياسي وبين عملية القضاء على التخلف أو تحقيق التقدم والتنمية.

أمَّا التنمية فهم يحددون معناها لتقتصر على مجرد عملية التحديث على النمط الغربي، واستخدام بعض ما أنتجته البلدان الغربية من تكنولوجيا، على أن تظل موارد العرب خاضعة لمصالح الغرب ومحكومة بقوانين الاستغلال الرأسمالي العالمي وشركاته الكبرى.

وقد شهدت بعض البلدان في العالم العربي والعالم الإسلامي هذا النوع من عمليات التحديث، على يد بعض الأنظمة والحكومات المحلية والموالية للغرب. ولم يكن من نتيجة لهذا التحديث إلا نوع من التنمية الزائفة التي تتميز بمزيد من الفقر والمعاناة للأغلبية الساحقة من الشعب، ومزيد من الثراء للطبقات الحاكمة والطبقات العليا. كما تتميز أيضًا بأن الجزء الأكبر من الزيادة في الثروة — بسبب تلك التنمية — يذهب إلى البلدان الغربية؛ فتزيد الهُوة بين مستوى المعيشة في البلاد المتقدمة عنها في البلاد المتخلفة. وفي الوقت الذي تربح فيه أمريكا من ثروات العرب ملايين الدولارات سنويًّا يموت من أطفال العرب سنويًّا مليون طفل قبل أن يبلغوا عامهم الأول من العمر بسبب الجوع والفقر والمرض، بل إن هؤلاء الأطفال الذين يَنجُون من الموت لا يجدون من المواد الغذائية الأساسية كالبروتينات والفيتامينات إلا ما يساوي ما يحصل عليه الكلاب والقطط في أمريكا.

وبازدياد الهوة بين الأقلية التي تملك المال والسلطة والأغلبية الساحقة التي تهلك إرهاقًا ومرضًا، تزداد حدة المشاكل والصراعات داخل البلد، وتتفجر الثورات الشعبية وحركات التحرير التي ازداد نشاطها العلني أو السري في معظم أنحاء العالم الثالث.

وقد كانت الثورة الإيرانية الأخيرة إحدى هذه الثورات الشعبية التي تفجرت بسبب اشتداد الأزمة الاقتصادية لأغلبية الشعب الإيراني رجالًا ونساءً، وعلى الرغم من عملية التحديث التي تزعَّمها شاه إيران السابق، والتي لم ينتج عنها إلا مزيد من القهر للشعب الإيراني، ومزيد من استغلال البترول وموارد إيران بواسطة القوى الاستعمارية العالمية.

إن ثورة إيران ثورة سياسية واقتصادية أساسًا، وليست ثورة من أجل فرض الحجاب على النساء، كما حاولتْ بعض الصحف الغربية تصويرها، وقد رفعت الثورة الإيرانية شعار الدين الإسلامي كشعار للتحرير من الاستغلال الغربي الثقافي والاقتصادي معًا؛ وذلك لأن الإسلام كان في جوهره — كما بدأه سيدنا محمد — دعوة إلى تحرير العبيد، ولم يكن النظام الاقتصادي الذي سماه سيدنا محمد ﷺ «بيت المال» إلا نوعًا مما يمكن

أن نسميه بالاشتراكية البدائية؛ فقد كان هذا المال هو مال المسلمين جميعًا بالتساوي على الرغم من انتماءاتهم القبلية، إلا أن هذه الاشتراكية البدائية سرعان ما قُهرت على يد بعض خلفاء سيدنا محمد، وأولهم عثمان بن عفان الذي مَنح بني أمية الأرض والنفوذ في البلاد الزراعية التي غزاها العرب كمصر والشام والعراق. وبدأ داخلَ الإسلام الصراعُ بين مؤيدي المساواة والعدالة وبين مشجعي النظام الإقطاعي الطبقي. وقد انتصر الفريق الثاني على مر عهود التاريخ وتعاقب على البلدان العربية والإسلامية عهود مظلمة من القهر الإقطاعي والغزو الأجنبي، بلغ أشده في ظل الحكم العثماني الذي كان مثلًا للفساد والاستغلال والقهر واستعباد النساء في العمل المضني، أو عزلهن من وراء الحجاب في سجن «الحريم».

وأمَّا الشعوب العربية والإسلامية المقهورة، فلم يكن هناك من أمل في الخلاص من الظلم الداخلي والخارجي إلا عن طريق تحقيق العدالة والمساواة التي نادى بهما الإسلام في جوهره. ولهذا السبب فإن معظم الثوريين العرب الذي حاربوا الإقطاع والاستعمار، أو معظم زعماء النهضة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن الماضي كانوا من رجال الدين الإسلامي، من أمثال الأفغاني والكواكبي والنديم والشيخ محمد عبده الذين اقترنت دعوتهم إلى تحرير البلاد من الإقطاع والاستعمار بالدعوة إلى تحرير المرأة.

وهذا قد يفسر لنا لماذا اتخذت الثورة الإيرانية من الإسلام شعارًا لتحريرها من حكومة الشاه المستغلة؟

ومن الملاحَظ في السنين الأخيرة تلك الموجة والتيار المتصاعد لإحياء الإسلام في العالم الإسلامي والعالم العربي كسلاح في يد الشعوب المقهورة ضد القهر والاستغلال، كما تزايدت الجهود لإحياء اللغة العربية، وخصوصًا في تلك البلدان العربية التي حلَّت فيها اللغات الاستعمارية الغربية محل اللغة العربية؛ كشمال أفريقيا: تونس والجزائر والمغرب، التي بدأت عملية تعريب شاملة.

إن حركة الاستقلال الثقافي إلى جانب الاستقلال السياسي والاقتصادي إنما هي حركة تزداد نموًّا ووعيًا في معظم أنحاء العالم الثالث، وخصوصًا في أفريقيا، حيث بدأت الشعوب تطرد عنها الاستغلال الاقتصادي بمثل ما تطرد الاستغلال الثقافي، وتبحث عن أصالتها وجذورها الثقافية والحضارية كنوع من استعادة الشخصية والوقوف بقوة وصلابة في وجه الغزو الغربي، الذي سلبها شخصيتها وأصالتها بمثل ما سلبها مواردها الطبيعية، واقتلعها من ماضيها ومن جذورها؛ ليجعل منها شعوبًا ضعيفةً مزعزعةً فقيرةً ماديًّا ومعنويًّا في آنٍ واحد.

لكن هذا التيار التحريري المتصاعد يتلقى الضربات من الداخل والخارج، وللحفاظ على مصالحه الاقتصادية، تتخذ القوى الغربية وسائل متعددة لمقاومة ذلك التيار الشعبي المتزايد.

إحدى هذه الوسائل أنها تصطاد أي ثغرة في الإسلام مثلًا كي تبرزها وتسلط عليها الأضواء، كما حدث عندما ارتفعت الصيحات في الصحافة الغربية مُندِّدة بأن الثورة الإيرانية حركة رجعية؛ لأنها تفرض على النساء الحجاب أو «الشادور» وتعود بها إلى القرون الوسطى. وهي محاولات غير مباشرة لإجهاض الثورة الإيرانية وتفريغها من مضمونها السياسي والاقتصادي وتصويرها على أنها مجرد ردة دينية متعصبة متخلفة.

وتتسم مثل هذه المحاولات بالحرص والذكاء؛ لأن التيار الديني الإسلامي، وإن وحَّد الشعوب وساعد على تضامنها ضد الاستعمار الغربي، إلا أنه أيضًا يحمي المنطقة من الغزو الاشتراكي أو الشيوعية، التي صُورت على أنها حركة إلحادية ضد الدين.

وعلى هذا يمكن القول إن القوى الاستعمارية تحتاج إلى الإسلام بقدر ما هي تخشاه؛ ولهذا فهي تهاجمه وتحافظ عليه في آنٍ واحد، يساعدها في تلك المهمة المتناقضة تلك الأنظمة الإسلامية ورجال الدين الذين خدموا الحكم العثماني بمثل ما خدموا الاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي أو الأمريكي، والذين تعاونوا على قهر الشعوب باسم الإسلام والدين، صوَّروا الإسلام على أنه دين يحمي الطبقات، ويحرِّم الثورة أو التمرد ضد الحكام أو ضد النظام القائم، ويحرِّم الشكوى من الفقر باعتبار أن الله هو الذي يوزع الرزق على من يشاء من عباده؛ فيعطي من يشاء ويحرم من يشاء، وعلى المسلم المؤمن أن يتقبل إرادة الله ومشيئته بنفس راضية قانعة.

وقد رأينا كم لعب الإعلام الديني دورًا في خدمة الحركات الرجعية الاستغلالية، وكم شجع الأفكار الخرافية والاستسلامية والقدرية والتواكلية التي تعجز الشعوب عن الثورة ضد الظلم والاستغلال.

إلا أن هناك دائمًا من رجال الدين الإسلامي الواعين الذين كشفوا هذه الأساليب ونادَوْا بأن الإسلام كأي دين آخر لا يمكن أن يُفهم من خلال نصوص متفرقة، مثل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أو ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، ولكنه يُفهم من خلال مبادئه الأساسية التي تنادي بالمساواة والعدالة.

وكان بعض زعماء الثورة الإيرانية من هؤلاء الرجال المسلمين الواعين، كما كان فيها أيضًا زعماء غير واعين؛ كهؤلاء الذين نادَوْا بأن ترتدي المرأة «الشادور»؛ فأفسحوا

— عن جهل أو عن عمد — للقوى المعادية لاستقلال إيران الثغرةَ التي تنفذ منها للهجوم على الثورة الإيرانية.

وقد لاحظنا أيضًا كيف تُستغل الحكومات الإسلامية من أجل استغلال الشعوب، وقد استخدم النظام المصري الدين الإسلامي في بدء السبعينيات كسلاح ضد التيار الشعبي المؤيد للاشتراكية، وشجعت السلطة المصرية الهيئات الدينية ماديًّا ومعنويًّا لتقف في وجه القوى الاشتراكية، إلى حد تشجيع النساء والطالبات المصريات ليرتدين الحجاب، إلا أنها سرعان ما تراجعت عن سياستها بعدَما تصاعد التيار الديني الإسلامي وأصبح يهدد السلطة الحاكمة ويؤيد الثورة الإسلامية في إيران والثورة الفلسطينية، ويتآزر مع الدعوة إلى العدالة والمساواة الاقتصادية؛ حتى لا ينعزل عن مشاكل الجماهير الملحَّة. وقد اتجه هذا النظام المصري أخيرًا إلى الهجوم على هذا التيار الإسلامي، ورأينا كيف هاجم أيضًا الثورة الإيرانية الإسلامية، ورأينا أيضًا كيف اشتدت الحماسة في الصحافة الغربية في ظروف أخرى وقع فيها اعتداء أشد وأبشع على حقوق النساء والرجال والأطفال، وكيف شُرِّدت شعوب بأكملها، واعتُدي عليها، وأُخرِجَت من ديارها وأوطانها، وضُربت نساؤها وأطفالها بالقنابل والنابالم، وتحول من عاشوا منهم إلى لاجئين يعيشون في الغُربة والخِيام حياةً أشد بؤسًا من الموت. وقد بالغت الصحافة الغربية في صراخها واحتجاجها على ما يحدث للمرأة الإيرانية في ظل الثورة الإسلامية، حتى تحمست بعض الهيئات النسائية العالمية للسفر إلى إيران لمساندة المرأة ضد تلك الثورة الرجعية. وأنا لست ضد التضامن العالمي للنساء، بل إنني أعتقد أن قوة النساء وتضامنهم في جميع أنحاء العالم عن وعي وفهم لقضية المرأة بمختلف أبعادها يُعتبَر مكسبًا كبيرًا للمرأة في أي مكان، بل مكسبًا كبيرًا لجميع القوى التقدمي والاشتراكية في أي بلد.

إلا أنني ضد أي محاولة لعزل قضية المرأة عن قضية تحرير البلد كله من النظام الطبقي والاستعمار الخارجي، كما أنني ضد أن تُستغَل حماسة النساء الغربيات للتآزر والتساند مع أخواتهن في البلدان الأخرى لضرب الثورات الشعبية التحريرية في آسيا أو أفريقيا أو أي مكان آخر في العالم.

وأنا بطبيعة الحال لست مع هؤلاء الزعماء الدينيين في إيران الذين نادَوْا بأن ترتديَ المرأة «الشادور»، وأعتقد أنهم إما مُغرِضون وإما مُخطئون؛ فالزعيم الديني ليس إلهًا وليس معصومًا عن الخطأ، وهو في حاجة إلى النقد والتوجيه من القوى الشعبية نساءً ورجالًا. وقد وقفتْ بعض النساء الإيرانيات من أمثال هؤلاء الزعماء موقفًا واعيًا وناقدًا

ورافضًا، وانضم إلى نساء إيران الزعماء الدينيون الواعون والرجال الثوريون الوطنيون، ونتج عن ذلك التضامنِ الواعي تصاعدُ القوى التي تقاوِم الدكتاتورية الدينية تحت اسم الثورة الإسلامية.

أقول هذا لأوضح أن الحركة الإسلامية بمثل ما تضم ثوريين متقدمين سياسيًّا واقتصاديًّا، فقد تضم أيضًا زعماء متخلفين اجتماعيًّا وثقافيًّا، بل إن الرجل الواحد منهم قد يجمع داخله التناقضات فتكون له رؤية سياسية واقتصادية متقدمة، لكن رؤيته للمرأة تظل متخلفة. وهذا الأمر يكاد يكون عامًّا في معظم الحركات، بل في الحركات الماركسية كثيرًا ما يُعاني الرجال هذا التناقض.

ذلك أن التطور السياسي والاقتصادي أسرع من التطور الثقافي والاجتماعي، والاقتناع العقلي أسهل من الاقتناع الشعوري؛ ومن هنا أهمية دور الحركة النسائية، وأهمية القوة السياسية للنساء لتفرض على الرجال أن يغيروا أنفسهم وأن يعالجوا ذلك الانفصام داخل شخصياتهم.

المرأة المصرية والمشكلة الاقتصادية[1]

لا يمكن لأي عين مهما ضعف بصرها ألا تلاحظ ذلك التغير السريع الذي أصبح يصيب ملامح المصريين والمصريات، وعلى الأخص المصريات، أول ما يلفت النظر هو عضلات الوجه المتقلصة والبشرة الشاحبة والعيون القلقة للنساء المصريات الواقفات أمام بائع الخضروات أو الفاكهة أو الجزار، أو حتى محل البقالة المتواضع البسيط في أي حي من الأحياء الشعبية.

بالطبع هناك نسبة كبيرة من النساء المصريات لا يذهبن إلى تلك الأماكن إلا مرة في العام، في العيد مثلًا حين تحتفل الأسرة بشراء كيلو أو نصف كيلو من اللحم، لم تذُق طعمه طوال العام.

وأنا لا أتحدث في هذا المقال عن هذه الشريحة الضخمة من المجتمع المصري، والتي تمثل حسب تقارير الاقتصاديين ٧٠٪ من عدد السكان، ويتراوح دخل الأسرة فيها ما بين ٤٥ إلى ٩٠ قرشًا في اليوم الواحد، ولا يقل عدد أفرادها عن سبعة أو ثمانية أشخاص، حسب الإحصاءات الرسمية، ولكن أتحدث الآن عن تلك الطبقة التي سُمِّيَت في الماضي القريب بالطبقة المتوسطة، ومنها هؤلاء الموظفون والموظفات والمهنيات من خريجي الجامعات والمدارس. إن المرأة في هذه الطبقة كانت بصورة عامة تشتري الخضروات واللحم، وتمارس تلك العملية الطبيعية المسماة «الطبخ» بصفة منتظمة كلَّ يوم أو كل

[1] نُشر بمجلة الأسبوعي العربي، بيروت، ٢٠/ ٨/ ١٩٧٩م.

يومين على الأكثر، ولم يكن شراء اللحم أو البطيخ أو الجبنة يمثل لها أي مشكلة أو مأساة، ولكن كم هي مأساة اليوم عملية شراء المواد الأساسية للطعام لدى جميع الطبقات في مصر، بدءًا بالطبقات الدنيا إلى الطبقات المتوسطة إلى ما فوق المتوسطة. لا شك في أن التركيبة الطبقية في مصر قد تغيرت بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة. كُنَّا في الماضي القريب؛ أي منذ سبع أو ثماني سنوات، نلاحظ أن عندنا أربع طبقات مختلفة: الطبقة الدنيا، والطبقة المتوسطة، والطبقة فوق المتوسطة، والطبقة العليا، أمَّا الآن فقد انصهرت الطبقات الثلاث الأولى داخل طبقة واحدة يمكن أن تُسَمَّى «الطبقة ذات الدخل المحدود»، وهذا لفظ مؤدب نوعًا ما، أمَّا اللفظ الواقعي فهو «الطبقة التي تعاني اقتصاديًّا»، وهذه الطبقة تحتل الآن أكثر من ٩٥٪ من الشعب المصري، أمَّا الـ ٥٪ الباقية فيمكن أن نطلق عليهم اسم «الطبقة ذات الدخل غير المحدود»، أو «الطبقة العليا» أو الطبقة المرتاحة اقتصاديًّا ... وإذا كان الشعب المصري قد بلغ ٤١ مليون نسمة، فإن الطبقة التي تعاني يصل تعدادها إلى ٣٨٩٥٠٠٠٠ نسمة، وهذا العدد يشمل الذكور والإناث. وعلى هذا يمكن القول إن ١٩٤٧٥٠٠٠ امرأة مصرية تُصاب بتقلص في عضلات وجهها وشحوب في البشرة إذا ما فكرت في تلك العملية التي أُطلِقَ عليها اسم «الطبخ».

في أحد الأيام خلال عام ١٩٧٦م قالت لي «أم محاسن»، وكانت امرأة تأتي إلى منزلي مرة في الأسبوع لتقوم بأعمال النظافة نظير ٢٠٠ قرش في كل مرة، وهي لم تعد تأتي من ١٩٧٦م، وأصبحتُ أقوم بما كانت تقوم به، قالت أم محاسن وهي تلطم خديها: «يا ناس يا هوه إذا طبخت في يوم «عدس»، والله «عدس» لا غير، فإنني أنفق ١٠٠ قرش!» كان ذلك من عامين، أمَّا اليوم — ونحن في سنة ١٩٧٩م — فقد تضاعف سعر العدس أيضًا، أمَّا أكلة «الفول المدمس» فكانت تكلف أم محاسن بمثل ما تضاعف سعر العدس. وكانت أسرة أم محاسن خمسة أفراد فقط، أي أنها تُعتَبَر أسرة صغيرة الحجم بالنسبة إلى أغلب الأسر المصرية.

أمَّا «الجبنة البيضاء» التي كانت في متناوَل الأسر المحدودة الدخل، فقد اختفت من السوق المصرية بمثل ما اختفت معظم المنتجات المصرية المحلية، وحلت مكانها منتجات مستوردة دخلت مصر من «الباب المفتوح» على مصراعيه على أنواع الجبنة الفرنسية والإيطالية والمعلبات الأمريكية والهولندية والدانماركية، والتي لا يقدر على شرائها بالطبع إلا ذوو الدخول غير المحدودة، من الشريحة العليا في المجتمع. وقد تظهر «الجبنة البيضاء» أحيانًا في بعض محلات البقالة من ذوي الروح الوطنية المشجعين للصناعات المحلية، لكن

الكيلو أصبح ثمنه ٢٠٠ قرش على الأقل، أي ما يوازي دخل الأسر المصرية الكادحة في أربعة أيام.

ولعل أغلب ما يحدث في مصر أن الأسعار تختلف من تاجر إلى تاجر ومن محل إلى محل، هذه هي الحرية أو الديمقراطية التي يتمتع بها الشعب المصري، والتي لا يمارسها إلا فئة التجار وأصحاب محلات البقالة والخضر والفاكهة واللحوم، كل تاجر أعطى نفسه الحرية في أن يضع الثمن للشيء الذي يبيعه، ومَن هي تلك المرأة المصرية الشجاعة التي تستطيع أن تناقش الجزار أو بائع الخضروات أو الفاكهة؟ إن أقل ما يمكن أن يصيبها هو سلسلة من أقبح أنواع السباب تصيب أباها وأمها قبل أن تصيبها هي.

أمَّا الفاكهة فلم تعد تدخل إلا بيوت ذوي الدخل غير المحدود، حتى «البطيخ» أو «الخيار» — فاكهة الفقراء — أصبح اليوم من السلع التي يُكتفى بالنظر إليها من بعيد. وهناك من السلع ما لا يُنظَر إليها على الإطلاق، مثل الجوافة والعنب والبرتقال والبرقوق أو المانجو، فهذه أسماء لم يعد لها مكان في ذاكرة أكثر من ثمانية وثلاثين مليون مصري ومصرية.

وكانت لي صديقة عُرِفَ عنها هدوء الأعصاب والتريث في الحكم على الأشياء وعدم نقد المسئولين طالما هم يملكون السلطة، وبالطبع كانت مما يؤيدون سياسة «الباب المفتوح»، رأيتها منذ أسبوعين تشد شعرها وتقول: «يا ناس يا هو، كل يوم نقرأ في الصحف عن الجهود التي تُبذل من أجل «الأمن الغذائي»، ولكن الأسعار تزداد بازدياد المساحات المخصصة للأمن الغذائي في الصحف!» وأصبحت صديقتي هذه — وهي جامعية محترمة — تقف أمام الجزار أو الخضري وهي «شاحبة اللون وعضلات وجهها متقلصة».

أمَّا هؤلاء المصريات المنتميات إلى الشريحة الرقيقة ذات الدخل غير المحدود، فإن الواحدة تجلس في الشرفة المطلة على النيل تتسلَّى بحبات البرقوق أو الكريز (نوع ما من الفاكهة سمعت عنه) وتقول لمن حولها في دهشة: «مين قال في مصر أزمة اقتصادية، هذه إشاعات يروجها أعداء الباب المفتوح، أعداء الشعب غير المعترفين بكارتر وبيجين وكامب ديفيد.» وتلتهم قطعة أخرى من «المانجو» (هذه فاكهة ليس لنا بها أي علاقة إلا نظريًّا فحسب)، وتقول بصوت ناعم حريري: «تمام يا فندم.» (هذا اللقب شائع بين الطبقة العليا)، إنهم يدَّعون وجود أزمة اقتصادية، والحقيقة يا فندم أنها ليست إلا مشكلة هؤلاء النساء المصريات الجاهلات اللائي يلدْن بسرعة الأرانب، إنهم مشكلة الـ the mob (تنطقها بالإنكليزية)، وعلينا بحبوب «منع الحمل»، وتردُّ واحدة أخرى تدغدغ بين أسنانها

قطعة من الخوخ (نوع من الفاكهة أيضًا): تمام، تمام يا فندم، المشكلة هي كيف نوقف الأرانب، ولكن ماذا نفعل والمرأة المصرية مهما جاعت ومهما ضمرت ونحلت من الجوع فإن شهيتها للحمل لا تقل أبدًا؟

وترن الضحكات الرقيقة الناعمة في الليل مع نسمات النيل الهادئة إلى حيث لا يعلم أحد ...

جوهر قضية المرأة العربية[1]

على النساء الغربيات المتحمسات لتحرير المرأة أن يتفهَّمن نواحي التشابه والاختلاف بين مشاكلهن ومشاكل النساء في البلاد الأخرى، وبين الثقافة الغربية والثقافة العربية، وألَّا يجرَّهن الحماس الزائد بغير دراسة إلى الاشتراك عن حسن نية في إجهاض حركات تقدمية أو ثورات تحريرية. وربما كان ذلك هو السبب الأساسي الذي دعا النساء الإيرانيات إلى أن يقفن موقفًا سلبيًّا من بعض النساء الأمريكيات اللائي سافرن إلى طهران للهجوم على الثورة الإيرانية التي تفرض على النساء «الشادور»!

وعلى النساء الغربيات أن يدركن أن المعركة الأساسية التي تواجه النساء في البلاد الإسلامية والعربية ليست هي معركة فلسفية بين الإلحاد والإيمان بالدين، وليست هي معركة من أجل التنمية المحدودة أو التحديث على نمط الغرب، ولكنها معركة من أجل أن تعود منابع الثروة الاقتصادية والثقافية إلى يد الشعوب، والتمكن من خلق نظام جديد على أنقاض النظام الطبقي الأبوي.

وقد رأينا أن الأنظمة العربية أخذت موقفًا استسلاميًّا فيما يتعلق بقضية الشرق الأوسط وفلسطين كالنظام المصري، وعقدت صلحًا من شأنه أن يدعم نفوذ الاستعمار الأمريكي والصهيونية، ويضع العرب ومواردهم تحت رحمة هذه القوى. رأينا أن هذه الأنظمة عندما أرادت أن تهاجم الثورة الإيرانية هاجمتْها باسم التحديث وتحرير المرأة.

---

[1] نُشر بمجلة الأسبوع العربي، بيروت، ٩ / ٧ / ١٩٧٩م.

إلا أن خبرتنا الماضية تبين لنا أنه كلما زادت الارتباطات بالنظم الإمبريالية تراجع التقدم الاجتماعي، وارتفعت أصوات المحافظين والرجعيين والمتمسكين بأكثر النواحي السلبية في الدين والتقاليد، وأُصيبت قضية المرأة بنكسات، شأنها شأن قضايا باقي فئات الشعب. كما أن عملية التحديث، وخاصةً فيما يتعلق بالمرأة، ليست إلا عملية سطحية شكلية تُفقد المرأة العربية شخصيتها وأصالتها، وتصنع منها نسخة مُشوَّهة من المرأة الغربية، بالإضافة إلى أنها عملية لا تحل مشاكل الأغلبية الساحقة من النساء العربيات الكادحات في الحقول أو المصانع أو البيوت أو المهن المختلفة؛ فهي عملية تقدم مزيف لا يصل إلى أعماق مشكلة النساء العربيات، ولا يساوي المرأة بالرجل سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو نفسيًّا أو حتى جنسيًّا؛ لأن الحرية الجنسية الظاهرية التي تحظى بها المرأة الغربية لا تحرر المرأة بقدر ما تستعبدها وتحول جسدها إلى تجارة رأسمالية رابحة.

وفي ظل هذا التحديث لا تحصل سوى أقلية ضئيلة جدًّا من النساء على الميزات السياسية والاقتصادية التي تتمتع بها طبقة معينة من المجتمع، بل إن هذه القلة القليلة المتميزة من النساء، والتي قد تصل أحيانًا إلى تولي مناصب الوزيرات أو عضوات البرلمان، كثيرًا ما يكنَّ من ذوات التفكير المحافظ أو الرجعي، فإذا بوجودهن في تلك المناصب السياسية العالية لا يساعد على تحرير النساء بقدر ما يساعد على استغلالهن.

وقد صفَّقت الصحافة الغربية طويلًا في هذه الشهور الأخيرة لتولي امرأة منصب رئيسة وزارة بريطانيا، وبالرغم من كونها امرأة إلا أنني أعتقد أن أفكارها المحافظة سياسيًّا واقتصاديًّا والمعادية للتقدم الاشتراكي ولحركات التحرير في أفريقيا والعالم الثالث سوف تنعكس على النساء بمزيد من الاستغلال والقهر.

إن معركتنا ليست معركة تعصب أعمى لجنس النساء، أو تعصب أعمى لدين معين. ومن أجل نجاح هذه المعركة فإن من الممكن أن تتحد القوى النسائية مع الرجل، المتدينون الثوريون مع الماركسيين مع الاشتراكيين. ولعل هذا هو السبب الأساسي في نجاح ثورةٍ كثورة إيران وقدرتها على التخلص من حكومة الشاه ونظامه الذي دام أكثر من سبعة وخمسين عامًا، وكانت النساء الإيرانيات أحد الأعمدة الأساسية في هذه الثورة بمثل ما كانت الجزائريات في الثورة الجزائرية والفلسطينيات واليمنيات والفيتناميات والموزامبيقيات، وغيرهن من النساء اللائي اشتركن — ولا زلن — يشتركن في حروب التحرير في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية.

إن النساء كن دائمًا ولا زلن وقودًا للثورات الشعبية، ولكن ما إن تستتِبَّ الأمورُ ويستقر الحكم الجديد حتى يتراجع المسئولون عن بعض الحقوق التي مُنحت للنساء أثناءَ الثورة. ولعلنا لاحظنا ذلك في الثورة الجزائرية، وكذلك أيضًا في الثورات الاشتراكية في العالم بما فيها الثورة الاشتراكية الروسية. ويرجع ذلك إلى عدة أسباب، أهمها في رأيي هي أن النساء يشتركن في الثورة كأفراد متفرقات خاضعات لرجالهن، ويكنَّ من أوائل المضحِّيات، لكنهن لا يشتركن في الحكم بعد الثورة، بل يتراجعن اختيارًا أو إجبارًا إلى مواقعهن الأولى في البيوت أو الحقول أو المصانع أو المهن الأخرى تحت سيطرة رجالهن، ولا يحاولن أن يشكِّلن من أنفسهن قوة سياسية تتعادل مع عددهن كنصف المجتمع ولا مع حجم جهدهن وإنتاجهن في مختلف النواحي الزراعية أو الصناعية أو المهنية أو حتى في البيوت، حيث لا يقل جهدهن أو إنتاجهن عن أي مجال آخر.

إن الحكام الثوريين الجدد كلهم أو معظمهم رجال، وسرعان ما ينسون أو يتناسون مشاكل النساء أو لا يُولونها الاهتمام أو الأولوية المفروضة. وبدلًا من أن تُبذَل الجهود للقضاء على النظام الأبوي وسيطرة الرجل في الدولة أو العائلة أو الأسرة تُوَجه الجهود للمحافظة على هذه القيم لصالح الرجال.

ويمكن لنا أن ندرك بعض مشاكل النساء في مجتمعاتنا العربية بملاحظة التغير الذي يحدث في البلد بتغير النظام الإقطاعي إلى النظام الاشتراكي، وقد يمر البلد أيضًا بمرحلة من التصنيع والنمو الرأسمالي بمثل ما حدث في بعض البلاد العربية التي اتجهت نحو الاشتراكية. وقد تطلب تغير المجتمع وحاجته إلى الأيدي العاملة في الصناعات الجديدة والمهن والخدمات المتزايدة إلى أن ينزح من الريف إلى المدن أعداد متزايدة من الرجال والنساء، وأصبحت المرأة العاملة في المدينة تواجَه بمشاكل جديدة، أهمها أنها حُرمت من ميزات الأسرة الريفية الكبيرة العدد، التي كانت ترعى أطفالها أثناء غيابها في الحقل، وحُرِمَت من الروابط الاجتماعية والنفسية والتعاونية التقليدية في الريف، في الوقت الذي لم يعوضها المجتمع عن هذه الحاجات الضرورية، بل ظل متمسِّكًا بدورها القديم داخل الأسرة من حيث الخدمة ورعاية الأطفال، ذلك الدور الذي فُرض على المرأة كنتيجة لتقسيم العمل بين الجنسين في ظل النظام الأبوي الطبقي.

وفي الوقت الذي غيَّر فيه المجتمع كثيرًا من القيم الأخلاقية والاجتماعية، وتبنَّى قيمًا جديدةً لتساعده على تشغيل النساء في المدن، فقد حافظ على بعض القيم التي تضمن له استمرار استغلال النساء في أعمال البيت ورعاية الأطفال بغير أجر. وفي الوقت الذي مجَّدَ فيه المجتمع عمل المرأة وتعليمها، وحطَّمَ بعض القيود الاجتماعية ومحظورات الحريم

القديمة، لتصبح النساء قوة عمل متحركة تمسك بالقيم التي تربط النساء بالأطفال وخدمة الزوج، وبالغ في تمجيده للأمومة: «الجنة تحت أقدام الأمهات»، و«طاعة الزوج من طاعة الرب». ولا تزال المرأة المصرية — وإن تعلمت وعملت وبلغت منصب الوزيرة — خاضعة لقانون «الطاعة» في قانون الزواج.

وحينما تُرهَق المرأة وتعجِز عن الجمع بين وظائفها المتعددة داخل البيت وخارجه، أو حين تُقصِّر في واجباتها تجاه الأطفال أو الزوج، يكيل لها المجتمع الاتهامات، ومنها أنها بإهمالها الأطفال أو عصيانها لزوجها تساعد على تمزيق الأسرة المقدسة.

وفي الوقت الذي يحافظ فيه المجتمع على قدسية الأسرة، فإنه ينتهك مقدسات أخرى كثيرة، بل إنه ينتهك قدسية الأسرة ذاتها ويمزقها بإعطاء الرجل حقه المطلق في الطلاق وتعدد الزوجات. تلك الفوضى الجنسية الممنوحة للرجال، والتي كثيرًا ما تسبب تشريد الأطفال وتمزيق الأسرة.

وفي الوقت الذي يتغنَّى فيه المجتمع بالأمومة لا يوفر للأمهات العاملات الوسائل الضرورية لرعاية أطفالهن، بل لا يمنح الأم العاملة الأوقات الكافية لإرضاع طفلها أثناء العمل أو الإجازة الكافية لرعايته بعد الوضع.

إن إصرار المجتمع على ألَّا تزولَ الأسرة (وإن تمزقت) ليس إلا بسبب حاجته للمرأة بغير أجر، ومن أجل التمويه لم يفصل المجتمع بين حب الأم أو الأب وبين الإنفاق على إطعام الأطفال وتعليمهم، فإنما العواطف الأسرية تتضمن أيضًا مطالب الأطفال الاقتصادية، في حين أن النظام غير العادل قد جعل الأغلبية الساحقة من الأسر العربية عاجزة عن توفير الحاجات الاقتصادية الضرورية لأطفالهم، وجعل معظم الأمهات في بلادنا العربية كادحات مرهقات فقيرات، ولا يتوفر لديهن الحد الأدنى من الغذاء الضروري؛ مما يجفف اللبن في ثديي الأم الحديثة الوضع؛ فيُحرَم الطفل من لبن أمه الطبيعي في معظم الأحيان، بل يُحرَم أيضًا من حنانها؛ لأن الظروف القاسية التي تجفف اللبن في الثدي تجفف الحنان في القلب، والمرأة التي لا تحظى بحنان أحد لا تستطيع أن تمنح الحنان لأحد، وفاقد الشيء لا يُعطيه، وكثيرًا ما تُفني مثل هذه المرأة شبابها وصحتها في العمل المضني في الحقل والبيت بغير أجر، فإذا ما تجاوزت الشباب، وتجمَّع في جيب زوجها بعض المال الذي جناه من عرقها، تطلع حوله باحثًا عن زوجة شابة جديدة.

أمَّا المرأة العربية التي حظيت بالتعليم العالي والأجر المتساوي مع الرجل فإن زوجها في معظم الأحيان هو الذي يسيطر على أجرها، وقد يهددها بالطلاق إذا ما لاح لها أن

تخرج من تحت سيطرته، ولا زال الزواج هو الحماية الأخلاقية والنفسية والاجتماعية للمرأة العربية؛ ذلك أن القيم الأبوية القديمة لا زالت شائعة في البيت والشارع والمدرسة والعمل والجامع والراديو والسينما والمسرح والصحف والمجلات وكل مكان.

وهناك بعض النساء الأوروبيات والأمريكيات اللائي يتصورن أن النساء العربيات يعشن عهود البربرية، ويتخذن من بعض العادات التي لا زالت موجودة في بلادنا، مثل عادة ختان البنات، على أنها دليل على البربرية وقهر النساء.

ولا شك أنني ضد هذه العادة وغيرها من العادات، وقد كان كتابي «المرأة والجنس» هو أول كتاب باللغة العربية يتصدى لهذه العادة ولغيرها من مظاهر القهر للنساء، إلا أنني أختلف مع هؤلاء النساء الأوروبيات والأمريكيات في نظرتهن غير التاريخية إلى مثل هذه العادات، ولا أتفق معهن على أنها ظاهرة خاصة بالنساء العربيات أو الأفريقيات وحدهن، ولا أحبذ تسليط الضوء عليها بمعزل عن أنواع القهر الأخرى السياسية والاقتصادية والتاريخية.

وبالرغم من أن المرأة الغربية لا تتعرض لعملية الختان ولا يُستأصل البظر من جسدها جراحيًّا، لكنها تتعرض لعمليات نفسية وتربوية وثقافية تستأصل منها البظر. وربما كان سيجموند فرويد من أشهر الرجال الذين استأصلوا بظر المرأة نفسيًّا وفسيولوجيًّا حين وضع نظريته المعروفة عن نفسية المرأة، وقرر أن البظر عضو ذكري، وأن النشاط الجنسي البظري مرحلة طفولية، وأن النضوج والصحة النفسية للمرأة اقتضى أن يكفَّ البظر عن نشاطه ويتحول النشاط الجنسي إلى المهبل.

ولا شك أن عملية استئصال البظر جراحيًّا تبدو أكثر وحشية من عملية الاستئصال النفسية، إلا أن النتيجة قد تكون واحدة من حيث إلغاء وظيفة البظر؛ فيصبح وجوده مثل عدم وجوده، بل أحيانًا ما تكون العمليات النفسية أشد خطورة؛ لأنها تخدع المرأة، وتوهمها بأنها كاملة الأعضاء، في حين أنها ليست كذلك من الناحية العملية، أو توهمها بأنها حرة وهي ليست حرة، أو أنها سعيدة وهي ليست سعيدة.

إن هذا الوهم من أخطر الأشياء على المرأة؛ لأنه يسلبها أهم الأسلحة في معركتها للتحرر، ألا وهو سلاح الوعي بأنها لا زالت مستعبدة.

ونحن — النساءَ العربيات — ندرك أننا لا زلنا مستعبَدات، ليس لأننا ننتمي إلى الشرق أو الإسلام أو العرب، ولكن لأننا نعيش في مجتمع طبقي أبوي سيطر على العالم منذ بضعة آلاف السنين.

إن خلاصنا من هذا النظام هو الوسيلة الأساسية لتحريرنا، لكن نجاحنا لتحقيق هذا التحرير لن يتم إلا إذا أصبحنا قوة سياسية تعادل نصف المجتمع. إن السبب الأساسي (في رأيي) الذي أعجز النساءَ عن استكمال تحريرهن (حتى في البلاد التي تحولت نحو الاشتراكية) هو أنهن لم يمثِّلن أبدًا القوة السياسية القادرة على فرض حقوقها.

وقد كان معظم الرجال الاشتراكيين العرب يرَوْن أن تكون قوة نسائية سياسية إنما هي فكرة خاطئة، تقسم صفوف الرجال والنساء، وتحرف المعركة عن أهدافها السياسية والاقتصادية الأساسية، وتحولها إلى صراع بين الجنسين.

كما أن معظم النساء العربيات المتحمسات لتحرير المرأة وقيادات الجمعيات النسائية العربية كنَّ يتصورن أن مشكلة المرأة مشكلة خاصة بهن، أو مشكلة اجتماعية تتعلق بالأسرة والأطفال، ولا علاقة لها بالأمور السياسية الكبرى مثل قضية الاشتراكية أو الحرية أو الديمقراطية.

إلا أن تجارب وأخطاء الماضي قد أنضجت الكثيرات من القيادات النسائية، ومن الرجال الاشتراكيين العرب، وبدأ معظمهم يدركون الحاجة الملحَّة إلى التغلب على تلك الهُوَّة التي تفصِل بين ما هو سياسي وما هو شخصي، ومحاولة خلق نظرية ثورية عصرية تُوائم بين التنظير والتطبيق، وتسد الثغرة ما بين التفكير والشعور، وتعثر على صيغة جديدة لعلاقة نضال النساء ونضال الرجال.

إن هذه الصيغة الجديدة لا بد وأن تربط بين القهر العام الواقع على الرجال والنساء وبين القهر الخاص الواقع على المرأة لكونها امرأة. بمعنًى آخر، لا بد من الربط بين الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين الثورة الثقافية والأخلاقية والنفسية والشعورية.

إن تسييس الحركات النسائية العربية، وتجميع النساء من كل بيت وكل قرية وكل مدينة، ومن الفلاحات الأميات والمهنيات المتعلمات، يعني أن الثورة العربية تستطيع أن تتغلغل داخل كل بيت وكل كوخ وكل عقل نسائي، وتكتسب بذلك صفتها الجماهيرية الشعبية، ولا تخضع لأقلية أو طبقة معينة من النساء.

ليس هناك من أحد سوى النساء العربيات أنفسهن القادرات على تكوين نظريتهن وأفكارهن ووسائلهن لتحرير أنفسهن، وعلى خلق المرأة العربية الجديدة ذات الشخصية الأصلية، القادرة على اختيار أفضل ما في تراثها وحضارتها القديمة، وأفضل ما في العلوم والأفكار الجديدة. المرأة العربية الواعية التي لا تعيش الوهم بأن الحرية ستأتيها منحة من السماء، أو هبة من الرجال، ولكنها تدرك أن طريق الحرية طويل وشاق، وأنها ستدفع

ثمن الحرية غاليًا، إلا أنها تدرك أيضًا أنها تدفع ثمن العبودية غاليًا، فلماذا لا تدفع وتكون حرة بدلًا من أن تدفع وتكون عبدة.

ولسوف تلعب النساء العربيات كقوة سياسية دورهن لتحقيق الوحدة العربية، هذا الأمل الذي ظنَّ بعض الناس أنه تبدَّد بعد خدعة السلام الأخيرة، إلا أنني أعتقد أن الشعوب العربية رجالًا ونساءً تسير بخُطًى أكثر وعيًا وأكثر ثباتًا نحو الوحدة والتحرير الحقيقي.

آخر قلاع الملكية الخاصة[1]

امتلاك الرجل لزوجته

اشتد الصخب وارتفعت الصيحات، فزع أغلب الرجال وبعض النساء المملوكات للرجال؛ فالأمر يتعلق بآخر قلاع الأملاك الخاصة للرجل، وهو امتلاكه لزوجته حسب القانون العبودي القديم، الذي يقول: الرجل يملك زوجته لكن المرأة لا تملك زوجها؛ لأن السيد يملك العبد لكن العبد لا يملك سيده.

منذ نشوء العبودية أو الرِّق في التاريخ اندرجت الزوجة (سُمِّيَت الرقيقة من كلمة الرق) ضمن أملاك زوجها من عبيد وماشية وأشياء أخرى. أصبحت المرأة شيئًا أو جسدًا يملكه زوجها، أمَّا زوجها فهو يملك جسده ونفسه لأنه إنسان وليس شيئًا.

لهذا نسمع هذا الصراخ حين تحدث محاولة صغيرة لتغيير هذا الوضع الذي يتعارض مع جميع حقوق الإنسان. يتغنى الرجال بحقوق الإنسان في كل مكان، فإن أصبحت المرأة هي هذا الإنسان، فزعوا وصاحوا: أمسِك المرأة باللجام وإلا أفلتت من الحبس أو الاحتباس!

هذه الكلمة (الاحتباس) التي ترن في الأذن مؤلمة نابية، تذكِّرنا بعصر العبيد، هذه الكلمة أصبحت تتردد على الألسنة في بلادنا كأنما هي كلمة عادية! كأننا نعيش في عصر

---

[1] نُشر بجريدة الأهالي، ٢ فبراير ٢٠٠٠م.

الرق! رغم أن ثورات العبيد في التاريخ قد حرَّمَت الرق، ولم يعد من حق أحد أن يملك جسد أحد، وانتشرت حقوق الإنسان على شكل قوانين تكفل لكل فرد حق امتلاك جسده وعقله ونفسه، وحقه في العمل بأجر يناسب العمل، وحقه في السفر والتنقل دون قيد أو شرط (إلا إذا كان محكومًا عليه في جريمة قتل)، وغير ذلك من حقوق الإنسان الأساسية التي نحفظها عن ظَهر قَلْب.

إلا أن المرأة في بلادنا لم تعد إنسانًا بعدُ في نظر أغلب الرجال، بل في نظر بعض النساء أيضًا. شاهدت امرأة على شاشة التليفزيون (وهي أستاذة بالجامعة) تصرخ دفاعًا عن حرية الطلاق وحرية السفر للزوج دون قيد أو شرط، أمَّا الزوجة فهي لا يحق لها الطلاق أو الخُلع أو السفر دون موافقة زوجها؛ لأن عقد الزواج يفرض على الزوجة طاعة زوجها؛ فهو ينفق عليها وله الحق مقابل الإنفاق في احتباسها.

خرجت كلمة «احتباسها» من فم المرأة بصوت ذكوري منفِّر، وهي أستاذة بالجامعة تلقن الطلبة والطالبات في بلادنا هذه القيم القائمة على احتباس النساء مقابل الإنفاق، ثُمَّ نشكو بعد ذلك من تفسخ القيم الأخلاقية، وهل هناك شيء ضد الأخلاق أكثر من إجبار النساء على الحياة مع رجل مكروه لمجرد الإنفاق عليهن؟! وما الفرق بين امرأة تقدِّم جسدها لزوج مكروه مقابل قروشه وبين المومس في سوق البغاء؟! مع ذلك تشمخ الأستاذة الجامعية بأنفها وتلعن النساء اللائي يطالبن بحرية المرأة، كما حدث في البلاد الغربية المنحلة الأخلاق، وحيث تمتلك المرأة جسدها كاملًا، ولا وصاية لأحد على هذا الجسد!

هذا هو كلام الأستاذة الجامعية الذي وافقها عليه أغلب الرجال الحاضرين في تلك الندوة فوق الشاشة، وهو كلام يبدو في ظاهره مع الأخلاق، لكنه في الحقيقة ضد الأخلاق؛ لأن الأساس في الأخلاق هو أن يملك الإنسان جسده وعقله وتكون له الحرية دون وصاية من أحد، إن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا بالحرية والاختيار (أي المسئولية)، أمَّا الفضيلة التي تُفرَض بالقوة والإجبار والوصاية فهي ليست فضيلة، وإنما مجرد خضوع للقهر.

لهذا فإن قضية حرية الإنسان (الرجل والمرأة) هي جوهر الدين الصحيح والقانون الصحيح، إن الحرية حق من حقوق الإنسان، منحة يعطيها الزوج لزوجته، وتكتسب المرأة حريتها بمثل ما يكتسب الرجل حريته حسب القوانين الوضعية والدينية، وهناك في الكتب السماوية آيات متعددة تؤكد مبدأ الحرية والمساواة بين البشر نساءً ورجالًا. وفي القرآن هذه الآيات مثل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (سورة النساء، آية ١)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

(سورة التوبة، آية ٧١)، وتعني هذه الآية أن الولاية من حق النساء والرجال وليس من حق الرجال وحدهم، ومن أحاديث الرسول محمد ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، و«الناس سواسية كأسنان المشط»، وغير ذلك كثير.

لكن الأستاذة الجامعية كانت تدافع عن رأيها تحت اسم الشرع والدين وهي جاهلة بهما، وقد أيَّدها في رأيها عدد من الرجال، ومنهم أحد كبار أطباء النفس، الذي تحدث باسم علم النفس، وراح يؤكد أن النفس نزَّاعة للهوى، تجاهل أن هذه النفس قد تكون ذكرًا أو أنثى، وقصر كلامه على المرأة، قال إنها عاطفية بطبيعتها الأنثوية، تغلب عليها نزعات دونية جنسية لأسباب نفسية، فإن وجدت طريق الخلع أو الطلاق سهلًا (لمجرد أن تردَّ لزوجها الصداق وتتنازل عن النفقة)، فإنها قد تتخلى عن أسرتها وزوجها لمجرد نزوة جنسية، أمَّا إذا وجدت طريق الطلاق مسدودًا أمامها فسوف لا تجد أمامها إلا طريق الخير والصلح مع زوجها حفاظًا على الأسرة المقدسة!

كان بين شفتيه «بايب» كاد يسقط من فمه وهو ينطق كلمة «الأسرة المقدسة»، وضحكت من هول المفارقة؛ لأن هذا الأستاذ الطبيب النفسي كان زميلًا لي في كلية الطب، تزوج من زميلة لنا كانت طالبة مثالية، أصبحت طبيبة ناجحة، لكنه فرض عليها بعد الزواج أن تتفرغ لخدمته وخدمة الأطفال، عاشت معه ثلاثين عامًا وأكثر، أنجبت منه خمسة من الأولاد والبنات، وأخلصت لحياتها العائلية، لم يكن لها حياة أخرى إلا الأسرة المقدسة.

إلا أن هذه الأسرة المقدسة تلاشت فجأة أمام نزوة جنسية طارئة لزوجها بعد أن بلغ السبعين عامًا. لقد استطاعت ممرضة صغيرة في عيادته أن تسيطر عليه جنسيًّا.

أصبح يشتري حبوب الفياجرا ويركع عند قدميها يتمسح في ساقيها مثل الخروف في قصة ألف ليلة وليلة، وكان من قبل رجلًا من بني آدم، ثُمَّ سحرته المرأة على هيئة خروف. وقد جاءتني زميلتي القديمة تبكي على زوجها الأستاذ الكبير الذي ضحَّى بها وبالأسرة المقدسة من أجل فتاة تصغره بأربعين عامًا، تعامله بجفاء وقسوة، لا تريد منه إلا المال؛ فهي تحب شابًّا من عمرها ولا تطيق أن يلمسها هذا الرجل العجوز ذو السبعين عامًا، مع ذلك تقدم له نفسها مقابل المال، وهو يعرف ذلك ويقول: واجب الزوج الإنفاق، وواجب الزوجة الطاعة.

كنت أرمقه وهو يتحدث على الشاشة بازدراء؛ فهو يرتدي قناع العلم والوقار، يتحدث عن الأسرة المقدسة وضرورة سد الطريق أمام المرأة لتحافظ على هذه الأسرة! بالطبع لم يتحدث الأستاذ الكبير عن ضرورة سد الطريق أمام الزوج ليحافظ على الأسرة المقدسة!

بل راح يُسهب في قدسية الأسرة، وأنها كيان واحد ملتحم وليست أفرادًا منفصلين أو مجموعة من الغرباء لا شأن لأحدهم بالآخر؛ وبالتالي فهو يعارض التصريح في القانون بحق الزوجة في السفر دون إذن زوجها؛ فهذه الأمور تحل داخل الأسرة المقدسة وليس بقرار خارجي من وزير العدل.

بالطبع تجاهل هذا الأستاذ الكبير أنه سافر عشرات المرات دون موافقة زوجته، بل إنه طلقها دون موافقتها، وتزوج فتاة تصغره بأربعين عامًا دون أن يعترض القانون، وأنفق عليها في عامين اثنين مدخرات عمره وعمر زوجته وأسرته، وعلى شراء حبوب الفياجرا دون جدوى؛ فالزمن لا يعود إلى الوراء، والعجوز لا يصبح شابًّا وإن صوَّرت له الأوهام غير ذلك. لقد هجرته العروس الشابة بعد عامين فقط وذهبت إلى حبيبها الشاب.

ومع ذلك يشمخ هذا الأستاذ الكبير بأنفه، ويعلن على شاشة التليفزيون أن المرأة لا يحق لها أن تملك جسدها لأنها أنثى (ترن كلمة أنثى في أذني نابية)، ولا يحق لها السفر دون إذن زوجها لأنها في حاجة إلى حماية، ولا يصح أن تحظى بالحرية الجنسية التي تحظى بها المرأة في الغرب وإلا تفككت الأسرة المقدسة التي هي نواة المجتمع.

بالطبع لم يسأله أحد: ولماذا يحظى الرجل بالحرية الجنسية التي يحظى بها، ولماذا لا نضع القيود على حرية الرجل من أجل الحفاظ على الأسرة المقدسة؟! لم يسأله أحد لأن أغلب الناس في بلادنا تفكر بنصف عقل أو بعقل مزدوج لا يرى التناقض فيما يقولون وغياب المنطق والعدل، أغلبهم رجال أعمتْهم رغباتهم وشهواتهم عن رؤية الحقيقة. إنهم يخافون على ضياع آخر القلاع في أملاكهم الخاصة، وهو امتلاك الزوجة! لقد تحرر العبيد في التاريخ بعد أن امتلكوا القوة السياسية لانتزاع حقوقهم، وليس أمام النساء طريق آخر للتحرر من قانون الاحتباس!

فكر وثقافة

٢٨ مقالًا

إعادة قراءة تاريخ مصر القديم![1]

يلعب التاريخ دورًا هامًّا في فهم الماضي، الذي يُبنى عليه الحاضر والمستقبل من بعد؛ إذ لا يمكن الفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ لهذا تلعب مجلة «روز اليوسف» دورًا إيجابيًّا في فتح صفحاتها لمقالات جديدة عن تاريخ مصر القديم، يشارك فيها عدد من المفكرين والباحثين في التاريخ القديم، منهم الدكتور «وسيم السيسي» والدكتور سامح عرب. وقد قرأت في روز اليوسف ١٦ / ٤ / ١٩٩٩م رد الدكتور سامح عرب على مقال الدكتور وسيم السيسي (روز اليوسف، ٢ / ٤ / ١٩٩٩م) تحت عنوان «حق الاختلاف حول أوزوريس»، وأعجبني المقال لأسلوبه العلمي الهادئ الذي يحاول الوصول إلى الحقيقة، وهل أوزوريس هو أول الموحدين في التاريخ (كما يقول الدكتور وسيم السيسي)، أم أن إخناتون (إيمحوتب الرابع) هو أول من دعا إلى التوحيد؟

وفي هذا المجال يمكن أن يجتهد الباحثون والباحثات، وهناك من يقول إن «إيزيس» (وليس أوزوريس) هي الأولى في التاريخ التي قامت فلسفتها على التوحيد، مثل أمها «نوت» إلهة السماء، وجدتها الكبرى «نون» التي كانت إلهة الكون الموحد دون انفصال السماء عن الأرض، وكانتا وحدة واحدة بقيادةٍ واحدةٍ هي الإلهة الأم الكبرى «نون». وقد ساعدت هذه الوحدانية على ازدهار الكون ونمو الخير وتوزيعه على الناس بالعدل دون أسياد وعبيد، إلا أن نشوء العبودية أدى إلى ظهور فلسفة جديدة تقوم على الانقسام والتفرقة، «فَرِّقْ تَسُد».

---

[1] روز اليوسف، من ٨–١٤ / ٥ / ١٩٩٩م.

إن هذه الفترة من التاريخ القديم في حاجة إلى دراسات متعمقة بعيدة عن التنافس السياسي والحزبي الذي يقسم الناس إلى فرق تتنازع الحكم فوق الأرض وفي السماء أيضًا.

إن ما نعرفه عن التاريخ القديم لا يزيد على آثار الحجارة أو حروف مُدوَّنة على جدران المعابد والبرديات، وأساطير وردت في بعض الكتب الدينية باعتبارها قصصًا غير حقيقية أو حقيقية، وقصة الخلق في التوراة لا تذكر شيئًا عن أوزوريس أو إخناتون، مع أن النبي موسى (الذي نُسِبَت إليه التوراة) قد قرأ فلسفة إخناتون ونفرتيتي وتأثر بهما ونقل عنهما، وهو أمر طبيعي؛ لأن كل نبي أو زعيم سياسي لا يبدأ من فراغ أو من الصفر، ولكنه يبني أفكاره على أفكار من سبقوه ويزيد عليها، أو يطوِّرها إلى الأفضل أو إلى الأسوأ حسب المرحلة التاريخية التي يمرُّ بها الشعب في ذلك الوقت.

ولعل أكبر غلطة في التاريخ البشري هي أن الإله «أوزوريس» هو أول الآلهة الذكور الموحدين، الذي ولد نفسه بنفسه ولم تلده أمه، وهي الإلهة «نوت»، وكانت إلهة السماء وزوجها «جب» إله الأرض، بعد انفصال السماء عن الأرض، وقد ولدت «نوت» أربعة من الأولاد والبنات «إيزيس ونفتيس وست وأوزوريس».

إلا أن الصراعات بين الآلهة كانت دائرة حول امتلاك الحكم والأرض الزراعية، واستطاع الإله «رع» أن ينزع عن الإلهة الأم تاجها، وكان قرص الشمس ذاته، أو «أتوم»، وهو الإله الكامل الواحد (الجعران/خبرى) الذي اتحد مع ذاته وأنجب (دون حاجة إلى المرأة) زوجًا من الآلهة هما: «شو» إله النور أو الحرارة أو الجفاف. و«تفنوت» إلهة الظلام أو البرد أو الرطوبة.

وهنا نتوقف قليلًا لندرك كيف تم الاستغناء عن دور المرأة الزوجة والأم في إنجاب الآلهة، كأنما الإله الذكر قادر وحده على الإنجاب. وكما حدث في التاريخ من الانتقال من الإلهة الأم إلى الإله الأب حدث في عبادة الحيوانات التي كانت ترمز إلى الألوهية، وكانت «البقرة» ترمز إلى الإلهة إيزيس أو حتحور، إلا أن الملك مينا (أو نارمر) أنشأ عبادة التمساح المذكر «سوبك» في الفيوم، وعبادة العجل «أبيس» المذكر أيضًا في منف. وكان الملك مينا (أو نارمر) حاكمًا باطشًا ظالمًا للفقراء والنساء، وكان يتمتع بلقب «قاطع الرءوس الجبار».

أجل، كان الصراع في التاريخ حول الحكم والأرض صراعًا دمويًّا تُقطَع فيه الرءوس. وقد انهزمت الأغلبية الساحقة من الشعب المصري الفقير (رجالًا ونساءً) أمام هذا البطش الفرعوني، وقد تنكر فرعون في ملابس الإله الذكر.

واشتد الصراع بين الإله الملك إخناتون (إيمحوتب الرابع) وبين الإله الملك أمون رع، وانهزم رع، وجلس إخناتون على عرش مصر، وقال: إن الإلهة الوحيدة المعبودة هي «الشمس»، وكانت محاولة لاستعادة وحدانية الإلهة الأم الكبرى، وكان إخناتون إنسانًا رقيقًا يحتوي على صفات الأمومة والأنوثة مع الرجولة، وكان جسمه أيضًا مثل عقله يُظهر بعض الصفات الأنثوية والذكورية في آنٍ واحد. وحين رأيت صورة إخناتون ونفرتيتي لأول مرة تصورت أن إخناتون هو المرأة ونفرتيتي هي الرجل، وقد رأيت لإخناتون ثديين وردفين أكبر مما عند زوجته نفرتيتي. وهناك من يقول إن أناشيد إخناتون هي التي ألفتها نفرتيتي، وهي التي كانت تحكم وليس زوجها، أو ربما كان إخناتون يحكم من خلال أمه الملكة «تي» ذات الشخصية القوية، إلا أن هذه الفترة لا تزال في حاجة إلى دراسات متعمقة حيادية غير خاضعة للفلسفة الذكورية السائدة في العالم اليوم.

وهناك تشابه كبير بين أناشيد إخناتون ونفرتيتي ومزامير الملك داود في التوراة، وقد تحولت الفلسفة بعد ظهور التوراة إلى فلسفة طبقية أبوية أساسها النسب الأبوي والسيطرة الذكورية في الدولة العائلة. هكذا حدث الصراع ضد «عبادة الشمس» المؤنثة، وانهزم إخناتون ونفرتيتي هزيمة منكَرة على يد الآلهة الذكور في التوراة، الذين تصارعوا فيما بينهم حول الحكم والأرض، وما زالوا يتصارعون حتى اليوم. وبعد أن جعله الإله شعبه المختار، ومنحهم الأرض الموعودة (أرض فلسطين) مقابل ختان الذكور. وكثيرًا ما نبذوا هذا الإله الواحد غير المرئي وعبدوا «العجل» وقت الهزائم.

ومن المعروف أن المرأة المصرية القديمة كانت تحظى بمكانة عالية فوق الأرض وفي السماء، وكانت تنسب إليها أطفالها، وكانت إلهة العدل مؤنثة في مصر القديمة واسمها «معات».

إلا أن الصراعات الدموية قد أطاحت بفلسفة العدل أو الحق وحلَّت مكانَها فلسفةُ «القوة» المسلحة، واستطاع الفراعنة والملوك الإقطاعيون أن يسلبوا الشعب المصري حقوقه تحت اسم الإله الحاكم أو فرعون الأكبر.

إن إعادة قراءة التاريخ القديم تكشف لنا عن الكثير من الأسباب الاقتصادية والسياسية التي أدَّت إلى قهر الفقراء والنساء من الشعب أخلاقيًّا ودينيًّا. هناك ترابط بين السياسة والاقتصاد والدين والأخلاق، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لكن هذا الفصل يحدث في المدارس والجامعات بسبب ما يُسَمَّى بـ «التخصص».

وقد أدَّى التخصص إلى الجهل بهذه الروابط بين العلوم الإنسانية والتاريخية وبين العلوم الطبيعية كالطب والفيزياء والكيمياء.

وهناك مبدأ في علم الطب يقول: «لا بد من معرفة الأسباب الحقيقية للمرض من أجل القضاء عليه.» لهذا يجب على الطبيب أن يدرس تاريخ حياة المريض أو المريضة، وأن يربط بين الماضي أو المريضة، وأن يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وما يسري على الأمراض الجسمية لا بد أن يسري على الأمراض الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والنفسية.

وكثيرٌ من الناس يتحدثون عن أزمة الشباب والشابات في بلادنا إلا أن القليل جدًّا ما يربط هذه الأزمة في الأخلاق (أو في الأسرة والزواج أو الاغتصاب أو انتشار المخدرات) بما يحدث في مجال الاقتصاد والسياسة والتاريخ والفلسفة والدين ... إلخ.

ولعل إعادة قراءة تاريخ مصر القديم تساعدنا على فهم الحاضر أكثر، وبناء مستقبل أفضل، ولهذا حديث آخر.

تأثيم المعرفة

لماذا حدث في التاريخ البشري؟[1]

نشرتُ إعلانًا في الصحف أطلب شغالة في البيت تساعدني في التنظيف والطبخ؛ فجاءني العشرات من خريجات وخريجي الجامعات. عملت لهم اختبارًا لأنتقي الأكثر ذكاءً ونظافةً وأمانةً. وفازت بالعمل فتاة شابة في الرابعة والعشرين من عمرها، تخرجت في كلية الآداب ولم تجد عملًا مثل غيرها من آلاف الخريجين، اسمها «أمل»، وجهها فيه لمعة الذكاء الفطري المطموس تحت طبقة من الشحوب والفقر واليأس ونقص الفيتامينات. اشتريت لها عددًا من علب الفيتامينات الطازجة، وملابس نظيفة، وأعطيتها بعض كتبي لتقرأ عن حقوقها كإنسانة. أقبلت أمل على العمل بهمة ونشاط، وأصبح بيتي نظيفًا، وتفتحت شهيتي للطعام بسبب مهارتها في الطبخ، ولم تعد قمصان نومي بلا أزرار؛ كانت «أمل» تجيد أيضًا «الخياطة»، حتى الجوارب القديمة بدأت ترتق ما فيها من ثقوب، ومربى «اللارنج» التي كنت أتوحم عليها منذ موت أمي منذ أكثر من ثلاثين عامًا بدأت أتذوق طعمها داخل برطمانات صغيرة. أعادت إليَّ التفاؤل الطفولي حيث كنت في السابعة من العمر، وأصبحتْ نكهة الطعام تتصاعد من بيتي، تنبعث في عقلي وجسدي وروحي نشوة وإحساس جديد بالحياة والحرية والأمل والحب!

[1] روز اليوسف، من ٨–١٤ / ٥ / ١٩٩٩م.

أجل، الحب أيضًا، لقد فقدت شهيتي للحب مع الجوع المزمن الذي لازمني منذ انشغلت بالكتابة والتأليف والفكر والفلسفة وغير ذلك من الأمور غير النافعة في حياتنا الراهنة.

إلا أن هناك أنواعًا من البشر وفصائل من الحيوانات أو الكائنات التي تزِنُّ على خراب عشها، ربما أكون واحدة من هؤلاء، وإلا فلماذا ناديت على أمل ذات يوم؛ قلت لها: اسمعي يا أمل، أنت فتاة ذكية ونشيطة، ولا بد أن لك أحلامًا وطموحات في حياتك؟

قالت أمل: نعم، عندي حُلم واحد.

قلت: ما هو؟

قالت: أتعلم كومبيوتر.

قلت: يا سلام، بس كدة؟!

في دقائق اتصلت تليفونيًّا بمكتب كمبيوتر بجوار بيتي، التحقتْ فيه أمل في اليوم نفسه، بدأت التدريبات على الكمبيوتر. بعد شهرٍ واحدٍ أصبحت أمل تكتب بأصابعها العشرة بسرعة معقولة، وتعلمت مهارات أخرى على الكمبيوتر غير الكتابة، كنت أدفع لها كل شهر ثلاثمائة جنيه للتدريبات واقتحام مجالات جديدة في المعرفة. بعد ثلاثة أشهر أصبحت أمل من أمهر الكاتبات على الكمبيوتر باللغة العربية والإنجليزية، كانت تذهب إلى مكتب الكمبيوتر للتدريب ثلاث ساعات كلَّ يوم من السادسة حتى التاسعة مساءً، وكانت تقوم أيضًا بتنظيف البيت والطبخ ورعاية أموري، كما كانت تفعل قبل التحاقها بالمكتب.

كل صباح كانت تدق جرس البيت في الساعة التاسعة صباحًا، تقول لي صباح الخير، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، كل يوم كانت تأتي في موعدها في الصباح، تنتهي من أعمال البيت في الواحدة ظهرًا، وفي اليوم التالي أسمع الجرس، أعرف أنها هي، وكانت إجازتها يوم الجمعة من كل أسبوع.

وجاء العيد وأخذتْ ثلاثة أيام إجازة مثل موظفي الحكومة، أعطيتها الخميس والجمعة إجازة بعد إجازة العيد، وكان موعدها السبت الساعة التاسعة صباحًا كعادتها … وجاء السبت إلا أن «أمل» لم تأتِ. قلت ربما مريضة بعد أن أكلتْ «كعك» العيد، وسوف تأتي في الغد. إلا أن الغد جاء ولم تأتِ «أمل»، لم يرن جرس البيت في التاسعة، ولم يرن جرس التليفون أيضًا لتخبرني عن سبب غيابها، كانت تكلمني في التليفون حين تغيب لعذر طارئ.

لي صديقة اسمها سوسن أحكي لها عن همومي أحيانًا، جاءتني في زيارة فوجدتني جالسة يدي تحت خدي وليس في بيتي طعام، سألتني بسرعة: وفين أمل؟

– مش عارفة يا سوسن!

– مش عارفة إزاي؟

– بعد أجازة العيد مارجعتش.

– مش قلت لك بلاش تعلميها كمبيوتر، طبعًا يا ستي بعد ما اتعلمت ولقت شغلة أحسن لا يمكن ترجعلك تاني!

– يعني ما فيش حاجة اسمها وفاء في الدنيا؟

أطلقت صديقتي سوسن ضحكة ساخرة، وقالت: إذا تعارضت المصلحة الخاصة مع الوفاء انتصرت المصلحة، وأنا نصحتك وقلتلك بلاش تعلميها وإلا فقدتيها!

أجل، لقد فقدت «أمل» لأنني ساعدتها على التعليم وفتحت لها طريقًا للمعرفة … عضضت بنان الندم وقلت لنفسي: «لو لم أعلمها لبقيت في بيتي تشتغل!»

ألهذا حُرِمَت النساء من التعليم ليشتغلن في البيوت ويتفرغن لخدمة الأسرة من الرجال والأطفال والعجائز بدون أجر إلا طعامهن!

ألهذا حُرِمَ العبيد والأُجراء من التعليم ليعملوا في الأرض أو البيوت أو المصانع بأقل الأجور التي لا تكاد تسد الرمق؟!

ألهذا أصبح التعليم لا يؤدي إلى المعرفة الحقيقية، بل إلى نوع من التأهيل المهني أو الوظيفي فحسب؟

كانت هذه الأسئلة جميعًا واردةً في عقلي منذ وعيت الحياة، منذ رفضت الزواج وأنا في أول الصبا وقررت أن أتعلم وأسعى إلى المعرفة بأي ثمن وإن دفعتُ حياتي ثمن المعرفة.

إلا أن كل ذلك لم يطعمني أو ينفض التراب عن الرفوف في بيتي، أو يخيط لي الأزرار الساقطة في قميصي، أو يغسل لي ملابسي ويكويها.

هكذا نشرت إعلانًا جديدًا في الصحف أطلب شغالة، وجاءني العشرات من الخريجين والخريجات. عملت لهم اختبارًا ساعدتني فيه صديقتي سوسن، اختارت فتاة شابة خالية من الذكاء والطموح، وقالت لي: الشغل في البيوت لا يمكن أن يقوم به إلا الأغبياء المعدمون من الطموح!

وأدركت ما كنت أدركه منذ وعيت الحياة، لقد قامت الفلسفة العبودية في التاريخ البشري على تأثيم المعرفة، وأصبح الجهل فضيلة والغباء ميزة كبيرة.

وكانت خطيئة أمنا حواء أنها رفضت الجهل، ومدَّت يدها وأكلت من شجرة المعرفة! كان الإثم الأكبر في التاريخ العبودي هو «تذوق المعرفة» وليس «تذوق الجنس» كما أُشيع في الكتب التي لقنونا إياها في المدارس.

إلا أنني لمحت وسط الطابور فتاة شابة تشبه «أمل»، وجهها يضيء بلمعة الذكاء الفطري، التقت عيوننا في لحظة خاطفة وابتسمت؛ فأشرت لها بيدي، كانت ابتسامتها مثل الضوء لمست شيئًا بعيدًا في أعماقي، ربما طفلة السابعة ذات التفاؤل الساذج.

اكتئاب المثقفين ومسئولية الحوار مع السلطة![1]

توقفت كثيرًا أمام مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ المنشور في جريدة الأهرام بتاريخ ٣ فبراير ١٩٩٩م، الذي تعرض فيه لظاهرة صمت المثقفين في اللقاء السنوي الذي يُعقَد مع رئيس الدولة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب، وتدثُّر معظمهم — ولا يستثني نفسه — «بدفء الجلوس الكسول فوق الكراسي الوثيرة»، ويقول إن تكاسل المثقفين وتقاعسهم عن طرح الأسئلة الصعبة في المسائل الصعبة يؤدي إلى أن يحتل الساحة أنصاف مثقفين يطرحون أسئلة صحفية سريعة، أو يتناولون قضايا جزئية أو مشكلة عاجلة أو مطالب شخصية، دون أن يغوصوا بالحوار في العمق أو يصلوا إلى جذور الأشياء.

ويقسم صلاح الدين حافظ المثقفين إلى فريقين: فريق عزل نفسه وانسحب بسبب الاكتئاب أو الإحباط، وفريق فرض نفسه بالسباحة في التيار ونفاق السلطة.

وأنا أتفق تمامًا مع الأستاذ صلاح الدين حافظ إلا أنني كنت أودُّ أن يتطرق أكثر لتحليل هذه الظاهرة، ويضع النقاط على الحروف، إلا أنه ينهي المقال بسؤال: من المخطئ في هذا؟ أم أن المثقفين يتحملون مسئوليةً لا تقل عن مسئولية السلطة، وأن على كل منهم أن يراجع نفسه قبل أن يصيبَه الاكتئاب أو النفاق.

لا شك أن المسئولية تقع على السلطة وعلى المثقفين، وإن كان قسم كبير من المثقفين يندرج تحت السلطة، وقسم كبير آخر لا يندرج تحت المكتئبين أو تحت المنافقين، هذا

---

[1] روز اليوسف، ١٥/ ٢/ ١٩٩٩م، (٣٦٨٨) (٦٥).

القسم الكبير من المثقفين لم يكن له أيُّ ذكر في مقال الأستاذ صلاح الدين حافظ، ورغم أنه ربما يشمل الأغلبية من المثقفين والمثقفات في بلادنا، إلا أنه قسم مهمَل، ونادرًا ما يحظَى بالأضواء الصحفية أو الإعلامية، ولا يُدعى لحضور اللقاءات الفكرية مع رئيس الدولة أو ندوات معرض الكتاب، أو هذا الفيض الهائل من المؤتمرات الثقافية والمهرجانات، وإن دُعي مرة (ذَرًّا للرَّماد في العيون)، فإن الدعوة لا يمكن أن تتكرر إن فَتح الواحدُ فمَه أو فتحت الواحدة فمها وقالت شيئًا مختلفًا.

ولي تجرِبة في هذا المِضمار لها أهميتها لإلقاء الضوء على التجرِبة العامة، فأنا لا أنتمي إلى فئة المكتئبِين ولا إلى فئة المنافقين أو المنافقات، وحين أحضر اجتماعًا ما فأنا أبذل ما أستطيع من جهد (سواء بالفعل أو القول) لكسر الحواجز المصنوعة واختراق ترسانة المنافقين الذين يحتلون عادةً الصفوف الأمامية والكراسي الوثيرة، ويسدُّون الطريق أمام كل من يريد الكلام بصراحة أكثر أو عمق أكبر؛ ولهذا السبب تم استبعادي تمامًا من هذه اللقاءات الفكرية أو غير الفكرية التي تُعقَد في مصر أو عواصم البلاد العربية، كما تم استبعاد الكثيرين من أمثالي ومثيلاتي من المثقفين والمثقفات.

المسألة إذن ليست الاكتئاب أو الإحباط، بل المسألة أن السلطة تملك جميع وسائل الثقافة والفكر والإعلام والنشر والتوزيع والنقد الأدبي وكل شيء، ويمكن للسلطة أن تستبعد من تشاء، خاصةً هؤلاء الذين يمكن لهم أن يتكلموا بشجاعة أكبر ويغوصوا إلى جذور المشاكل ويطرحوا الأسئلة الصعبة في المسائل الصعبة. وقد يتعرض هؤلاء إلى ما هو أكثر من الاستبعاد، وأعني الطرد من العمل، أو النفي إلى الخارج أو إلى الداخل، وتشويه السمعة عبر أجهزة الإعلام والصحافة التي تملكها الدولة. والغريب أن أحدًا لا يتصدى للدفاع عن هؤلاء المنبوذين، والذين قد ينالون تقديرًا علميًّا أو أدبيًّا كبيرًا خارج وطنهم، ولا يعترف بهم أحد داخل الوطن إلا بعد أن يتلقى الضوء الأخضر من المسئولين أو السلطة.

الغريب أيضًا أن بعض الذين يصيبهم «الاكتئاب» على صلة حميمة بالسلطة، يرفلون في نعيمها، ويجلسون في كراسيها الوثيرة، أيكون «الاكتئاب» هنا نوعًا من تأنيب الضمير؟

وقد نصحني بعض أصدقائي من المثقفين أو الأدباء الذين ماتوا بمرض «الاكتئاب»، ومنهم صلاح جاهين وأحمد بهاء الدين ويوسف إدريس، ولعل آخرهم هو الدكتور «علي الراعي»، قالوا لي في كل مرة أتعرض فيها لعقاب السلطة: «لن تعيشي في سلام أبدًا ما لم تُقيمي بينك وبين السلطة جسرًا، فما بال أن تشقِّي طريقك إلى المجد الأدبي أو العلمي.»

لهذا أختلف مع الأستاذ صلاح الدين حافظ، وأعتقد أن المشكلة ليست هي كسل المثقفين وتقاعسهم عن التعبير بشجاعة وعمق عن آرائهم، ولكن المشكلة هي هذا الحرص على الجسر بينهم وبين السلطة، وخوفهم من سقوط هذا الجسر، الذي يتصورون أنه الحماية لهم ولأولادهم من الفقر أو المنفى أو العزلة، أو على الأقل الحرمان من الأضواء الإعلامية والصحفية.

وكم من مقالات كتبتُها لم تجد لها مكانًا في الصحف الحكومية أو صحف المعارضة، وكم من مقالات نُشرَت لي بعد حذف أهم أجزائها، وكم من مثقفين ومثقفات يكيلون المدح للمسئولين من أجل تمرير عبارة واحدة ناقدة، ولكن ماذا تفعل قطرة ماء في البحر الواسع أو خِضَمِّ المحيط؟

الأرض مقابل الختان ... أوقفوا ختان الذكور![1]

مع بداية القرن الواحد والعشرين يتحلى النظام العالمي الجديد بكلمات جديدة براقة تتخفى وراءها أشكال جديدة من الاستغلال والاستعباد للفقراء في العالم وللنساء أيضًا.

وأصبحت كلمة العولمة من الكلمات الغامضة الساحرة لكثير من المثقفين في الغرب والشرق أو الشمال والجنوب، إلا أن نتائجها على شعوب العالم ليست إلا مزيدًا من الكوارث والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والحروب الدينية والطائفية المشتعلة في كل بلاد العالم اليوم، وكم من النساء والشباب والأطفال يسقطون قتلى الفتن العقائدية والتي تختفي وراءها المصالح المادية.

أضعف شرائح المجتمع هم أول الضحايا، وهم النساء والفقراء من جميع الطبقات والفئات والألوان. زادت الهُوة مع مزيد من العولمة بين الذين يملكون والذين لا يملكون، وبين الجنس المؤنَّث والجنس المذكَّر الذي له السيادة في الدولة والعائلة في ظل النظام العالمي الجديد، كما كان في ظل العالمي القديم، لا يختلف النظام الجديد عن القديم إلا في التفاصيل والجزئيات، ولكن الجوهر واحد؛ فهو جوهر النظام الطبقي الأبوي. يعني ذلك أن قلة من الأفراد تشكل «الطبقة الحاكمة» تسيطر على مصائر الملايين وأرواحهم وأرزاقهم وأمنهم وأمن أولادهم وبناتهم ... هذه القلة القليلة من الأفراد في كل بلد من

[1] روز اليوسف، ٢١ / ١٢ / ١٩٩٨م.

العالم تملك المال والسلاح والإعلام؛ الثالوث الذي ترتكز عليه السلطة الدولية أو المحلية، الثالوث الذي تبطش به على الأغلبية البشرية المفروض عليها الفقر والصمت ونزع السلاح.

يمكن لمن يدرس التاريخ أن يكتشف الترابط بين السلطة والجنس منذ نشوء العصر العبودي، منذ انقسام المجتمع إلى أسياد وعبيد، وإلى نساء ورجال.

في مصر القديمة كانت «نوت» هي الإلهة الأم، إلهة السماء، وزوجها «جيب» كان إلهَ الأرض، وكانت الأم هي التي تعطي اسمها لأطفالها، لم تكن الأبوة معروفة، كان الرجال يتصورون أن الجنين يتكون في بطن الأم بقدرة خارقة غامضة سماوية، ثُمَّ بدأ العقل البشري يكتشف شيئًا فشيئًا علم البيولوجي وعلم الأمبريولجي «الأجنة»، وبدأ الرجل يعرف دوره في عملية الإخصاب، ثُمَّ بدأ يكتشف «الأبوة».

لم يعد يأكل أطفاله أو يغتصبهم كما كان يفعل من قبل، ولم يعد يؤمن بأن النساء يحملن بسبب أرواح تهبط إليهن من السماء.

انعكست هذه الفكرة البُدائية في الأساطير القديمة، وكم قرأنا هذه الحكايات عن الأبطال الشجعان الذين ولدتهم أمهاتهن بعد أن نفخت الآلهة المقدسة في أرحامهن، ويصبح المولود مُقدَّسًا، وإن كانت المولودة أنثى أصبحت قديسة أيضًا تنضم إلى زمرة الإلهات المعبودات.

إلا أن المجتمعات البشرية كانت في تحول مستمر وصراع دائم للاستيلاء على السلطة والمال والأرض. ظهر الصراع في التاريخ بين الآلهة الذكور والإلهات الإناث، يكشف التاريخ القديم عن معارك طويلة بين الإلهة المصرية إيزيس وأعدائها من خارج البلاد وداخلها، استمرت هذه المعارك الضارية تحاول هدم فلسفة إيزيس في مصر (وغيرها من البلاد في المغرب والشرق) ... حتى عام ٣٩٤ ميلادية، حين جاء الإمبراطور تيودور وحطم تماثيل إيزيس ومعابدها في الإمبراطورية الرومانية. وفي مصر ظل أتباع إيزيس وكهنتها يقاومون حتى آخر معبد من معابدها في جزيرة «فيلة».

والسؤال هو: كيف نشأ ختان الذكور في التوراة؟

في الإصحاح السابع عشر (تكوين) يعقد الإله مع النبي إبراهيم عهدًا، يقول له: «أُقيم عهدي بيني وبين نسلك مِن بعدك عهدًا أبديًّا ... أُعطي لكَ ولنسلك مِن بعدِك أرضَ غُربتك، كلَّ أرض كَنْعان، ملكًا أبديًّا ... هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم ... يُختَن منكم كل ذكر ... فتُختَنون في لحم غُرْلَتِكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم، فيكون

عهدي في لحمكم أبديًّا ... وأمَّا الذَّكَر الْأَغْلَف الذي لا يُختَن في لحم غُرْلَتِكم فتقطع تلك النفس من شعبها، أنه قد نَكث عهدي.»

هذه هي الكلمات التي جاءت في التوراة، تؤكد لنا أن إله اليهود رفع شعار «الأرض مقابل الختان»، وهو شعار غريب، فما علاقة الاستيلاء على أرض الغير بالقوة المسلحة وختان الذكور؟!

لا يمكن أن نفهم هذا السر إلا إذا قرأنا ما جاء في التوراة بعد ذلك، كان إبراهيمُ ابنَ مِائة سنة وزوجته سارة بنت تسعين سنة، لم يكن عندهما ابن يرثهما، أشارت سارة على إبراهيم أن يتزوج جاريتها هاجر لينجب منها الولد، لكن ما إن أنجبت هاجر ابنها إسماعيل حتى غيرت سارة رأيها، أقنعته بطردهما بعد أن أنجبتْ له ولدًا، قالت إنه من عند الله؛ فسأل إبراهيم الله مندهشًا: «هل يولد لابن مِائة سنة؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟» (الإصحاح ١٧/تكوين ١٨). توسل إبراهيم إلى الله أن يجعل ابنه إسماعيل يعيش أمامَه، لكن الله رد عليه في التوراة قائلًا: «فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحاق، وأُقيم عهدي معه عهدًا أبديًّا لنسله من بعده.»

هكذا تمت الخطة حسب تدبير زوجته سارة وفق رواية التوراة، خطة استغرقت ثلاث عشرة سنة بسبب تردد إبراهيم وتلكئه في طرد زوجته هاجر وابنها إسماعيل، أمرت سارة بتختين إسماعيل قبل طرده وعمره ثلاثة عشر عامًا، كما أمرت سارة بتختين زوجها إبراهيم وعمره تسعة وتسعون عامًا.

تقول التوراة: «وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين خُتِن في لحم غُرْلَتِه، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين خُتِن في لحم غُرْلَتِه ... في ذلك اليوم عَيْنِه خُتِن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته، ولدان البيت والمُبتاعون بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه.»

في الإصحاح الثامن عشر نكتشف العلاقة الخفية بين الرب وسارة زوجة إبراهيم؛ إذ يظهر الرب عند باب خيمة إبراهيم ومعه ثلاثة رجال، وسَجد إبراهيم إلى الأرض، ثُمَّ أسرع إلى سارة زوجته داخل الخيمة قال لها: «أسرعي بثلاث كيلات دقيقًا سمينًا، اعجني واصنعي خبزَ مَلَّةٍ. ثُمَّ ركض إبراهيم إلى البقر، وأخذ عِجلًا جيِّدًا وأعطاه للغلام؛ فأسرع ليعمله، ثُمَّ أخذ زُبدًا ولبنًا والعِجل الذي عمله ووضعها قدَّامهم، وإذا كان واقفًا لديهم تحت الشجرة أكلوا.»

«بعد الأكل سأل الربُّ إبراهيمَ عن زوجته؛ فقال له: ها هي في الخيمة. فقال: إني أرجع إليك ... ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهي وراءه،

وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمَيْنِ في الأيام ... وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء.»

إلا أن سارة تحصل على ابنها إسحاق، كيف؟ ... لا نعرف، ولماذا كانت تقف وراء الباب تتسمع ما يدور بين الرب وزوجها إبراهيم؟ ولماذا كان الرب يستجيب لجميع طلباتها ويأمر زوجَها إبراهيمَ بطرد هاجر وابنها إلى الصحراء؟!

وهل هناك إذلال للرجل وهو في التاسعة والتسعين من عمره أن يمسكه الرجال يكشفون عورته، يقطعون غُرْلَته بالموس أو بقطعة من الحجر؟ لقد تلوث جُرح إبراهيم ولم يلتئم إلا بعد زمن طويل من الألم والمعاناة، حتى إنه اشتكى للرب من الألم وطلب منه الرحمة.

ويظل الشعار القديم أو العهد القديم «الأرض مقابل الختان» غير مفهوم، وفي حاجة إلى دراسات أعمق لعصور العبودية والصراعات على السلطة والمال والأرض بين الجماعات البشرية المختلفة.

إلا أن عادة ختان الذكور مثل عادة ختان الإناث أصبحت تُتوارث عبر الأجيال، رغم ما يصاحبهما من مخاطر صحية مختلفة.

بل كثيرًا ما حاول المجتمع البشري تبرير هذه العمليات الجسدية من أجل استمرارها، كانت السلطة الحاكمة في أي مجتمع في حاجة دائمة إلى التحكم في أجساد النساء والعبيد، وقطع أجزاء منها لأسباب قمعية تتخفى تحت الدين.

ولهذا انتشرت الشائعات حتى بين الأطباء أن عمليات الختان للإناث والذكور ضرورةٌ من أجل النظافة أو الصحة أو لمنع بعض الأمراض.

منذ أكثر من ثلاثين عامًا، حين نشرت كتابي «المرأة والجنس»، ثارت السلطات الحاكمة في الدولة لأن الكتاب تضمَّنَ بعض الفصول التي تكشف عن المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الإناث. كان هذا الكتاب (والذي صودر عام ١٩٦٩م) هو فاتحة المشاكل في حياتي، والتي أدت إلى فقدان منصبي في وزارة الصحة في أغسطس ١٩٧٢م. رغم ذلك أصدرتُ الكتاب من بيروت عام ١٩٧١م، وأعقبتُه بكتب أخرى على توالي السنين، نُشرت كلها في بيروت، أو معظمها.

لكني لم أتعرض في هذه الكتابات السابقة إلى المخاطر الصحية الناتجة عن ختان الذكور، كنت مشغولة بما تصورت أنه أهم من ذلك، كما أنني لم أكن عرفت بعد شيئًا عن هذه المخاطر الصحية، وهي معلومات حديثة نسبيًّا، لم يتم نشرها في المجلات الطبية إلا في السنين العشر الأخيرة.

لحسن حظي وصلت إليَّ هذه المعلومات حين كنت أستاذة زائرة في جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا، أمريكا الشمالية، خلال الأعوام ٩٣ و٩٤ و٩٥، وقد شهدت هذه السنوات الثلاث حركة طبية واسعة النطاق، وفي أنحاء متعددة من العالم؛ لنشر المعلومات الجديدة عن مخاطر ختان الذكور، وساعدت الثورة الإلكترونية الأخيرة في سرعة نشر هذه المعلومات، وتكونت فرق من الأطباء تدعو إلى منع ختان الذكور، وتقدم للجماهير العادية المعلومات الطبية عبر الإنترنت تحت عنوان: «الأطباء يعارضون الختان».

في المعركة ضد ختان الإناث انتصرت الحقائق الطبية والعلمية، وصدر القرار في مصر بمنع ختان البنات عام ١٩٩٧م، وقد حَسمت المعركةَ السلطةُ الدينية في مصر حين أعلن شيخ الأزهر أن الختان مسألة طبية من اختصاص الأطباء وليست مسألة فقهية.

هذه عبارة صحيحة تمامًا تنطبق على ختان الإناث والذكور أيضًا، والمفروض أن يطَّلع الأطباء في مصر على المعلومات الطبية الجديدة التي تؤكد أن ختان الذكور ضارٌّ صحيًّا وليست له أية فوائد كما أُشيع قديمًا.

ورغم عدم وجود آية واحدة في القرآن الكريم تذكر الختان (ختان الذكور أو الإناث)، إلا أن عادة ختان الذكور انتشرت بين المسلمين، رغم اختلاف الفقهاء حولها. واختلف الفقهاء المسلمون حول ختان النبي إبراهيم ذاته، بعضهم قال إنه وُلد مختونًا، وكانت هناك أسطورة يهودية انتشرت في البلاد الأخرى عن طريق التجارة، وهي أن الإله يخلق الأنبياء طاهرين مختونين، وأن «الغُرْلَة» تسقط من أجسادهم مع الولادة كما يسقط الحبل السُّرِّيُّ والمشيمة، ثُمَّ اتضح فيما بعد أن الغُرْلَة لم تسقط عن إبراهيم، ولم تَعْرِف بهذا السر إلا زوجته سارة، وبعد أن بلغ من العمر تسعة وتسعين عامًا!

في بداية هذا القرن كان الشيخ محمد عبده ضد ختان الذكور، واعتبره عادة يهودية لا علاقة لها بالإسلام، إلا أن المشايخ عارضوه. وفي بداية الستينيات من هذا القرن ردد الشيخ محمد شلتوت رأي الشيخ محمد عبده، وقال عن ختان الذكور: «إنه إسراف في الاستدلال.» ولم يأمر به الله إلا لليهود.

هذه الآراء لم تُغيِّر من العادة الموروثة منذ الفراعنة، منذ أصبحت إراقة الدم رمزَ الخضوع والولاء للإله فرعون، بدلًا من تقديم القرابين. كان الأثرياء يقدمون للإله فرعون ذبائح من أجساد حيواناتهم، لكن الفقراء أو العبيد لم يملكوا الماشية، وكانوا يقدمون قطعة من أجسادهم صغيرة مع قليل من الدم، دمهم. وفي التوراة آيات كثيرة عن سرور الإله حين كان يشم رائحة الدم، أو الشواء (خاصةً الضأن) فوق المحرقة؛ من هنا جاء

مفهوم الطهارة بإراقة الدم، في التوراة لا تطهر المرأة بعد الحيض أو المخاض (الولادة) إلا بعد أن تذبح فرخًا للإله تطهر به من نجاسة دمها، وإن ولدت أُنثى تكون نجاستها مضاعفة وتذبح فرخين.

تطورت الطهارة أو عملية التطهير من دنس الولادة بالماء وليس الدم، وهي خطوة إلى الأمام، أصبح الطفل المولود يُغطَّس في الماء ليصبح طاهرًا (تُسَمَّى عملية التعميد في المسيحية)، وهي عملية لم يأخذ بها المسلمون، فلماذا انتشرت عادة ختان الذكور في البلاد الإسلامية؟

كثير من فقهاء المسلمين يرفضون فكرة الختان للذكور أو الإناث، إن الله كامل لا يخلق إلا الكامل، فكيف يعدل البشر على خلق الله؟!

بعض الفقهاء يعتبرون الختان مثل قص الأظافر ... نظافة للرجل، إنهم يظنون أن الغُرْلَة شيء ميت مثل الظفر، بعضهم يعتبر الختان مثل قطع الحبل السُّري، إلا أن أغلب الآراء لم تكن تشجع الختان. بعض الفقهاء كانوا يرَوْن أن ختان الذكور وختان الإناث شرط ضروري للطهارة، ولا تُقبَل صلاة إنسان غير مختون رجل أو امرأة ... بعض الآراء تقول: إن الشيطان يتخفى وراء بظر المرأة ووراء غُرْلَة الرجل؛ لذلك وجب قطعهما لإخراج غدة الشيطان منهما. بعض الآراء تقول إن الشيطان يتخفى وراء شعر العانة؛ لذلك يجب حلق شعر العانة وإلا أصبح الإنسان غير طاهر ولا يقبل الله صلاته.

لا شك أن شيخ الأزهر اليوم الدكتور سيد طنطاوي أكثر تقدُّمًا من شيخ الأزهر منذ سنين قليلة «الشيخ جاد الحق»، الذي أكَّدَ أن عادة ختان الإناث واجب إسلامي لمنع الرذيلة والحفاظ على شرف البنت، وهو رأي غير صحيح دينيًّا وعلميًّا أيضًا.

بعض الآراء يقول إن الدعوة لعدم الختان جاءت من الغرب، وهذا غير صحيح؛ لأن كثيرًا من الآراء المعارضة لختان الذكور والإناث عريقة في بلادنا عراقة الصراع بين العقل واللاعقل. وقد قرأت مؤخرًا في إحدى الصحف التي تملكها إحدى الجماعات الدينية في بلادنا ما يؤكد أن ختان الموتى من الذكور والإناث ضروري حتى يدخلَ الميت أو الميتة إلى الجنة! فالجنة لا يدخلها إلا الطاهرون والطاهرات! وأن ختان الموتى يقلل ذنوبهم التي اقترفوها في الدنيا.

بعض الآراء تقول إن الأطباء في بلادنا متخلِّفون وينقلون عن الغرب دائمًا، لكن الطبيب الرازي «محمد بن زكريا الرازي» الذي عاش أوائل القرن العاشر (أي منذ أكثر من ألف عام)، هذا الطبيب عارض كل ما يُسيء إلى جسد الإنسان السليم تحت أية

مسمَّيات دينية، عارض الختان والوشم وأي شيء يخدش جسد المرأة والرجل، وقد كانت كتب الطبيب الرازي تُدرَّس في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادي، وكان يؤمن أن الله هو رمز العدل والصحة. إلا أن كتب الطبيب الرازي قد مُنعت من التداول في بلادنا، بمثل ما مُنعت كثير من الكتب الأخرى الطبية أو العلمية التي حاربت هذه العادات الضارة تحت اسم الدين أو الأخلاق، ومنها كتابي «المرأة والجنس»، الذي صودر من الأسواق المصرية منذ ثلاثين عامًا، إلا أن الحياة الإنسانية تسير إلى الأمام دائمًا رغم الصعوبات.

تأملات على بحيرة مارينا[1]

دعتني إحدى الصديقات القديمات لزيارتها في الفيلا التي تطل على بحيرة «مارينا» على الساحل الشمالي، كانت المرة الأولى التي أذهب إلى هذا المكان الجديد الذي يرتبط في خيال الكثيرين بالطبقة الجديدة صاحبة الملايين أو البلايين. أخذت معي المايوه لأسبح في البحيرة، وكتابًا أقرأ فيه إن شعرت بالملل؛ فأنا أعرف صديقتي منذ الدراسة في كلية الطب، وأعرف لماذا تدعوني بكل هذا الإصرار رغم فتور العلاقة بيننا منذ الانفتاح، فجأة انقلب زوجها من الحديث عن الاشتراكية والقطاع العام إلى الحديث عن الرأسمالية والقطاع الخاص.

تذكَّر أن خاله الباشا مات بالذبحة الصدرية بعد أن فرض عليه جمال عبد الناصر الحراسة، والأرض التي ملكتها العائلة الكريمة أخذتها الدولة، ولم يبقَ إلا الشقة الكبيرة في الزمالك والعمارة في المعادي، لكن الله فتح عليه منذ أيام الانفتاح الأولى؛ فهو يعرف دنيا المال والاستثمار، ويسافر إلى باريس ولندن وجنيف ونيويورك، ويتكلم ثلاث لغات، ينحني حين يصافحني قائلًا: «أهلًا نوال هانم.» كلمة هانم تخرج من بين شفتيه الرقيقتين مع دخان السيجار الفاخر.

كان اليوم مشرقًا، الشمس تتألق فوق المياه الرقراقة تلامس الشاطئ في موجات صغيرة ناعمة ناعسة. ارتديت المايوه، وأسرعت لألقي نفسي في البحيرة كالطفلة، كنت أنجذب إلى المياه الزرقاء الصافية أكثر من التحف الفاخرة التي كدستها صديقتي في

[1] جريدة الأهالي، ١٩ / ٨ / ١٩٩٨م.

الفيلا، والشبْكة الثمينة المرصَّعة بالفصوص المشعة التي انشبكت بها ابنتها لأحد كبار التجار أو رجال الأعمال. نطقت كلمة «الأعمال» كأنها هي إحدى المقدسات الجديدة. وأسألها: ما هي هذه الأعمال؟ فترد بكلمة إنجليزية أكثر غموضًا هي «البزنس».

تمددت بالمايوه على الرمال تحت أشعة الشمس، تركتني صديقتي وراحت تُشرف على أمور الفيلا ووليمة الغداء. تحلو القراءة على الشاطئ وهواء البحر واليود والأكسجين يملأ الرئتين. فتحت الكتاب وبدأت أقرأ، عيناي تتركان الصفحة وترمقان الوجوه والأجسام التي تتمشى على الرمال، بنات رشيقات بالمايوه المكشوف أعلى الفخذين، وبنات سمينات مترهلات داخل الفساتين الواسعة الطويلة، رءوسهن ملفوفة بالحجاب، يتصببن بالعرق، يرمقن البنات السابحات في المياه بحسد، يختفي الحسد تحت نظرة ازدراء أو حركة امتعاض بالشفتين الممطوطتين.

لمحت وجه فتاة تلف رأسها بإيشارب أحمر، يتدلى من أذنيها قرط ضخم يلمع تحت الشمس، بشرتها بيضاء مدهونة بالأصباغ والمساحيق، شفتاها مصبوغتان بلون أحمر قانٍ، تتعثر في ذيل فستانها الحريري الطويل، يتأرجح جسمها المربع الممتلئ فوق كعبين عاليين ينغرزان في الرمل، إلى جوارها تمشي أمها، تكاد تشبهها، إلا أنها أكبر سنًّا، تلف رأسها بطرحة بيضاء مثل العائدات من الحج. ابتسمت الأم حين لمحتني وقالت: إزيك يا دكتورة ... تذكرت ملامحها، كانت تجلس في دكانة البقالة بالقرب من بيتي في الجيزة، كنت أشتري منها الجبنة البيضاء والبيض والبسطرمة، زوجها البقال اسمه محمد، مربع سمين أبيض يكاد يشبه زوجته، كان يرتدي جلبابًا، فجأة تغير البقال محمد في أيام الانفتاح، بدأت أرفف جديدة تملأ الدكان، تتكدس عليها زجاجات المياه المعدِنية المستوردة، وسفن أب، وشويبس، واللبان الأمريكي تشوجام. وارتدى محمد بدلة وحذاءً جلديًّا أسود، بدت عليه سمات الأفندية، يحرك بين يديه سبحة صفراء، ويغير الدولارات في السوق السوداء. اتسع دكانه واشترى قطعة الأرض المجاورة، بنى عليها عمارة عالية، في الدور الأرض أقام معرضًا كبيرًا للسيارات، أصبح يأتي إلى الدكان داخل سيارة مرسيدس، تحول الدكان إلى سوبر ماركت. كانت ابنته طفلة، لا بد أنها الفتاة التي تمشي إلى جوار أمها، سمعتها تقول لي: «شفناكي في الدش يا دكتورة مع واحد شيخ مش فاكرة اسمه، كان عصبي شوية، لكن ليه يا دكتورة مش لابسة الحجاب؟ مش حرام كدة المايوه؟!»

جلست الأم وابنتها معي بعض دقائق، دار الحوار على الحرام والحلال، ترهف البنت أذنيها المثقلين بالقرط الضخم، ربما تستمع لأول مرة في حياتها إلى أن المايوه ليس

حرامًا فوق شاطئ البحر؛ فالمفروض أن البحر للسباحة، والسباحة رياضة ممتعة من حق النساء والرجال وليس الرجال فقط.

جاء البقال محمد، الذي أصبح برونزي اللون، يرتدي «مايوه ملون»، جسده سمين مترهل، له كرش قبيح المنظر، إلا أنه يشمخ بأنفه بكبرياء ونوع من الغطرسة، قال: «أهلًا يا دكتورة.» بطرف لسانه، ربما لم يعجبه أن تجلس ابنته وزوجته مع امرأة ترتدي المايوه، يتحدث إليها بلهجة خشنة، يأمرها بالعودة إلى الفيلا، نطق كلمة الفيلا بالفاء، رنت في أذني «الفلة»، مثل سدادة الزجاجة من الفلين.

أصبحت جالسة وحدي على الرمال، لم أعد قادرة على القراءة، أريد أن أتابع هذه الطبقة الجديدة التي تتحرك منذ الانفتاح، منهم من أطلق عليهم اسم «القطط السمان». رأيتهم يتمشون على الشاطئ بأجسامهم السمينة القصيرة يشبهون القطط المستأنسة في البيوت، أردافهم متهدلة، إلا أن عيونهم تلمع كعيون القطط، سيقانهم رفيعة مشدودة، حركتها سريعة متوترة، يدخلون بها مسرعين إلى البنك المركزي، ومنه ينطلقون إلى مكاتب أصحاب النفوذ، في مجالات الاستثمار أو التنمية والاستيراد والتصدير، في الغرفة التِّجارية، وفي الغرفة المظلمة حيث يعدون أوراق البنكنوت، ولا يمكن لهم أن يدفعوا ضرائب؛ فالمفروض أنهم لا يملكون شيئًا، الأموال كلها ليس لها مكان، لا يمكن لأحد أن يُمسكها، إلا إذا بدأ القط السمين يلعب بذيله، يتحرش بالقطط الكبار، أو يتمادى ويتجاوز الحدود المرسومة، حينئذٍ يعلقون الجرس في عنقه، يظهر مانشيت في الصحف بالحبر الأحمر: اضبط القط السمين قبل أن يهرب خارج البلاد، أو اضبط القطة السمينة التي هربت!

لمحت أحد الصحفيين المعروفين يتمشى الهُوَيْنَى على شاطئ البحيرة، يدخن البايب، عيناه شاردتان في الأفق، إنه ضيف دائم على موائد الوزراء، يتشمم الأخبار وراء البحار، يرقب حركة القطط السمينة من الذكور والإناث، قلمه يُطل من جيبه العلوي، له غطاء من ذهب، كل كلمة منه توزن بالدولار أو الدينار أو الإسترليني، يأتيه الشيك فوق مكتبه قبل أن يكتب عنوان المقال، قد يتحول القط السمين فجأة إلى بطل قومي، وقد ينقلب البطل القومي فجأةً إلى قط سمين؛ إنها صاحبة الجلالة الصحافة.

لمحني الصحفي المشهور وقال: «أهلًا يا دكتورة.» ثُمَّ ابتعد مسرعًا يتطلع نحو السماء، رأيت ثلاث طائرات هليكوبتر ملونة تتسابق في الفضاء قرب الشاطئ، داخلها رءوس شباب يلعبون في الجو، ربما يمتلك الواحد منهم طائرة هليكوبتر أو سيارة مائية تمشي فوق الرمال أو فوق البحر، ربما يكون ابن هذا الصحفي الشهير داخل إحدى هذه

الطائرات. يملكها أبوه أو صديق أبيه من كبار القطط السمينة، وكلهم يعشقون الصحافة وأضواء الإعلام، يتنافسون على الظهور أمام الرأي العام، يحركون السبحة بين أصابعهم علامة التقوى والإيمان، تفوح أنفاسهم برائحة الخمر والنساء والمخدرات.

ثُمَّ لمحتها تمشي بجسمها الطويل المشوق داخل مايوه أسود مُزيَّن عند البطن بفصوص من اللؤلؤ أو الترتر، تهز جسمها برشاقة الراقصات، وهي معروفة وسط راقصات البطن، يمشي إلى جوارها زوجها، يرتدي مايوهًا من النوع الديني المحتشم يغطي ركبتيه، ربما هو سعودي أو كويتي أو من الدوحة، يملك مسجدًا وعددًا من العمارات أو المحلات، ربما هو في السلك الدبلوماسي أيضًا؛ فهو يحمل في يده التليفون «المحمول»، يشتري في الصحف المساحات للإعلان عن البضائع في محلاته، سيارات أو تليفزيونات أو كمبيوترات. يشتري من جامعة كاليفورنيا درجة الدكتوراه، يشتري أيضًا لنفسه حراسة خاصة وبودي جارد، إن مات فجأة برصاصة مكتومة الصوت أو سم تضعه له زوجته في الشراب يظهر نعيه في أكبر الصحف في صفحة كاملة أو نصف صفحة بالبنط العريض، ولا يمضي على موته أيام حتى ترقص زوجته الفنانة في إحدى حفلات الزفاف بالقاعة الواسعة في فندق الخمس نجوم، ثُمَّ تتزوج في السر أحد الأمراء في بلد من بلاد الخليج.

كنت جالسة على شاطئ بحيرة مارينا، في يوم من أيام يوليو ١٩٩٨م، أستمتع بالفرجة على أنواع الرجال والنساء من الطبقة الجديدة، وجاءت صديقتي القديمة تدعوني إلى وليمة الغداء، مائدة طويلة رُصَّت عليها الصحون، أطباق لا أعرف اسمها تنطقها بالفرنسية، وأطباق أعرفها مثل الفول المدمس والطعمية والعدس أبو جبَّة، وفخدة خروف مشوية. صديقتي تتفاخر بكل ما تملك، وأنا أفقد شهيتي، تملأ الصحنَ أمامي بالطعام، لم أعد آكل اللحم الضأن. ليه يا نوال؟ شرحت لها أن لحم الضأن يحتوي على كميات من الدهون، سألتني بدهشة: «عاملة ريجيم يا نوال؟ مش معقول» ...

رمقَتْ جسمها السمين المترهل بنظرة من طرف عينها وقالت: خلاص عجِّزنا يا نوال، ومافيش متعة في حياتنا إلا الأكل!

حين عُدت إلى بيتي أحسست أن جسمي خفيف، رشيق، وضعت نفسي تحت الدش، غسلت رمال شاطئ مارينا، وصور الأجساد فوقه، شعرت بسعادة!

الاغتصاب ومفهوم الشرف والأخلاق

أذكر أنَّ صلاح أبو سيف أراد أن يُقدِّم إحدى رواياتي الأدبية كعمل سينمائي، وهي رواية «مذكرات طبيبة» التي نُشرت في الخمسينيات، وأُعيد نشرها بعد ذلك عدة مرات. وقرأها صلاح أبو سيف خلال السِّتينيات، ثُمَّ جاء يطلب مِنِّي الموافقة على تحويلها إلى فيلم سينمائي. وفعلًا كتب صلاح أبو سيف السِّيناريو لها، وبدأ يبحث عن شخصيات نسائية بين الممثلات ليقمن بدور البطولة، رفضت إحدى الممثلات المشهورات حينئذٍ تمثيل الدور الرئيسي في الرِّواية، وقالت لصلاح أبو سيف: إنها تعوَّدت في جميع أفلامها السابقة أن تبكي على عذريتها في حالة الاغتصاب، فكيف تقوم بدور مختلف تمامًا يعطي مفهومًا آخر للأخلاق؟! معظم الممثلات المعروفات ترددن في قبول الدور للسبب ذاته. وبدأ صلاح أبو سيف يبحث عن وجوه جديدة من الشابات الهاويات للسينما والفن، إلا أنَّه توقَّف تمامًا عن تنفيذ الفيلم بعد أن وصله قرار الرقابة برفض الفيلم، وجاء في أسباب الرفض أن بطلة الرواية — وهي الطبيبة — تقوم بعملية إجهاض لفتاة فقيرة خادمة تعرضتْ للاغتصاب بواسطة مخدومها الذي يشغل منصب وكيل وزارة، قالت الرقابة: إن الإجهاض ممنوع قانونًا؛ وبالتالي لا يمكن إباحته في الفيلم، كما ذكرت أن الاغتصاب في مصر غير موجود إلا نادرًا جدًّا، ولا يشكل ظاهرة تستحق العرض السينمائي، وأنه في تلك الحالات النادرة فإن الرجل المعتدي لا يمكن أن يكون وكيل وزارة أو يشغل مثل هذا المنصب الكبير؛ وبالتالي فإن الفيلم يُسيء إلى سمعة كبار الموظفين في الدولة. ذكرت الرقابة أيضًا أن الفيلم يقدم مفهومًا للشرف والأخلاق يختلف عن المفهوم السائد، ألا وهو عُذرية الفتاة.

سألني صلاح أبو سيف إن كنت أستطيع أن أغير في الرواية بحيث تفلت من الرقابة إلا أن الأمر كان مستحيلًا بالنسبة لي؛ لأن الرواية كلها تقوم على كشف الزيف من مقاييس الأخلاق السائدة، وأهمها بالطبع مقياس العذرية.

وأخيرًا، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا، قرأت في الصحف أن فضيلة شيخ الأزهر نفسه قد أعلن أنه يوافق على إباحة الإجهاض وإعادة العذرية للفتاة التي تتعرض للاغتصاب. وهذا يؤكد لنا أن مفهوم العذرية لم يعد مُقدَّسًا، وأصبح قابلًا للجدل والنقاش، وأن تحريم الإجهاض المطلق في جميع الحالات ليس أمرًا عادلًا أو مشروعًا، ومن حق الفتاة الحامل بسبب الاغتصاب أن يكون لها حق الاختيار بين الإجهاض أو الاحتفاظ بالجنين إن شاءت. لقد قرأت رأي فضيلة شيخ الأزهر وشعرت بسرور، إلا أنني أعتقد أن الأمر يحتاج إلى مزيد من النقاش العلمي والأدبي على حد سواء؛ فالأعمال الأدبية الإبداعية قادرة دائمًا على السبق في ميدان البحث عن القيم الجديدة التي تكفل للإنسان الفرد (الرجل أو المرأة) والمجتمع كله حياة أكثر سعادةً وحبًّا وصدقًا وعدلًا وحريةً، وإذا عجز الإبداع الأدبي عن خوض المستقبل والجديد، فما الذي يستطيع؟! لا شك أن للخيال العلمي آفاقًا كبيرةً، لكن آفاق الإبداع الأدبي والفني تتجاوز الآفاق العلمية، ويمكنها أن تتحرر من بعض القيود التي قد لا يتحرر منها العلم في مرحلة تاريخية أو في ظروف اجتماعية وسياسية معينة.

وقد توقَّعت بعد أن قرأت رأي فضيلة شيخ الأزهر أن يحدث الجدل والنقاش في الكتابات الأدبية للنِّساء والرِّجال، إلا أنَّني لم أقرأ حتى الآن ما يلفت النظر رغم كثرة ما نقرأ عن حوادث الخطف والاغتصاب التي تتعرض لها الفتيات الصغيرات والكبيرات.

لا شكَّ أنَّ الاغتصاب ليس ظاهرة جديدة في بلادنا أو أي بلد آخر في العالم، وسوف يظل الاغتصاب موجودًا، يتزايد مع تزايد الفقر والبطالة، وتزايد أعداد الشباب في العالم، المحرومين من الزواج أو الحياة الطبيعية لأسباب اقتصادية واجتماعية؛ لهذا أعتقد أن النجاح في القضاء على ظاهرة الاغتصاب في بلادنا (وأي بلد آخر في العالم) يرتبط أساسًا بالقضاء على الأسباب الرئيسية للظاهرة، وليس بقطع رأس الشاب الذي يغتصب فتاة. لا شك أن العقاب ضروري، إلا أن اقتلاع أسباب الجريمة ودوافعها هو الطريق الأصح والأعمق والأبعد مدًى للقضاء على الجريمة من جذورها.

لا شك أن حماية الفتيات ضحايا الاغتصاب هو واجب إنساني واجتماعي عظيم، لكن السؤال: هل إصلاح غشاء العذرية بمشرط الجراح يحمي الفتاة فعلًا؟ بالعكس

إنه يُعرِّضها لعملية جراحية قد يكون لها مضاعفات، هذا إذا نجحت العملية في عملية الإصلاح، وهي لا تحمي أيضًا الرجل الذي سوف يتزوج هذه الفتاة؛ لأنها سوف تكتم السر، والمفروض أنه لا يعرف شيئًا، وإلا فما فائدة العملية الجراحية؟!

إن الرجل يفضل أن يتزوج فتاة صادقة بدون غشاء بكارة عن أن يتزوج فتاة كاذبة بغشاء بكارة مزيف أيضًا. إن الكذب أو إخفاء مثل هذه الحقيقة يضر بصحة الفتاة الجسمية والنفسية؛ فهي تعيش في خوف دائم، وتخشى أن يعرف زوجها السر، وهو سر لا يمكن التكتم عليه إلى الأبد، ويلذُّ لكثير من الناس إفشاؤه، ولا أحد يُفشي أسرار العائلات مثل أقرب الناس إليها.

وقد آنَ الأوان لمناقشة هذه القيمة الأخلاقية من أساسها؛ لأن دم العذرية ليس مقياسًا للأخلاق أو الشرف في معظم الحالات، والأفضل للمجتمع أن يُصلح مفهوم الأخلاق عن أن يصلح أغشية البنات بالمشرط الجراحي.

وقد أوضحتْ حقائق الطب أن ثلاثين في المائة من البنات يُولَدون طبيعيًّا بدون غشاء أو بغشاء مطاط لا ينزف قطرة دم واحدة ليلة الزفاف. وقد اشتغلت طبيبة في الأرياف، وعرفت كيف تدرَّبت الدايات على تزييف دم العذرية بشتى الوسائل، تتفوق الدايات المُدرَّبات في هذا المجال على مشرط الجراح الذي يفشل في معظم الحالات، بل قد يسبب الضرر للفتاة أو زوجها في المستقبل.

فلماذا إذن يتمسك المجتمع بهذا المقياس الواهي والسطحي للأخلاق والشرف؟! هل أنه يُعفى الرجال من المسئولية الأخلاقية ذاتها التي يطالب بها البنات؟! وهل يمكن اعتبار الرجل غير مسئول عن سلوكه الجنسي لمجرد أنه وُلد بدون غشاء؟ وهل يمكن للقيم الأخلاقية أن تسري على جنس دون الآخر؟! ألا تتعارض هذه الازدواجية مع مبدأ الأخلاق ذاته؟

لا يمكن أن ننكر أن بعض الأعمال الأدبية الإبداعية قد كَشفت عن هذه الازدواجية الأخلاقية، إلا أنني لم أعثر على عمل فني أو أدبي في بلادنا يتناول هذه المشاكل الحياتية التي تهم الملايين من النساء. يحاول بعض الناس تثبيت هذه القيم باعتبارها من الثوابت التي يجب ألا نغيرها، رغم أنها تتغير على الدوام، وتسقط بحكم الزمن، أو لأنها لا تملك مقومات البقاء، ولا تستطيع الصمود أمام حقائق الحياة أو المنطق البسيط.

وقد سقطت قيمة العذرية كمقياس للأخلاق في معظم بلاد العالم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ لأن الأخلاق الصحيحة تتعلق بسلوك الإنسان اليومي في العمل والبيت والشارع

والمجتمع، وإنها تتعلق بالصدق والشجاعة وعدم النفاق، تتعلق بالأمانة وعدم السرقة ... إلخ، ولا يمكن أن تتعلق القيم الأخلاقية بصفات تشريحية أو بيولوجية يُولَد بها البشر أو لا يُولَدون بها.

بعض الناس يتخوفون من سقوط قيمة العذرية كمقياس لأخلاق البنت قبل الزواج، لكن اتضح لنا أن هذه القيمة ليست مقياسًا بأي حال من الأحوال، ويمكن التحايل عليها بسهولة.

إن الأخلاق القوية للبنات والأولاد ترتبط بالتربية السليمة منذ الطفولة، بالإحساس بالحرية والعدل، والثِّقة بالنفس. إنَّنا نولد ونعيش طفولة خائفة مذعورة مكبوتة أساسها الكذب وإخفاء الحقائق، والإيمان بقيم سطحية مثل العذرية، واحتقار اسم الأم وتمجيد اسم الأب، واعتباره الاسم الوحيد الذي يعطي للطفل الشرعية والشرف.

لقد ناديت كثيرًا بأن يكون لاسم الأم الشرف ذاته الذي يحظى به اسم الأب، وألا يكون هناك شيء اسمه طفل غير شرعي. وأيهما أكثر أخلاقًا وإنسانيةً: أن نفرض على الفتاة التي اغتُصبت أن تقتل جنينها بالإجهاض أو أن نعطيها الحق في أن تلد طفلها وتعطيه اسمها؟!

لقد صرح شيخ الأزهر بإباحة الإجهاض للفتيات في حالة الاغتصاب، لكن ما الموقف من فتاة لا تريد أن تعرض نفسها لمخاطر العملية؟ أو لأنها تريد الاحتفاظ بطفلها؟! هل نفرض عليها أن تقتل الطفل لمجرد أن والد الطفل كان مُجرمًا مغتصبًا؟! وكيف أن يكون لهذا الولد المجرم الحق في إعطاء الشرف للطفل لمجرد أنه الأب وأن الأطفال يُنسَبون للأب؟

وكيف نحرم هذه الأم البريئة الشريفة من طفلها؟ كيف نحرمها من إعطاء اسمها الشريف لطفلها على حين نبيح للأب غير الشريف أن يعطي اسمه للطفل؟!

ما هذا التناقض الأخلاقي الصارخ في حالات الاغتصاب؟ ولماذا يدفع الأطفال الأبرياء والأمهات البريئات ثمن أخطاء الأب وجرائمه؟!

لهذا أنا أختلف مع رأي شيخ الأزهر فيما يخص إباحة الإجهاض أو إعادة العذرية في حالات الاغتصاب، بدلًا من قتل الأطفال الأبرياء في بطون أمهاتهن، أليس الأسهل أن يحمل الطفل اسم أمه؟

وبدلًا من إصلاح الغشاء في أجساد الفتيات بمشرط الجراح، أليس من الأسهل إصلاح مفهوم الشرف ليكون أكثر شرفًا وأخلاقًا؟!

كما أنني ضد هذه الحملة التي تنادي بالإعدام في حالات الاغتصاب. لم يكن الإعدام وسيلة للقضاء على أي جريمة، بل كثيرًا ما تزداد الجرائم بزيادة العقوبات والقوانين ضدها.

والأفضل أن تُعالَج أسباب الاغتصاب في النظام الاقتصادي السياسي الذي يحكم العالم كله وليس بلادنا فقط، ألا هو النظام الأبوي الطبقي الرأسمالي الصناعي أو الزراعي الإقطاعي أو العشائري أو القبلي أو البدوي ... إلخ.

هذا النظام الذي نشأ في العبودية ويستمر حتى اليوم، النظام الذي يحكم الأغلبيةَ الساحقةَ فيه قلةٌ قليلةٌ من أصحاب المال والسلاح والإعلام، حيث يكون النسب الأبوي هو النسب الوحيد الشريف، حيث يكون من حق الرجل أن يُعاشِر جنسيًّا أكثر من زوجة، وأن يُشرِّد أسرته ليُشبع شهواته ونزواته، حيث القوانين والقيم كلها مزدوجة بما في الدستور.

إن الدستور في معظم بلاد العالم (بما فيها أمريكا) لا يعاقب رئيس الدولة إذا خان زوجته، لكنه يعاقبه فقط إذا خان الوطن، كأنما الزوجات أو النساء خارج الوطن أو لا يمثلن نصف الوطن!

ولماذا لا يدور حوار فكري خلاق؟[1]

قرأت عددًا من المقالات المتفرقة في الأيام الأخيرة حول مشكلة تخلفنا العلمي، وكيف اتَّسعت الهوَّة العلمية بيننا وبين أوروبا وأمريكا بل بيننا وبين إسرائيل، وكيف أصبح العالم (خارج بلادنا) يواجه اختراعًا جديدًا كل دقيقتين.

كنت أتصور أنَّ حوارًا فكريًّا سوف يدور حول هذه القضية المهمة، وحول المقالات التي نُشرت عنها، ومنها المقال الأخير في جريدة الأهرام (٤/٨/١٩٩٨م) بقلم فهمي هويدي، إلا أنَّ هذا الحوار لم يحدث، لا أحد يريد التحاور مع أحد، نوع من الترفع أو الكبرياء! كأنَّما لا أحد يقرأ لأحد، والكل فقط يكتبون؛ لهذا نشهد كلَّ يوم سيلًا من المقالات المنفصلة بعضها عن البعض، إن حدث تعليق على مقال فهو يأتي غالبًا من القراء، لا يردُّ بالطبع صاحب المقال؛ نوع من الترفع أو الكبرياء، ثُمَّ يغلق باب الحوار قبل أن يبدأ.

ربما لهذا السبب لم أعد أقرأ الصحف؛ فهي تستهلك الوقت دون أن تنتج الأفكار الجديدة، إلا أنَّ مقال فهمي هويدي عما سماه كارثة تخلفنا العلمي وقع بالصدفة تحت يدي، وجدت فيه من التناقضات ما يدعوني إلى الكتابة. إنه يقول إن العقل العلمي لا يُستورَد، وأنا أتفق معه في هذا؛ لأني أعتقد أن القدرة على الإبداع تتطلب حريات اجتماعية وسياسية وثقافية واسعة تشجع على تجاوز الحدود المرسومة بالمحظورات والمحَرَّمات، وتساعد على انطلاق العقل إلى آفاق جديدة غير مألوفة قد تتناقض مع الموروثات الفلسفية أو العقائدية.

---

[1] نُشر في جريدة الأهرام، ١٠/٨/١٩٩٨م.

لكن صاحب المقال لا يتطرق إلى هذه الإشكالية التي تمثل عقبة أساسية أمام العقل المصري للإبداع أو للاختراع، كما أنه لا يتطرق أيضًا إلى الأسباب التي جعلت العقل الأوروبي أو الأمريكي أو الإسرائيلي يتفوق علميًّا، وكيف كسروا القيود التي كانت تمنع التفكير في كثير من المقدسات. إن اكتشاف الإلكترون مثلًا وما تبعه من ثورة إلكترونية هائلة لم يكن يتحقق أبدًا في ظل الإيمان بنظرية خَلق الكون القديمة.

ويؤكد صاحب المقال على أن العقل العلمي لا يُستورَد هي فكرة صحيحة، إلا أنه يطالبنا في نهاية المقال أن نستورد من الباكستان طريقتها في «الجهاد العلمي» التي حصلت بها على القنبلة الباكستانية، لكن ما هو هذا الجهاد العلمي؟ يقول صاحب المقال: إن المهندس الباكستاني عبد القدير خان عمل في الغرب ١٥ عامًا ثُمَّ نقل إلى بلاده كل ما وقع تحت يديه من معلومات حتى حكمت عليه محكمة هولندية بالسجن ٤ سنوات! أين هو الإبداع الفكري في نقل المعلومات من الغرب؟ وبطريقة غير مشروعة؟ والأخطر من ذلك (حسب قول صاحب المقال) أن هذا المهندس بعد أن عاد إلى بلاده أرسل أحد مساعديه إلى ألمانيا؛ حيث أسس عدة شركات وهمية عملت كواجهة للتسوق النووي! يا إلهي! هل إنشاء شركات وهمية من أجل تهريب المعلومات العلمية من الغرب هو الإبداع الفكري.

إن القدرة على الإبداع الفكري لا بد أن تتبع من المجتمع ذاته، هذه القدرة لا تُستورد، ولا يُمكن تهريبها من الغرب أو الشرق، إنها تتطلَّب أساسًا الحرية السياسية والاجتماعية الواسعة، أو ما يُسَمَّى الديمقراطية الحقيقية داخل البيوت والمدارس وجميع المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية. إلا أنَّ صاحب المقال يرى أنَّ حل المشكلة يعتمد على صدور «قرار سياسي سيادي»، ما إن يصدر حتى يحرك مختلف الدوائر ويحفز الهمم؛ فهل صدور قرار من رئيس الدولة يحل مشكلة التخلف العلمي والفكري في بلادنا؟! هل يعتمد كل شيء في بلادنا على قرار من رئيس الدولة؟! ألا نعيب على هؤلاء الوزراء أنهم لا يبادرون بالأفكار الجديدة دون انتظار توجيهات السيد الرئيس؟ فما بال العلماء، المفروض أنهم ذوو عقول مفكرة وليسوا مجرد موظفين مطيعين في الدولة.

ألا تكون المشكلة إذن في العلماء أنفسهم، أو في المفكرين أو ما يُطلَق عليهم المفكرون؟! لقد حضرت اجتماعًا واحدًا (في يناير ١٩٩٧م) مع هؤلاء المفكرين في «الحوار الفكري» مع رئيس الدولة، ودُهشت لأنَّ الاجتماع بدأ وانتهى دون مناقشة مُشكلات الفكر أو الإبداع الفكري في بلادنا. لقد مرَّ علينا أحد الموظفين وطلب مِنَّا أن نكتب ما نريد من أسئلة

على ورقة، وكتبت سؤالًا كالآتي: لماذا تعجز مؤسسات التعليم والإعلام والتربية في بلادنا عن تكوين العقل المبدع الخلاق؟ ولا أعرف ماذا كان مصير هذا السؤال، هل ضاع في الطريق إلى المنصة ولم يصل إلى رئيس الدولة، أم أنه وصل إليه ورأى أنه لا يستحق المناقشة؟ وكتبت مقالًا في حينه حول هذا الموضوع، رفضت الصحف نشره، ثُمَّ نُشر في جريدة حزبية معارضة بعد حذف بعض أجزائه، طالبت فيه بإجراء حوار في الصحف حول مشكلة التخلف الفكري في بلادنا، ولماذا يعجز العقل المصري عن الاختراع؟

العدل مطلوب في جميع القوانين الخاصة والعامة[1]

في مقالِه بالأهرام (١٨ نوفمبر ١٩٩٧م) يقسم فهمي هويدي البشر إلى قسمين:

(١) العلمانيون؛ الذين لا يُؤمنون بالمطلق الثابت وكل شيء عندهم نسبي؛ ولذلك تتغير قيمهم الأخلاقية بلا رابط ولا ضابط مثل كائنات الغابة.
(٢) المتدينون؛ الذين يؤمنون بالمطلق الثابت؛ ولذلك فإن أخلاقهم رفيعة لأنها تعود إلى مرجعية ثابتة.

وهذا في رأيي تقسيم تعسُّفي وخطير للمجتمع والناس، وقد ينطوي — بوضوح أو بغير وضوح — على دعوة للصراع على أساس الدين أو التدين، هذا الصراع الذي يفرخ الحروب الأهلية في كثير من الأحيان، ويمكن أن يغذي الفكر الإرهابي، أو قتل الأبرياء لأسباب دينية؛ فالذين قُتلوا من السياح الأجانب في الأقصر يمكن أن يندرجوا (في هذا الفكر) إلى العلمانيين، بل إن الذين يختلفون معه في الرأي من المسلمين يمكن أن يندرجوا أيضًا تحت قسم العلمانيين، هكذا يتم الحكم على الناس بالكفر أو الفساد الأخلاقي لمجرد الاختلاف في الرأي حول مفاهيم كلمات صعبة مجردة مثل المطلق الثابت عند فهمي هويدي، ويتلقى الإنسان رصاصة في صدره بسبب هذا الاختلاف النظري حول المطلقات دون أن يفهم شيئًا منها.

[1] نُشر في جريدة الأهرام، ٨ ديسمبر ١٩٩٧م، ص١٠.

وفي مقاله يقول فهمي هويدي: إن النبي مُحَمَّدًا ﷺ قد رفض أن يتزوج عليٌّ بن أبي طالب على ابنته فاطمة، واشترط عليه أن يُطلقها إذا تزوج امرأة أخرى، فلماذا إذن لا يكون سلوك النبي هو القاعدة القانونية وليس الاستثناء؟ وإذا كان الرِّجال لا يمارسون تعدد الزوجات إلا في ٢٪ من الحالات (كما يؤكد فهمي هويدي نفسه)، فلماذا يبيح القانون التعدد؟! لقد ثُرنا أيام الملك فاروق حين رأينا أنَّ القوانين في بلادنا تخدم ٢٪ من المجتمع المصري فقط، فكيف نسكت على قانون يمس صميم الحياة الشخصية للرجال والنساء والأطفال، ويخدم فقط ٢٪ من الرجال، بالإضافة إلى أن هذا القانون يقنن الظلم أو الازدواجية أو الكيل بمكيالين؛ لأن الطلاق أو التعدد يُعطَى كحق مطلق ثابت لطرَف دون الطرَف الآخر.

إن فكرة الطلاق أو التعدد (على حد قول فهمي هويدي نفسه) قد قامت أصلًا لمجرد حل بعض المشكلات التي قد تعترض الحياة الزوجية، لكن هل الحياة الزوجية تتكون من طرف واحد هو الرجل؟ ولماذا تُحَل هذه المشاكل على حساب طرف واحد؟ ولماذا يصبح الزوج هو الحكم أو صاحب الحل والربط مع أنه أحد أطراف النزاع؟! لقد استطاعت السيدة فاطمة أن تحمي نفسها وأسرتها ضد الطلاق وتعدد الزوجات بسبب وجود أبيها النبي محمد ﷺ وقدرته على فرض الشروط على زوجها عند توقيع العقد، وهل يمكن لأي أب أن يكون في قوة النبي ﷺ وقدرته على حماية ابنته؟ ومَنْ يحمي النساء الضعيفات والبنات الصغيرات، ومعظمهن يتزوجن في أوضاع اجتماعية لا تؤهل لهن فَهْم بنود القانون، فما بال أن تُفرض الشروط في العقد؟

والسؤال هو: لماذا لا يَنص القانون بوضوح على زوجة واحدة لكل رجل؛ فيصبح التعدد هو الاستثناء، ويمكن لمن شاء من الـ ٢٪ من الرجال أن يشترط التعدد عند توقيع العقد، وهذا أسهل وأعدل؛ لأن الرجال أكثر قوةً من النساء، ويمكن لهم أن يفرضوا شرطهم هذا في العقد، كما أنهم أقلية نادرة (٢٪ فقط).

إن إباحة الطلاق والتعدد قانونًا لجميع الرجال يجعل جميع النساء مهدَّدات، وجميع الأسر مهددة بالتفكك، والمشكلة ليست مقصورة فقط على الـ ٢٪ أو ٣٪، ولكنها تشمل الجميع؛ لأن التهديد في حد ذاته دون وقوع الطلاق أو التعدد يؤدي إلى كثير من المشكلات النفسية للنساء والأطفال، وهناك مثل شائع يقول: «وقوع البلاء ولا انتظاره.»

إن إعطاء الرجل وحده الحق المطلق في الطلاق أو التعدد أو النسب قد يشجع ضعاف النفوس من الرجال على سوء استخدام هذا الحق. واقرءوا معي ما نُشر بجريدة الأهرام

١٥ نوفمبر الماضي صفحة ١١ و١٨: «هذا الولد ليس ابني، وأرفض نسبه إليَّ ...» عبارة أصبحت تتردد كثيرًا داخل محاكم الأحوال الشخصية، أطلقها الرجال وتستروا وراءها، استخدموا سلاحًا مدمِّرًا لتصفية الحسابات مع شريكة العمر ورفيقة الحياة لتخرج من حياته دون أن تحصل على مليم واحد من حقوقها الشرعية، وهي تجر خلف أذيالها أطفالًا بلا أب أو هُوية أو نسب، ويكون هؤلاء الأبرياء هم الضحايا. وتسوق الجريدة أمثلة لزوجاتٍ، منهن الطبيبة والمهندسة التي عاشت مع زوجها ٦ سنوات كاملة، فإذا به يعاقبها لأنها رفضت التنازل له عن ميراثها من أبيها لكي يشتري لنفسه سيارة، والعقاب هو إنكار نسب أطفاله منها، ودفعها إلى المحاكم لتثبت هذا النسب، وكأنها هي تدخل عش الدبابير، وعليها أن تدوخ السبع دوخات داخل سراديب القانون مع المطلقات والثكالى واليتامى، وقد تَحصُل على حقها بعد سنين طويلة أو لا تحصل عليه؛ فالرجال أكثر من النساء فهمًا للقانون وقدرةً على التلاعب به.

لا شك أن العدل مطلوب في جميع القوانين الخاصة والعامة المحلية والدولية؛ لأن الله هو العدل «عرفوه بالعقل»، كما يقول المثل الشائع؛ فالعدل إذن هو المطلَق الثابت المقدس في جميع الأديان والمواثيق الدولية والدساتير المحلية، إلا أن هذا العدل يُنتهك أمامنا كل يوم في حياة الأفراد والشعوب والدول. ويكيل القانون الدولي بمكيالين، ولا يختلف في ازدواجيته عن قانون الأحوال الشخصية، مثلًا تُضرَب العراق حتى الموت لأنها خالفت قرارات الأمم المتحدة، ويموت يوميًّا خمسمائة طفل عراقي بسبب الحصار الاقتصادي المفروض بقرار دولي، أمَّا دولة إسرائيل فهي تخالف قرارات الأمم المتحدة كل يوم، وتقتل الأطفال والشباب الفلسطينيين، وتهدم البيوت وتبني المستوطنات، ومع ذلك لا يعاقبها أحد، بل تكافأ بالأموال والمعونات والمعدات العسكرية النووية.

هكذا لا يختلف العالم الذي نعيش فيه عن الغابة؛ لأن القوة هي التي تسود وليس الحق، ولأن الكيل بمكيالين أو الازدواجية هي منطق القوة، هي المطلَق الثابت المقدس لهذه القوة، تفرضه على الضعفاء تحت شعارات دينية أحيانًا، أو تحت شعارات علمانية، حسب مصلحة الأقوى؛ مما يؤكد عدم صحة هذه التقسيمة التي يتبناها فهمي هويدي، وهي معروفة في التاريخ، وكم أدت إلى مذابح دينية في الغرب والشرق.

أنا لا أُفكِّر إذن أنا موجود![1]

(١) عن الإرهاب الفكري

من أجل الوجود في عصرنا الحديث (أو ما بعد الحديث) أَسْبغ الله عليَّ نعمة عدم الانتماء إلى هذه الفئة الرفيعة القدْر، والتي يُطلَق عليها لقب «المفكرون». وقد أصبح «التفكير» مهنة خطرة، مثل التعامل مع المتفجرات أو اقتلاع الألغام من الأرض بعد انتهاء الحرب. وقد تعرَّضت مثل الكثيرين غيري من النِّساء والرِّجال من عامة الشعب إلى الوقوع تحت طائلة التفكير أو ما يُسمِّيه أهل قريتي «الفكر»، يقولون: فلان عنده فكر أو فلانة عندها فكر، بمعنى غياب العقل.

لا شكَّ أنَّ الإرهاب الفكري في عصرنا هذا لم يكن كله منتميًا إلى التيارات السياسية الدينية المسماة بالأصولية النصوصية، المشتقة من كلمة «النص»، وقد أصبح في عصرنا أصوليات نصوصية متعددة تقلب المنطق والأوضاع الطبيعية، بحيث تكون المعرفة الإنسانية نابعة من حروف المطبعة وليس من الحواسِّ الستة للإنسان، ومنها السمع والبصر والبصيرة والفؤاد يعني القلب، أليس لهم أفئدة يفقهون بها؟ وهذا يعني إلغاء حواسِّنا وتجارِبنا الذاتية في الواقع الذي نعيشه لنكتسب المعرفة من الكتب أو كتابات الآخرين.

[1] نُشر في جريدة الأهرام، القاهرة، ٦ فبراير ١٩٩٧م، ص١٠.

كثيرون تناولوا ما عُرف باسم «التفكير الديني» لبعض المفكرين من النساء والرجال في بلادنا، قليلون الذين تناولوا ما يمكن أن يُسَمَّى «التفكير العقلاني»؛ فالعقل المفصول عن الحواسِّ والجسد والقلب والفؤاد قد يتحول إلى سيف أشد قسوة من السيوف المادية الحقيقية التي تقطع رأس من يفكر في المقدسات العليا في السماء أو فوق الأرض.

في ربيع عام ١٩٩٤م في جامعة ديوك الأمريكية بولاية نورث كارولينا، جاءنا المفكر الفرنسي المشهور في العالم «جاك ديريدا» ليلقي علينا محاضرة عن صراع الثقافات في عصر ما بعد الحداثة. يمكن القول — دون مبالغة — أن لغة المحاضرة كانت معقدة شديدة التعقيد، غامضة شديدة الغموض، فلم يفهمها أحد من الأساتذة الكبار أو الصغار أو طلبة الجامعة وطالباتها. أحد زملائنا الأساتذة كان معارًا من الأرجنتين، أصابه إحباط أو الشعور بالنقص أو الغباء، فلم يملك الشجاعة ليسأل سؤالًا واحدًا أثناء المحاضرة. لكن بعض الأسئلة طُرحت ولم تفعل إجابات جاك ديريدا شيئًا سوى زيادة التعقيد والغموض، تلك الليلة رأى زميلنا الأرجنتيني وهو نائم كابوسًا له أصابع جاك ديريدا تحوط عنقه وتخنقه، هب من النوم مفزوعًا وهو يصيح: هذا إرهاب فكري!

سمعت العبارة ذاتها في مصر منذ أيام قليلة، في إحدى الندوات الفكرية عن الكونية، كان المحاضر من كبار المفكرين المصريين، لم يقدم لنا فكرة واحدة نابعة من عقله أو من تجارِبه المُعاشة في الواقع المصري، لكنه راح يردد علينا أقوال المفكرين في أمريكا وأوروبا، ابتداءً من أرسطو إلى كارل ماركس إلى فرانسيس فوكاوياما وروبرت كابلان وبرنارد لويس وصامويل هانتنجتون بالطبع، هذه الأسماء مع جاك ديريدا وميشيل فوكو وفردريك جيمسون وغيرهم.

أعطَوْا أنفسهم لقب «فلاسفة الكون»، اعتبروا أنفسهم رأس العالم المفكر وبقية البشر لا يفكرون، مجرد جسد بلا رأس، تمامًا كما حدث للعبيد والنساء في العصور القديمة؛ إذ اعتبرهم فلاسفة العبودية (ومنهم أرسطو) الجسد بغير رأس.

وفي خريف ١٩٩٤م — في جامعة ديوك أيضًا — شاركت في مؤتمر دولي عن الكونية والثقافة، شارك فيه فردريك جيمسون وعدد آخر من المفكرين المعروفين في جامعات هارفارد وييل وستانفورد وأكسفورد وكيمبردج والسوربون وغيرها. جلسوا بكبرياء شديد فوق المنصة العالية، تفوح منهم رائحة كولونيا ما بعد الحلاقة الحديثة، يتحدثون عن عصر ما بعد الحداثة أو ما بعد الاستعمار، كأنما الاستعمار انتهى من العالم، وخلعوا على الشعوب فيما سمَّوْه العالم الثالث لقبًا جديدًا Subaitern وتعني «الناس اللي تحت».

أصبحنا نحن سكان أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية في نظرهم الغلابة الفقراء ماديًّا وفكريًّا، وأنهم يقدمون المعونات لنا، وينوبون عنا في التفكير لنا. يضعون لنا الأسئلة والأجوبة لمشاكلنا المادية والفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية؛ ذلك لأنهم يملكون العقل المفكر، أمَّا نحن فلا نملك إلا الجسد الذي يشغل الكرسي في صمت واستماع جيد، أو الذي ينهض في المهرجانات الثقافية يقدم الرقصات الأفريقية على دقات الطبول، ويرتدي الجلاليب أو الشخاليل أو الأحجبة المؤكِّدة للهوية الأصلية أو التي ترمز إلى الخصوصية الثقافية أو الدينية أو العرقية أو غيرها.

لا شكَّ أنَّ موضوعهم الأثيري الحديث أو بعد الحديث هو «علاقة الذات بالآخر»، وهي علاقة بسيطة مفهومة بمنطق العدل «أخذًا وعطاءً» في العلاقات المادية والفكرية بين الدول أو الجماعات أو الأفراد نساءً ورجالًا، بحيث لا تكون هناك يد عليا تعطي ويد سفلى تأخذ، تعتمد كل «ذات» على نفسها لإعالة نفسها وللتفكير في أمورها ومصالحها بالشكل الذي يحقق لها الكرامة والحرية والاستقلال المادي والفكري عن «الآخر».

(٢) مشكلة الفكر والمفكرون

تكمن المشكلة في رأيي في سيادة النقل عن الكتب والنصوص أكثر من سيادة التجارِب الذاتية في الواقع المُعاش؛ لهذا السبب تغيب البديهيات أو الأسئلة الطفولية الذكية قبل الضرب بالعصا في المدارس والبيوت، أو العبارات الشعبية البسيطة التي سمعتها من جدتي الفلاحة مثل: «ربنا هو العدل، عرفوه بالعقل.» إنَّنا نفقد هذا الذكاء الفطري من المهد إلى اللحد؛ بسبب طغيان القيم الطبقية الأبوية على القيم الإنسانية العادلة في حياتنا العامة والخاصة.

إن هذه القضايا التي تشغل المساحات في الصحف والكتب، من نوع الكونية والصراع بين الحضارات أو الثقافات، أو الدفاع عن الهُوية الأصلية أو التراث أو الثقافة القومية أو الوطنية، هذه كلها قضايا فكرية مفروضة علينا من «الآخَر»، لا ينشغل بها الملايين من النساء والرجال العاملين والعاملات في البيوت والحقول والمصانع والمتاجر والمستشفيات والطرق والمرافق الحيوية والإنتاجية.

ألهذا السبب يدور الحوار الفكري دائمًا في القاعات المغلقة على القلة القليلة ممن يُطلَق عليهم «المفكرون»؟ أو الذين ينتمون إلى مهنة «التفكير»؟

هل أصبح الفكر مهنة القلة أو سلعة للاستهلاك مثل السلع الكمالية الأجنبية التي تُغرِق أسواقنا؟!

هل يؤكد هذا الفكر الانفصال بين الإنتاج والاستهلاك، ويقسم البشر إلى قسمين:

(أ) أسياد يفكرون وينتجون الفكر.
(ب) تابعون لا يفكرون ويستهلكون فكر الآخرين.

تحدث هذه التقسيمة على المستوى الدولي الكوني بمثل ما تحدث على المستوى المحلي، وبمثل ما تحدث أيضًا على مستوى العائلة.

وتذكِّرنا هذه القسمة بأرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) الذي قسَّم الموجودات في المجتمع اليوناني القديم إلى قسمين:

(أ) الأشخاص: وهم الأسياد الذين يملكون الأرض والعقل والسلطة.
(ب) الأشياء: وهم العبيد العاملون في الأرض، والنساء، والحيوانات.

ويُعتبر أرسطو النموذج العقلاني لكثير من المفكرين حتى اليوم، رغم أنه قال إن العبودية أمر عادل تتطلبه طبيعة العبد وطبيعة المرأة. هكذا تم إحلال الطبيعي أو البيولوجي محل الاجتماعي والسياسي لتكريس الظلم والتفرقة على أساس الطبقة والجنس، وأصبح الثائرون والثائرات ضد الظلم كأنما هم ثائرون أو ثائرات ضد الطبيعة أو القانون الإلهي.

ومن أجل التمويه وسيادة اللفظ على المعنى أو اللغة على الاقتصاد أو الثقافة على ضرورات الحياة المادية، تحولت الفلسفة أو الفكر منذ نشوء الرق والعبودية إلى رياضة كلامية لغوية ذهنية منعزلة عن حياة الملايين من النساء والرجال المظلومين. وقد لجأ أحد هؤلاء المظلومين إلى أرسطو بعد أن استولى أحد السادة الكبار على قطعة أرضه الصغيرة، لكن أرسطو لم يعبأ بهذا الظلم أو هذه القطعة الصغيرة من الأرض؛ لأنه كان يفكر في الكرة الأرضية كلها. وهكذا استمر الظلم في العالم حتى يومنا هذا، واستمر معه هذا التمويه الفكري من أجل تزييف الوعي لدى الملايين من الناس وإقناعها أن اللغة أو الحروف أو النصوص أهم في حياتهم من لقمة العيش أو قطعة الأرض.

وفي مصر وبلادنا العربية تيارات فكرية متعددة كان يمكن أن تلعب دورها في تطوير الفكر وتشجيع الإبداع والخيال المادي والفكري، إلا أن أغلبها اعتنق النصوص وتجمد عندها، سواء كانت نصوصًا عقلانيةً ديكارتية أو ماركسية أو إسلامية أو قومية عربية اشتراكية أو رأسمالية، حتى نصوص هانتنجتون أصبحت هي الدين الجديد لعدد غير قليل من المفكرين في بلادنا، ولهذا حديث آخر.

عن انتحار الكُتَّاب والكاتبات[1]

انتحار كاتب واحد أو كاتبة واحدة في أي بلد من العالم يُصبح حدثًا كبيرًا يَهزُّ المجتمع والدولة والتاريخ، إنه حديث يرجُّ ضمير الكتاب والنقاد وكبار رجال الحكم؛ فهو إشارة ولمبة حمراء تشتعل وتُنذِر بالخطر، تسطِّر بلغة الموت رسالة أخيرة بليغة هي: اكتبوا الحقيقة أو موتوا!

وقد قرأت عن انتحار الكاتبة الشابة «أروى صالح»، ثُمَّ قرأت عن محاولة انتحار الكاتب «علاء حامد» (التي لم تنجح)، وسوف نقرأ عن المزيد من هذه الانتحارات أو محاولات الانتحار التي لا تصل إلى ذوي النفوذ في الأجهزة الحكومية أو غير الحكومية؛ فقد أصبح الأدباء والأديبات مثل الأطباء والطبيبات، مثل المدرسين والمدرسات، وغيرهم من الكادحين والكادحات بعقولهم وليس بأموالهم، أصبح هؤلاء أشبه ما يكون بقاع المجتمع، بعد أن ارتفع إلى السطح التجار رجال الأموال، رجال الأعمال «البزنس» الذين يكسبون في الدقيقة الواحدة — وبالتليفون فقط — ما يكسبه الأديب أو الأديبة في ستين عامًا. وأنا أرى أمامي اليوم أدباء وأديبات بلا مورد رزق على الإطلاق، بلا احترام من أحد في الدولة، وبلا أمان أيضًا؛ لأنهم كتبوا في يوم من الأيام كلمة صدق، كلمة من القلب اخترقت حواجز النفاق، والرياء السياسي الديني الثقافي، الذي أصبح كالجدار العالي من الأسمنت، لا يمكن اختراقه إلا بالقفز من فوقه والانتحار.

قولوا ما تشاءون عن «أروى صالح»، لكنها كاتبة امتلكت شجاعة الاحتجاج، ودفعت حياتها كلها ثمنًا لهذه الكلمة الصادقة. قولوا ما تشاءون عن «علاء حامد»، لكنه كاتب

[1] أخبار الأدب، ١٧ أغسطس ١٩٩٧م.

شجاع، تعرض للسجن والمحاكمة السنة وراء السنة، دون أن يسانده أحد، بل تسابق الكثيرون لقذفه بالحجارة إرضاءً لتيارات دينية وسياسية معينة.

أنا ضد الانتحار، فهو قمة اليأس، لكني أيضًا ضد النفاق الديني والرياء السياسي الذي يدفع الكتاب والكاتبات إلى الانتحار دون أن يهتز المجتمع، دون أن يُنشر الخبر في الصفحات الأولى من الجرائد الكبرى والمجلات بدلًا من تلك الأخبار عن أحوال البورصة وسفر رجال الأعمال إلى مارينا لقضاء عطلة الصيف!

نقد موجه لجريدة الدستور[1]

ليلة ١٠ أكتوبر ١٩٩٧م على مسرح محكَى القلعة، شهدت بعينَيْ رأسي عملية وأد «إيزيس» ودفنها بالحياة في مقبرة قلعة صلاح الدين. هذه المرأة المصرية القديمة كانت إلهة المعرفة والفلسفة والحكمة والتسامح والرحمة، إلا أن التاريخ الطبقي الأبوي أهملها عبر قرون الماضي، وجعلها مجرد زوجة إله مقتول، أعادت إليه الحياة؛ فأصبح هو صاحب الفلسفة والحكمة والمعرفة، وهي ليست إلا تابعًا له.

انتزعتُ من بين أنياب التاريخ بعض أجزاء من شخصية إيزيس، وحاولت تجسيدها على المسرح، إلا أن القوة المعادية لعقل المرأة وإنتاجها الفكري وقفتْ ضد إيزيس، وبقيت إيزيس راقدة في الظلام، ممنوعة من الظهور على مسارح الدولة أكثر من خمسة عشر عامًا، ظلت مجرد حروف مطبوعة داخل النص المسرحي الذي كتبتُه، والذي قرأه توفيق الحكيم فغضب: كيف يمكن لكاتبةٍ امرأة أن تنقد توفيق الحكيم؟ إنه يحمل لقب كاتب كبير وتظهر صورته ومقالاته في أكبر الصحف الحكومية اليومية والأسبوعية، وهو على صلة طيبة برأس الحكم في مصر، وبالمسئولين في الدولة عن المسرح والأدب والثقافة.

[1] تفاصيل عرض مسرحية إيزيس وكواليس ما حدث لها.

هكذا ظهرت «إيزيس» كما تصورها توفيق الحكيم على مسارح الدولة، واحتجبت «إيزيس» كما تصورها الآخرون. وأذكر حوارًا دار بيني وبين كرم مطاوع بعد أن قرأ مسرحيتي:

– مسرحية حلوة أوي يا دكتورة، لكن ...

– لكن إيه يا أستاذ كرم؟

– فيه رقابة على المسرح يا دكتورة!

– هو إنت عرضتها على الرقابة يا أستاذ؟

– لا!

– طيب: اعرضها، وإذا الرقابة رفضت، خلاص ...

إلا أن كبار رجال المسرح في بلادنا لا يجازفون بعرض شيء يمكن أن يُرفَض من المسئولين في الدولة؛ ربما لهذا السبب فقدتُ الأمل في الكبار، واتجهت إلى الشباب الناشئ. وتحمستْ لمسرحيتي «إيزيس» إحدى فرق الهواة من الشباب، وقالوا: هناك صندوق في وزارة الثقافة اسمه صندوق التنمية الثقافية يشجع فرق الهواة والشباب؛ فذهبت معهم إلى مسئول الصندوق «سمير غريب»، ودُهشت حين رحَّب بي وبالشباب، وتفاءلت خيرًا، وفعلًا حصلت فرقة الهواة على وعدٍ يؤكد تدعيم الصندوق لإنتاج مسرحية «إيزيس»، إلا أنَّها لم تحصل على المبلغ ذاته إلا على شكل أقساط، وبعد انتهاء البروفات، وانتهاء الثَّلاث ليالٍ التي عُرِضَت فيها المسرحية على مسرح محكَى القلعة، ولا أعرف حتى اليوم إذا كانت فرقة الهواة قد حصلت على المبلغ كله؟ وهل سددتْ كل ديونها التي دفعتْها لتحقيق المسرحية، ولمدة ثلاثة عروض فقط؛ إذ لم تحصل الفرقة على تصريح باستخدام محكَى القلعة إلا لمدة ثلاث ليالٍ فقط هي ٨ و٩ و١٠ أكتوبر ١٩٩٧م. ورفض المسئولون عن المسارح التصريح باستخدام مسرح آخر. (أنا نفسي اتصلت بسامي خشبة فقال لي إن جميع المسارح مشغولة، وسُرِرت كثيرًا لهذا الخبر مما يدل على وجود نهضة مسرحية عظيمة في بلادنا.)

وشهدت بعيني رأسي كيف تُهدَر كرامة الشباب المبدع على أبواب المسئولين في الدولة عن المسرح والأدب والثَّقافة. كيف يدوخون بحثًا عن مكان يعرضون فيه أعمالهم، كيف يدفعون من جيوبهم لبدء البروفات، كيف يجوعون من أجل تسديد ثمن قطعة ديكور يرَوْنها ضرورية للمسرح. إحدى الممثلات في فرقة الهواة (التي عَرضت مسرحية إيزيس) كانت تقتطع من طعامها لتدفع ثمن الملابس الفرعونية التي سترتديها أثناءَ العرض. هذه

المرأة الفنانة الشابة كانت تواظب على مواعيد البروفات بدقة شديدة وإحساس بالمسئولية يفتقدها كثير من كبار الممثلين والممثلات ممن يُطلَق عليهم «النجوم».

وكم أشفقت على هذه الفرقة من الشباب الفدائي المستعد للموت في سبيل الفن، والذي لا يهتم به أحد ممن يملكون السلطة أو الأموال أو الإعلام أو الصحافة، رغم الأحاديث الطويلة المنمقة عن الشباب رجال المستقبل.

يوم ٨ أكتوبر ١٩٩٧م كان هو يوم افتتاح مسرحية «إيزيس» التي عشتُ السنة وراء السنة أحلم برؤيتها تتحرك فوق المسرح، خمسة عشر عامًا يعيش الحُلم في أعماقي، حتى ذلك اليوم الحزين التعس ٨ أكتوبر وأنا جالسة في مقعدي ضمن المُتفرِّجين الفدائيين الذين استطاعوا الحضور إلى محكى القلعة في سياراتهم أو على أقدامهم، وتاهوا داخل سراديب القلعة، وبعضهم عاد أدراجه دون أن يرى المسرحية، ولعل هؤلاء أسعد حظًّا من الذين وصلوا إلى المسرح، وشهدوا معي عملية الوأد والدفن بالحياة لهذه الإيزيس المحكوم عليها بعدم الظهور أبدًا.

كنت أنتفض في مقعدي من شدة البرد رغم أنني ارتديت ملابس شتوية؛ فالمسرح واسع ضخم فوق هضبة القلعة، مفتوح على السماء، والجو بارد في نهاية الخريف، والسماء غضْبَى على الإلهة إيزيس؛ لأن الألوهية والأنوثة يجب ألا يجتمعا في كيان واحد، وإلا فلماذا هبَّت تلك العاصفة الهوائية الصاعقة فأسقطت الديكور فوق رءوس الممثلين والممثلات؟! صحيح أنَّ الديكور فقير، دفع الشباب ثمنه من جيوبهم وهو مجرد قماش رخيص ملزوق على الجدران الضخمة العالية لقلعة صلاح الدين، أو مثبت بدبابيس من الصفيح في الأعمدة الإسلامية القوية من الخرسانة والأسمنت المسلح. شهدت بعيني رأسي كيف تغضب الأعمدة أو الحيطان العالية أو المنارات الناطحة للسحب، على هذه الإلهة الأنثى، التي تتحرك وتنطق، تحت قبة هذه السماء الإسلامية وقلعتها العتيدة؟!

لم نسمع — نحن الجمهورَ الفدائي الصامد في المقاعد — إلا قعقعة الريح تخبط جدران القلعة، وضاع صوت الممثلين والممثلات في الفضاء الجوي المحيط بالكرة الأرضية. إلى جواري كانت تجلس ناقدة مسرحية شابة، ناضلتْ ثلاث ساعات في الطريق حتى وصلتْ إلى محكَى القلعة. كانت تحوط جسمها الصغير بشال خفيف وتنتفض من البرد، ثُمَّ انصرفت بعد الفصل الثاني وهي تقول: ده حرام يا دكتورة! خسارة النص المسرحي ده يضيع بالشكل ده! دي عملية قتل!

وكانت مقاعد المتفرجين قد بدأت تخلو، وهي مقاعد من القش، أصبحت في مهبِّ الهواء، تذروها الريح كالهشيم، ولأنني أنا المؤلفة فقد حاولت الصمود في وجه القدَر، إلا

أنني لست شابة مثل الممثلين والممثلات في فرقة الهواة، ولست أيضًا فدائية فيما يخص المسرح، ولأنني كدت أموت من البرد — والحزن أيضًا — على عملية وأد إيزيس؛ لهذا خرجت من محكى القلعة قبل نهاية الفصل الأخير، ولم أعرف كيف صمد المتفرجون الآخرون حتى النهاية.

وكنت أتوقع أن تكتب الصحف (غير المدعمة من الحكومة أو الدولة) شيئًا عن هذه المسرحية يُلقي الضوء عما يعانيه شباب الفنانين في فرقة الهواة، إلا أنني لم أقرأ شيئًا، لا في الصحف الحكومية أو غير الحكومية، بل العكس هو الصحيح، قرأت ما يشبه اللوم لسمير غريب لأنه يدعم مسرحيات مثل إيزيس تعرضها فرق هواة لا جمهور لهم. وفي جريدة الدستور الصادرة ١٢ نوفمبر ١٩٩٧م، يرد سمير غريب مدافعًا عن نفسه، ويقول بالحرف الواحد:

> أنا يهمني دعم الهواة بالأساس ... للأسف النقاد لا يحضرون عروض الهواة ... وأنا أناشد نقاد المسرح بأن يرَوْا هذه العروض ... يا كبار تواضعوا قليلًا واخرجوا لِفرَق الهواة ... أجور الممثلين اليومية لا تزيد عن ٥ جنيهات ... مسرحية إيزيس تم دعمها بـ ٢٠ ألف جنيه ... العرض أقيم في محكى القلعة، وهو غير مناسب لأن جوه إسلامي والمسرحية جوها فرعوني ... لا بد من إشراك آخرين في الدعم لفرق الهواة ... لا بد أن يقف معهم الصحفيون والنقاد وغيرهم ... فكرة تدعيم الهواة لا تعني بعزقة الفلوس ... الإعلان الواحد لا يقل عن ٥ آلاف جنيه! إزاي أعمل إعلانات بـ ٦٠ ألف جنيه؟ بدل ما أقدم عرض يتكلف ١٠٠ ألف جنيه، أعمل ٥ أو ٦ عروض ... وقبل ما تهاجموني يجب أن تفكروا قليلًا.

هذا هو كلام سمير غريب في جريدة الدستور، وهي جريدة معظمها شباب، وهي تنقد أحيانًا «الكبار» في عالم السياسة أو الصحافة أو الفن أو الدين. لكن هذا النقد لا يكفي، ولا بد أن يصاحبه عرض لأعمال الشباب التي عرضت مسرحية إيزيس؟ ولماذا لم تسألها رأيها كما سألت مسئول صندوق التنمية الثقافية؟! وإذا لم تهتم الصحافة الشابة بالشباب؟ فمن يهتم بهم؟!

التخويف والترغيب والجوائز[1]

كم نستمتع حين نشهد عملًا بارعًا من إبداع الجسم الممشوق أو العقل الرشيق، لا يقل استمتاعنا بقراءة رواية جميلة عن مشاهدتنا لإحدى الألعاب الرياضية يتبدى فيها إبداع الجسم الإنساني.

لكن كيف ينقلب الجمال إلى قبح حين تتحول هذه الإبداعات الإنسانية إلى ساحات للمنافسة مثل القتال في الحرب، وينشغل الناس بالجوائز والميداليات عن الإبداع ذاته.

كنت أسمع أبي منذ طفولتي يقول: الجائزة كالهدية نوع مستتر من الرشوة، ألهذا لم يحمل في حياته هدية ولم يُهنئ أحدًا بجائزة؟!

هذه الفكرة تراودني دائمًا حين أشهد مواكب المهنئين بالجوائز أو حاملي الهدايا، وحين أشهد مباريات كرة القدم وأتابع أخبار الفائزين أو الخاسرين في الدورات الأوليمبية أو مهرجانات السينما أو المسرح أو القصة أو الأدب وجوائز الدولة وغيرها.

يُدهشني دائمًا هذا الاهتمام المبالَغ فيه بمثل هذا التنافس إلى حد نشوب معارك لفظية أو عضلية بين الفرق المتصارعة في الساحة الرياضية أو الثقافية. أهي محاولة لتحويل طاقات البشر عن الصراع الحقيقي في حياتهم الواقعية؟! أم أن الإنسان لا يبدع جسمًا وعقلًا دون ترغيب في مكافأة أو ترهيب بالعقاب.

كان أبي من رواد التعليم في الأربعينيات والخمسينيات، وكنت أسمعه يقول: إنَّ فلسفة الترغيب والترهيب لا تُؤدِّي إلى الإبداع في شيء؛ لأنَّ العمل المبدع هو جائزة الإنسان

---

[1] القاهرة، الأهرام، ٢٤ / ٨ / ١٩٩٦م، ص١٠.

لنفسه، منبعه الثِّقة بالنفس إلى حد القدرة على الاختلاف مع الآخرين؛ وبالتالي عدم الحصول على رضاهم أو جوائزهم.

زُرت بعض المدارس الابتدائية الجديدة في أوروبا وأمريكا خلال السنين الماضية، هناك محاولات متعددة لإلغاء الامتحانات أو المسابقات أو السُّقوط أو النجاح، بحيث يتربى الطفل أو الطفلة على إتقان العمل الإبداعي لذاته وليس طمعًا في النجاح أو خوفًا من الفشل. لقد اتَّضح أنَّ فلسفة الترغيب والتخويف لا تنتج مبدعين حقيقيين، وإنَّما أصحاب مهن تجارية أو أكاديمية أو فنية، يكسبون أو يخسرون في ساحات المنافسة الجوائز المادية أو الأدبية.

إن الإبداع الحقيقي مثل الإيمان الحقيقي، يحدث للإنسان بلا طمع في شيء أو خوف من شيء. وأصدق من عبَّرت عن ذلك هي رابعة العدوية في إبداعها الإيماني دون طمع في الجنة أو خوف من نار الجحيم.

إن فلسفة الترغيب أو الترهيب تُؤدِّي في كثير من الأحيان إلى تشويه الإنسان، وكم رأيت تلاميذ وتلميذات تشوَّهوا بسبب الخوف من الامتحانات أو الجري وراء الجوائز. وفي دورة أتلانتا الأوليمبية الأخيرة رأيت شبابًا وشابَّات ضمرت أجسامهم وعقولهم من جراء ذلك التنافس المجنون على الجوائز، بعضهم لا يعيش الحياة الطبيعية الصحية بل انحرافًا ومبالغةً في الحرمان من الطعام أو النوم إلى حد ابتلاع الأقراص المهدئة.

إحدى الفتيات الفائزات بجائزة ذهبية قالت بعد أن صفَّق لها الملايين: عُدت إلى بيتي وحيدة أشعر بالضعف والحزن. هذه الفتاة لم تحزن لأنها لم تجد العريس كما تصور بعض الناس، أو لأن الرياضة الجسمية أفقدتها الأنوثة أو الأمومة أو القدرة على الحمل أو سهولة الولادة أيضًا، بل إن آلام الولادة أصبحت تتلاشى تمامًا بالرياضة الجسمية والعقلية الصحيحة، أصبح هذا معروفًا في علم الطب الحديث.

وقد أصبح أطباء الجسم والنفس في العالم اليوم يقاومون هذه الظاهرة التنافسية الخطيرة الكامنة في المدارس التعليمية، والظاهرة في المباريات الرياضية، ونحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر أو نقد هذه السياسة القديمة القائمة على التخويف والترغيب. وقد أثبتت الدراسات العلمية النفسية عن الإبداع أن التربية القائمة على الخوف لا تنتج شيئًا مفيدًا، كذلك أيضًا التربية القائمة على الترغيب في المكافأة، إلا أن الأمر طويل وشاق، يحتاج إلى جهود كثيرة في جميع المجالات التربوية والتعليمية والثقافية والإعلامية.

كلما شهدت مباراة من مباريات كرة القدم على شاشة التليفزيون أقول لنفسي: كم تتحول هذه اللعبة الجميلة إلى معركة قبيحة، إلا أن المشكلة ليست في المباريات الرياضية فحسب، ولكنها أيضًا في المباريات الأخرى في أي مجال منذ نولد حتى نموت.

حديث مع توفيق الحكيم[1]

(١) حوار فكري أم مونولوج داخلي؟

درج القراء في بلادنا على الإنصات «صامتين» إلى أحاديث الكُتَّاب الكبار في مجالات الفكر؛ وبذلك يبدو الكاتب أو المتكلم وكأنه يتحدث مع نفسه (أو مع الله)، فالفرق الوحيد بين الحديث مع النفس (أو مع الله) والحديث مع القراء هو أنه في الحالة الأولى لا يكون هناك «رد»، ويظل الحديث على شكل مونولوج دائم، أمَّا في الحالة الثانية فلا بد أن يكون هناك «رد» ليتحول المونولوج إلى «حديث مع» أو «حوار» بالمعنى الصحيح.

لكن علاقة الكاتب بالقارئ في بلادنا لا تزال تأخذ شكل الكلام من جانب واحد، إنها تشبه العلاقة بين الفرد والإله، أو علاقة المحكوم بالحاكم.

والمفروض على الأقل في مجال الفكر والكتابة أن يكون «التبادل» هو أصل العلاقة، حتى يمكن أن يتحول القارئ من آلة استقبال إلى إنسان يتفاعل ثُمَّ يفكر، ثُمَّ يشارك في صياغة الفكر وتطويره.

بغير هذا التحول، بغير أن يصبح «الصامت» ناطقًا، لا يمكن أن يحدث حوار فكري في بلادنا، هذا الشعار الذي نردده طوال الوقت؛ مما يؤكد غيابه طوال الوقت.

لذلك فإني ما زلت أطلب من كبار الكُتَّاب في بلادنا أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم للقراء، وأن يشجعوا القراء على أن يخرجوا من مجال الصمت إلى مجال النطق.

---

[1] مجلة أكتوبر، ٢٤ ديسمبر ١٩٩٥م، ص٧٢.

إنهم بذلك يسهمون في زحزحة أكبر حجر تقوم عليه أزمة الفكر في بلادنا، وربما لو فعل ذلك كاتب كبير مثل توفيق الحكيم منذ بدأ الكتابة في الثلاثينيات لما اضطر إلى إعادة نشر ما كتب منذ أربعين عامًا؛ ذلك أن فكره كان لا بد أن يتغير ويتطور من خلال التفاعل مع آلاف العقول الأخرى على مدى نصف قرن أو أقل أو أكثر.

(٢) الثُّقوب الواسعة في غربال العلم

سوف أسهم بدوري كقارئة لما نشره الحكيم، وسأحاول الرد على بعض أفكاره:

كتب الحكيم مؤيِّدًا نظرية «أ. م. جود» عن عجز العلم للتوصل إلى فهم شخصية الإنسان، أو الصداقة، والحب، ويقول في هذا الحديث:

> فالإنسان ليس هو مجموعة الدقائق التي يتكون منها تركيبه المادي والحيوي والنفساني، إنه أكثر من هذه المجموعة، إنه شخصية! … الشخصية شيء يفلت دائمًا من غربال العلم، ومن الأشياء التي لا يمكن أن يحسها العلم …

ويستمر الحكيم قائلًا:

> ويمضي «جود» بعدئذٍ يُحدِّثنا عن نتائج التحليل العلمي لنكتة فكاهية، فيقول: إنَّ السير «آثر أونجتون» حاول أن يبحث في طبيعة «النكتة»، وقد رأى أنها قابلة للتحليل شأن أي مركب كيميائي؛ ففك أجزاءها، وقرر ما ينبغي أن يكون التركيب والنموذج لنكتة فكاهية، وكان المنطق يقضي أن نضحك لهذه النكتة، ولكننا لم نضحك، شيء فيها تبخر عند التحليل، هذا الشيء أُسَمِّيه أنا «الروح».

كان يمكن لمثل هذا الكلام أن يُنشر خلال الثلاثينيات، أو قبل إدراكنا لحقائق العلوم الحديثة، وخاصةً علم الاجتماع الحديث وعلم النفس. لقد أدرك العلماء الجدد ومنهم «رونالد لينج» في إنجلترا «وتوماس زاس» في أمريكا (وغيرهما) خطأ السير آثر أونجتون و«أ. م. جود»؛ ذلك أن الذي تبخَّر في المعمل الاختباري لم يكن هو «روح» النكتة، ولكنْ شيء آخر أُطلق عليه اسم «المُناخ الثقافي والاجتماعي العام».

فقد اتضح لهم أثناء البحث أن النكتة التي ضحك عليها الإنجليز في سنة ١٩٣٢م ليست هي النكتة التي ضحكوا عليها سنة ١٩٤٢م، كما وجدوا أيضًا أن النكتة التي

ضحك عليها الإنجليز سنة ١٩٤٢م اعتبرها غيرهم نكتة غير مضحكة أو باردة تمامًا (نكت الإنجليز تبدو لنا باردة).

وبذلك اكتشف العلماء الجدد أن الذي غاب عن «وعي» السير آثر أونجتون ليس هو «روح» النكتة، وإنما هو المُناخ الثقافي والاجتماعي العام الذي يلعب دورًا أساسيًّا في عملية فهم النكتة وبالتالي الضحك أو عدم الضحك.

وبالمثل أيضًا اكتشف هؤلاء العلماء الجدد ومنهم «رولو ماي» (في جامعة هارفارد) وغيره من أساتذة علم النفس الحديث، أن «الحب» ليس أعمى كما تصور العلماء السابقون، وأنه ليس هناك ما يُسَمَّى «الوقوع في الحب من أول نظرة»، وأن ما يبدو في «الوعي» النظرة الأولى ليس في الحقيقة إلا عددًا يُحصى أو لا يُحصى من الصور المتشابهة والمتراكمة في الذاكرة أو اللاوعي منذ الطفولة ومراحل العمر المختلفة. إن الثقوب في غربال العلم الحديث أصبحت أضيق مما كانت منذ ثلاثين عامًا، وهي تضيق على الدوام.

(٣) المرأة المصرية العاجزة عن التفكير

كتب توفيق الحكيم تحت عنوان «المرأة ومواهبها»، يقول: «هذان النوعان بالذات: التفكير والتركيز» لم أجد للمرأة فيهما أثرًا بارزًا ... كل شيء قد برزت فيه وسادت فيه الرجل ... نعم، كل شيء استطاعتْه المرأة خلا شيئين: أن تكون «فيلسوفة»، وأن تكون «مؤلفة تمثيلية»، أترى التفكير والتركيز صفتين ناقصتين عند المرأة؟ أمَّا «الرواية»، فالمرأة توشك أن ترفع عليها علم السيادة؛ فالمرأة تُمسك «بالقلم» لتصنع قصة روائية كما تُمسك «بالإبرة» لتصنع ثوبًا من «التريكو».

فالقصة النسوية بما فيها من التفاصيل لشئون الحياة اليومية ومن إسهاب لتفاهات الحياة المنزلية ... «كل هذا ليس في حقيقة الأمر سوى نوع من شغل الإبرة.»

وماذا نفهم من هذا الكلام؟ أيقول الحكيم إن التأليف الروائي لا يحتاج إلى تفكير؟ أم يقول إن الرجل الروائي يفكر، أمَّا المرأة الروائية فهي عاجزة عن التفكير، وإنتاجها ليس إلا نشاطًا غير فكري أو نشاطًا آليًّا مثل «التريكو» وحياكة تفاهات الحياة المنزلية؟ ومن هي المرأة العاجزة عن التفكير؟

هل هي المرأة المصرية أو المرأة بصفة عامة في العالم كله؟

وهل قرأ الحكيم إنتاج النساء في العالم ليُصدر حكمًا عامًّا على المرأة؟ وإذا كان حكمه يخص المرأة المصرية فقط، فهل قرأ الحكيم إنتاج المرأة المصرية من الروايات خلال نصف القرن الأخير؟

ونفهم من الجزء الأخير في مقال الحكيم أنه يخص المرأة المصرية فحسب بتلك الصفة «العجز عن التفكير».

(٤) تمجيد المرأة الأوروبية!

في ختام مقاله يقول الحكيم تحت عنوان «أثر المرأة في أدبائنا»:

> وهناك أدباء أثَّرت في تكوين ثقافتهم نساء فضليات، أن يجريَ على أقلامهم وصف لامرأة ... من بين هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق، ومنهم أيضًا «أحمد أمين»، وقصته عجيبة، فإني أسأل نفسي: كيف استطاع هذا الباحث الجادُّ في تاريخ العقلية الإسلامية أن يكون أديبًا تنم كتاباته أحيانًا عن فهم للقلب والعواطف؟ فتحرَّيت منه فكشَف لي الأمر عن حقيقةٍ أدهشتْني، نعم، هو أيضًا قد أثَّرَت في حياته امرأة ... أستغفر الله! بل امرأتان، هما سيدتان إنجليزيتان، إحداهما في ذهنه وتفكيره بثقافتها الواسعة، والثانية أثَّرَت في قلبه ومشاعره بجمالها ونُبلها! وأخيرًا أقول إن المرأة التي أثَّرَت في عمل أدبائنا المعاصرين هي في أغلب الأحوال امرأة أوروبية فرنسية أو إنجليزية. ولنا أن نتساءل: أين المرأة المصرية؟ مشغولة أينَ وبماذا عن صنعِ العقول وقيادة القلوب واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير؟

وماذا نفهم من هذا الكلام؟ ها هي ذي المرأة التي سبق أن وصفها الحكيم بالعجز عن التفكير تصبح هي التي تؤثر في الرجل وفي ذهنه بثقافتها الواسعة.

لكنها هنا المرأة الأوروبية، والرجل الأوروبي.

وماذا يقصد الحكيم؟ هل يقصد أن المرأة المصرية لا تؤثر في عقل الرجل المصري لأنها أقل منه ثقافةً وفكرًا، وأن المرأة الأوروبية أكثر ثقافةً وفكرًا من الرجل المصري؛ وبالتالي يمكنها التأثير في عقله وذهنه؟

وهل تؤثر المرأة الأوروبية في عقل الرجل الأوروبي بمثل ما فعلتْه بالرجل المصري؟

من الحقائق المعروفة اليوم أن نساء أوروبا (وأمريكا أيضًا) قد بدأن الثورة على الرجل في منتصف هذا القرن لسبب أساسي هو: عدم الاعتراف بعقل المرأة (واعتبارها جسدًا فحسب مثل حواء). وبقراءتي لمعظم كتابات النساء (في أوروبا وأمريكا) خلال العشرين عامًا الماضية وجدت أن المرأة الأوروبية (والأمريكية أيضًا) تنقد كتابات الرجل

الأوروبي، الذي اتهمها بالعجز عن التفكير ونقصان العقل والتركيز، وأنه كان يهرب منها إلى بلاد أفريقيا وآسيا؛ سعيًا وراء امرأة تؤثر في عقله وقلبه! يا ترى ما المشكلة؟ أهي مشكلة الرجل؟ أم المرأة؟ أم كليهما؟!

(٥) المفهوم الجديد للمرأة والإبداع الفكري!

لم تعد الفروق البيولوجية أو الجنسية بين الرجل والمرأة هي التي تحدد مفهوم الإبداع الفكري عند كل منهما، لقد وُجد أن إنتاج النساء الأدبي في أوروبا سنة ١٩٤٢م يختلف عن إنتاج النِّساء في مصر في العام نفسه، ولا يرجع ذلك إلى اختلافات بيولوجية بين المرأة الأوروبية والمرأة المصرية، ولكنه يرجع إلى أن الضغوط الثقافية والأخلاقية على المرأة الأوروبية كانت أقل، وكانت المرأة الأوروبية تمارس من الحريات الاجتماعية والشخصية ما يسمح لها بمخالطة الرجال الأجانب، مصريين وغير مصريين؛ وبالتالي القدرة على التأثير في عقولهم وقلوبهم.

أمَّا المرأة المصرية في سنة ١٩٤٢م فكانت حريتها أقل، ولم يكن في إمكانها مخالطة الرجل المصري، فما بال الرجل الأجنبي.

لهذا فإني أرى أن الحكم على المرأة المصرية دون مراعاة الظروف الاجتماعية والثقافية في البيئة التي تعيشها يصبح حكمًا غير صحيح، أو حكمًا خطأً؛ وبالتالي غير مفيد، بل ضار.

لأنه يُشعر المرأة المصرية بالنقص، أو العجز عن التفكير والتركيز. ويبدو النقص لها كأنه صفة طبيعية خاصة بها وحدها، أو بسبب عيب فيها هي بالذات وليس لأسباب ثقافية واجتماعية هي تعاني منها أصلًا، وتحاول التخلص منها؛ فهل يساعدها الرجل المصري على هذا؟

ويحكم توفيق الحكيم على الرجل المصري بالنقص في التفكير بالنسبة للمرأة الأوروبية، بمثل ما يقول إن أوروبا هي «العقل» والشرق هو «النفس» أو الروح. وكأنما الشرق ليس له عقل. وهذا الحكم أيضًا غير مفيد لأنه يُشعر الرجال في بلادنا أن عقولهم أقل من عقول النساء في أوروبا، وأن العقل المصري أو العقل العربي يعاني نقصًا بالطبيعة وليس بالضغوط الاجتماعية والثقافية والسياسية.

إن التشخيص الخطأ لأسباب أي مشكلة يقود بالضرورة إلى العلاج الخطأ؛ ولهذا لا نزال نعاني الأزمة الفكرية بين رجالنا ونسائنا معًا.

الفرق بين الراقصة الشقراء والراقصة المحجَّبة[1]

لا يمكن أن نرى الشيء، أيَّ شيء، إلا من مسافة ما.

نُطبِّق هذا القانون العلمي على كل الأشياء، حتى النفس والوطن.

إذا أردنا أن نرى أنفسنا، فلا بد من وجود مسافةٍ تفصلنا عن أنفسنا ... «العين لا ترى نفسها».

هذه حقيقة علمية معروفة؛ ولهذا كم رأيت الوطن أكثر وضوحًا وأنا بعيدة هناك فيما وراء البحر الأبيض المتوسط.

هناك في أوروبا، حيث يُطلِقون على بلادنا اليوم اسم «جنوب المتوسط».

كانوا يُطلِقون علينا اسم الشرق الأوسط، إنهم يُغيِّرون أسماءنا حسب مصالحهم أو موقعهم في خريطة العالم، وليس حسب موقعنا نحن. وكم يتغير موقعنا حسب قوتنا أو ضعفنا. وفي القاموس الجديد يُعتبَر «الشمال» هو السيد الأعلى، و«الجنوب» هو التابع الفقير المُطيع.

«التبعية» و«الطاعة» صفتان متلازمتان في حياة الدول، وفي حياة الأفراد، إذا تمرد التابع ولم يطِع الأوامر عوقب، وتختلف درجات العقاب ابتداءً من قطع المعونة إلى الضَّرب بالقوة العسكرية.

كيف حدث أن أصبح طعامنا في يد غيرنا؟! لماذا لا ننتج ما نأكل في بلادنا؟!

---

[1] نُشر بمجلة روز اليوسف، ٤ / ١ / ١٩٩٣م.

كيف تحول اقتصادنا من إنتاج زراعي وصناعي إلى اقتصاد تابع يعيش على المعونات والقروض، أو على ما يدفعه السياح الأجانب؟! سؤال يجب أن يفكر فيه كل إنسان في بلادنا.

تجوَّلت في بلاد أوروبا خلال الأربعة الشهور الماضية (سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٢م). زُرت عشرة بلاد هي: «إنجلترا، فرنسا، إسبانيا، إيطاليا، ألمانيا، السويد، النمسا، هولندا، بلجيكا، سويسرا».

فماذا رأيتُ في هذه البلاد العشرة؟! رأيت سيَّاحًا من كل بلاد العالم يزورون الأماكن التاريخية أو الآثار القديمة، متحف «اللوفر» وحده في باريس يزوره في اليوم الواحد أكثر من مليون شخص، بل إن أكثر من عشرة آلاف سائح كل يوم يركبون قوارب الفرجة على معالم مدينة أمستردام في بلد أوروبي صغير جدًّا «هولندا»، لكن هولندا تعيش على إنتاجها الزراعي والصناعة الزراعية الغذائية وليس على السياحة، مع أنها أقل من بلادنا خصوبة، وأنهارها الصغيرة أقل من أنهارنا طولًا وعرضًا.

إن وادي نهر النيل مثلًا من أخصب الوديان، ويُعتبَر نهر النيل أطول أنهار العالم بعد «المسيسبي»، فكيف لا نعتمد على الإنتاج الزراعي، وعلى الصناعة الغذائية الزراعية، وكيف يهاجر الفلاحون تاركين الأرض ليعملوا في الفنادق كطباخين للسياح الأجانب؟!

لا أظن أن أحدًا عاقلًا يمكن أن يكون ضد السياحة؛ فالسياحة مشروعة، ليس فقط من أجل الحصول على المال أو العملة الصعبة، ولكن أساسًا لتعريف العالم بحضارتنا وتاريخنا العريق القديم.

لكني أعتقد أن العقلاء أيضًا لا يمكن أن يكونوا سعداء بتلك الحال التي وصلنا إليها، وأننا نمد أيدينا للأجانب كي نحصل على طعامنا.

في صحف أوروبا وحينما سافرت إلى أي بلد كنت أقرأ عن هذه السائحة الأجنبية التي قُتلت في مصر، وفي الصحف المصرية قرأت المقالات الطويلة عن هذا الموضوع، بل رأيت مسئولًا كبيرًا يرتدي بدلة بابا نويل ويستقبل السياح في مطار القاهرة ويوزع هدايا أعياد الميلاد على أطفالهم.

وعدد من المقالات بأقلام كبار الكتاب في مصر تستشهد بأقوال بعض السياح الأجانب أو زوجاتهم (كأنما هي شهادة قدسية)، على سلامة الوطن وعشق السياح لمصر. ومقالات تفتَّق عنها ذهنُ كبار الكُتَّاب عن كيفية جذب السياح إلى مصر، ومنها أن يترك المسئولون والوزراء مكاتبهم ويزوروا السياح حيث يكونون.

لا أظن أنَّ أحدًا عاقلًا ضد تنشيط السياحة، لكن لماذا يكون هذا التنشيط على حساب كرامة الوطن وصورته في الخارج.

لا شيء يُسيء إلى سمعة الوطن قدر هذا التهافت على إرضاء السياح الأجانب بأي شكل.

إن مقتل سائحة أجنبية في مصر قد حظيَ بالاهتمام المحلي والعالمي أكثر من مقتل كاتب مصري، أو التهديد بقتل خمسين كاتبًا، بل لو قُتل جميع الكتَّاب في مصر والوطن العربي، لما اهتمت الصحافة المحلية أو العالمية بالخبر كما اهتمت بخبر مقتل هذه السائحة الأجنبية.

وأنا كاتبة مصرية أشعر بالغربة في وطني لأن السائح الأجنبي يحظى باحترام واهتمام أكثر من أي مصري أو مصرية، وأشعر بالغربة أيضًا في أوروبا ... لأن أي أوروبي يحظى بالاحترام والاهتمام من أي أجنبي أو أجنبية مثلي.

ما الفرق بين راقصة أجنبية وراقصة مصرية؟! لِمَ يصبح فن الراقصة المصرية رخيصًا غير محترم يحتاج إلى التوبة والندم، على حين يصبح فن الراقصة الأجنبية فنًّا عظيمًا يستحق الإشادة والإعجاب باعتبار أن «الرقص أقرب إلى الطبيعة وأول الفنون التي عرفها الإنسان وأقدرها على تحقيق الانسجام بين الجسم والنفس والعقل والقلب، وأروعها في إذابة فوارق اللون أو الطبقة أو الجنس أو الدين أو السن أو الجغرافيا أو التاريخ» (على حد قول أحد الكُتَّاب المشجعين للسياحة، والذي استشهد في مقاله بأحد المفكرين الذي قال: أرني الرقص في بلد، وأنا أعرف إن كان شعبًا صحيح الجسم سليم العقل مُحِبًّا للسلام أو الجمال أو الحرية).

كيف يهبط الرقص من عليائه الفنية ليصبح خطيئة وعملًا لا بد أن يندم عليه الإنسان لمجرد أنه امرأة مصرية أو عربية وليست ألمانية أو روسية أو أمريكية؟!

في محاضرة لي بجامعة برن في سويسرا سألني أحد الرجال: هل يمكن أن تكون المرأة مسلمة دون أن ترتدي الحجاب؟! وقلت له: ما علاقة تحجيب النساء بالإسلام؟ لقد كان أبي رجلًا مسلمًا درس في الأزهر والقضاء الشرعي ودار العلوم، ولم يطلب مني في يوم من الأيام أن أرتديَ الحجاب، بل أرسلني إلى الجامعة، حيث تعلمت وسط الطلبة وتخرجت طبيبة واشتغلت مع الرجال، أتظن أن المرأة المسلمة لا يشغل عقلها إلا عيون الرجال التي يمكن أن تتجه نحوها؟!

المرأة المسلمة في بلادنا مثل المرأة في أي بلد من بلاد العالم مشغولة بأمور كثيرة في حياتها الخاصة والعامة، ابتداءً من لقمة العيش اليومية إلى السياسة الدولية والديون الأجنبية والاستعمار الجديد والحب وعش الزوجية ... إلخ ... إلخ.

جوهر الأخلاق في نظر أبي وأمي كان هو الصدق واستقلال الرأي وانشغال المرأة ببناء شخصيتها والمساهمة في خلق مجتمع أفضل وأكثر عدلًا وحريةً واستقلالًا ... هكذا علمني أبي وأمي؛ ولهذا فأنا لم أنشغل في حياتي بالرجل أو الأزياء أو الموضات أو الماكياج أو التبرج أو الحجاب، وانشغلت بالطب والأدب والسياسة والتاريخ والفنون والعلوم، وأصبحت إنسانة لها عقل ليس مجرد أنثى وظيفتها الوحيدة في الحياة هي الجنس أو الزواج أو الطلاق أو الندم على فقدان الرجل أو عائلها الوحيد ...

المرأة مثل البلد، إذا لم تُطعِم نفسها بنفسها أصبحت تابعة وعالة على غيرها بلا إرادة ولا كرامة، هكذا علمني أبي وأمي. وفي بلاد أوروبا المتعددة وقفتُ أمام السبورة في الجامعات والمعاهد، وقلت لهم: اسمعوا أيها الناس في أوروبا، إنكم لا ترَوْن فوق شاشتكم إلا صورتين اثنتين للمرأة العربية، إمَّا المحجبة أو نصف العارية ممن تُسمُّوهن راقصات البطن، أو الرقص الشرقي في ملاهي السياح الأجانب.

اسمعوا أيها الناس في أوروبا: إن المرأة العربية لا تتعرى، ولا تُخفي وجهها ... أنا أكشف وجهي بكل فخر واعتزاز بنفسي وهُويتي، والمرأة العربية إنسانة، وهي عقل وليست مجرد جسد يُرى أو يُغطَّى.

في نهاية كل محاضرة كانت تأتيني النساء والفتيات العربيات المهاجرات إلى أوروبا، يأتين رافعات رءوسهن في اعتزاز وفخر، فخورات أنهن عربيات، فخورات أنهن مسلمات، يُقدِّمن لأوروبا نموذجًا مشرفًا للمرأة العربية والمرأة المسلمة، يقدمن صورة إيجابية للإسلام، إنه دين يحترم شخصية المرأة وعقلها، لا ينشغل بالقشور عن جوهر الأخلاق.

الحنين إلى الدفء والعدل[1]

في أعماقي حنين إلى دفء العلاقات، إلى الصدق في الحب، إلى جمال العدل بين البشر، أجلس خلف نافذتي الزجاجية أطل على أشجار غابة جامعة ديوك، غابة ضخمة من الشجر يختفي داخله أعداد من الباحثين في علم الغابات، والباحثين عن الحب أيضًا، شباب كلهم وشابات.

منذ أيام عثروا على جثة فتاة، قُتِلَت داخل الغابة منذ أسابيع دون أن يعرف البوليس. قالت فينسيا (إحدى طالباتي في فصل المرأة والإبداع): ربما اغتصبها رجل ثُمَّ قتلها. حوادث الاغتصاب تطفو على سطح الأحداث، هل زادت هذه الحوادث عن ذي قبل؟ وترد فينسيا: لا، ولكن التبليغ عنها أصبح أكثر. فينسيا تركب دراجتها وفوق ظهرها حقيبتها وتخترق الغابة في النهار وفي الليل دون خوف، تذكِّرني بابنتي؛ ملامحها وشجاعتها.

شمس يناير في مدينة ديرهام قوية دافئة، تذكِّرني بالشمس في الوطن، تُذيب برودة الغربة والبُعد عن الأهل والأصدقاء، أشعر بالألفة مع هذه الأشعة الذهبية ذات الملمس القطيفي الدافئ، يسمُّونها في أمريكا شمس الجنوب، ولاية نورث كارولينا تُعتبَر من الجنوب. بيني وبين كلمة «الجنوب» نوع من الود، الجنوب هو الوطن، حيث الحرارة والحب والصداقة والبشرة السمراء؛ مثل أهلي الفلاحين والفلاحات في قريتي على شط النيل وسط الدلتا. الشمال هو الصقيع، واحمرار الأنف، والاستعمار، امتداد الأنف للتدخل

---

[1] نُشر بمجلة روز اليوسف، ٤ / ١ / ١٩٩٣م.

في شئون الغير، الاعتداء المسلح علينا لاغتصاب الأرض أو القطن أو البترول أو المواد الخام.

بالأمس رأيت الرئيس الأمريكي الجديد بيل كلينتون فوق شاشة التليفزيون يتكلم بصوت رقيق عن إسرائيل التي تخرق قرارات الأمم المتحدة، فلا يعاقبها أحد، بل تحاول الولايات المتحدة حمايتها. ويغضب واحد من الطلبة السود في جامعة ديوك ويقول في أحد الاجتماعات: صدام حسين يقذف بضع رصاصات في الهواء لا تُصيب أحدًا فإذا بالقنابل الأمريكية تدكُّ بغداد، وحاكم الصرب «سلوبودان» يقتل الآلاف من شعب البوسنة فلا يتحرك أحد، هكذا يتشكل النظام العالمي الجديد!

(١) راحة نفسية!

الجو هنا بالجامعة يتيح للطلبة نوعًا من الحرية الفكرية، وكذلك يمكن للأساتذة أن يعبِّروا عن آرائهم في محاضراتهم دون خوف من الطرد. أشعر بنوع من الراحة (النفسية على الأقل) أنني أستطيع أن أنقد السياسة الأمريكية داخل جامعة أمريكية.

وتقول فينسيا: عندنا حرية فكرية بشرط عدم تهديد النظام السائد، من يهدد النظام قد يتعرض للقتل مثل مارتن لوثر كينج.

كان اليوم هو ١٥ يناير ١٩٩٣م، اليوم إجازة في جميع الجامعات والمصالح في الولايات المتحدة، إنه اليوم الذي وُلد فيه مارتن لوثر كينج، أصبح إجازة رسمية قومية للاحتفال بذكرى هذا الزعيم الأمريكي الأسود الذي دفع حياته ثمنًا لتحرير إخوانه من الأفارقة السود في أمريكا. أصبح رمزًا من رموز النضال ضد العنصرية ومن أجل العدالة والحرية.

«هايدي»، واحدة من طالباتي، سوداء البشرة، تكشف عن أسنانها البيضاء في ابتسامة عريضة وتقول: أنا مدينة بحريتي لمارتن لوثر كينج، لولا نضاله ونضال غيره من الزعماء السود أمثال مالكولم إكس ما استطعت دخول جامعة ديوك. قبل خريف عام ١٩٦١م لم يكن بجامعة ديوك أيُّ طالب أو طالبة من السود، كانت جامعة ديوك للطلاب البيض فقط، وفي خريف ١٩٦١م دخل أول طالب أسود في هذه الجامعة يحصل على الدكتوراه، وفي خريف ١٩٦٣م دخل أول طالب أسود يحصل على البكالوريوس، واليوم كم ترَيْن من الوجوه السوداء بين الطلاب والطالبات؟ رغم تزايد العدد إلا أن السود هنا في الجامعة ما زالوا أقلية بالنسبة للبيض، وما زال أيضًا بعض الانفصال، على الأقل النفسي

أو الاجتماعي. لا توجد اليوم قوانين في الجامعة (كما كانت) تفصل بين السود والبيض، لكن جذور العنصرية لا تزال عالقة بالتقاليد والثقافة، تطفو على السطح أحيانًا، بعد أحداثٍ مثل تلك التي وقعت في لوس أنجلوس منذ عامين.

(٢) كريات!

اليوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٩٣م، إجازة ذكرى مارتن لوثر كينج، أتمشى بين الأشجار داخل غابة جامعة ديوك، مساحات من الخضرة لا نهائية، أتوقف عند ملاعب التنس، أرى طالبة سوداء تلعب مع طالب أبيض، يتعانقان تحت أشعة الشمس. في المساء دعتني «هايدي» لمشاهدة مسرحية عن مارتن لوثر كينج ومالكولم إكس، بأسبوع واحد. التقى الزعيمان الأسودان في غرفة فقيرة في فندق بحي هارلم بمدينة نيويورك.

(عشت في هذا الحي بعض الوقت في خريف ١٩٦٥م، حين كنت أدرس في جامعة كولومبيا)، وبعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء قُتل مارتن لوثر كينج، أُطلق عليه الرصاص وهو يخطب، تمامًا مثلما أُطلق الرصاص على مالكولم إكس وهو يخطب بين الناس.

في اليوم التالي دعتني فينسيا لمشاهدة فيلم مالكولم إكس، من إخراج «سبايك لي»، وهو مخرج أمريكي أسود، اشتهر في السنين الأخيرة، يتبنى أيضًا قضايا السود، ويناضل عن طريق السينما ضد العنصرية والتفرقة بين البشر. جزء من الفيلم تم تصويره في مصر، شارك فيه بعض شباب المخرجين المصريين، قرأت اسم ابني، ضمن المشاركين في الفيلم، ورأيت الأهرامات وشوارع الوطن، وحرارة الناس في بلادنا ودفء العلاقات. ومالكولم إكس في زيارته لمكة للحج بعد أن أصبح مسلمًا، يناضل مع الأفارقة السود المسلمين في أمريكا ضد الظلم والقهر. في شبابه الأول كان مالكولم إكس ضائعًا مثل عدد كبير من الشباب السود من الطبقات الفقيرة في أمريكا، أصبح مُهرِّجًا في البارات والحانات يتعاطى المخدرات إلى أن دخل السجن، وهناك بدأ يُفيق ويدرك الظلم الواقع عليه وعلى أمثاله من السود الفقراء.

قاعة السينما كانت مليئة بالوجوه السوداء، نساء ورجال وأطفال. رأيت طفلة تبكي حين انطلقت الرصاصات وسقط مالكولم إكس وانهمر دمه غزيرًا فوق الأرض وراء المنصة، واندفعت نحوه زوجته وأطفاله، ثُمَّ تجمع من حوله الناس الذين كان يخطب فيهم عن الحرية والعدل.

(٣) ليس حزينًا!

في اليوم التالي فوق شاشة التليفزيون رأيت امرأة سوداء تخاطب بيل كلينتون في اجتماع عام، كانت تناديه باسمه عاريًا من الألقاب وتقول له: «بيل، ماذا ستفعل يا بيل من أجل أمثالي من الفقراء العاطلين بلا عمل؟! إنك تحاول عدم التفرقة بين الشباب لدخول الجيش، بصرف النظر عن ميولهم الجنسية، فماذا ستفعل يا بيل لتلغي التفرقة بين الناس على أساس طبقاتهم الاجتماعية؟!»

يضحك بيل كلينتون، يحاول بالضحك إخفاء الحرج، ربما لأنه يبدو مُرحِّبًا بالسؤال، ويُسهب في الإجابة: «أنا مشغول طول الوقت بالخطة الاقتصادية لأعالج هذه المشاكل الاقتصادية الحادة التي نتجت عن سياسة الحزب الجمهوري السابق، وعلى رأسها البطالة، ومشكلات الصحة والتعليم والمخدرات والإيدز.»

يغضب أحد أعضاء الحزب الجمهوري ويقول: ليس حزبنا هو سبب هذه المشاكل، ونحن في انتظار ما ستفعله يا بيل كلينتون؛ فالمهم هو العمل وليس الكلام.

انتعشت «لورا» بهذا الحوار، إنها شابة بيضاء تنتمي إلى حزب الجمهوريين، تعادي حزب الديموقراطيين وعلى رأسهم بيل كلينتون وتقول: تكلَّف حفل تتويج بيل كلينتون ليجلس على عرشه في البيت الأبيض ٢٥ مليون دولار، كان من الممكن إنفاقها لتوفير المساكن أو الوظائف أو الطعام للفقراء داخل الولايات المتحدة نفسها، ولا أقول الصومال أو أثيوبيا أو غيرهما من بلاد أفريقيا أو آسيا أو حتى يوغوسلافيا في أوروبا، أو البرازيل في قارتنا الأمريكية في الجنوب، نحن نعيش تحت ضغط اقتصادي كبير، وأصبح الناس في أمريكا يعملون ساعات أكثر نظير أجور أقل فأقل.

قلت لها: وهل كانت سياسة جورج بوش أفضل؟

قالت: بالطبع.

قلت: وماذا عن حرب الخليج؟

قالت: كسبنا الحرب ولم نخسر شيئًا.

قلت: قتلتم نصف مليون عربي في الخليج من أجل السيطرة على البترول، أتسمِّين هذا مكسبًا؟!

قالت: نعم، كسب لنا في أمريكا، وخسارة لكم في بلادكم العربية، لكن هذه هي الحرب.

إن «لورا» واحدة من أستاذات علم الجيولوجيا، هي ضد حركات تحرير المرأة، وترى أن المرأة (حسب الإنجيل ومبادئ المسيحية) يجب أن تكون زوجة مطيعة لزوجها متفرغة لشئون البيت والأطفال.

قلت لها: ولماذا تعملين أستاذة جيولوجيا؟

قالت: لأنني غير متزوجة وليس عندي أطفال.

تذكِّرني «لورا» بزميلة لي مصرية تعمل أستاذة في الطب الباطني بجامعة القاهرة، تذكِّرني بعدد غير قليل من النساء المتعلمات في الجامعات، واللائي لم يلعب التعليم دورًا كي يفتح عقولهن على الثقافة أو الوعي بحقوقهن الإنسانية.

وفي فصل المرأة والإبداع قالت فينسيا الشابة التي تجاوزت العشرين بقليل: الطاعة نقيض الإبداع لأنها تقتل القدرة العقلية على النقد، إذا تربت النساء على الطاعة فقدن الإبداع؛ ولهذا يقل عدد النساء المبدعات أو العبقريات عن عدد الرجال العباقرة.

وصاح طالب جالس في مؤخرة الفصل: لو كنتُ امرأة لفضَّلت أن أكون زوجةً وأُمًّا عن أكون عبقرية، العبقرية تسلب من المرأة أنوثتها وتحوِّلها إلى رجل!

وردت فينسيا: ولماذا تتكلم عن المرأة؟ تكلم عن نفسك ودعنا نحن النساء نتكلم عن أنفسنا.

لماذا لا يكون في بلادنا وزيرة للعدل؟[1]

اليوم ١١ مارس ١٩٩٣م، وغدًا تبدأ إجازة الربيع في جامعة ديوك. شهر «مارس» له في «ديرهام» شمس عبقرية، هذه الشمس التي تصل أشعتها إلى الرأس والجسم؛ فتحدث الإنارة أو النور أو الضوء أو المعرفة. «مارس» بداية الربيع، وتفتح الزهور للشمس والحب والخصوبة في التاريخ القديم. قَبْل الإله «مارس» كانت الإلهة الأنثى «عشتار» تجلس على عرش الشمس والخصوبة، ومن قبلها كانت الإلهة «نون» ترمز إلى الأرض والسماء والكون كله قبل انقسام الكون إلى أرض وسماء، أو جسد وروح. في مصر القديمة كانت الإلهة الأنثى «نوت» هي إلهة السماء، وزوجها «جيب» كان إله الأرض، كانت المرأة ترمز إلى الروح أو العقل، والرجل يرمز إلى الجسد، ثُمَّ انقلب الوضع، تغير النظام في مصر القديمة بعد الحرب بين الأسياد (الفراعنة) والعبيد (الشعب المصري من النساء والرجال)، وانتصر الأسياد بقوة السلاح، واعتلى «فرعون» الإله الذكر العرش، وأصبح الإله «رع» يرمز إلى الشمس، وهبطت المرأة لترمز إلى الجسد؛ وَمِنْ ثَمَّ أصبح الجسد يرمز إلى الخطيئة والغرائز الدنيا والشيطان.

هذه معلومات قديمة عرفتها منذ كنت في المدرسة الابتدائية، لكن الأستاذة الدكتورة «ماري ميز» تصيح فيما يشبه الفرح أو النشوة: أوه ماي جوض! وتدوِّن في مذكراتها اسم نون، ونوت، وأُضيف إليهما «إيزيس» إلهة المعرفة، و«معات» إلهة العدل ورئيسة القضاء في مصر القديمة.

---

[1] نُشر بمجلة روز اليوسف، ٢٢ / ٤ / ١٩٩٣م.

منذ أعلن «بيل كلينتون» عن تعيين امرأة وزيرة للعدل «جانيت رينو»، وأنا أشهد تغيُّرًا ملحوظًا، في النساء والفتيات هنا في جامعة ديوك، ارتفاع الرأس أو القامة، أو ربما هو العنق أصبح أكثر طولًا. زميلتي الأستاذة الدكتورة «ميريام كوك» لها ابتسامة تُذكِّرني بدفء الابتسامات في الوطن، ملامحها أيضًا تشبه ملامح النساء في لبنان، لماذا لبنان؟ لأنها تتكلم اللغة العربية بلكنة لبنانية، حين قابلتها لأول مرة في جامعة ديوك سألتها: لماذا تعلمتِ العربية وأنت امرأة أمريكية؟!

إنها قصة طويلة تبدأ في الطفولة ربما أو الشباب، أشبه ما تكون بعلاقة الحب، «أنا حبيت العربية، وعشت في لبنان.» يا سلام أنا حبيب بحر بيروت، أنا عشقت البحر والسماء، والناس في بيروت!

الدكتورة «ميريام كوك» تجاوزت الأربعين بعامين أو ثلاثة، لكنها تبدو كالفتاة العذراء، تجذب الطفلة داخلي، لا زلت أحتفظ بطفولتي (رغم كل شيء)، وأضحك من كل قلبي، وأقول لها: لا بد أنك وقعتِ في الحب وأنت في لبنان! وتضحك ميريام حتى يصعد الدم إلى وجهها وتقول: ربما، لكن أكثر من أحببت من الكُتَّاب العرب هو يحيى حقي.

أجل، كنت أعرف ذلك، وقرأت كتابها عن أدب يحيى حقي. تذكرت يحيى حقي، كان يجمع (شأن الأدباء الفنانين) بين القوة والرقة، أو بين الذكورة والأنوثة (أو ما درجنا على أن نعتبره ذكورة وأنوثة). تذكرت أن يحيى حقي قد كتب مقدمة لأول مجموعة قصص نُشرت لي عام ١٩٥٧م، تذكرت أيضًا أنه أول من كتب عني في الصحف المصرية، أذكر أنه كتب مقالًا طويلًا في إحدى الصحف (لا أذكر، الأخبار أو الجمهورية) عن روايتي الأولى «مذكرات طبيبة» عام ١٩٥٩م أو ١٩٦٠م، لا أذكر تمامًا.

وقالت ميريام كوك: أنا أعتبر يحيى حقي من أعظم الأدباء الذين قرأت لهم، ليس بين العرب فقط، ولكن بين أدباء العالم.

إن الدكتورة ميريام كوك أستاذة متخصصة في الأدب العربي، وهي تدرِّس الأدب العربي في جامعة ديوك، وتقدم لقراء اللغة الإنجليزية الأدباء والأديبات من عالمنا العربي، ومن مختلف الأجيال، ابتداءً من يحيى حقي إلى حنان الشيخ وفادية فقير وغيرهم. تذكرتُ «فادية فقير»، شابة أردنية فرضوا عليها العزلة والحجاب في عَمَّان، لكنها استطاعت أن تثور وتكتب. قابلتها عدة مرات في الأردن وفي أكسفورد، إنها تدرس الأدب العربي في أكسفورد، وصدرت لها رواية بعنوان «نيسانيت»، تقول عنها ميريام كوك إنها من أجمل الروايات التي قرأتها بالعربية، رواية تصف حياة شاب فلسطيني اسمه «شهيد» يتعرض للتعذيب داخل أحد السجون الإسرائيلية.

قرأت رواية «فادية فقير» وبكيت وأنا أقرؤها، رغم عدم براعتها إلا أنها تمس الأحاسيس، وهذا هو الفن.

الفن ليس البراعة وليس العبقرية في الأداء، ولكن الفن هو اللابراعة إلى حد الوصول إلى شغاف القلب. تذكرت بعض كلمات يحيى حقي حين التقيت به لأول مرة عام ١٩٥٦م، قصة قصيرة نُشرت لي لأول مرة في مجلة روز اليوسف، كان قد دعاني يحيى حقي إلى فنجان قهوة، وقال لي: قرأت قصتك وتأثَّرت بها كثيرًا لأنها مكتوبة بذلك السهل الممتع دون براعة!

لم أكن في مصر حين مات يحيى حقي، ولم أحزن حين مات؛ لأنه في رأيي لم يمت؛ فالموت لا يعرف طريقه إلى الفنان الحقيقي، لكن حزنت لأني لم أكن في الوطن لأمشي مع الشعب المصري في جنازته، وأنا لا أمشي في الجنازات إلا نادرًا، حين أدرك أن المحمول فوق الأعناق لم يمت. هكذا مشيت في جنازة أبي، وأمي، وجدتي أم أبي «مبروكة»، التي رأيتها وأنا طفلة تشوح بيديها المشققتين في وجه عمدة «كفر طحلة» وتقول له غاضبة: إحنا مش عبيد! والتي سمعتها تغني ضد الملك والإنجليز وتقول: «يا عزيز يا عزيز، كبة تاخد الإنجليز.»

وضحكت «ميريام كوك» حين تذكرت جدَّتي الفلاحة الفقيرة وقالت لي: «وجدَّتك لا تزال تعيش داخلك.» قلت لها: «مهما ابتعدت فالأهل والوطن داخل القلب.» ودب صمت طويل أشبه بالحزن، لماذا يرتبط الوطن دائمًا بالحزن؟

فوق الشاشة الأمريكية رأيت صورة المقهى في ميدان التحرير في القاهرة، ورأيت حُطام القنبلة التي انفجرت، والدم الذي فوق الأرض، وتساءلت: «من يفجر القنابل في الوطن؟!» تذكرت وأنا تلميذة بالمدرسة الثانوية (عام ١٩٤٩م) حين انفجرت قنبلة في سينما مترو، ولم يعرف أحد من وضع القنبلة، بعض الصحف قالت: «الإنجليز»، وبعضهم قال: «السراي» أو «الحكومة» أو «المباحث»، والبعض قال: «الإخوان المسلمون» ... إلخ.

واليوم أيضًا لم يعرف أحد من وضع القنبلة، بعض الصحف قالت: إسرائيل، وبعض آخر قالت: الحكومة أو المباحث، وغيرها قال: «الأصوليون الإسلاميون» ... إلخ.

في اليوم نفسه رأيت على الشاشة الأمريكية مشهد حطام القنبلة التي انفجرت في نيويورك، في المبنى الضخم المُسَمَّى «برج التجارة العالمي» وحتى الآن ورغم انقضاء الأيام والأسابيع لم يُكشَف بعدُ مَن وضع القنبلة، لكن أصابع الاتهام تتجه إلى بعض الأشخاص، أسماؤهم ترنُّ في أذني بصوت المذيع الأمريكي، أسماء عربية أو باكستانية، أو أسماء مسلمة بوجه عام.

وتقول إحدى زميلاتي الأستاذة في جامعة ديوك: «هذه هجمة جديدة ضد العرب، هو «البعبع الجديد».» اسمها كاترين، وهي متزوجة من فلسطيني، وهي ترى أن التيارات الأصولية الدينية مثل «حماس» في إسرائيل لم تنشأ إلا بتشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية، وتقول: نعم، كلهم أعضاء في حماس، لكني ضد طردهم بهذا الشكل!

وتنبري لها امرأة أمريكية ترتدي الحجاب (متزوجة من رجل سوداني)، وتقول لها: لماذا لا ترتدين الحجاب وأنت متزوجة من رجل مسلم، ألستِ مسلمة؟! تبتسم كاترين في هدوء وتقول لها: أنا فهمتُ الإسلام على أنه كفاح ضد الظلم وضد الاحتلال الأجنبي، وليس قطعة قماش أغطي بها شعري!

كنت أستمع إلى حوار بين امرأتين أمريكتين وكأنني أستمع إلى حوار بين امرأتين عربيتين، واحدة تفهم الدين وجوهره، وأخرى لا تهتم إلا بالقشور، كلتاهما حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة نورث كارولينا، لكن «التعليم الأكاديمي» لا يقود إلى المعرفة أو «الإنارة»، هكذا تقول كاترين.

أعجبتني كلمة «الإنارة»، إحدى طالباتي في فصل «المرأة والإبداع» اسمها «إنارة»، هو اسم أمريكي أم عربي؟ أهي كلمة مشتقة من النور؟ لكن إنارا أكَّدَت لي أنها أمريكية مِائة في المِائة، واسم «إنارا» أمريكي مِائة في المِائة.

لكن ليس هناك شيء اسمه مِائة في المِائة خاصةً في اللغات، وفي كل لغة هناك كلمات مأخوذة من لغة أخرى. في الهند، حين سمعت لأول مرة اللغة الأُردية أدركت أذناي الكلمات والحروف العربية، ثُمَّ عرفت أن ١٢٪ من الحروف في اللغة الأُردية عربية. وفي إيران أيضًا تعرفت أذناي على الحروف العربية، وفي اليونان، وفي إسبانيا، وفي تركيا، بل في اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية هناك حروف وكلمات مأخوذة عن العربية، وعن اللغة العبرية أيضًا. تُعتَبَر اللغة العبرية من أقدم اللغات؛ لأنها لغة التوراة، وتُعتَبَر اللغة العربية أيضًا من أقدم اللغات لأنها لغة القرآن، أمَّا اللغة الهيروغليفية (لغة المصريين القدماء) فهي أقدم اللغات جميعًا، لكن أستاذة اللغويات في جامعة ديوك تقول: إن اللغة السومرية في العراق وسوريا وفلسطين سبقت اللغة الهيروغليفية في التاريخ، والتي اكتشفت هذه اللغة امرأة اسمها «نيدابا».

أجل، كنت أعرف «نيدابا» من قبل، وكتبت عنها في أحد كتبي، كنت أفخر دائمًا بأن امرأة في التاريخ البشري هي التي اكتشفت اللغة، وهي امرأة مصرية أو عراقية أو سورية

أو فلسطينية، سِيَّان، فهي امرأة عربية، تلك التي يصوِّرونها اليوم على أنها امرأة بلا وجه، مجرد كتلة سوداء تتحرك فوق قدمين اثنين وليس أربعة أرجل.

أرى وزيرة العدل الأمريكية «جانيت رينو» لا تختلف في شخصيتها القوية وعقلها اليقظ عن أي امرأة مصرية، لماذا لا يكون في بلادنا وزيرة للعدل؟ ولا يوجد في بلادنا قاضية واحدة؟!

لقد اختار «بيل كلينتون» خمس وزيرات في الوزارة الجديدة، زوجته هيلاري ترأس لجنة الصحة، إنه يتحدث عن أهمية دور المرأة الأمريكية في بناء المجتمع الجديد، إنه (على خلاف ريجان وبوش)، لا يشجع التيارات المسيحية الأصولية، إنه يساند حقوق المرأة، وعلى رأسها حق الإجهاض، إنه يحاول علاج الأزمة الاقتصادية، وخلق نصف مليون فرصة عمل جديدة للعاطلين، إنه يحاول أن يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء؟! فهل هو مخلِص فيما يقول؟! ربما لا، سيكشف المستقبل عن الحقيقة.

خمسمائة رسالة إلى النخبة الثقافية![1]

أصبحت الكتابة في الصحف بالنسبة لي مثل شربة زيت الخروع، لكني مدفوعة لكتابة هذا المقال بسبب ما هو أشد مرارة، وهي أزمة النخبة الثقافية في بلادنا. وفي رأيي إن هذه النخبة (أو ما تُسَمَّى النخبة) هي أحد الأسباب الرئيسية وراء أزمة الفكر أو الصحافة أو الإعلام أو الثقافة، أو الاقتصاد أو السياسة أو الديمقراطية؛ لأن هذه المجالات كلها مترابطة، ولا يمكن الفصل بينها، ومنذ نشوء الدولة المصرية القديمة مرورًا بالعهود الملكية إلى عهد عبد الناصر والسادات ومبارك، تلعب هذه النخبة المثقفة دورًا مزدوجًا بحكم كونها الطبقة العازلة بين الحكم والشعب. ولا يمكن أن ننكر أن هناك أفرادًا من هذه النخبة المثقفة لا يلعبون هذا الدور المزدوج، لكن هؤلاء يعيشون في معظم الأحوال بعيدًا عن منابر الإعلام والصحافة؛ وبالتالي لا ينطبق عليهم تعبير «النخبة»؛ إن كلمة «النخبة» هنا تعني هؤلاء المعترَف بهم من قِبَل السلطة القائمة كرُموز للفكر والثقافة في بلادنا، تتردد أسماؤهم.

هؤلاء في رأيي هم السبب الرئيسي وراء الأزمة الثقافية والصحفية التي نعيشها وليس السبب ارتفاع نسبة الأمية، أو الناس البسطاء العاديين. إن هذه النخبة هي السبب وراء ظهور قوانين معادية للفكر وحرية الصحافة مثل قانون ١٤٨ لعام ١٩٨٠م الذي ينظم الصحافة في مصر، أو غيرها من القوانين المقيدة للحريات. هذه النخبة شاركت في صنع هذه القوانين بسكوتها، وصمتها، أو هروبها من التصدي أو النقد الصحيح، وليس

---

[1] نُشر بجريدة الأهالي، في ١٤ مارس ١٩٩٠م.

بعد موت الحاكم أو فوات الأوان. هذه النخبة هم الكهنة القدامى في عهد الفراعنة الذين كانوا يمثِّلون الطبقة العازلة أو الوسيطة بين الشعب والإله. هؤلاء أنصاف الآلهة الذين رأيتهم بعيني خلال الثلاثين عامًا الماضية، هم هم، لا تتغير الوجوه إلا قليلًا حين يُفتَح الباب قليلًا لبعض الوجوه المحتجبة. رأيتهم جالسين في هذه الاجتماعات، فما إن ينطق حاكم مصر بكلمة ما حتى تتحول إلى نظرية عظيمة، وفلسفة جديدة، اسمها الناصرية أو الساداتية أو المباركية.

ينكفئون فوق وجوههم حتى يحظى الواحد منهم على المصافحة أو مجرد ملامسة أطراف الأصابع، رأيتُهم يتبارَوْن في الكلام وإلقاء قصائد المدح، أو قصائد النقد، لكن أي نقد؟ إنه النقد الذي يدغدغ الأذن دون أن يؤلم، أو النقد الذي يُصيب أحدًا من الوزراء الذين لا حول لهم ولا قوة.

إن الملك يشعر بالحرج حين يرى أمامه ملَكيين أكثر منه، كذلك يشعر بالحرج أي رئيس حين يرى أن كل ما يقوله، وإن كان نقل موظف، يصبح معجزة من المعجزات تستحق الإشادة والإطناب والنفخ في الأبواق والمزامير. ويحدث الشيء نفسه فيما يتعلق بحرم رئيس الدولة. هذه النخبة من أنصاف الآلهة لا يَعتبرون هذا السلوك نفاقًا، ولهم تبريراتهم الفلسفية العميقة لموضوع النفاق هذا، يقولون: لا بد من حماية الحكم القائم، أو رئيس الدولة الحالي؛ لأن البديل غير موجود أو أسوأ، في كل عهد يكررون هذه الفلسفة، وهم يدركون تمامًا أن النفاق لا يحمي الحاكم أبدًا، بل العكس هو الصحيح.

وهناك أربعة أضرار رئيسية لهذه النخبة الثقافية:

أولًا: إنهم يضربون مثلًا سيِّئًا للأجيال الجديدة القادمة، سواء من الحكام أو المحكومين، يُصبح النفاق كالدم يتوارثه الصغار عن الكبار.

ثانيًا: إنهم يُروِّجون القيم الازدواجية في السلوك، التي تتمثل في الخضوع أو الطاعة أو امتهان النفس مع الأقوى، والغطرسة أو التسلط أو الإهمال مع الأقل قوة، وهكذا تضيع حقوق الناس.

ثالثًا: إنهم باحتلالهم معظم المنابر الفكرية والصحفية والثقافية والإعلامية في بلادنا يحجبون الآخرين ذوي العقول الأعمق والأكثر فكرًا وإبداعًا، حيث إن مثل هؤلاء يُفضِّلون حياة العزلة مع العمل الهادئ.

رابعًا: هذه النخبة من أنصاف الآلهة لا يتحملون النقد، وإذا نقدهم أحد أخرجوا أظافرهم وأنيابهم وملئوا الصحف والإعلام صراخًا ودفاعًا عن أنفسهم. وفي ظل هذه الضوضاء يختلط الحابل بالنابل، ولا يبقى إلا صوتهم العالي يطنُّ في آذان الناس.

ماذا يفعل الآخرون بعقولهم التي تفكر وتبدع، ومع ذلك عاجزين عن السير في موكب النفاق؟ ليس أمامهم إلا إصدار منابرهم الخاصة، وهنا يقف لهم قانون الصحافة يسد الطريق، قانون أصدره السادات منذ عشرة أعوام مع قوانين أخرى تقيِّد الحريات. في ظل قانون الصحافة مُنِعَت مجلات وحُرِمَت من الترخيص، ومنها مجلتنا «نون»، وأرسلنا خمسمائة رسالة إلى هذه النخبة المثقفة في مصر ليتكلموا، وكان ردهم كالعادة هو الصمت والسكوت. بعضهم قال لنا: اذهبوا إلى قبرص وخذوا الترخيص من هناك ثُمَّ تعالوا واطبعوها في مصر كما تفعل بعض المجلات، تعتبر مكتبها في القاهرة ممثِّلًا لشركة أجنبية. وقال آخرون: اذهبوا إلى أحد الأحزاب، وادفعوا مبلغًا من المال أو أعطوهم نسبة من إيرادات الإعلانات على أن تنشروا أخبار الحزب في مجلتكم.

وبالطبع لم نقبل كل هذه الحلول؛ لأنها ليست حلولًا وإنما نوعًا من التحايل والالتواء والمشاركة في الإبقاء على قانون الصحافة الذي كان يمكن أن يتغير بالمواجهة بدلًا من التحايل والدخول من نافذة وليس الباب الصحيح.

في هذا الخضم من النفاق هناك أقلام نادرة شجاعة وقفت وكتبت وهاجمت قانون الصحافة من جذوره، لكن كل ذلك يتم على نطاق ضيق، وفي مجالات محدودة؛ ذلك أن المجلات الواسعة والطرق المفتوحة على الجماهير العريضة كلهم محتكَرة بواسطة هذه النخبة.

التمرد وثقافة الصابون[1]

(١) القيم الإيجابية منذ الطفولة

في طفولتي، وأنا في السادسة من عمري، رأيت أبي يمزق ورقة كتبها أحد جيراننا، يتعهد برد مبلغ من المال (أظنه كان عشرة جنيهات)، أخذه من أبي على سبيل السلفة.

وسمعت أبي يقول لهذا الجار الفقير العجوز: عيب يا عمي، كلمتك عندي أكبر من أي كمبيالة، وأنت جارنا، وقد أوصانا النبي بسابع جار، ورد الجار قائلًا لأبي: ولكني رجل فقير عجوز، وقد لا أستطيع أن أرد لك المبلغ أول الشهر؛ ولهذا كتبت لك الكمبيالة لأفرض على نفسي السداد في الوقت المحدد. وقال له أبي وهو يربت على كتفه: لا تقلق يا عمي، إني واثق من أنك سوف ترد المبلغ حين تستطيع، وإن لم تستطع فما بين الخيِّرين حساب، وأنت عندي أهم من أي مال!

وفي طفولتي كنت أسمع أمي تقول لي: اسمعي يا ابنتي، الغِنى غِنى النفس؛ فكوني غنية بنفسك وليس بجيبك. وكانت جدتي الفلاحة الفقيرة شامخة عزيزة النفس رغم قلة المال.

انحفرت هذه القيم في أعماق الوعي واللاوعي منذ طفولتي، وأصبحت أومن أن قيمة الإنسان تعلو على العقود والأوراق والكمبيالات.

[1] القاهرة، في ٢١ سبتمبر ١٩٩٠م.

ولم يكن في طفولتي «تليفزيون» ينقل إليَّ ثقافة الصابون الشائعة اليوم التي تقلب هذه القيم رأسًا على عَقِب، وتضع الدولار أو الدينار فوق الإنسان، وقطعة من الورق المختومة فوق الصداقة والحب.

حين دخل التليفزيون إلى مصر عام ١٩٦٠م كنت قد أصبحت شابة ناضجة مُحصَّنة ضد ثقافة الصابون الواردة إلينا من الخارج. وعلى مدى ثلاثين عامًا — ورغم الإعلانات المتكررة في التليفزيون عن البضائع المستوردة من الغرب، وغسول الشعر الأمريكي — لم أستخدم إلا الصابون المصري الذي أحببته منذ طفولتي، والذي أشم في رائحته نكهة أمي حين كانت تضحك، وصوت أبي حين كان يناديني، ورائحة النيل حين كُنَّا نتمشى على شاطئه في قريتي كفر طحلة. وأنا لست ممن يقدسون ما يُسَمَّى بالثقافة التقليدية، ولست ممن يتغاضَوْن عن السلبيات في القيم التي توارثناها من الماضي، بل إنني استطعت أن أنقد تراثنا دون خوف، وأن أُسقِط منه في حياتي ما هو متخلف أو عنصري أو غير إنساني، أو تلك القيم التي جاءتنا منذ نشوء العبودية والغزو الاستعماري وسيطرة الملكية والطبقة المالكة على الأغلبية الساحقة من الشعب، وسيطرة الذكور على النساء.

لكن في تراثنا أيضًا إيجابيات توارثناها منذ عصور ما قبل العبودية وما قبل الاستعمار، حين كانت المرأة في بلادنا إنسانة كاملة الأهلية، وحين ارتفعت قيمة الإنسان على قيمة المال والأشياء، وكانت علاقات الصداقة والحب والتعاون تعلو على علاقات الحروب والقتل والجشع والطمع من أجل الاستعمار وتراكم رءوس الأموال.

لكن ثقافة الصابون خلال النصف الأخير من هذا القرن وعبر هذا الجهاز الإعلامي الثقافي الخطير استطاعت أن تُشوِّه الثقافات والقيم الإيجابية، وتُبرِز على السطح الموروثات السلبية، وتُضيف إليها القيم الجديدة غير الإنسانية القائمة على عبادة المال والسلاح وتشجيع الاستهلاك لدى الطبقات الأدنى المسحوقة …

(٢) استهلاك العقل

جهاز خطير في العالم أصبح يهدد عقل الإنسان وقدراته الإبداعية الخلاقة، جهاز يستهلك عقول البشر ويصيبها بالشلل والتوقف عن النمو، جهاز يُطلَق عليه اسم «التليفزيون»، جذاب شديد الجاذبية للأغلبية الساحقة من النساء والرجال والشباب والأطفال، خاصةً هؤلاء الذين لا يقرءون لأنهم لا يعرفون القراءة أو لا يقدرون على شراء الكتب أو لا يجدون

الوقت أو الجهد للقراءة. مُجهَدون طول النهار في العمل المضني من أجل لقمة العيش وتوفير ضرورات الحياة، وليس أمامهم وسيلة للترفيه أو التسلية آخر النهار أو الليل إلا هذا الجهاز الذي ينقل إليهم — وهم راقدون في غرف النوم — مسلسلات وأفلام وحلقات تمثيلية من وراء البحار والمحيطات من الولايات المتحدة الأمريكية، أو تلك البلاد البعيدة التي تُسَمَّى بالعالم الجديد، والتي سيطرت على العالم بالدولار وتكنولوجيا السلاح والإعلام.

استطعت من خلال رحلاتي المتعددة إلى بلاد كثيرة في الغرب والشرق أو الشمال والجنوب أن أدرك خطورة جهاز التليفزيون وغيره من أجهزة الإعلام على عقول الناس.

سيطرة الثقافة الأمريكية السطحية السريعة من خلال الشاشة الصغيرة والأجهزة الإلكترونية الأخرى على الثقافات المحلية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا.

ويزداد هذا الأثر في البلاد العربية، وخاصةً البلاد التي ترتبط سياسيًّا واقتصاديًّا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أصبح معروفًا أن السيطرة السياسية من أجل الاستغلال الاقتصادي لا تكون بغير سيطرة على العقول من خلال الإعلام؛ لقد حلَّ الإعلام محل السلاح.

لكن أزمة الخليج العربي قد بدأت أوائل أغسطس ١٩٩٠م، وتبعها نقل القوات الأمريكية المسلحة إلى الخليج العربي. والقوات متعددة الجنسيات (فرنسية وبريطانية وغيرها) أثبتت أن الاستعمار الغربي الاقتصادي لثروات العالم الثالث (ومنها البترول العربي) لا يزال يحتاج إلى السلاح العسكري ولا يكفيه سلاح الإعلام، وإن كان سلاح الإعلام يخدم على الدوام مصالح الغرب مُدعِّمًا النظام الاقتصادي العالمي بنظام لا يملك إلا القليل من تكنولوجيا الإعلام أو السلاح العسكري.

يلعب الإعلام والثقافة العالمية السطحية المسماة Soap Culture دورًا حاسمًا في تجهيل الشعوب بحقوقها أو غسيل مخها بالصابون؛ ليصبح مُخًّا أملس يستهلك ما يُعطى له، غير قادر على إنتاج الفكر، يُردِّد ما يُقدَّم له مثل الببغاء، يستسلم بلا مقاومة لهذه المعلومات والثقافة التي تُسقى له بالملعقة، ثقافة مُرَّة كالعلقم، معادية للإنسان في جوهرها، لكنها تزين نفسها بالقشور البراقة والألوان الزاهية، وبعض المشهيات الجنسية التي تحوَّل فيها جسد المرأة إلى أداة للإعلان والإغراء الجنسي.

(٣) الجنس

يلعب «الجنس» الرخيص غير الإنساني القائم على التجارة والربح دورًا كبيرًا في ثقافة الصابون، يدرك خبراء هذه الثقافة في الغرب أن الملايين من الشباب في ذلك العالم المُسَمَّى بالعالم الثالث أو فقراء العالم محرومون من ضرورات الحياة المادية والمعنوية، ومنها «الجنس» والحرية أو الديمقراطية. يُقدِّمون لهم هذا «الجنس» على شكل أحلام مستحيلة، أو مخدرات تجعل العقل يعيش في الوهم وليس الحقيقة، أو حرية فردية زائفة تشجع فيهم الأثرة والأنانية على العلاقات الإنسانية أو التعاون فيما بينهم أو الحب الصحيح القائم على التبادل المتساوي أخذًا وعطاءً.

(٤) الجريمة والعنف

وتلعب «الجريمة» دورًا كبيرًا في ثقافة الصابون، يُدرك خبراء هذه الثقافة في الغرب أن «العنف» أو «الاغتصاب» أو «القتل» الذي يراه الشباب فوق الشاشة ينفِّس الغضب الكامن في أعماقهم بسبب الظلم الواقع عليهم، ويُعطيهم إحساسًا مُزيَّفًا بالمشاركة في هذا العنف عن طريق الانفعال.

يصبح العقل مثل العين العمياء، لا يرى التناقض الواضح وضوح الشمس، وهذه هي عملية التجهيل العالمية التي تبثُّها وسائل الإعلام وثقافة الصابون الدولية، ثقافة مزدوجة تناقضية تخدم النظام الطبقي الأبوي المزدوج المتناقض، يُعرِّي جسد المرأة باسم القيم التِّجارية وترويج البضائع، ويُغطِّي رأسها باسم القيم الأخلاقية والدينية.

يلهب خيال الشباب بمشاهد الجنس والجريمة والاغتصاب فيصرفه عن التفكير في مشاكل البطالة والفقر، ويشجعه على الحياة الوهمية في ضباب المخدرات، يشتت ذهنه بثقافة استهلاكية رخيصة، يعطيه إحساسًا وهميًّا بأن الحياة تخلو من المشاكل، يُضيِّع وقته بالساعات مُبحلِقًا في الشاشة المضيئة.

تلعب ثقافة الصابون دورًا في طمس الإيجابيات والحكم الموروثة من التراث الشعبي، وتفرض على الناس قِيَمًا مصطنعة مشوهة لبيئتهم وحضارتهم الأصلية.

كان الرقص في قريتي كفر طحلة على إيقاع الطبلة والرق، وغناء النساء بتلك الألحان الشعبية نوعًا من الجمال والفن العريق الممتد في التاريخ المصري القديم، لكن ثقافة الصابون الأمريكية عبر التليفزيون شوَّهت هذا الفن الفلكلوري الشعبي الجميل ومسَخَتْه،

فلم نعُد نرى رقصًا وغناءً شعبيًّا حقيقيًّا، وإنما مزيجًا مختلطًا غير أصيل وغير أخَّاذ، رقصًا ركيكًا وغناءً أشد ركاكة، مثل فلاح مصري ينسى لغته العربية الأصيلة ويتكلم بلغة إنجليزية ركيكة.

كانت العروس في القُرى في بلادنا ترتدي جلبابًا من القطن المصري الناعم المُزيَّن بالألوان البديعة الزاهية، وتركب جوادًا، فإذا بها اليوم تركب عربة نقل وترتدي ثوبًا من النايلون المستورد الذي يجعلها تتصبب عرقًا، وترتدي حذاءً له كعب رفيع يدخل في حفرات الشوارع والحواري ويجعل خطواتها بطيئة متعرجة.

امتلأت القرى المصرية بضجيج الميكروفونات المركبة فوق الجوامع وأجهزة التليفزيون التي تُذيع الأغاني التافهة والألحان السطحية والأفلام والمسلسلات الأمريكية من نوع دالاس وفلكون كريست، ونشرات الأخبار التي تنقلها وكالات الأنباء العالمية وتشوِّه الحقائق الدينية السياسية وتبترها بما يدعم مصالح الغرب الاقتصادية، وتفصل بين الفقر وأسبابه الكامنة في سوء توزيع الثروة محليًّا وعالميًّا.

كنت ألجأ إلى قريتي الهادئة لأكتب وأفكر بعيدًا عن ثقافة الصابون التي تنتشر في العاصمة، فإذا بالقرية أيضًا تصبح ضحية هذه الثقافة الصاخبة بعد دخول أجهزة التليفزيون والفيديو إلى القرى.

(٥) طمس الإيجابيات

تتجسد خطورة ثقافة الصابون في أنها تحاول طمس الإيجابيات العريقة في الثقافات المحلية الأصلية، في الوقت التي تشجع فيها التقاليد البالية التي تؤخر الشعوب. إنها تقضي على الأصالة المناسبة لكل شعب، في الوقت الذي تحافظ فيه على التقاليد المزدوجة، والقيم المتناقضة النابعة من العبودية القديمة، وخضوع المرأة لرجل، وارتفاع قيمة المال على قيمة الإنسان، وتبرير الاعتداء والحروب، وإخفاء الظلم الكامن في النظام المحلي والعالمي.

إنها ثقافة مزدوجة وسطحية في آنٍ واحد، تُسَمِّي نفسها ثقافة مع أنها محاولة للتجهيل وإبطال عمل العقل.

تزداد خطورة هذه الثقافة في بلادنا العربية، حيث ترتفع نسبة الأمية بين النساء وحيث لا توجد ديمقراطية تساعد الناس على التفكير، وحيث يكون الرأي العام ضعيفًا غير مؤثر، وحيث تكون المنظمات الشعبية والأحزاب السياسية والمعارضة هزيلة بلا قدرة على الحركة والامتداد وسط الجماهير، حيث يسود حكم الفرد الواحد، والسلطة المستبدة،

وتحول القوانين غير الديمقراطية دون إنشاء الأحزاب أو المنظمات أو إصدار الصحف والمجلات الحرة المستقلة غير التابعة للسلطة القائمة.

تصبح ثقافة الصابون عبر أجهزة الإعلام المركزية هي الوسيلة الوحيدة للثقافة في البلاد، يتحول أغلب الناس إلى مستهلكين لهذه الثقافة لا يشاركون في إنتاجها ... يجلسون أمام جهاز التليفزيون وهم بلا حول ولا قوة. يشعرون أنهم مجرد أجهزة استقبال، ولا حيلة لهم إزاء هذا الأخطبوط العالمي الذي يدخل إلى غرف نومهم ويستولي على عقولهم دون أن يكون لديهم أيُّ وسيلة للمقاومة أو المشاركة.

خلقت ثقافة الصابون جماهير من النساء والرجال سلبية عاجزة عن تذوق الفن الرفيع والأدب العميق؛ ولهذا انعزل المفكرون والأدباء والأديبات ممن ينشدون العمق والجودة، وساد الكُتَّاب والكاتبات الذين ينشدون السرعة والسطحية والكسب السريع.

في بلادنا العربية لعب النفط — أو البترول — دورًا في تشجيع ثقافة الصابون والمسلسلات الأمريكية، ساد الفكر النفطي الاستهلاكي الكسول الأكول على الفكر الإنتاجي النشط الأصيل، سادت مسلسلات الخيانة الزوجية، الاغتصاب، حفلات ملكات الجمال، جرائم سياسية وجنسية، صفقات ومؤامرات ومقالب، وقصص غارقة في خيال مريض سقيم. سيطر برميل البترول المحكوم بالقوة العسكرية للاستعمار العالمي الجديد على الفكر والكلمة المكتوبة والصورة المرئية في السينما والتليفزيون، وتزاوجت الثقافة البدوية الصحراوية النفطية المختلفة مع الثقافة الأمريكية السطحية من رعاة البقر، ونتج عن هذا التزاوج في بلادنا العربية هذه الثقافة السائدة التي يتغذَّى بها الجماهير ليل ونهار، فإذا بهم عاجزون عن التمرد أو الثورة في وجه أعدائهم الذين يسلبون منهم لقمة العيش، ويفرضون عليهم الفقر والبطالة والمرض والجهل، وإذا بهم كالمُخدَّرين، شبه غائبين عن الوعي، عقلهم شبه مشلول، لا يعرفون العدو من الصديق، ولا الخير من الشر ... يتصوَّرون أن أمريكا — التي تقتلهم بسلاحها — هي الصديقة والأم الحنون، وراعية حقوق الإنسان. تتجسد ثقافة الصابون وإعلامها فيما يُذاع علينا منذ نشوب أزمة الخليج.

تلعب ثقافة الصابون في بلادنا دورًا في أن تقلب الحقائق رأسًا على عقب، فلا تعرف الشعوب ماذا تفعل إزاءَ ما يواجهها من أزمات حادة، تستسلم بلا مقاومة تحملق بالساعات في الشاشة المضيئة بأفواه مفتوحة وعيون ناعسة وعقول متوقفة عن العمل، ثُمَّ ينامون برءوس مهدودة تعاني الصداع والإحباط واليأس.

ويصبح العدو داخل الإنسان ذاته، داخل عقل الإنسان ذاته، يصبح الإنسان عدو نفسه، فلا يعرف كيف يتمرد وضد من؟

يتصور أن التمرد ضد الفقر والمرض إنما هو تمرد ضد الله.

وهكذا يصبح «الله» في هذه الثقافة الصابونية هو النظام السياسي العالمي وما ينتجه من إعلام وثقافة.

ولهذا ليس غريبًا أن تنتشر التيارات السياسية الدينية المتطرفة، سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو هندوكية ... إلخ.

وبمثل ما تلعب ثقافة الصابون بورقة السياسة تلعب أيضًا بورقة الدين، ولا تعدم أي وسيلة لغسل مخ البشر من أي فكر منطقي يبحث عن الأسباب الحقيقية لأي أزمة دون أن يُلقي بالمسئولية على الله أو الشيطان.

في هذه الأيام الأخيرة ومنذ احتشاد القوات العسكرية الأمريكية (والمتعددة الجنسية) على أرض السعودية، تقوم ثقافة الصابون والإعلام التابع لها بإيهام الشعوب العربية أن هذه القوات الأجنبية جاءت من أجل حمايتها ومن أجل تأكيد الديمقراطية وحقوق الإنسان. وهكذا تعيش الشعوب العربية الوهم بأن أعداءها هم حُماتها وحين يصبح العدو هو المحامي يتأكد معنى الاستعمار؛ ألم تحتلَّ بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م تحت اسم الحماية البريطانية؟!

التناسب العكسي[1]

إن الوصول إلى قمة الشهرة في الصحافة أو الأدب أو الفكر أو الفن لا يعني دائمًا الكفاءة النادرة والعبقرية الخارقة للعادة، خاصةً في بلادنا العربية، حيث تهيمن السلطة على معظم منابر الصحافة والأدب والفكر والفن. ويتمتع الشعب المصري رغم مشاكله المتعددة بذاكرة لا بأس بها، وهو يعرف الرجال والنساء الذين حملوا القلم في أشد الأزمات وعبَّروا عن رأيهم وفكرهم، غير هيابين وغير خائفين من تشريد أو فصل أو سجن، ويعرف أيضًا الذين تراجعوا أو صمتوا وآثروا السلامة داخل الوطن أو خارجه.

بالطبع لسنا في زمن البطولات الفردية، ولا بد من أحزاب سياسية قوية لها قواعد شعبية قادرة على حماية أصحاب الرأي والقلم، لكن هناك فرقًا بين من يواجه الخطر وبين الذي ينتظر الأمان.

هناك فرق بين من لا يكتب إلا إذا أعطته السلطة الضوء الأخضر وبين من يُكتَب تحت أي ضوء من أجل أن يُعبِّر عن رأيه وبصرف النظر عن النتائج.

ولأن زمن البطولات الفردية لم يعد موجودًا، ولأن الأحزاب السياسية عندنا ضعيفة وبغير قواعد شعبية قوية على حماية أصحاب الرأي؛ لذلك يشفق الشعب المصري على الذين يحملون القلم ويرحلون إلى الداخل أو الخارج في عز الأزمات، يشفق على الذين يتراجعون سواء بالصمت أو بالكلام، ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

---

[1] القاهرة، في ١٩٩٠م.

الإشفاق مطلوب ومرغوب، ولا يمكن لأي إنسان أن يخلوَ من ناحيةٍ من نواحي الضعف، لكن ما هو غير مطلوب وغير مرغوب هو ذلك التباهي والزهو المُبالَغ فيه إلى حد الغرور وتعظيم النفس. إن الشخص العظيم لا يقول عن نفسه إنه عظيم، لكن الناس هي التي تقول عنه. وعلى الذي يتحدث عن نفسه كثيرًا أن يحذَر شيئًا هامًّا، هو أن هناك تناسبًا عكسيًّا بين الثقة بالنفس وكثرة الحديث عنها.

هذا تعليق عام على ما أقرؤه هذه الأيام من مساجلات ومعارك على صفحات الصحف والمجلات. وقد قرأت أخيرًا لأحد كبار الكُتَّاب، كتب عما سمَّاهم «جيله» من الكُتَّاب والأدباء والفنانين، وذكر ثلاثة عشر اسمًا من الرجال، ومن النساء ذكر امرأتين فقط، وكلاهما من أهل الغناء، وقال عن نفسه وعن جيله هؤلاء أنهم «أثْرَوْا حياة مصر ثقافيًّا وسياسيًّا وفنيًّا، وصنعوا إحدى مراحل الإشعاع الباهر في العالم العربي … وشكَّلوا عقل مصر وفؤادها ووجدانها لأجيال طويلة آتية …»

أردت أن أتوقف قليلًا عند هذه الكلمات لأنها تعبر عن إحدى مشاكل الفكر والثقافة في بلادنا، وتكشف عن الطريقة التي يُفكِّر بها معظم رجالنا الذين حققوا شيئًا من النجاح والشهرة. ولست بصدد تقييم الأعمال الفكرية أو السياسية أو الفنية التي قدمها كل أو بعض هؤلاء الأسماء من ذلك الجيل، فلكل منهم ما قدمه من أعمال، ولكل منهم إيجابياته ومواقفه الوطنية المعروفة أو غير المعروفة، وهناك أيضًا السلبيات والمواقف الضعيفة المتراجعة …

إلا أنني لم أكن أتصور أن يكتب كاتب عن نفسه وأصدقائه بهذا الأسلوب المتعالي، بحيث يَعتبر أن الإشعاع الباهر في العالم العربي من صنع أفراد قلائل هو أحدهم.

من المعروف أن الإنسان كلما عظم قَدْره زادت ثقته في نفسه وقَلَّ غروره، بالإضافة إلى أن الإشعاع الباهر في العالم العربي — إن كان هناك إشعاع باهر — يرجع إلى عدد من العوامل وجهود أجيال وليس جيلًا واحدًا أو مجموعة قليلة في جيل واحد.

وهناك أيضًا من يتساءل عن ذلك الإشعاع الباهر في العالم العربي: أين هو؟

وهل هو إشعاع ثقافي فقط؟ وهل هناك إشعاع ثقافي بدون إشعاع ديموقراطي؟ وإذا كان الجميع يتكلمون عن التدهور الثقافي، فهل معنى ذلك أن هذا الجيل العظيم المشع قد توقف عن الإشعاع؟ ولماذا؟ وإذا كان قد توقف عن الإشعاع، فلماذا التباهي بالماضي والهروب من الحاضر؟

ولماذا يفتقر هذا الجيل العظيم المشع إلى النساء المشعَّات إلا امرأتين من عالم الغناء، كأنما المرأة المصرية لم يكن لها نصيب في الإشعاع إلا عن طريق الغناء؛ فالرجل يكتب

ويؤلف ويشع فكريًّا، لكن المرأة تغني وترقص. وهذا يكشف لنا عن نوع التفكير الذي يسود، ويعبِّر عن الأزمة الثقافية والفكرية التي يعاني منها بعض أصحاب القلم في مصر، إنهم لا يتابعون إنتاج المرأة أو الثقافة، ولكنهم يتابعون الأغاني والرقصات، إنهم لم يتعودوا بعدُ على تذوق أو تفهم إنتاج المرأة الفكري، وقد درجوا على ألا يعرفوا من المرأة إلا الغِلاف الخارجي، الصوت المسموع في الغناء أو الحركات المرئية في الرقص أو التمثيل.

لا شك أن الغناء والرقص والتمثيل فنون عظيمة مثل الأدب والصحافة والسياسة، لكني ألاحظ أن بعض رجال الفكر والثقافة في بلادنا لا زالوا واقفين في نظرتهم للمرأة عند مرحلة التذوق الحسي، أي تذوق ما يُسمَع بالأذن من صوتها وما يُرى بالعين من حركات جسمها.

على موسيقى الشعر ... ترقص الخيول[1]

بدأ الأدباء والفنانون والصحفيون في بلادنا يناقشون موضوعات لم تكن محل نقاش، مثل: هل الموسيقى حرام؟ ومنذ خمسين عامًا حين كنت طفلة في الخامسة كان أبي (وهو أستاذ دين وفقه ولغة) يقرأ لي أبيات الشعر ويهز رأسه على أنغام موسيقى الشعر. والناس جميعًا — وعلى رأسهم الشعراء — يعرفون أن الكلمات حين تُرتَّب بشكل متَّسق منسجِم العبارات الصحيحة، لها موسيقى تَطرَب لها آذان الناس. وآذان الخيول أيضًا تُطربها الموسيقى، فتهز رءوسها وتُحرِّك أرجلها بحركات راقصة متسقة مع النغم. وقرأ لي أبي وأنا طفلة من كتاب الأغاني للأصفهاني، وقال لي إن أجود الخيول كانت تُعرَف عند العرب والمسلمين بقدرتها على تذوق الموسيقى والرقص على الأنغام بحركة متْقَنة ليس فيها حركة نشاز.

وإذا كان أسلافنا القدامى قد حكموا على الجواد الجيد بقدرته على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها، فهل نحكم اليوم على الإنسان الذي يتذوق الموسيقى بأنه إنسان فاسد أو خليع؟!

لقد اتضح لأسلافنا أن الجواد الذي يتذوق الموسيقى أكثر تهذيبًا من الجياد الأخرى؛ بمعنى أنه قادر على التحكم في حركة جسمه العشوائية الفوضوية لتصبح حركة محكومة بإيقاع الموسيقى، وهي حركة عقلية تمامًا؛ فإن خلايا المخ هي التي تتحكم في حركة الجسم حين تصلها الموسيقى عن طريق الأذن، ويتحول النغم في خلايا المخ إلى إحساس

[1] نُشر بجريدة الأهرام، في ١٩ / ٥ / ١٩٨٨م، ص١٢.

بالسعادة، وترسِل هذه الخلايا الشفرة عبر الأعصاب وتبدأ عضلات الجسم في التعبير عن السعادة بتلك الحركات المنسجمة مع إيقاع الموسيقى.

منذ وُلدنا من بطون أمهاتنا ونحن نَطْرَب لسماع الموسيقى، بل إن الجنين في بطن أمه يَطْرَب للصوت المنغوم؛ فالأصوات تمشي مع دم الأم إلى جسم الجنين وأذنيه الناشئين، ويُولَد الطفل من بطن أمه عاشقًا للموسيقى، حاملًا في خلاياه الإحساس بالطرب كشفرات إلكترونية داخل الجينات والكروموسومات. وكشفت الأبحاث الأخيرة عن الغموض الذي كان سائدًا حول عبقرية بعض الأطفال أن جزءًا من القدرة الإبداعية أو العبقرية تورث مع الجينات في خلايا الجسم، والجزء الآخر يُكتسَب عن طريق التعليم والتدريب والشجاعة والحرية في الكشف عن الإبداع الجديد.

وقد نجح أسلافنا في تدريب الخيول على تذوق الموسيقى والرقص على أنغامها. وفي التجارِب الحديثة استطاعت بعض أنواع القرود العزف على البيانو والتمييز بين النغمة الموسيقية والنغمة النشاز. ويمكن للإنسان المُدرَّب على سماع الموسيقى أن يُفرِّق بين اللحن الموسيقي وبين اللحن النشاز، بصرف النظر عن الآلة التي يُعزَف عليها اللحن، طبلة كانت أم مزمارًا أو بيانو أو جيتارًا أو كمنجة؛ فاللحن الموسيقي الجميل لا يُفرِّق بين آلة شرقية أو آلة غربية، والأذن الإنسانية الفنانة تعلو فوق الآلة وفوق تضاريس الجبال والحدود الجغرافية التي تُقسِّم البشر إلى شرق وغرب أو شمال وجنوب أو يسار ويمين. فهل نتهم فنَّانًا بالعمل لحساب الغرب إذا تذوق لحنًا يعزفه البيانو أو الجيتار؟ أو نتهمه بالعمل لحساب المعسكر الشرقي لأنه تذوق لحنًا تعزفه آلة شرقية من هناك؟

إننا نعرف اللهَ في جمال الطبيعة، لم يَرَ أحد مِنَّا الله بعينه، ولا سمعه بأذنه، ولكننا عرفنا الله بعيوننا حين رأينا جمال الزرع الأخضر تحت أشعة الشمس، وعرفنا اللهَ بآذاننا حين سمعنا موسيقى المياه في النهر وغناء العصافير في الصبح ...

حول جائزة نوبل[1]

لا يمكن لأحد أن يتجاهل القيمة الأدبية لبعض الأدباء الذين فازوا بجائزة نوبل أمثال نجيب محفوظ وبابلو نيرودا وجابريل جارسا ماركيز، إلا أن مثل هذه الاختيارات الصائبة أحيانًا لا تجعلنا ننسى أن هذه الجائزة تبتعد عن الصواب في معظم الأحيان؛ فهي مؤسسة يتحكم فيها مجموعة قليلة من الرجال لا يزيد عددهم عن مجموع أصابع اليد، وكلهم من بلد أوروبي صغير هو السويد، ولهم بالطبع ميولهم الخاصة التي تؤثر على اختياراتهم؛ ولهذا السبب لم ينل هذه الجائزة أعظم كتَّاب العالم أمثال ليو تولستوي وإميل زولا وأنطوان تشيكوف وجيمس جويس وبيرتولد بريخت ومارسيل بروست وتوماس هاردي وجراهام جرين، وغيرهم من قدموا أكثر الأعمال الأدبية قيمة إنسانية، لكن جائزة نوبل تجاهلتهم لأسباب سياسية مختلفة.

إن هذه القلة من الرجال التي تسيطر على جائزة نوبل داخل الأكاديمية السويدية لهم فلسفتهم ومِزاجهم السياسي في الحكم على الأدب. إنهم رجال؛ ولذلك لا يُقدِّرون إبداع النساء، إلا نادرًا. ولأسباب أغلبها سياسي ومنذ إنشاء جائزة نوبل (١٩٠١م) لم يفُز بها من الأديبات إلا كاتبات العالم الأول: هن من السويد والنرويج وإيطاليا وأمريكا وألمانيا، وفي عام ١٩٤٥م حصلت عليها الكاتبة التشيلية جابرييلا ميسترال، وفي عام ١٩٦٦م حصلت عليها كاتبة تعيش في السويد اسمها نيللي ساكسن، وشاركها الجائزة كاتب آخر

---

[1] القاهرة، في ١٩٨٨م.

اسمه أجنون المقيم بالقدس، وجاء في حيثيات منحهما الجائزة هذه العبارة: «إنهما يمثلان رسالة إسرائيل في عصرنا هذا.»

أول أديب عالمي رُشِّح لهذه الجائزة عام ١٩٠١م هو إميل زولا، لكن «ألفريد نوبل» لم يكن يحب إميل زولا، أو لم يفهمه، كان الأدب عند ألفريد نوبل (مخترع الديناميت) نوعًا من التحليق في الخيال والأحلام الرومانتيكية بعيدًا عن الواقع المادي الذي يعيشه الفقراء. كان ألفريد نوبل يعيش في مجتمع طبقي أبوي (رأسمالي)، ورث الفلسفة المثالية المغرقة في الخيال والغيبيات، تلك الفلسفة الموروثة عن فلاسفة اليونان القدامى الذين تصوروا العبودية والفقر نظامًا سماويًّا. ولهذا السبب لم يشعر ألفريد نوبل بآلام أبطال إميل زولا المادية، ولم يدرك إنسانية هذا الأديب الفرنسي العظيم، ومُنحت الجائزة إلى شاعر حالم مُحلِّق في سماء بلا أرض اسمه سولي برودوم. لقد اندثر اسم سولي برودوم ولم يعد أحد يذكره اليوم رغم أنه حصل على جائزة نوبل، لكن إميل زولا وأعماله لا تزال تعيش حتى يومنا هذا.

إن الأدب العظيم في غير حاجة إلى جائزة نوبل، بل إن جائزة نوبل هي التي في حاجة إلى أدب عظيم (من حين إلى حين) كي تبقى وتحافظ على كيانها.

وفي عام ١٩٠٢م، كان تولستوي مرشَّحًا للجائزة لكن لم يحصل عليها مثل إميل زولا، وحصل عليها في ذلك العام مؤرخ يُسَمَّى «مومسن» على كتابه «تاريخ روما».

هل يذكر أحد مِنَّا اسم مومسن؟

وفي ذلك العام خاض رئيس لجنة جائزة نوبل حربًا ضارية ضد تولستوي، ووصف أبطاله بأنهم منحطُّون ينتمون إلى الدرجات الدنيا في الحياة الاجتماعية.

وقد اشتهرت جائزة نوبل وأصبح لها قيمة كبيرة، وخاصةً في البلاد الرأسمالية الصناعية؛ فهي تؤكد فلسفة هذه البلاد، ومن خلفها تقف أموالها وسياستها تدعمها وتُكسِبها قوة عالمية.

وأغلب الذين حصلوا على الجائزة ينتمون إلى هذه البلاد (فيما يُسَمَّى اليوم بالعالم الأول)، أمَّا عالمنا الثالث فلا يحظى بها إلا القليل النادر ممن لا تتعارض أفكاره وفلسفته مع أفكارهم وفلسفتهم. وهذا أمر طبيعي، فهل يمكن أن تمنح أكاديمية سويدية جائزة أدبية لمن يعارضها ويختلف معها اختلافًا جذريًّا؟!

وهكذا فإن حصول نجيب محفوظ هذا العام (١٩٨٨م) على جائزة نوبل ليس مكسبًا له ولبلادنا بقدر ما هو مكسب للجائزة وللأكاديمية السويدية، ومحاولة لإضفاء نوع من العدل أو الموضوعية على حكمها.

ولهذا شعرت بالنفور من تلك المبالغة في الاحتفالات بفوز نجيب محفوظ بالجائزة، واعتبارها نصرًا باهرًا للأدب العربي وعبورًا لهذا الأدب من المحلية إلى العالمية.

إن الأدب العربي في غير حاجة إلى جائزة سويدية ليصبح عالميًّا، إننا نبالغ في تمجيد الجائزة السويدية بقدر ما نبالغ في تحقير أنفسنا. لم أسمع عن أديب سويدي يسعى إلى الفوز بجائزة عربية ليصبح عالميًّا! فلماذا نسعى إلى مثل هذه الجائزة لنصبح عالميين؟!

إن الأدب المحلي الصادق الجيد المعبر عن آلام الناس في الواقع هو أدب عالمي بالضرورة؛ لأن إنسانية الأدب هي عالميته.

في جريدة الأهرام يوم ٢٤ فبراير (١٩٩٩م) في الصفحة الأولى نُشرت هذه الفقرة تحت عنوان «شُبهات حول جائزة نوبل»، تقول الآتي:

> كَشف مجلة ماريان الفرنسية للمرة الأولى عن أسرار من ملفات مؤسسة نوبل ... ألفريد نوبل الذي تحمل الجائزةُ اسمه اقترح على الحكومة الفرنسية إنشاء المؤسسة لمساعدة المرضى (الميئوس من شفائهم) على الموت دون ألم، ولكن الحكومة رفضت الاقتراح؛ مما دفع نوبل إلى تخصيص جزء من ثروته لإنشاء الجائزة ... اختيارات اللجنة للفائزين شابها بعض الغموض، فلم تُمنَح لعالم مثل «فرويد» أو الأديب «مارسيل بروست» ... من أخطاء اللجنة منحها الجائزة للعالم ألبرت أينشتاين لملاحظاته عن الطاقة المحركة للكهرباء وليس على نظرية النسبية ... وسرت شائعات بأن اللجنة لم تفهم فكر أينشتاين ... والغريب أيضًا أن بعض العلماء حصلوا على الجائزة دون أن يكون لهم جهد في مجال الجائزة، مثل الجائزة التي مُنحت عام ١٩٢٣م لكل من فريدريك بانتينج وجون ماكليود لاكتشاف الأنسيولين، وظهر بعدها أن جون ماكليود لم يُشارك في التجارِب الأخيرة على الأنسيولين. (جريدة الأهرام، ٢٤ / ٢ / ١٩٩٩م، ص١)

الكاتب الكبير والكاتب الحر[1]

كتب الأستاذ بدر الديب في الأهرام (٢٥/ ٩/ ١٩٨٧م) ما معناه أن ليس هناك «مفكر حر» في تاريخنا الحديث، وأن ما قدمه المفكرون من أول رفاعة حتى الحكيم ولويس عوض سلسلة من التراجعات عن الدعوات الفكرية الحرة. وأَرجَع السبب في هذا إلى أن المؤسسات تُبنى دائمًا من السلطة، ولم نعرف المؤسسات التي يملكها الرأي العام القادرة على حماية الفكر الحر.

وكنت أتوقع من بدر الديب أن يتطرق إلى مكمن الداء الحقيقي، فلماذا يتراجع كبار الكتاب في بلادنا أمام السلطة؟ ولماذا لم تَنشأ هذه المؤسسات الشعبية البعيدة عن السلطة؟ وهل يمكن أن تُعتبَر النقابات المهنية ومجالس التمثيل الشعبي والجامعات والإدارة الحكومية والتعليم ضمن هذه المؤسسات كما كتب بدر الديب؟ هل يملك هذه المؤسسات الرأيُ العام، أم أن السلطة هي التي تبنيها؟! لقد عشت تجرِبة العمل النقابي داخل نقابة الأطباء واشتغلت في وزارة الصحة، ولم أجد أي فارق يُذكَر بين الاثنتين في علاقتهما بالسلطة، وأعتقد أن هذا القول ينطبق على معظم النقابات والجامعات ومجالس التمثيل الشعبي وغيرها.

أمَّا الجمعيات غير الحكومية الأهلية فهي تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية، ويمكن لمن يشاء أن يخوض بنفسه تجربة إنشاء جمعية ثقافية أو اجتماعية ليدرك العلاقة الوثيقة بين السلطة والجمعيات الأهلية، والأحزاب السياسية في بلادنا، هل هي مستقلة عن السلطة؟

[1] سبتمبر ١٩٨٧م.

أمَّا السؤال الثاني فهو خاص بتراجع كبار الكُتَّاب أمام السلطة. أنا أتساءل: هل يمكن لكاتب في بلادنا أن يحصل على لقب «كاتب كبير» دون أن تكون له علاقة بالسلطة أو إحدى مؤسساتها الصحفية؟!

يقول بدر الديب إن الازدواجية كانت دائمًا الطابع العام لكبار المفكرين والكُتَّاب في بلادنا؛ فهم يعبِّرون عن جزء فقط مما يعتقدون، وإذا حدث وعبَّروا بصراحة كاملة فإنهم يتراجعون بسرعة. والسؤال الهام: لماذا يحدث ذلك؟

والإجابة بسيطة، فإذا كان الكاتب في بلادنا لا يصبح «كاتبًا كبيرًا» إلا إذا باركتْه السلطة أو جلس على مقعدٍ في إحدى مؤسساتها، فكيف يمكن له أن يصطدم بالسلطة دون أن يفقد مقعده أو المساحة التي ينشر فيها؟ ويدرك الكاتب أنه لا يستطيع أن يكون «كاتبًا كبيرًا» و«كاتبًا حُرًّا» في الوقت ذاته.

ويُفضِّل معظم الكُتَّاب في بلادنا أن يكونوا «كِبارًا» على أن يكونوا «أحرارًا»؛ ذلك أن حرية الفكر في بلادنا ثمنها باهظ، ابتداءً من السجن والفصل والتشريد والنفي إلى الإهمال والتجاهل والصمت. لا يحتمل الواحد منهم أن يقرأ الصحف والمجلات فلا يجد شيئًا عنه، كأن السكوت عنه نوع من القتل. هكذا كتب يوسف إدريس عن توفيق الحكيم. وكتب عنه أيضًا أنه كان يتقِن لُعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج، فلا هو مع التقدم ولا ضده، ولا هو مع الديمقراطية ولا ضدها، ولا هو مع الثورة ولا ضدها. ورد فتحي العشري على يوسف إدريس في الأهرام (٢٠ / ٩ / ١٩٨٧م) قائلًا: إن الحكيم ليس وحده في هذا، وإن يوسف إدريس شبيه بالحكيم.

ورغم اتفاقي مع بدر الديب في كثيرٍ مما جاء في مقاله إلا أنني أختلف معه في إنكاره التام لأي دعوة للتفكير الحر في تاريخ الدين أو اللغة أو مؤسسات مجتمعنا الأساسية. وقد أشار في هذا الصدد إلى محاولة لويس عوض في فقه اللغة، واعتبرها محاولة مكبوتة قاصرة.

ولا أدري لماذا لم يبحث بدر الديب عن المفكرين الأحرار خارج «كبار الكُتَّاب» الذين حَكم عليهم من قبل بالتراجع السريع أمام السلطة؟! لقد قرأت في السنين الأخيرة عددًا من الكتب بأقلام رجال ونساء من ذوي الفكر الحر، لكن هذه الكتب لم تسلَّط عليها الأضواء (فالأضواء تملكها السلطة) ولم يحصل أصحاب هذه الكتب على لقب «كاتب كبير»، لكن هذه الكتب موجودة، يقرؤها الناس ويتحدثون عنها في البيوت ... والمشكلة أن أحدًا لا يحاول دراسة مثل هذه الأفكار الحرة؛ لأن أصحابها من المغمورين الذين لا تتحدث عنهم الصحف، أو لأن أصحابها من المغضوب عليهم الذين لا علاقة لهم بالسلطة.

إن أعظم الكُتَّاب والمفكرين في العالم ماتوا وهم مغمورون مسكوت عنهم طوال الوقت، ومع ذلك عاشوا ولم يقتلهم السكوت عنهم، أمَّا في بلادنا، فإن «كبار الكُتَّاب» يموتون إذا سكتت عنهم الصحف والمجلات بضعة أيام متتالية. وربما لهذا السبب يقل إنتاج الواحد منهم بازدياد الحديث عنه، ولم يستطع أي كاتب من هؤلاء الكبار أن يُنشئ مؤسسة فكرية جديدة غير تابعة للسلطة، أو يكوِّن جمعية ثقافية أو اجتماعية تشجع الأفكار الجديدة أو المواهب الشابة.

إن الشباب في بلادنا يفتقد القدوة والنموذج لدى كبار الكُتَّاب، فإذا أصبحوا هم القدوة والنموذج جاءت الأجيال الجديدة كالقديمة، وتكرَّر هذا النمط الذي يتقن لعبة الإفلات من الموقف الصعب الحرج، فلا هو مع التقدم ولا ضده، ولا هو مع الحق ولا ضده؛ وبالتالي يفلت من كل الأزمات ولا تصيبه الضربات، ويظل طافيًا فوق السطح مستمتعًا بمكانه العالي ولقب «الكاتب الكبير».

تعليق على مقال الدكتور يوسف إدريس

الكاتب المبدع والفصل بين السلطة والمسئولية[1]

في مقاله «ليس الفتور، ولكنه الغضب» (الأهرام، ١٢ يناير ١٩٨٧م) كتب الدكتور يوسف إدريس عن دور الكاتب في بلادنا. قال إن الكاتب يضع إصبعه على مكان الألم في جسم المجتمع، وإذا صرخ الناس في وجهه فهذا دليل على أنه كشف عن نوع ومكان المرض، مثل الطبيب الذي يعمل «المجسَّات» محاولًا تشخيص الداء. لكن دور الكاتب في رأيي أكبر بكثير من دور الطبيب المعملي أو طبيب الفحوص والاختبارات، بل هو أكبر من دور الطبيب الذي يعالِج؛ فالطب العلاجي لا يهتم إلا بالأعراض.

أمَّا أسباب الأمراض فنحن لم ندرسها في كلية الطب؛ لأن التعليم قائم على فصل الأسباب عن النتائج. إن كلمة «لماذا؟» من الكلمات المُحرَّمة في طفولتنا وشبابنا وكهولتنا، كلمة «لماذا» تَعني البحث العميق عن الأسباب الحقيقية لأي مشكلة؛ وهذا يعني العودة إلى التاريخ ودراسة الماضي، وهذا أمر يقتضي الكثير من الجهد والتعب والصبر، ويقتضي أيضًا تجاوز حرمة الماضي.

[1] هذا المقال أُرسل إلى جريدة الأهرام في ١٤ يناير ١٩٨٧م، لكنه لم يُنشَر.

إن دراسة التاريخ عندنا شبه محرَّمة، ويُطلَق عليها نبش الماضي، كما أن التاريخ في جامعاتنا مفصول عن العلوم الأخرى. الذين يدرسون الأسباب لا يدرسون النتائج، والعكس صحيح.

ثُمَّ إن التاريخ الرسمي هو الذي يُدرس فحسب، وفي هذا التاريخ الرسمي تختفي الأسباب الحقيقية للأزمات والأمراض والهزائم، بل إن الهزيمة تتحول إلى نصر، وقرارات الملوك والرؤساء الخاطئة تتحول إلى قرارات صائبة شبه إلهية.

كتب الدكتور يوسف إدريس عن ظاهرة الوساطة والمحسوبية والكوسة وغياب العدل، لم يكتب لنا لماذا يغيب العدل؟ كتب عن عجز الدخول التقليدية عن مواجهة الأعباء وغلاء الأسعار، عن غياب استراتيجية متكاملة أو خطة شاملة للعمل السياسي والتعليمي والدفاعي والصحي والتطبيق الاشتراكي والديمقراطية، ولم يكتب لنا لماذا يغيب كل هذا؟ قال إن الأطباء الاجتماعيين التقليديين ينشغلون بمشاكل فرعية؛ مثل مشكلة الانفجار السكاني، التي لا تشغل بال إلا ١٪ من السكان في مصر ... إلخ.

ولا ينسى الدكتور يوسف إدريس أن الأطباء الاجتماعيين التقليديين يركِّزون دائمًا على المشاكل التي يركز عليها رئيس الدولة في مصر، إذا تحدث رئيس الدولة في خطبته عن المشكلة السكانية اختفت كل المشاكل ولم نقرأ أو نسمع إلا عن المشكلة السكانية، إذا تحدث الرئيس عن الصحوة الكبرى تبارت الأقلام في الحديث عن الصحوة الكبرى ... إلخ.

مَنْ ذلك الكاتب الذي يقول لرئيس الدولة في بلادنا: أنت أخطأت. يقولها في حياته وليس بعد موته؟ إن رئيس الشركة قد يحاسَب، والوزير قد يُحاسَب، ورئيس الوزراء أيضًا قد يُحاسَب على خطئه ويُعزل من منصبه، لكن رئيس الدولة عندنا لا يُحاسَب ولا يُعزَل إلا بالموت، مع أن الواجب هو أن المسئول الأول يحاسب أولًا، ورئيس الدولة عندنا هو المسئول الأول؛ لأنه يمسك في يده على السلطة، فهو ليس كالمِلِك يَملك ولا يَحكُم؛ إنه يحكُم كل شيء، ويُصدر جميع القرارات، ابتداءً من قرار الحرب إلى قرار نشر خبر في جريدة، أو إيقاف كاتب أو كاتبة عن النشر، وفي يده إصدار القوانين، ابتداءً من قانون الانتخاب إلى قانون الزواج والطلاق، إلى قوانين الاعتقال والسجن. رغم هذه السلطة شبه المطلقة، فهو لا يحاسَب؛ وبالتالي فهو غير مسئول عن الهزيمة العسكرية، مع أنها نتيجة قراره، وهو غير مسئول عن الديون أو التبعية للرأسمالية العالمية، مع أنها النتيجة الطبيعية لقراره الاقتصادي. إنه غير مسئول عن الشر، مع أن هذا الشر وقع بإرادته وقراره.

الرئيس عندنا مثل الإله مسئول عن الخير فقط، مَن المسئول إذن عن الشر؟ عن الخلل في ميزان المدفوعات؟ عن الفساد والكوسة والاختلاس؟ عن الردة وتعديل القوانين إلى الوراء؟ عن اعتقال الناس بلا جريمة؟!

المسئول ليس هو صاحب السلطة والقرار، وإنما شخص آخر أصغر، كبش فداء، لا يملك السلطة ولا القرار. يقدَّم إلينا على أنه الشيطان، يُطرَد أو يُلعَن، ويظل الإله فوق عرشه بعيدًا عن المساءلة، فوق الحساب، إلا أمام الله بعد الموت.

هذه هي الحقيقة التي لا يقول الدكتور يوسف إدريس إنها مطلوبة لحل مشاكلنا، ابتداءً من الاحتلال حتى مشكلة الديمقراطية والعدل وحقوق المرأة والطفل والديون والتبعية ... إلخ.

هل يمكن الفصل بين مشاكلنا العامة والخاصة؟ هل يمكن الفصل بين الدولة والأسرة؟ هل يمكن أن يمارس الأب الدكتاتورية في بيته ثُمَّ يفتح الباب ويخرج فينقلب ديمقراطيًّا؟

إن أسس العدل والديمقراطية تقوم على عدم الفصل بين السلطة والمسئولية، لكن السلطة عندنا منفصلة عن المسئولية في الدولة وفي الأسرة، الأب في العائلة يملك السلطة لكنه غير مسئول إذا طلق زوجته بلا سبب أو تزوج أربع نساء بلا سبب إلا للنزوة الشخصية، والرئيس في الدولة يملك السلطة لكنه غير مسئول إلا بعد موته.

لماذا لم يقدم مجلس الشعب على عزل أحد الرؤساء في الدولة المصرية؟! ألم يتسبب واحد منهم في هزيمةٍ أو ديونٍ أو تبعية؟ لماذا يكون نقد الرئيس صعبًا؟ والأسهل منه نقد الناس والفقراء الذين لا يملكون إلا الفتور أو اليأس أو الغضب اليائس بلا فعل.

ويقول الدكتور يوسف إدريس: إن المصري أصبح يحارب المصري، وإن الأحقاد الشخصية تفصل بين الزميلين في حزبٍ واحد، وهؤلاء ظاهرة مرضية فعلًا، لكن لم يقل لنا لماذا يحدث ذلك؟

ثُمَّ ما الفرق بين الغضب والحقد؟ إذا كان صاحب الكفاءة الأدبية لا يستطيع النشر، والموظفون في الدولة يشغلون معظم الصفحات في الجرائد والمجلات، فهل إذا غضب صاحب الكفاءة من هؤلاء نقول إنه حاقد عليهم لأنهم يملكون الصحف وهو لا يملك؟ إذا امتلكَت امرأة عاطلة بلا عملٍ أربعَ سيارات وافتقدَت امرأة عاملة مقعدًا في الأتوبيس، فهل إذا غضبت المرأة الثانية نقول إنها حاقدة؟

إن الظلم يؤدي إلى الغضب، والغضب الكتوم بغير فعل يؤدي إلى الإحباط والشعور بالفشل، والإحباط إذا استمر طويلًا يؤدي إلى الحقد، وهذه كلها مشاعر إنسانية لها

أسبابها. وقد يحقد كاتب فاشل بلا مواهب على كاتب ناجح موهوب، لكن إذا حقد الكاتب الموهوب على كاتب بلا موهبة يملك سلطة النشر أو عدم النشر، فهل يكون الحقد الأول مثل الحقد الثاني؟

إن المقاييس عندنا عكسية مزدوجة ومتناقضة، كلما ازداد الإنسان صدقًا وعمقًا في التفكير وموهبةً في الإبداع ازدادت المشاكل من حوله والمصاعب. النجاح في بلادنا لا يعتمد على العمل والجهد والخلق والصدق، وإنما يعتمد على الصلات بذوي السلطة وأصحاب الصحف.

النشر في الصحف سلطة، ويتبارى الناس للكتابة والنشر، لماذا يترك أساتذة الجامعات الطلبة والمحاضرات ويدورون على الصحف لنشر مقالاتهم؟ لأن النشر في الصحف سلطة تقرب الكاتب من السلطة، سواء السلطة في الحكومة أو السلطة في الحزب الحاكم أو الحزب المعارض؛ ولهذا لم يعد الناس يقرءون ما يُكتب في الصحف؛ فالكتابات مكرَّرة مملة، خالية من الأفكار الجديدة، خالية من الصدق والإبداع، كتابات هدفها السلطة وأصحاب النفوذ في الدولة أو الحزب.

ولهذا تختفي الكتابات الحقيقية المبدعة، سواء في صحف الحكومة أو المعارضة. إن الكتاب المبدِعين الحقيقيين لا ينشر لهم أحد، فلا أحد مستعد للتضحية بصِلاته الطيبة بأصحاب السلطة، فما بال إغضابهم؟!

إن دور الكاتب هو الإبداع وتقديم الفكر الجديد الذي يضيء الطريق للناس، دور الكاتب هو تفتيح عيون الناس على أسباب الظلم وغياب العدل. هذا الضوء هو السبيل الوحيد لتحويل الغضب أو الحقد أو اليأس إلى طاقة جديدة نحو العمل لإزالة أسباب الظلم. هنا يصبح للكلمة الصادقة دويٌّ يهز القلوب والعقول؛ فتسقط عنها الغشاوة والسحابة، وترى المشاكل في ضوءٍ جديد، وهذا لا يحدث في بلادنا، لماذا؟ وندور في الحلقة المفرغة.

ماذا يقول هؤلاء الكُتَّاب؟[1]

«في الأسبوع الماضي قال الأديب مصطفى محمود إن الوقت قد حان لأنْ تعود المرأة إلى البيت ... وإن المرأة عندما خرجت للعمل دَمَّرَت بيتها ونفسها ...»

في هذه الفترة العصيبة التي يحاول فيها العقل المصري المتحضر مواجهة التيار السلفي الذي حاول العودة بنا إلى ما قبل ظهور البوصلة أو الساعة الشمسية، وإلى عصر الحريم لتكون المرأة إما جارية أو غانية، يخرج علينا كاتب مثل د. مصطفى محمود ليعلن في صفحة شبه كاملة بأخبار اليوم (٢٤ أغسطس ١٩٨٥م) أن عمل المرأة إهانة وإن كانت وزيرة، وما الذي تعنيه الوزيرة؟ ... كانت المرأة تحكم العالم من غرفة النوم! لم يعد للرجال سلطات ... وأصبحت المرأة تحكمه بالإيراد ... وعليها أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل ...

وهكذا يستمر مصطفى محمود في حديثه الطويل يتحسر على العصر الذهبي القديم لملوك القرن السادس عشر، حين كانت المرأة تحكم الملوك من غرف النوم ... والمشكلة عند مصطفى محمود ليس أن تحكم المرأة العالم، ولكن من أين تحكمه؟ ...

ويعترض مصطفى محمود على أن تَحكم المرأة من مكتبٍ في وزارة أو مِن عِلم في رأسها، وإنما مجالها الوحيد هو الفراش.

[1] أخبار اليوم، ٢١ / ٨ / ١٩٨٥م.

ولا يستخفُّ مصطفى محمود بعقل المرأة وحدَها، ولكنه يستخف بعقل الرجل، ثُمَّ إنه يدعو المرأة والفتاة المصرية إلى الفساد، بدلًا من أن يقول لها: أقنعي العالم بعقلك وأفكارك، يقول لها: تدربي في الفراش وكوني غانية ... لا تخرجي من غرفة النوم إلى العمل؛ فالعمل إهانة، وإذا خرجْتِ فاعلمي أن عيون الرجال تحاصركِ ولا بد من الاختباء وراءَ حِجاب.

وليس غريبًا أن تتخبط الفتاة بين التناقضات، فنراها تلف شعرها بحجاب وتكشف خصرها تحت حزام ضيق مشدود، وتترك دراسة الماجستير لتتفرغ لعرض أزياء المحجبات (جريدة الجمهورية، ٨ أغسطس ١٩٨٥م).

(١) هل تعود زينب إلى البيت؟

زينب هي ابنة عمتي في كفر طحلة، وهي تخرج من بيتها فجرَ كلِّ يوم إلى الحقل لتزرع وتقلع، ثُمَّ تعود عند غروب الشمس لتطبخ وتعجن وتخبز، وحين ينادي مصطفى محمود بعودة المرأة إلى البيت، فهل يوجِّه دعوته إلى زينب ومثيلاتها؟

إن أغلب النساء المصريات فلاحات، يخرجن من بيوتهن كل يوم للعمل بالزراعة والتجارة في السوق، ويعتمد دخل الدولة المصرية في جزء كبير منه على الإنتاج الزراعي للفلاحات، حيث إن نسبتهن في قوة العمل الزراعية ٤٥٪.

كما أن مسئولية الإنفاق على الأسرة والأطفال في الريف المصري اليوم تقع على عاتق النساء في كثير من العائلات، وفي المدن أيضًا. لم تعد هناك أسرة مصرية قادرة على مواجهة الغلاء دون مشاركة النساء، بل الأطفال أيضًا، اللهم إلا في محيط الأثرياء الذين يقبضون رواتب ومكافآت بالدولار أو البترودولار.

(٢) الحاجة إلى الطعام والخضوع الجنسي

ويعترض د. مصطفى محمود على عمل المرأة خارج البيت لأن سلطة الرجل تُسلَب منه لأنه لا ينفق على المرأة، والمرأة حين تعمل تكون لها «الغلبة» وعلى المرأة أن تعود إلى البيت لينفق عليها الرجل.

وهكذا فإن المشكلة عند مصطفى محمود تتلخص في عبارة واحدة: مَنْ يحكم مَنْ؟ والعلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ليست إلا علاقة حاكم بمحكوم، وغالب ومغلوب، والغلبة للرجل لا تكون إلا بفلوسه وإنفاقه على المرأة، وفي هذا المعنى عودة بمفهوم الزواج إلى عصور الانحطاط وهبوط بالعلاقة الزوجية إلى علاقة أشبه بالبيع والشراء، وبدلًا من أن تتطلع المرأة إلى رأس الرجل وعقله تهبط عيناها إلى جيبه، وبدلًا من أن ترتفع عين الرجل إلى رأس المرأة وعقلها تهبط إلى نهديها وساقيها.

وتؤدي مثل هذه الأفكار إلى الربط بين الفلوس والجنس في عقول النساء والفتيات، أو الربط بين الحاجة إلى الطعام والحاجة الجنسية، وأن تخضع المرأة للرجل لأنه ينفق عليها ويطعمها، وهذا يناقض القيم الأخلاقية والإسلامية التي يرددها مصطفى محمود؛ لأنه يحوِّل الرجل إلى كيس نقود، ويحول المرأة إلى جسدٍ في الفراش.

وبذلك يحرِم مصطفى محمود المرأة والرجل من الشرف الحقيقي الإنساني، وهو يشجع الرجل على إغواء المرأة بنقوده، ويشجع المرأة على أن تأكل عن طريق الجنس؛ وبذلك يناقض الفكرة السائدة في تراثنا الأخلاقي: «تموت الحرة ولا تأكل بثدييها!»

(٣) الأمهات الأحرار يلدن أطفالًا أحرارًا

ويحاول مصطفى محمود أن يجعل من الأم التي تَشقَى لتطعم أطفالها أو لتطعم نفسها السببَ الرئيسي لجميع المظالم في العالم بما فيها الحرب والقتل، ويقول: إن الناس يَقتلون لأنهم حُرِموا في طفولتهم من حنان الأم (لخروجها إلى العمل).

ومثل هذا الكلام لا يساعد الناس على فهم الأسباب الحقيقية للحرب والقتل أو العنف المتزايد في بلادنا وفي العالم كله. إن القتل والعنف ينبع من إحساس الناس بالظلم والاستعمار، أن تستوليَ دولة على دولة بالسلاح، بالقوة والعنف، وأن يمرض بالتخمة قلة من الناس، وأن يمرض بالجوع أغلبية ساحقة، أن يتخرج الشاب فلا يجد العمل، أن يبحث الإنسان عن سكن فلا يجد، وهناك مثل يقول إن الجوع كافر، وقد يتحول الإنسان إلى قاتل بسبب الجوع، والجوع قد يكون ماديًّا أو فكريًّا، أزمة الطعام في عالم غير عادل تؤدي إلى ازدياد معدلات القتل، وأزمة الفكر تؤدي إلى القتل أيضًا في العالم، وتقدم له بدل العدو الحقيقي كبشَ فداء بريئًا. ثُمَّ إن أخطر أنواع القتل والعنف في عالمنا تقوم به القوى الاستعمارية دوليًّا، والحكومات المحلية التابعة لها.

(٤) وماذا يقول يوسف إدريس؟

وبالرغم من الاختلاف الفكري بين رؤية مصطفى محمود ويوسف إدريس للعالم والدولة والكون، ورغم أن مصطفى يستعين في الحكم على العالم بالقانون الديني الإسلامي ويوسف إدريس يستخدم القانون الاجتماعي والسياسي والاقتصادي؛ إلا أنهما في حكمهما على المرأة يستخدمان قانونًا واحدًا وهو القانون البيولوجي.

وبالرغم من أن يوسف إدريس لا ينادي بعودة المرأة إلى البيت، بل يطالبها أحيانًا بتكوين حزب سياسي، إلا أن نظرته للمرأة لا تختلف كثيرًا في أساسها عن نظرة مصطفى محمود.

يقول يوسف إدريس (في مجلة صباح الخير، ١٥ أغسطس ١٩٨٥م):

> المرأة التي تبدع وتخلق فنًّا فهي تخلقه بالجزء الرجالي الموجود فيها ... قضيب ضامر، والرجل أيضًا فيه رحم صغير جدًّا يكتب به الأدب والفن ...

وأساس هذه الفكرة النظرية العلمية القائلة بأن الإنسان مزدوج الجنس، وأن الفنان الخلاق هو الذي يستطيع أن يتجاوز القيود الاجتماعية ويتعامل مع الحياة بكيانه الكلي، ويلغي ذلك الانفصام الموروث على مدى القرون بين الجسم والعقل والوجدان أو الشعور، ويتجاوز بذلك أيضًا التناقض المفروض بين ما عُرف بالرجولة والأنوثة.

وقد ساعدتْ هذه الفكرة على إلغاء كثير من الفروق الاجتماعية بين الرجل والمرأة والتي كانت تغلَّف بالفروق البيولوجية.

لكن يوسف إدريس لا يأخذ من هذه الفكرة إلا خارجها، ولا يسوقها لتشجيع المرأة المصرية على الإبداع بكيانها الكلي، وإنما ليحدد إنتاجها الأدبي والفكري، ويجعل مصدره الوحيد الجزء الذكري فيها، والرجل أيضًا لا يكتب إلا بالجزء الأنثوي فيه، الرحم والمبايض، وهكذا يتحول الفكر الخلاق إلى مجرد إفرازات الأعضاء الجنسية.

ولا أحد ينكر أن الهرمونات الجنسية لها تأثير على بعض مراكز المخ، لكن يوسف إدريس يحاول أن يفرض على الأعضاء الجنسية وظيفة فكرية، ولا يقول كلمة واحدة عن علاقة الفكر والأدب بذلك العضو في الجسم الذي يُسَمَّى «المخ». وهكذا وقع في الخطأ الذي وقع فيه «فرويد» في أواخر القرن التاسع عشر حين تصور أن لا شيء يحرك الإنسان إلا الجنس، وأن «الأنا العليا» عند المرأة أو إبداعها الأدبي ليس له مصدر في كيانها إلا العضو الذكري الضامر وهو البظر، حسب مفهوم فرويد.

(٥) الذئب والحمَل

وبرغم أن «فرويد» غيَّرَ أفكاره في بداية القرن العشرين، وأعلن عن شكوكه في كل ما كتبه عن المرأة، إلا أن يوسف إدريس لا يشكُّ ولا يعرف الشك، وهو يؤكد ويكاد يقسم بالله العظيم قائلًا: لا توجد صداقة بين الرجل والمرأة إطلاقًا ... إطلاقًا، مفيش صداقة بين الرجل والمرأة ... وهل هناك صداقة بين ذئب وحمَل ... الصداقة دائمًا بين النوع الواحد ... الذي ينعدم فيه الفارق الجنسي.

وهل هناك اختزال لعلاقة المرأة والرجل أكثر من هذا الاختزال؟ وكأنما الرجل حين يقابل امرأة يتحول فجأة إلى عضو واحد هو العضو الجنسي، والمرأة حين تقابل رجلًا تتحول بقدرة قادر إلى مجرد رحم أو مبيض.

وهكذا يلتقي يوسف إدريس مع مصطفى محمود في النهاية ... وندرك سبب الأزمة الفكرية في بلادنا، فإذا كانت هذه الأفكار هي التي تُفرَض علينا كل يوم، وتحتل الصفحات تلو الصفحات، فهل يمكن أن تكون هناك فرصة لأفكار أخرى؟! وإذا كانت العقول المستنيرة أو المتقدمة تلتقي مع الفكر الفلسفي، فهل نلوم الشباب على تخبطهم الفكري؟!

طفل الأنبوبة وصراع العصر[1]

في كل عصر من العصور البشرية كان هناك صراع بين علماء الطبيعة وبين علماء الفلسفة والأخلاق والاجتماع وغيرها مما تُسَمَّى الآن بالعلوم الإنسانية.

حينما اكتشف علماء الطبيعة أن الأرض كُروية ثار علماء الفلسفة؛ لأنهم كانوا يتصورون أن الأرض مسطَّحة، لكن التصور الفلسفي شيء والحقيقة الموضوعية المجسَّدة شيء آخر، وفي كل العصور انتصرت الحقيقة الموضوعية المجسدة على التصورات الفلسفية.

ويحدث الصراع دائمًا عقب أيِّ اكتشاف علمي جديد ينقل البشرية من مرحلةٍ إلى مرحلة، ويكمن الصراع في أن العلوم الطبيعية تتطور وتتغير وتكتشف الجديد بأسرع وأجرأ من العلوم الإنسانية؛ فالعلوم الطبيعية دوافعها للتقدم أكثر إلحاحًا لأنها تلبي الحاجات الضرورية عند الإنسان وتعوضه عن نقصه أو ضعفه البيولوجي في مواجهة الحياة واحتياجاتها.

إن الإنسان من الناحية البيولوجية أضعف من بعض الحيوانات مثلًا في الجري أو السمع. الغزال مثلًا يجري أسرع من الإنسان، ولتعويض هذا النقص في ضعف عضلات الساقين اكتُشفت العجلة والسيارة والقطار. الإنسان لا يطير كالطيور، وقد عوَّضَ هذا النقص البيولوجي أو عدم وجود الجناحين باكتشافه الطائرة. والإنسان له قدرة محدودة جدًّا على السمع أو الرؤية، وعوض عن هذا النقص البيولوجي باكتشاف الأجهزة السمعية والبصرية كالنيسكوب والميكروسكوب.

[1] أخبار اليوم، ٢ / ٧ / ١٩٨٢م.

ولعل أهم قصور اعترض الإنسان هو قصوره البيولوجي فيما يخص الحمل والإنجاب. منذ فترة بعيدة كان الإنسان لا يستطيع أن يحدد نسله، وبسبب ذلك كان يمكن أن ينجب عددًا من الأطفال أكثر من طاقته واحتياجاته، يمثلون عليه عبئًا نفسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا لا يعرف كيف التخلص منه، كذلك مثَّلت الزيادة السكانية في بعض المجتمعات مشكلة ملحَّة؛ لذلك سعت العلوم الطبيعية ومنها علم البيولوجي حتى اكتُشفت حبوب منْع الحَمْل التي نَقلت البشرية من مرحلة العبودية البيولوجية للنسل المفروض على الإنسان أو المجتمع إلى مرحلةٍ أكثر تحرُّرًا وتقدُّمًا.

(١) فكرة «التبني»

وبالمثل أيضًا كان الإنسان منذ فترة قريبة لا يستطيع أن يعالج عقمه، ظل الرجل أو المرأة العاقر أسيرًا لقصوره البيولوجي، يمنعه هذا القصور من ممارسة عواطف الأبوة أو الأمومة. إن عواطف الأبوة والأمومة في الإنسان عواطف طبيعية تحتاج إلى إشباع؛ ولهذا جاءت فكرة «التبني» كحل اجتماعي لمشكلة نفسية إنسانية، وهي الرغبة في إشباع عواطف الأبوة أو الأمومة، ثُمَّ نجحت العلوم الطبيعية أخيرًا في علاج عقم الرجال والنساء بواسطة طفل الأنبوبة وإنشاء بنوك الأجنة، أصبح في مقدور أي رجل أو امرأة عاقر أن يكون لهما طفل.

لكن العلوم الإنسانية وأهمها علم الفلسفة والأخلاق والأديان كانت دائمًا تصارع أيَّ اكتشاف جديد، لكنها كانت دائمًا تنهزم وتضطر نفسها لتواكب التقدم السريع في العلوم الطبيعية؛ والسبب في ذلك أن العلوم الإنسانية علوم نظرية تعتمد على الفكر النظري أو الكلمة المجردة، لكن العلوم الطبيعية تلبي حاجة الإنسان اليومية العملية.

(٢) صراع حول الحبوب

لم يحدث في تاريخ البشرية أن تراجع علم بيولوجي أمام علم الفلسفة أو الدين، مثلًا فيما يخص حبوب منع الحمل حدث صراع شديد، وحاولت العلوم الإنسانية — ومنها علم الفلسفة والأخلاق — سد الطريق أمام حبوب منع الحمل، لكن سرعان ما انتشرت الحبوب في جميع الدول والبلاد حتى البلاد الشديدة التزمُّت والتي رفضت الحبوب وصارعت طويلًا كالبلاد الكاثوليكية. أيضًا حين أُنشئت بنوك الدم وبنوك اللبن، ثُمَّ أخيرًا بنوك

العيون وبنوك القلوب وغيرها من أعضاء الإنسان التي نجح الطب الحديث في تخزينها في البنوك ونقلها من إنسان إلى إنسان، حدث الصراع نفسه وثار علماء الفلسفة والأخلاق والدين، لكن الصراع انتهى — كما ينتهي دائمًا — بانتصار العلوم الطبيعية التي تُلبِّي حاجة الإنسان الصحية الكاملة جسمًا ونفسًا وعقلًا، وما زالت العلوم الطبيعية تسعى لإنشاء بنوكٍ لمخ الإنسان بأمل نقل المخ أيضًا، وأحدثت هذه الفكرة أيضًا صراعًا فلسفيًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا، إلا أنه لم يكن في مثل ضراوة هذا الصراع القائم الآن حول طفل الأنبوبة وبنوك الأجنة.

كان من المنطقي فلسفيًّا أن يثير إنشاء بنوك القلوب أو بنوك المخ صراعًا أشد من إنشاء بنوك الأجنة؛ وذلك أن المخ أو القلب أهم عضو في جسم الإنسان وليس له بديل، أمَّا البويضة أو الحيوان المنوي فهي تُفرَز في جسم الإنسان بأعداد كبيرة جدًّا، لكن نقل القلب مثلًا من إنسان إلى إنسان لن يؤديَ إلى تكوين إنسان آخر أو جنين أو طفل. مشكلة بنوك الأجنة أنها تقود إلى ولادة أطفال جدد عن طريق رحم المرأة وعن غير الطريق البيولوجي المعتاد. وقد سبق لحبوب منع الحمل أن فصلت بين الممارسة الجنسية أو البيولوجية وبين الإنجاب، لم يعد من الضروري أن كل ممارسة بيولوجية تقود إلى ولادة طفل، كذلك بعد بنوك الأجنة وطفل الأنبوبة لم يعد من الضروري أن كل ولادة طفل تنتج عن ممارسة بيولوجية أو جنسية.

(٣) انتصار إنساني

إن فصل الإنجاب أو التناسل عن العلاقات البيولوجية والجنسية انتصار إنساني على كثير من المشاكل النفسية والبيولوجية من أجل الحصول على طفل وإشباع عواطف الأبوة أو الأمومة.

لكن علماء النفس والأخلاق والدين لا يصارعون من أجل هذا، إن الصراع الأساسي الدائر في العالم الآن حول مشكلة «النسب»، إن طفل الأنبوبة لا يُنسَب بيولوجيًّا لأب معين أو أم معينة؛ بمعنى أنه نتج عن اتحاد بويضة امرأة مجهولة بحيوان منوي لرجل مجهول؛ إذ يستطيع أي رجل عاقر أو أي امرأة عاقر أن يذهب إلى بنك الأجنة، ويحصل على طفل من سلالة ممتازة، ينمو بشكل طبيعي وصحي، مثل الأطفال الآخرين الذين تلدهم الأمهات في ظل العلاقات الزوجية الطبيعية. والمُصابون بالعقم لا يهمهم معرفة

النسب البيولوجي، ولكن كل ما يهمهم هو أن يكون لهم طفل وأن يمارسوا عواطف الأبوة أو الأمومة؛ فالأمومة الإنسانية ليست مجرد بيولوجيا فقط أو نسب بيولوجي، ولكنها مشاعر نفسية وعاطفية، وكم رأينا كثيرًا من الأسر العواقر تتبنى أطفالًا تحبهم وترعاهم بحنانٍ أكثر من آبائهم أو أمهاتهم البيولوجيين، وكم رأينا زوج الأم مثلًا الذي أحب أطفال زوجته بمثل ما أحب أطفاله البيولوجيين.

(٤) الأبوة والأمومة

الصراع الدائر بين علم البيولوجي وعلم الفلسفة والأخلاق والدين ليس صراعًا من أجل العواطف الإنسانية أو المحبة الأبوية أو الأمومة؛ وذلك أن إنشاء بنوك الأجنة أو طفل الأنبوبة لن يقضيَ بحالٍ من الأحوال على عواطف الأب أو الأم، بل بالعكس إنه سيجردهما من الأنانية البيولوجية، ويتدرب الإنسان على أن يرعى ويحب أطفالًا لم يلدهم بيولوجيًّا.

لكن المشكلة الفلسفية والأخلاقية تدور حول «التوريث»؛ فالنسب البيولوجي أبويًّا أو أمويًّا كان مطلوبًا في التاريخ البشري من أجل الميراث، وكانت الأنانية البيولوجية البدائية تمنع الإنسان من أن يُورِّث أطفالًا لم يلدهم بيولوجيًّا، لكن التطور الإنساني وازدياد درجة الإنسانية في الإنسان جعلت بعض الناس قادرين على توريث أطفال لم يلدهم، مثلًا زوج الأم الذي يُورِّث أطفاله بمثل ما يُورِّث أطفال زوجته، وأنا شهدت حالات من هذا النوع في بلادنا وفي بلاد أخرى، ثُمَّ هؤلاء الآباء أو الأمهات الذين ليس عندهم ما يُورِّثونه، هل يمثل لهم طفل الأنبوبة مشكلة؟

إن التقدم البيولوجي دائمًا في صف الإنسان والإنسانية. أي تقدم علمي لا بد أن يكون في صف الإنسان والتقدم، بما في ذلك اكتشاف الذرة. إن الذرة في مجتمع إنساني عادل تصبح في خدمة الإنسان، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته. لكن الذرة في مجتمع غير عادل تصبح وسيلة للحرب والقتل.

كذلك أيضًا، إن حبوب منع الحمل أو بنوك الأجنة يمكن أن تكون في المجتمع الإنساني العادل من أجل الإنسان المرأة والرجل، ومن أجل صحته وعلاجه وتلبية حاجاته النفسية والعاطفية والبيولوجية، لكنها في المجتمع غير العادل يمكن أن يُساء استخدامها.

(٥) الوراثة البيولوجية

لا شك أن العالم البشري يتقدم نحو الإنسانية، سواء على مستوى الفرد أو مستوى المجتمع، في الأنظمة الملكية القديمة (وفي بعض البلاد اليوم) كان العرش يُورَّث بيولوجيًّا، بمعنى أن الأولاد البيولوجيين هم الذين يرثون آباءهم أو أمهاتهم في الحكم، لكن العالم تقدَّم وأصبح الحكم في النظام الجمهوري مثلًا لا يُورَّث عن طريق الأبناء أو البنات، وإنما عن طريق الانتخاب، ويصل إلى الحكم الشخصُ الأكفأ وليس الابن البيولوجي.

وإذا كانت الدولة في النظام الجمهوري قد تخلصت من الأنانية البيولوجية، فمن الطبيعي أيضًا أن يتخلص الإنسان الفرد من أنانيته البيولوجية، في الأسرة يشعر بالحب والأبوة أو الأمومة للأطفال جميعًا، إلا أن نشوء النسب الأبوي في التاريخ قد جفف العواطف الإنسانية وربطها بالجنس والتناسل البيولوجي فقط.

أيتها السنة ... كوني جديدة[1]

أنا أضحك ... فقد ملأ نفسي الغم والحزن.

أنا آكل ... فقد كرهت اللحم والخبز.

أنا أفكر ... فقد تهاوى عقلي وانهار.

أنا أحب ... فقد خنقت عاطفتي خنقًا.

أقول هذا الكلام وأنا أتمتع بلا وعي كامل يعرف ما يقول ولا يعرفه.

أقول هذا الكلام للعالم المجنون الذي لا يزيد جنونًا على جنوني، وعلى جنون أي إنسان يريد أن يكون مجنونًا.

ولكن العالم يريد أن يصنع من الجنون معجزة، كأنما المجانين هم الذين يفهمون الحياة ويحسُّونها، أمَّا العقلاء — إذا كانت هذه التسمية واقعية — فليسوا إلا حُثالة، مكانها الوحيد هو صفيحة الزبالة (ولا أقصد صفيحة زبالة صمويل بيكيت)، أو كأنما أصبح الجنون شيئًا صعبًا عسير المنال، لا يبلغه إلا الصفوة القليلة النادرة الممتازة من الفنانين والأدباء، وأصبح العقل صفة الدهماء ... مع أن الجنون — كما يقول أطباء العالم النفسيون — إنما هو نوع من التدهور يصيب العقل الواعي؛ فينطلق العقل الباطن من عقاله ليفعل ما يشاء وأنَّى شاء، يخلع ملابسه ويمضي عاريًا في الطريق كما كان يفعل إنسان الغابة الأول، ويغتصب كل امرأة يقابلها على قارعة الطريق ...

[1] مجلة الجيل، ٣١ / ١٢ / ١٩٦٢م.

ولكن الفن الحديث يحاول أن يثبت لنا أن الجنون هو نوع من الارتفاع فوق منطقة الوعي … فوق جاذبية المنطق … سمو فوق المعقول إلى اللامعقول، اللاوعي، الجاذبية اللامنطق، اللامفهوم، اللاشيء.

وما هو هذا اللاشيء؟ لا أحد يدري … كل منهم يمصمص شفتيه ويقول لك: لا أدري … وقد كُنَّا قديمًا نعتقد أن الذي يقول لا أدري لا يدري حقًّا، ولكنَّا أصبحنا اليوم نعتقد أن الذي يقول لا أدري هو الذي يدري، والذي يقول أدري هو الذي لا يدري …

إن صفة الثقافة الرفيعة والفن الرفيع في يومنا هذا هي أن تكتب كلامًا لا معنى له، فتقول مثلًا: أنا أمشي على رأسي، وأنا أفكر بقدمي، أنا أشم بأذني، وأنا أسمع بشفتي.

وإذا سألك سائل: ماذا تقصد بذلك؟ قلت له: لا أدري … إنك بذلك قد وصلت إلى صفوف أدباء العالم … وإني أهنئك على نبوغك.

وإذا تثاقل عليك ثقيل وقال لك: أنا لا أفهم ماذا تقول. فانظر إليه نظرة مرحة حزينة وقل له: وهل من الضروري أن تفهم؟ … وإنك بهذا الرد قد قفزت إلى قمة الفن والأدب الرفيع، وإني أهنئك مرة أخرى على عبقريتك.

أمَّا إذا كنتَ لا تجد بينك وبين كلمة «أديب» تجاوبًا، وتفضل عليها كلمة «ناقد»، فعليك أن تُظهر فهمك وعدم فهمك بما تقرأ من أدب رفيع … وإذا سألك سائلٌ رأيك، فانظر إليه نظرة واسعة ضيقة وقل له: إنه شيء جميل قبيح، إنه شيء لذيذ شنيع، إنه شيء بديع مقرف …

إنك بذلك تثبت قدراتك في النقد التي تفوق كل وعي وإدراك. وإذا تثاقل عليك الثقيل وسألك مزيدًا من التفاصيل فقل له في شجاعة وخوف: إن الكاتب — على ما أظن — يريد أن يصور تلك الأعجوبة العجيبة التي لا يعرفها أحد.

– وما هي؟

– أن الإنسان يُولَد ثُمَّ يموت.

– ولكن هذه ليست عجيبة، لقد كنت أعرف أن الإنسان يُولَد ثُمَّ يموت.

– هل كنت تعرف ذلك حقًّا؟ هذا شيء عجيب … غير معقول … لقد كنت أظن أن أحدًا لا يعرف ذلك.

قل له ذلك في منتهى البساطة والتعقيد، ثُمَّ أخرِج منديلًا من جيبك وامسح دموعك التي بدأت تسيل من عينيك وأنت تدري أو لا تدري، ثُمَّ قل لنفسك في تفاؤل وتشاؤم: أنا أبكي؟ إذن فأنا موجود، وا فرحتاه! وا مصيبتاه!

ثُمَّ حرِّك ذراعيك وساقيك في الهواء وقل لنفسك: أنا أرقص؟ إذن فأنا موجود.

أنا مجنون؟ إذن فأنا موجود.

أنا أنا؟ إذن فأنا موجود.

– ماذا تقول؟

– تسألني ماذا أعني بأنا أنا؟

– لا تسأل.

– لماذا تريد أن تفهم؟

– عليك أن تستمع فقط.

– هل تعرف ما معنى كلمة «تستمع»؟

– وهل لا بد أن يكون لها معنى يا أخي؟

– استمع بلا معنى.

– ماذا تقول؟

– لا تستطيع أن تستمع بلا معنى؟

– إذن فأنت لست فنانًا.

– إذن فأنت لست مجنونًا.

– إذن فأنت لست موجودًا.

– معلهش ... عوضك على الله في الوجود.

أنا لا أكتب هذا الكلام لأقلل من قيمة الأدب اللامعقول، فإن السخرية بمعناها اللامعقول هي اللاسخرية ... أنا أسخر من شيء ... إذن فأنا لا أسخر منه ...

– ماذا تقول؟

– هذا عبث؟

– برافو! وجدتها ... وجدتها ... وجدتها ...

– ما هذا الذي وجدتها؟

– عبث يعبث عبثًا فهو عابث.

– ما معنى العبث ...

– العبث معناه العبث.

– ولماذا تعبث بي يا حبيبي؟

– ولماذا لا أعبث بك؟

– يا دمك! يا سم!

– هل تحبني؟

– لا تسأليني شيئًا أرجوك.

– ولكني أريد أن أعرف هل تحبني أو لا ...؟

– لا داعي لأن تعرفي ...

– ولماذا؟

– لا أحد يعرف.

– كيف؟

– لا تتكلمي كثيرًا، أعطني شفتيك ... اقتربي مني أكثر ...

– ولكن ...

– لا تفكري ... لا تتكلمي ...

– ولكن ماذا بعد هذا الحب؟

– لا أدري!

– ما نهاية هذه العلاقة التي بيني وبينك؟

– وما نهاية أي شيء؟

– أخبرني! أخبرني!

– لا أدري! لا أدري!

– لماذا لا تتزوجني؟

– ولماذا أتزوجك؟

– أنت مخادع! مخادع!

– أنا مفكر! مفكر!

ثُمَّ يتزوج هذا المفكر ...

– لماذا تزوجتَ يا عزيزي؟

– ولماذا لا أتزوج؟

– ولكنك اخترت فتاة في السادسة عشرة وأنت في الخامسة والأربعين؟

– ولِمَ لا؟

– ولكنك كنت تنادي بتعليم المرأة وتحريرها ... فكيف تتزوج فتاة لا تعرف القراءة والكتابة؟

– ولِمَ لا؟

– لماذا تتزوج — أنت المفكر الذي يُفكِّر للناس جميعًا — هذه الطفلة الأمية؟

– حتى أكون على يقين من أنها لن تقرأ أفكاري التي أكتبها لكم أيها المغفلون!

– أنا منافق؟ إذن فأنا موجود ...

هذا هو العالم الذي نعيش فيه ... وهؤلاء هم الناس الذين يعيشون فيه ...

لقد أصبحتْ صفة التناقض هي صفة الكمال والفن والنضوج ...

أنا متناقض؟ إذن فأنا موجود.

أنا أفهم؟ إذن فأنا مفكر.

أنا أحب؟ إذن فأنا لا أتزوج.

أنا أتزوج؟ إذن فأنا لا أحب.

أنا أعيش؟ إذن فأنا أموت.

ألا فليذهب إلى الجحيم أو إلى الفردوس هذا العالم الجميل القبيح، ما أقبحه! وما أجمله!

بل ما أسخفه!

سخف يسخف سخفًا فهو سخيف، أنا سخيف؟ إذن فأنا موجود.

وا حسرتاه!

أيتها السنة المقبلة، ماذا عندكِ؟ أهو مزيد من هذا الجمال القبيح السخيف اللذيذ المؤلم؟ أم عندك شيء آخر؟ وما هو هذا الشيء الآخر؟

أملي أن يكون عندك شيء آخر!

كفى ... كفى ... لا تكرري السنة الماضية ... لا تكرريها! فقد قتل التكرار عقل العالم حتى هرب إلى اللاعقل ... وخنق التكرار عاطفة العالم حتى هرب إلى اللاعقل، وخنق التكرار عاطفة العالم حتى أصبح ترسًا في آلةٍ تدور بلا وعي ...

أيتها السنة القادمة ... أرجوك غيِّري طعم الأكل في فمي ... غيِّري رائحة الهواء في أنفي ... غيِّريه ولو إلى أسوأ ... ولكن غيِّريه! كوني جديدة ... ولا تكوني لا جديد، فقد قتلتني كلمة لا ...

أيتها السنة الجديدة، ارحمينا من ذلك الشقاء الممتع، ارحمينا من ذلك المورفين المعنوي الذي يطيح بعقلنا الواعي ... ارحمينا من ذلك المخدر، بل ذلك المنبه الذي ينبهنا إلى حد التحذير ... ارحمينا من ذلك العذاب اللذيذ ...

ارحمينا! هل ترحميننا؟

أنا أطلب الرحمة؟ إذن أنا موجود ...

سياسة

١٢ مقالًا

عولمة من قاعدة الهرم ... والوعي النسائي العربي[1]

خلال النصف الأخير من القرن العشرين كَسرت المرأة حواجز فكرية كثيرة، وناقشت قضايا لم يكن من الممكن النطق بها في بداية القرن. ربطت الباحثات والكاتبات العربيات بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، أزلْنَ الحواجز بين علم السياسة وعلم الاجتماع والفلسفة والدين والطب، والأدب والتاريخ.

لعل أهم مساهمة قدمها الخطاب النسائي العربي هو محاولة القضاء على الأحادية الفكرية التي ترى الأشياء بعينٍ واحدة (عين الرجل) أو تنكفئ على الذات دون رؤية الآخر، أو تلك الثنائية الفلسفية التي تفصل ما هو شخصي عما هو اجتماعي أو سياسي.

تجاوزت قضية المرأة العربية حدود الأحوال الشخصية أو الشئون الاجتماعية لتشمل الشئون السياسية، على رأسها تحرير الأرض والاقتصاد والتاريخ والعقل والجسم. كان أغلب المؤرخين رجالًا لم يرَوْا مساهمات النساء الفكرية منذ نشوء الحضارة، وكان للمرأة دور رائد فيها ليس كزوجة وأم فقط، وإنما كفيلسوفة وكاتبة وشاعرة وباحثة وطبيبة وقائدة سياسية، نذكر منهم «سخمت» المصرية، التي كانت نقيبة للأطباء في مصر القديمة، و«نيدابا» العراقية مكتشفة الحروف في الحضارة السومرية، ورئيسة القضاة «معات» إلهة العدل المصرية، وصاحبة الفكر الفلسفي «إيزيس» التي امتد أثرها من مصر إلى أوروبا، وعاش حتى القرن السادس الميلادي.

---

[1] نُشر بجريدة الأهرام، ١٠ يناير ٢٠٠٠م.

وقد ظهرت مؤرخات عربيات أعدن قراءة التاريخ، وكشفن النقاب عن أفكار النساء التي اندثرت تحت سطوة النظام الهرمي (الطبقي الأبوي) خلال الألفية الأولى والألفية الثانية حتى منتصف القرن العشرين.

(١) الاستشراق النسائي الجديد

منذ أيام قليلة وجهة إليَّ مذيعة أمريكية هذا السؤال: ألا يوجد في الإسلام ما يعوق تحرير المرأة؟ وجاءت إجابتي عليها بسؤال آخر: ألا يوجد في المسيحية ما يعوق تحرير المرأة؟

لم تعرف المذيعة الإجابة على سؤالي لأنه لم يخطر ببالها من قبل، ولأنها قرأت كثيرًا عن علاقة المرأة والإسلام، ولم تقرأ شيئًا عن علاقة المرأة والمسيحية.

لقد انتشرت في السنين الأخيرة ظاهرة انتشار الكتب عن المرأة العربية والإسلام بأقلام النساء الأمريكيات المستشرقات، وكلها باللغة الإنجليزية، أغلبها يحبس موضوع المرأة العربية داخل إطار الثقافة، أو الدين أو اللغة، دون أن يربطها بالاقتصاد أو السياسة الدولية أو المحلية.

يعتمد هذا الخطاب الاستشراقي الجديد على الفكر الليبرالي الرأسمالي الذي اشتهر في الثلث الأخير من القرن باسم ما بعد الحداثة، تبرز فيه أسماء أمريكية وفرنسية «ميشيل فوكو، جاك ديريدا، جوليا كريستيفا، صمويل هانتنجتون، فرانسيس فوكاياما وغيرهم».

ويقوم هذا الفكر على دعامتين أساسيتين هما:

(١) الفصل بين الثقافة والاقتصاد، وبين الشكل والجوهر، واعتبار أن الشكل هو الأساس (أو لا يوجد جوهر).

(٢) الصراعات الدولية والمحلية تقوم بسبب الاختلافات الثقافية والدينية والإثنية (وليس الاقتصاد والسياسة).

اشتد انتشار هذا الفكر في الغرب كرد فعل ضد الفكر الماركسي التقليدي الجامد الذي جعل الاقتصاد كل شيء وأهمل الثقافة، ومع سقوط حائط برلين والاتحاد السوفياتي خلال العقد الماضي طغى هذا الفكر على العالم، وعلى المفكرين في بلادنا العربية، سواء فيما يخص القضايا العامة أو قضية المرأة، إلى حد أن قامت حملة نشطة لترجمة هذه الكتب إلى اللغة العربية، ومنها كتب النساء الأمريكيات عن المرأة والإسلام.

(٢) خطاب الهيمنة الأمريكية

يتبنى الخطاب الاستشراقي النسائي الجديد الأفكار التي تشجع النساء العربيات على العودة إلى البيت والأمومة تحت اسم التمسك بالقيم الدينية أو الثقافية المحلية أو الهُوية الأصلية، وهو نفسه خطاب الهيمنة الأمريكية الذي رفع الشعارات الدينية في العالم كله (سواء الشعارات المسيحية أو الإسلامية أو الهندوكية أو اليهودية أو البوذية أو غيرها) كرمزٍ لمقاومة الغرب. هكذا تصورت أعدادٌ متزايدة من النساء في العالم أن مجرد تغيير الزيِّ أو غطاء الرأس يجعل المرأة منهم مناضلة ضد الغرب والتغريب.

وهذه هي المقاومة الوهمية أو النضال الشكلي الذي وضع قواعده المفكرون في الغرب (من الرجال والنساء)، ووجدوا فيه القدرة المستمدة من الروحانيات الغامضة على تحويل المقاومة الشعبية من الجوهر إلى الشكل.

إن تصاعد التيارات الدينية في العالم (التي أُطلِقَ عليها اسم التيارات الأصولية) لم تكن إلا الوجه الآخر للفكر الليبرالي الرأسمالي الحديث وما بعد الحديث، وهو فكر الاستعمار الأمريكي الجديد؛ لهذا لم تنجح هذه التيارات الدينية الأصولية إلا في قتل الأبرياء من النساء والرجال، على حين انطلقت قوى الاستعمار العسكرية والاقتصادية تفتك بأرواح الشعوب ومواردهم، سواء بالحروب الواضحة السافرة، أو القوانين التِّجارية السرية أو المعلَنة داخل منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات المسيطرة، بل أصبحت قيادات هذه التيارات الدينية جزءًا من هذه المؤسسات الاقتصادية، رغم غضبها الشديد على الغرب، ورغم نضالها تحت عباءة الدين، ولم تثمر عن شيء إلا المزيد من التبعية للتفوق الغربي والعولمة.

ربما كانت خطابات الإصلاح الديني في بداية القرن العشرين أكثر تقدُّمًا فيما يخص قضية المرأة عن الخطابات الدينية في نهاية القرن العشرين.

يكفي أن نقارن الأفغاني والشيخ محمد عبده بما نقرؤه اليوم لبعض المفكرين الدينيين، رغم ما يُقال عن أنها رغم اختلافها كانت جزءًا من الخطابات الاستشراقية التي تؤمن بالتفوق الغربي ولم تربط بين الثقافة والاقتصاد.

بالطبع ليس في العالم خطابٌ يقوم على النقاء الثقافي الخالي من الشوائب؛ لأن الثقافات الإنسانية كلها متداخلة مخلوطة رغم الحواجز الجغرافية والتاريخية، والمشكلة ليست في النقاء أو الاختلاط، أو ما يُسَمَّى الأصالة والحداثة، أو التغريب والتشويق، لكن المشكلة هي التناقض في الخطاب الاستشراقي الجديد، خاصةً الخطاب الاستشراقي النسائي الذي يحاول العودة بالمرأة العربية إلى الوراء تحت اسم احترام ثقافة الآخر.

حين كنت في لندن مؤخَّرًا فتحت جريدة الجارديان يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩م لأقرأ مقالًا لإحدى المناضلات البريطانيات لتحرير المرأة في الغرب، وهي جيرمان جرير، كتبتْ في مقالها تؤيد ختان البنات كجزء من الهُوية الأصيلة أو الثقافة المحلية التي يجب احترامها في عصر ما بعد الحداثة الذي يتميز بالتعددية الثقافية والخصوصية والاختلافات الدينية والإثنية.

لم يكن غريبًا أن العالم في ظل هذا العصر — ما بعد الحداثة — قد شهد حروبًا ومذابحَ في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية وأوروبا الشرقية، تحت اسم الصراعات الإثنية أو الدينية، رغم أن الصراع الحقيقي هو الصراع الاقتصادي الناتج عن تزايد الفقر والجوع مع تزايد الثراء في يد القلة القليلة التي تسيطر على السلاح والتجارة في العالم.

(٣) سقوط العمل السياسي التقليدي

كنت أستاذة زائرة في جامعة فلوريدا خلال الشهور الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، شاهدت وتابعت ما حدث في مدينة سياتل من مظاهرات شعبية ضد منظمة التجارة الدولية خلال اجتماعها في نهاية نوفمبر وبداية ديسمبر ١٩٩٩م. وقد اشتركتْ في المظاهرات بعضُ طالباتي في جامعة فلوريدا من الأمريكيات، اللائي سافرن إلى سياتل، كما اشتركت في المظاهرات أيضًا بعضُ النساء العربيات اللائي يعشن في مدينة سياتل أو المدن القريبة منها في ولاية كاليفورنيا، بعض طالباتي منذ عام ١٩٩٥م حين كنت أستاذة في جامعة واشنطن بمدينة سياتل. لقد ساعدتْ أجهزة الاتصال الحديثة وما بعد الحديثة (ومنها الإنترنت والويب) على سرعة الاتصال بين الناس، وأصبح العالم الضخم كأنما قرية صغيرة، وكنت أتلقى كلَّ ساعة تقريبًا الأخبار من سياتل كأنما أعيش في المدينة رغم أنني في فلوريدا، بل قبل قيام المظاهرات جاءتني رسائل الإنترنت والبريد الإلكتروني من النساء العربيات في سياتل اللائي اشتركن في التنظيم والتخطيط لهذه المظاهرات، بعضهن تركن العمل أو الدراسة وشاركن في غرفة العمليات متفرغات لهذا العمل الكبير أكثر من ثمانية شهور.

وقد نجحت مظاهرات سياتل ١٩٩٩م في أشياءَ متعددة، إلا أن أهم ما نجحت فيه هو كشفها للصراع الحقيقي في العالم، وأنه صراع ضد القوانين الاقتصادية والتجارية غير العادلة، ضد قوانين منظمة التجارة الدولية وغيرها من المؤسسات.

إنه صراع اقتصادي أساسًا وليس صراعًا ثقافيًّا أو دينيًّا أو إثنيًّا؛ لأن المظاهرات جمعت النساء والرجال والشباب والشابات من مختلف البلاد والثقافات واللغات والأديان

والألوان، تجمعت كلها في مسيرة واحدة ضد عدو واحد هو النظام الاقتصادي العالمي أو العولمة من أعلى القمة حيث يتربع الفرد أو قلة من الأفراد، ينهبون عَرَق الملايين تحت اسم حرية السوق أو الديمقراطية أو الليبرالية الرأسمالية.

كانت نسبة النساء في المظاهرات تبلغ نسبة الرجال، ونسبة العمال تبلغ نسبة المهن الأخرى في مجالات العلم أو التعليم أو الثقافة، لم يتخلف عن هذه المظاهرات الشعبية الدولية إلا الأحزاب التقليدية التي فوجئت بما يحدث؛ فهي مظاهرة تكسر الحواجز التي جعلت الأحزاب السياسية التقليدية شبه معزولة عن الناس، ويجلس على قمتها الهرمية فرد واحد أو أفراد قلة، يتوارثون السلطة المطلقة (الأبوية الطبقية) في ظل انتخابات شكلية أو ديمقراطية زائفة، تحت اسم اليسار أو اليمين، تحمل اسم المعارضة مع أنها جزء من النظام، وتكاد لا تفعل شيئًا إلا الكلام تحت قبة البرلمان.

(٤) الوعي النسائي العربي

بعد عودتي إلى مصر في منتصف ديسمبر ١٩٩٩م جاءتني الدعوة من النساء العربيات الطالبات في جامعة كاليفورنيا (جامعة ديفيز)، جاءتني عبر شاشة الإنترنت، وقد أصبح لهن قناة خاصة في الويب/الإنترنت تحمل اسم تضامن النساء العربيات في أمريكا الشمالية. إنهن يُنظِّمن مؤتمرًا نسائيًّا عربيًّا في أبريل القادم سنة ٢٠٠٠م، يحرصن فيه على دعوة الباحثات والكاتبات العربيات اللائي يعشن في الوطن العربي ويكتبن باللغة العربية، ويعرفن الواقع والحقيقة التي تعيشها النساء في بلادنا أكثر من النساء المستشرقات الأمريكيات. في أحد هذه الرسائل تقول طالبة أردنية تدرس في سان فرانسيسكو: «كيف يمكن أن تكون مراجعنا عن المرأة العربية هي كتابات الباحثات الأمريكيات، لم أسمع عن امرأة عربية أو نساء عربيات أصبحن هن المرجع لحياة النساء الأمريكيات! أليس هذا هو المنطق الاستشراقي القديم يعود إلينا في ثوبٍ جديد تحت اسم الاستشراق النسائي؟»

لقد شاركتِ الشابَّاتُ العربيات في مظاهرات سياتل، وأدركن أن الشعوب المقهورة، نساءً ورجالًا، داخل أمريكا وأوروبا أو خارجهما في القارَّات الأخرى، قد بدأت تدرك أهمية الاتحاد والتضامن بصرف النظر عن الحدود التي تضعها القلة الحاكمة في كل مكان، بدأت الشعوب تكسر الحواجز المصنوعة بين البشر حسب اللون والعِرق والجنس والجنسية والعقيدة والإثنية وغيرها، بدأت تدرك أن هذه الفروق بين البشر مصيرها إلى الزوال، وسوف تبقى القيم الإنسانية الكبرى القائمة على العدالة والمساواة والحرية والوعي.

أصبح النضال العالمي أكثر نضجًا ووعيًا بأهمية التضامن رغم الاختلافات، وفي بلادنا العربية أيضًا هناك حركة نسائية ذات وعي جديد تتجمع وتتضامن، وتدرك أن التضامن العربي الشعبي جزء لا يتجزأ من التضامن العالمي الشعبي، ربما تحاول قوًى سلطوية متعددة ضرب هذا التضامن النسائي الشعبي، إلا أن التاريخ يعلمنا أن الفوز في النهاية لهؤلاء المدافعين والمدافعات عن الحرية والعدالة.

تأملات على شاطئ فلوريدا[1]

كان أبي يقول: للسفر فوائد لا يراها إلا المحرومون من السفر، كالصحة تاج فوق رءوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى. لهذا السبب أحببت السفر منذ الطفولة، كنت أحلم بالسفر منذ ولدتني أمي، في النوم أراني أطير بدون طائرة، أحرك ذراعيَّ فإذا بي أطير في الجو، وأندهش في الحلم من قدرتي على الطيران والسباحة في السماء مثل العصافير والحمام.

أكتب الآن وأنا أتمدد على شاطئ النخيل تحت شمس الخريف الذهبية في الجنوب الشرقي لولاية فلوريدا بأمريكا الشمالية. غادرت القاهرة في نهاية أغسطس وسط غارة صحفية قادها بعض المسئولين في وزارة الشئون الاجتماعية ضد الاجتماع التمهيدي الكبير الذي عُقد في ٢٢ أغسطس ١٩٩٩م للإعداد لتكوين الاتحاد النسائي المصري. ما الذي أفزع الحكومة فجأة من تكوين اتحاد نسائي؟! رغم أن وزيرة الشئون سبق أن تحمست وأيَّدَت، وأرسلت إلينا قائمة بأسماء وعناوين الجمعيات الأساسية التي تعمل في ميدان المرأة، عددها ٢٢ جمعية، وقالت إنه حسب القانون الجديد يكفي أن تتجمع عشر جمعيات عاملة في ميدان المرأة لتكوين اتحاد نسائي، يُطلَق عليه اسم اتحاد نوعي. حضر اجتماعنا مع الوزيرة وكيل وزارتها الأول، بالطبع لم يتكلم كثيرًا في حضور الوزيرة، إلا أنه لم يعترض على شيء، ولم يقل لنا أن ليس هناك شيء اسمه ميدان المرأة، ولم يقل لنا إن ٢٠٠ جمعية تعمل في ميدان المرأة تفكر في إنشاء اتحاد نسائي وبالتالي يستحيل علينا إنشاء

---

[1] ولاية فلوريدا، أكتوبر ١٩٩٩م.
نُشر بالأهالي، ١٧ نوفمبر ١٩٩٩م تحت عنوان «قبل أن تغرب الشمس».

اتحاد آخر. كان موافقًا على كل ما تقوله الوزيرة، وخرجنا إلى ساحة العمل والنشاط العملي وسط الجمعيات العاملة في ميدان النهوض بالمرأة والأسرة، وتحمس الجميع لإنشاء الاتحاد النسائي المصري من محافظة أسوان إلى الإسكندرية وبورسعيد، وتزايد عدد الجمعيات النسائية التي طالبت بالانضمام إلى الاتحاد النسائي إلى أكثر من سبع وعشرين جمعية في أقل من شهرين، ووصلتنا رسائل أخرى وفاكسات من هيئات وجمعيات تعمل في مجال المرأة تطلب الانضمام، ونشرت الصحف الحكومية وغير الحكومية أخبارًا عن تكوين الاتحاد النسائي المصري وعن الاجتماع الذي سيُعقَد يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٩م وتحضره مندوبات ومندوبو الجمعيات وأعضاء وعضوات اللجنة التحضيرية التي تشكَّلَت للإعداد لإنشاء هذا الاتحاد النسائي.

(١) خرق القانون

فجأة، قبل أن يحلَّ موعد الاجتماع ببضعة أيام قرأنا في الصحف (على لسان وكيل وزارة الشئون الأول عن لسان الوزيرة) تصريحات رسمية أشبه ما تكون بقرارات اتهام لهذا الاتحاد النسائي المزمع إنشاؤه، وهذا الاجتماع يوم ٢٢ أغسطس غير القانوني الذي تدعو له امرأة من عامة الشعب اسمها نوال السعداوي، ليس لها كيان ولا منصب ولا شيء، لها سجل تاريخي حافل بخرق القانون، وقد تسللت إلى مكتب الوزيرة مع شخصيات هامة، وقد استغلت الفترة الحرجة هذه الأيام لتنشر الفوضى في البلاد، وتحرِّض النساء على تكوين اتحاد نسائي غير شرعي وغير قانوني!

ثُمَّ دق جرس التليفون في بيتي وجاء صوت رجل يقول إنه أحد المسئولين الكبار في الحفاظ على أمن البلاد، وسألني عن اجتماع ٢٢ أغسطس. ثُمَّ دق جرس التليفون وجاءني صوت أحد المسئولين عن القاعة التي استأجرناها لنعقد فيها اجتماع ٢٢ أغسطس، وقال إنه اجتماع غير قانوني حسب ما قال له المسئولون عن الأمن. تكررت الأجراس المنذِرة بالخطر المتحدثة تارةً باسم الأمن وتارةً باسم عدم إثارة مشاكل، وتارةً باسم الصداقة. قالت لي إحدى الصحفيات الكبيرات بإحدى الصحف الحكومية الكبرى: ما دام الحكومة مش عاوزة اتحاد نسائي لا يمكن تقدروا تعملوا اتحاد! وقلت لها: لكن الحكومة كانت تعرف، وكانت متحمسة ومؤيدة، فما الذي حدث؟! ثُمَّ مَن قال إن الاتحاد النسائي لا بد أن يُنشأ بأمر الحكومة؟ ألا يمكن أن ينشأ الاتحاد النسائي بمبادرات شعبية؟! أليست هذه هي ألف باء الديمقراطية؟! أم أن الديمقراطية مجرد خُطب في الهواء وحبر على ورق؟!

(٢) مبادرة شعبية

من أجل الديمقراطية التي نسمع عنها كل يوم في الإذاعات قررنا أن اجتماع ٢٢ أغسطس هو اجتماع شرعي وقانوني رغم كل ما يحدث، وأن هذا الاجتماع لا بد أن ينعقد في المكان نفسه وفي الموعد نفسه الذي تقرر، وأننا لن نخضع أبدًا لهذا المنطق غير الديموقراطي، وإن أغلقت القاعة أبوابها أمامَنا فسوف نجتمع في الشارع. لم يكن هذا قراري وحدي، وإنما قرار ١٠٩ من النساء والرجال الذين حضروا الاجتماع يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٩م بقاعة النادي الثقافي المصري بمدينة القاهرة. حضر الاجتماع مِائة وتسعة من النساء والرجال، والمندوبات والمندوبين عن الجمعيات التي أرادت الانضمام إلى الاتحاد النسائي، جاء بعضهن من أسوان وأسيوط والمنيا وبني سويف والإسكندرية وبورسعيد وغيرها من المحافظات، دفعت بعضهن تذاكر السفر في قطار الصعيد وبحثت بعضهن عن أماكن للمبيت في القاهرة بعد انتهاء الاجتماع، طالبت بعضهن بعمل مظاهرة في الشارع ضد وزارة الشئون، كان الاجتماع أشبه ما يكون بمظاهرة تأييد لتكوين اتحاد نسائي مصري بمبادرة شعبية وليس اتِّحادًا نسائيًّا حكوميًّا.

نشرت بعض الصحف ما حدث في اجتماع ٢٢ أغسطس ١٩٩٩م بأمانة وصدق، بعض الصحف تجاهلت الحدث تمامًا، بعض الصحف نشرت أن الاجتماع كان فوضى ولم يحضره إلا قلة منحرفة لا تزيد عن خمسين شخصًا.

أستعيد هذه الذكريات وأنا أسبح في المحيط الأطلسي تحت الأشعة الذهبية في جنوب ولاية فلوريدا، نحن في شهر أكتوبر، أجمل شهر في السنة؛ فهو الربيع في نظري وليس الخريف، أشعر في شهر أكتوبر بنشاط جديد لا يحدث في أي شهر آخر، هل لأنني وُلِدت في هذا الشهر؟ أم لأن حرارة الصيف تذهب وبرد الشتاء لم يأتِ بعد؟ أنا أحب هذا الدفء الناعم الرقيق، ورائحة الماء تشبه بحر الإسكندرية، وطفلة تصرخ بالفرح تذكِّرني بطفولتي على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكُنَّا نسميه في طفولتنا البحر المالح.

(٣) العودة للجذور

أحرك ذراعي وقدمي في الماء وأسبح كالسمكة، أستعيد الفرحة بالعودة إلى الجذور الأولى للبشرية حين كُنَّا نعيش في البحر، كيف تحولنا إلى كائنات برمائية تستلقي فوق الشاطئ تحت الشمس، ثُمَّ كيف فقدنا الزعانف وأصبحنا كائنات أرضية لا تعيش إلا فوق الأرض الصلبة.

حين وصلت إلى فلوريدا في ٢٥ أغسطس ١٩٩٩م كان الناس يتحدثون عن الهوريكين القادمة في شهر سبتمبر، يسمُّونها هوريكين «فلويد»، الخطر الغامض كالشيطان القادم من المحيط. الناس يعيشون في فزع كأنما ينتظرون عزرائيل الموت. قلت لنفسي: ربما كانت القاهرة أكثر أمانًا، بدت الكوارث السياسية والاجتماعية أقل خطرًا من الكوارث الطبيعية كالهوريكين والبراكين والزلازل. على شاشة التليفزيون الأمريكي أشهد كل يوم أشلاء الجثث تحت ركام الزلازل والفيضانات وما يسمُّونه هنا في جنوب فلوريدا «غضب الله».

حين كنت في الهند منذ أكثر من عشرين عامًا رأيت الناس يؤدون صلاة الاستسقاء، يطلبون من الإله شيفا أو الإلهة برافاتي أن تُسقط عليهم الأمطار وتنقذهم من الجفاف. هنا في أمريكا في خريف عام ١٩٩٩م رأيت الناس يؤدون الصلاة لابن «المسيح» لينقذهم من الهوريكين فلويد. أمَّا جنوب فلوريدا — حيث أكون الآن — فهي المنطقة التي تدخل ضمن ما يُسَمَّى «البايبل بيلت» أو «حزام الكتاب المقدس»، إنها تخضع للقوى الدينية السياسية التي تصاعدت في أمريكا منذ حكم رونالد ريجان وجورج بوش، يسمُّونها «الجبهة المسيحية»، تجمع تحت لوائها الأثرياء ورجال الأعمال وكبار الرأسماليين الذين يُطلَق عليهم سياسيًّا اسم «اليمين الأمريكي»، يتزعمهم بعض القساوسة ورجال الدين.

بعد أن لامست الهوريكين فلويد شاطئ فلوريدا من بعيد دون أن تمسه بسوء أعلن حاكم جنوب فلوريدا في العاصمة ميامي (اسمه أليكس بينلاس) على شاشة التليفزيون «أن الذي أنقذ فلوريدا من الهوريكين هو الله؛ فالله في سمائه العليا هو المايسترو الأكبر للطقس الجوي، ويجب على أهل فلوريدا أن يشكروا الله في صلواتهم لأنه أبعد عنهم الهوريكين فلويد وأرسلها إلى البشر الآخرين في ولاية نورث كارولينا.»

سمعت هذه الكلمات بأذني على شاشة التليفزيون، ورأيت وجه حاكم فلوريدا، وقلت له — وأنا جالسة في بيتي في بوكاراتون: «لكن لماذا يغضب الله يا سيدي على الناس في ولاية نورث كارولينا؟!» إن لي أصدقاء وصديقات في ولاية نورث كارولينا حيث عشت أربع سنوات أقوم بتدريس مادة الإبداع والتمرد في جامعة ديوك.

طلبتُ إحدى الصديقات في نورث كارولينا أطمئن عليها، وقالت لي عبر أسلاك التليفون: «ماذا نفعل مع الهوريكين، مصيرنا في يد الله، ولا شيء أمامنا إلَّا الصلاة.»

(٤) تعصب أعمى

كانت أنباء الهوريكين فلويد في العالم كله، لا بد أنها وصلت بلادنا في أفريقيا والشرق الأوسط، الذي كان يُسَمَّى «العالم العربي» أيام الوحدة العربية أو الحلم بالوحدة العربية. أصابتني غفوة وأنا جالسة أمام شاشة التليفزيون، ووجدتني أمشي في مظاهرة كبيرة في شوارع القاهرة تهتف بالوحدة العربية، ثُمَّ أفقت على صوت المذيع في التليفزيون يتحدث باللهجة الإنجليزية الأمريكية الجنوبية، تخرج بعض الكلمات من الأنف: نحن الآن أيها المشاهدون والمشاهدات مع الزعيم المسيحي لولاية فلوريدا. وظهر أمامي وجه رجل غريب الشكل، له أنف مُقوَّس يشبه المرأة، شفتاه رفيعتان مشدودتان، صوته أخنف، يقول عن نفسه «المندوب السماوي على الأرض»، يرفع يديه نحو السماوات العليا، بين يديه الكتاب المقدس: «يا إله السماوات، لا تجعل الهوريكين فلويد تحطم أسقف بيوتنا أو تقطع عَنَّا مياه الشرب أو تزود الحزب الديموقراطي بقصة جديدة يكذبون بها على الناس، لكن يا رب إذا شئتَ أن تُنزل غضبك علينا فأرجو أن تبث الرعب في قلوب الكفرة من اليهود والمسلمين والبوذيين والهندوكيين حتى يعرفوا الله ويؤمنوا بالمسيح.»

وضحكت زميلتي «جين» الأستاذة في جامعة فلوريدا وقالت: هذا الرجل يخرف، لكن يتبعه الآلاف هنا في الجنوب، معهم أموال طائلة، يدفعون الملايين من الدولارات لكسب الحملة الانتخابية وإنجاح مندوبيهم من اليمين الأمريكي، أليس مضحكًا أن إله السماء الذي يؤمنون به قد قرر أن يُغرِق سكان ولاية نورث كارولينا؟! لماذا هُم يغرقون وليس نَحن؟! ربما هو اختبار إلهي عشوائي حسب المزاج مثل دار النشر في ميامي، رفضوا نشر كتابي ووافقوا على كتاب سوزان كلارك؛ زميلتنا في الجامعة، كم هي غبية ولا تعرف شيئًا عن الكتابة، لكن رئيس دار النشر هو الإله الذي يقرر، أو ربما كان الإله هو رئيس فريق كرة في فلوريدا الذي قرر تأجيل المباراة في ميامي، ولماذا يعاقب الإله سكان ولاية كارولينا؟ ربما لأنهم يزرعون الدخان ويصنعون السجائر، وهذا شيء معقول إلى حد ما، إلا أن أغلب سكان ولاية كارولينا لا علاقة لهم بمصانع الدخان؛ فقد أغرقت الهوريكين الفقراء منهم فقط، أمَّا أصحاب مصانع الدخان الأثرياء فقد نجَوْا جميعًا لأن بيوتهم قوية مبنية بالأسمنت المسلح والحديد السميك الذي لا تقدر عليه الهوريكين فلويد! لسوء الحظ أن العقلية هنا لا تختلف عن عقلية المرحوم جدي الأكبر أبو جدي الأصغر والد أبي، الذي كان يؤمن أن المطر لا يهبط من السماء إلا بقرار من الإله، وأن النهر لا يفيض إلا بمنشور إلهي.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الزلزال في تركيا قرار إلهي أراد الله به أن يعاقب الأتراك، والقتلى في تيمور الشرقية قُتلوا بأمر إلهي، وملايين الأطفال الذين يموتون من الجوع في أفريقيا وآسيا إنما هو أمر إلهي أيضًا، وإذا أغرقتنا الهوريكين فلويد، فإن رجال الدين هؤلاء سوف يقولون: «لأن الله يعاقبنا لأننا لا نواظب على الذهاب إلى الكنيسة في أيام الأحد، ولأننا آثمون، وقد أراد الله أن يعاقبنا لأننا تمنينا أن تذهب الهوريكين عنا وتتجه شمالًا نحو ولاية كارولينا.» آه، كم يشعر أهل فلوريدا بالذنب لأنهم فرحوا بالنجاة من الهوريكين على حين كان إخوانهم في ولاية كارولينا يغرقون تحت مياه المحيط!

تنهدت الزميلة الدكتورة جين وقالت: إنها شيزوفرينيا! وهل يمكن أن تشتغل الآلهة في السماوات على هذا النحو الشيزوفريني؟! ربما لهذا السبب اكتشف الناس العلم ودرسوا الفيزياء والذرة والكون والطب والهندسة وغيرها من العلوم، لكن القساوسة في جنوب فلوريدا يريدون العودة بنا إلى الوراء، أتعرفين أن بعض المدارس هنا أدخلت «الدين» كمادة إجبارية، وفرضت الصلاة على التلاميذ، ومنعت تدريس نظرية «داروين» عن تطور الإنسان لأنها تتعارض مع نظرية الخلق الواردة في الكتاب المقدس! وسألتني جين قائلةً: خطأ من هذا؟ قلت لها: خطؤنا نحن؛ لأننا نجلس أمام شاشة التليفزيون، هيا بنا إلى الشاطئ نسبح في المحيط تحت الأشعة الذهبية قبل أن تغرب الشمس.

رحلة الصيف إلى الجنوب الأفريقي[1]

اندهشتْ صديقتي الكاتبة المصرية البارزة حين قلت لها إنني مسافرة إلى الجنوب الأفريقي، كانت هي تعد حقائبها للسفر إلى الساحل الشمالي حيث الفيلا الكبيرة على بحيرة مارينا. إن الحر في القاهرة لا يُطاق في شهر أغسطس مع زيادة الرطوبة، لم تكن الكاتبة البارزة (الحاصلة على درجة الدكتوراه في الجغرافيا أو التاريخ) تعرف أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، كما اعتقد بعض الآلهة القدماء، وأن المدار الذي تدور فيه الأرض له شكل بيضاوي مائل، وحين تكون الشمس رأسية حامية فوق أرض مصر خلال شهر أغسطس، فإنها تصبح فوق الجنوب الأفريقي مائلة حانية حنان الأم أو الأب الذي يفهم معنى الأبوة الحديثة. قلت لصديقتي الكاتبة البارزة التي تُدرِّس لطلاب الجامعة الجغرافيا أو التاريخ: «أغسطس هو شهر الشتاء في الجنوب الأفريقي وليس الصيف.» اندهشت الكاتبة وقالت: «أهكذا تنقلب فصول السنة فوق القارة الواحدة؟»

كانت الدعوة قد جاءتني لحضور معرض الكتاب الدولي الذي يُعقَد في زيمبابوي كلَّ عام خلال أجمل الشهور في الشتاء، وهما يوليو وأغسطس، لم تكن صديقتي (الأستاذة الجامعية والكاتبة المعروفة) تعرف أن «هاراري» هي عاصمة زيمبابوي، وأنها تقع في أقصى الجنوب الأفريقي شمال مدينة جوهانسبرج. نطقت كلمة هاراري بطرف لسانها، وقلب الراء إلى غين (مثل بنات الأرستقراطية المصرية الفرنسية القديمة)، وقالت: «يا عزيزتي لن يكون لأفريقيا وجود في خريطة العالم في القرن الواحد والعشرين،

[1] هاراري-زيمبابوي، ٣/ ٨/ ١٩٩٩م.

إنها تغرق في الجهل والمرض والحروب الأهلية.» قلت لها: «وماذا عن مصر؟» انتفضتْ وصاحتْ: «لأ! مصر حاجة تانية! مصر ليست في أفريقيا يا عزيزتي! مصر في الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط!»

قلت لها: «مصر في أفريقيا، في شمال أفريقيا، انظري إلى الخريطة!» إلا أن صديقتي الكاتبة البارزة والأستاذة الجامعية لم تكن تريد الاعتراف بالجغرافيا والواقع والحقيقة، وظلت تقول: مصر ليست من البلاد الأفريقية.

علاقتي بأفريقيا أشبه ما تكون بالعلاقة العضوية، تجذبني إلى منابع النيل رائحة الأرض والماء والزرع، كأنما ولدتني أمي في قلب أدغال أوغندة على أحد شواطئ بحيرة فيكتوريا، وقد عشت في قلب أفريقيا حين اشتغلت بالأمم المتحدة في اللجنة الاقتصادية لأفريقيا عام ١٩٧٩م، وكان مقري أديس أبابا، واقتضى العمل أن أسافر في جميع البلاد الأفريقية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وكان الانتقال من بلد أفريقي إلى بلد أفريقي آخر لا بد وأن يمر بإحدى العواصم الأوروبية، ولكي أصل من أديس أبابا إلى السنغال أو النيجر وساحل العاج لا بد أن أطير شمالًا إلى القاهرة، ثُمَّ أجتاز البحر الأبيض المتوسط إلى باريس، ومن باريس أركب الطائرة إلى داكار في السنغال أو إلى هراري في زيمبابوي أو غيرها، لكن اليوم — وبفضل مصر للطيران — أصبحنا نطير مباشرةً من القاهرة إلى هاراري دون المرور على أوروبا.

أول مرة سافرت إلى هاراري عاصمة زيمبابوي كان في شهر يوليو ١٩٨٥م، بعد انتهاء المؤتمر الدولي للمرأة الذي عُقِدَ في نيروبي، كُنَّا مجموعة من الكاتبات الأفريقيات تزيد عن الثلاثين كاتبة وأديبة وشاعرة، قررنا أن نؤسس معًا جمعية للكاتبات الأفريقيات، وتم اختيار مدينة هاراري لتكون مقر اللقاء الأول، وسافرنا معًا من نيروبي إلى هاراري، وفي فندق «مونو موتابا» (باسم إحدى الإلهات الأفريقيات القديمات) جلسنا في قاعة «إندابا»، وأعلنَّا إنشاء جمعية الكاتبات الأفريقيات. وقد مضى على هذا اليوم أربعة عشر عامًا، وحين وجدنا أنفسنا مرة أخرى في القاعة ذاتها والفندق ذاته، وربما الوجوه والأسماء ذاتها، زاد علينا بعض الشابات الكاتبات من الكاميرون وناميبيا وبوتسوانا وغانا ومالي وتنزانيا وزامبيا وأوغندة والصومال وغيرها، بلغ عددنا أكثر من خمسين كاتبة، وبحثنا عن الجمعية القديمة التي أقمناها عام ١٩٨٥م فلم نجد لها أثرًا، أين راحت؟!

قالت الكاتبة الأفريقية من غانا، واسمها «آما أتا أودو»: «لقد تفرقنا يا نوال وتبعثرنا في القارات من أمريكا الشمالية إلى أستراليا وكندا؛ هربًا من الحكومات الدكتاتورية في بلادنا الأفريقية»، إنها «آما أتا أودو»، إحدى الكاتبات الشهيرات الأفريقيات التي كانت

وزيرة للثقافة في غانا، وبانقلاب الحكم اضطُرَّت إلى الرحيل إلى أمريكا الشمالية حيث أصبحت أستاذة زائرة في جامعةٍ بولاية نيويورك. وأيضًا الكاتبة الأفريقية من كينيا واسمها «ميشيري موجو»، التي هربت من الاضطهاد في كينيا، وبحثت عن عمل خارج وطنها في كندا وأستراليا، ثُمَّ استقر بها الحال في جامعة سيراكيوس بالولايات المتحدة. والكاتبة «سينديو ماجونا» من جنوب أفريقيا التي هربت من حكومة الأبارثايد العنصرية وحصلت على وظيفة بالأمم المتحدة في جنيف. وغيرهن الكثيرات من الأديبات المبدعات في أفريقيا اللائي أنقذن حياتهن من براثن الاضطهاد في أوطانهن، وهاجرن إلى بلاد العالم، حيث أثبتْنَ كفاءتهن الأدبية أو العملية، وحققن شهرة عالمية أو مكانة بارزة في عالم، لم يحظَ بها بعض حكامهن.

قلت لآما أتا أودو ومشيري موجو وسينديو ماجونا: «لماذا لا نعيد تأسيس جمعيتنا القديمة للكاتبات الأفريقيات؟» وفعلًا جلسنا في القاعة ذاتها التي جلسنا فيها منذ أربعة عشر عامًا وأعلنَّا قيام جمعية الكاتبات الأفريقيات، عدد المشاركات في التأسيس الجديد خمس وستون كاتبة، والتاريخ ٢ أغسطس ١٩٩٩م.

تلفتُّ حولي أبحث عن كاتبات من أفريقيا الشمالية، فلم أجد كاتبة من المغرب أو تونس أو ليبيا أو الجزائر، ومن مصر لم يكن هناك إلا أنا.

وقلت: «أين الكاتبات في الشمال الأفريقي؟!» وقالت ميشيري موجو: «المشكلة أن الكاتبات في شمال أفريقيا يكتبن باللغة العربية، وقليل جدًّا منهم من تُترجَم أعمالهن إلى الإنجليزية أو الفرنسية.»

كانت الكاتبة «تسي تسي داجاريمبو» (من زيمبابوي) قد قدَّمَت بحثًا في إحدى الندوات عن «مشكلة اللغة في التواصل بين الكاتبات الأفريقيات»، إن معظم الكاتبات من أفريقيا اللائي يَشتَهِرن عالميًّا يكتبن باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، أمَّا اللائي يكتبن باللغات الأفريقية المحلية فلا مكان لهن فوق خريطة العالم؛ بعض آثار الاستعمار القديم والجديد.

لهذا كان أول هدف من الأهداف التي وضعناها لجمعية الكاتبات الأفريقيات هو:

(١) العمل على ترجمة أعمال الكاتبات من اللغات المحلية إلى اللغات العالمية.

(٢) تشجيع الكاتبات على الكتابة باللغة المحلية حتى لا تنعزل الكاتبة عن أهل بلادها، ومن بعد الكتابة باللغات المحلية يمكن الترجمة بعد ذلك لمن تشاء.

(٣) عقد الندوات الأدبية المشتركة بين الكاتبات الأفريقيات على الأرض الأفريقية وليس في أوروبا وأمريكا.

(٤) مناقشة الأعمال الأدبية التي تنتجها الكاتبات الأفريقيات والتي يتجاهلها النقاد الرجال.

إحدى الندوات في معرض الكتاب الدولي ٩٩ في زيمبابوي ناقشت سيرتي الذاتية «أوراقي حياتي» التي تُرجمت إلى الإنجليزية بعنوان «ابنة إيزيس»، وقد دُهشت حين علمت أن هذه السيرة الذاتية قد نالت الاهتمام الأدبي من معظم النقاد في القارة الأفريقية (والأوروبية والأمريكية) إلا الأصدقاء النقاد في مصر، رغم أنها صدرت باللغة العربية منذ ٣ سنوات عن دار الهلال، وصدر الجزء الثاني منها العام الماضي عن دار المستقبل العربي، مع ذلك لم يهتم بها في بلدنا إلا النادر القليل، بل إن جمعية الكاتبات المصريات رفضت عقد ندوة أدبية لمناقشة هذه السيرة الذاتية، وقالت إحدى المسئولات بها: «يا خبر إسود! دي سيرة ذاتية خطيرة!»

منذ ثلاثين عامًا (وبالضبط عام ١٩٦٩م)، طرأت لي فكرة إنشاء جمعية للكاتبات المصريات، عرضتُ الفكرة على بعض الصديقات الكاتبات، وبدأنا تسجيل الجمعية بوزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٧٠م، وفعلًا وُلدت الجمعية، إلا أن انقلاب السياسة في عهد السادات قد أدى إلى تجميد نشاط هذه الجمعية لأكثر من عشرين عامًا، ولم تستأنف عملها إلا في السنين الأخيرة.

تذكرت هذا التاريخ وأنا أشارك في ندوة معرض الكتاب الدولي في زيمبابوي، وأستمع إلى كبار النقاد في العالم يناقشون سيرتي الذاتية، تذكرت أيضًا أن معرض الكتاب الدولي الذي يُعقَد بالقاهرة (كل عام في بداية الشتاء) لم يعقد ندوة واحدة لمناقشة أيِّ كتاب من كتبي، ولم يَسمع شيئًا عن سيرتي الذاتية أو غيرها من مؤلفاتي، وقد رفض عقد ندوة أتحدث فيها لرواد معرض الكتاب من الشباب والشابات، وقال أحد المسئولين عن إقامة المعرض: يا خبر إسود، ندوة لنوال السعداوي؟! دي كاتبة خطيرة!

أجمل ما شهدت في مدينة هاراري هذا العام هم أطفال المدارس الذين تجمعوا في مسرح «شيباوو» الأفريقي يوم ٣ أغسطس ١٩٩٩م، فوق خشبة المسرح صعدت طفلة في الثانية عشر من عمرها، وراحت تقرأ بعض الفقرات من أحد كتبي المترجم إلى اللغة الإنجليزية، ثُمَّ شاركها بعض الأطفال من البنات والأولاد، وراحوا يقدمون مسرحيات قصيرة مأخوذة من روايات الأديبات الأفريقيات، ومنها بعض رواياتي.

وسط التصفيق الذي ملأ القاعة الفسيحة التي تضم أكثر من طفل وطفلة، وقفت وقلت: «هذا يوم من أجمل أيام حياتي؛ لأنه يقع فوق أرض أفريقية، ولأني أرى أمامي وجوهًا نضرة سمراء البشرة، عيونها تلمع بالفرح، وتذكرني بطفولتي في قريتي على ضفاف النيل.»

أشياء صغيرة ... مفسدة للفرح[1]

توقفت سيارتي ذات يوم في الشارع لأركب «تاكسي» إلى الجيزة ... كنت أعرف أن الأجرة خمسة جنيهات، إلا أن صاحب التاكسي أراد أن يأخذ عشرة جنيهات، رفضت الركوب. وجاء تاكسي آخر، قال لي السائق: ادفعي ما تشائين. حين ناولته الجنيهات الخمسة رفض وقال: أريد ثمانية جنيهات. ضيَّعت وقتًا في الجدل مع السائق الذي كان غليظ الصوت يستخدم لغة غير لائقة؛ مما أصابني بالغضب، لم يكن عندي وقت ولا طاقة نفسية لأواصل الجدل فأعطيته الجنيهات الثمانية، كنت أعلم أنه يستغل كوني امرأة مثقفة ووقتي ثمين وكرامتي أثمن، لا أريد أن أهدرها في الشارع مع سائقي التاكسيات؛ لهذا حصل مني على مبلغ لا يستحقه. رغم أن هذا المبلغ ثلاثة جنيهات فقط، إلا أن يومي كله تعكر، وسؤال ظل يلحُّ عليَّ: «كيف تركت هذا السائق يستغلني رغم ثقافتي ودفاعي الدائم عن العدل؟!» تضايقتُ من نفسي لأني تنازلت عن حقي، كنت أعرف أن الاستغلال لا يمكن أن يحدث دون أن يتنازل الإنسان عن حقوقه، سواء كان فردًا أو جماعة.

(١) خطوة نحو الاستبداد

الشعب الذي يتنازل عن حقوقه يخلق الحاكم المستبد الظالم في الدولة، المرأة التي تتنازل عن حقوقها تخلق الزوج المستبد الظالم في الأسرة، الراكبة التي تتنازل عن حقها تخلق صاحب التاكسي المستبد الظالم في شوارع المدينة.

---

[1] جريدة الأهالي، ٢٣ يونيو ١٩٩٩م.

تعكَّر اليوم بسبب هذه الأفكار التي تزاحمت في رأسي، كنت أحضر اجتماعًا في جامعة القاهرة أتحدث فيه عن الديمقراطية، ووجدتني أبدأ الحديث بأن أقول إن الإنسان أو الشعب الذي يتنازل عن حقه في الحرية لا يمكن أن يعيش الديمقراطية.

لأن الديمقراطية سلوك يومي في الحياة، في البيت، وفي الشارع، وفي مكان العمل، وفي الحزب السياسي، وفي البرلمان وكل مكان، وحكيت ما حدث بيني وبين صاحب التاكسي، وبدأ الحاضرون جميعًا نساءً ورجالًا يحكون تجارِبهم الشخصية، وكيف أنهم يتنازلون عن حقوقهم كل يوم وكل لحظة من أجل أن يهرولوا إلى مواعيدهم وأعمالهم التي لا تحتمل التأجيل.

في طريق العودة إلى بيتي قررت ألا أتنازل عن حقي ولن أدفع أكثر من خمسة جنيهات وإن اضطُرِرت إلى العودة سيرًا على القدمين، وفعلًا بدأت السير، وكنت متحمسة لهذه الحركة المتحدية لأصحاب التاكسيات، وأصابتني الحركة مع الحماس بشحنة من السعادة، وكانت الشمس مشرقة وهواء مايو منعشًا، إلا أن المسافة بين الجيزة وحدائق شبرا بدت أمامي طويلة، وفجأة رأيت محطة «المترو»، كانت المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها محطة مترو في القاهرة، لقد رأيت الكثير من محطات المترو في العالم، وركبت القطارات تحت الأرض (داخل الأنفاق) في معظم العواصم والمدن. توقفت لحظة وقلت لنفسي: ولماذا لا أركب المترو تحت الأرض؟! كنت أرى العمال يحفرون شوارع القاهرة منذ سنوات، وأسمع عن أن مدينة القاهرة سوف يكون بها قطارات تحت الأرض أو «مترو الأنفاق».

(٢) هواجس مشروعة

لم يكن لي أن أصدق أن هذا سوف يحدث، وإن حدث فلن أركب مترو الأنفاق في مدينة القاهرة! لماذا سيطرت عليَّ الفكرة أن هذا المترو لن يسير، وإن سار فسوف يتوقف أو يتعطل مثلما تتعطل كل الأشياء في المدينة، ومنها المصعد الذي يأخذني إلى شقتي في العمارة الجديدة في الدور السادس والعشرين، وكم توقف بي المصعد حيث كدت أموت في يوم من الأيام، وتدربت على الصعود على القدمين ستة وعشرين دورًا. تصورت أن مترو الأنفاق لن يكون أحسن حالًا من المصاعد الكهربية، وقد ينقطع التيار في أي لحظة، بل قد يسقط النفق فوق القطار، أو يحدث حريق، أو تتسرب مياه المجاري إلى تحت الأرض، أو

يهمل أحدهم وينسى شيئًا فإذا بقطار يصطدم بالقطار الآخر، وكم من حوادث قطارات فوق الأرض، فما بال تحت الأرض؟!

إلا أن الشمس قد بدأت تشتد حرارتها، وبدا الطريق من الجيزة إلى شبرا طويلًا، وجمعت شجاعتي وهبطت إلى مترو الأنفاق.

أصابتني ما يمكن أن يُسَمَّى «صدمة حضارية»، كأنما أصبحت في أجمل المدن وأنظفها وأكثرها احترامًا للشعب، ربما هي مدينة في سويسرا أو السويد، ليست أبدًا هي مدينة نيويورك أو لندن حيث أصبحت القطارات تحت الأرض ومحطاتها من أقذر الأمكنة وأكثرها خطورة، أذكر أن قطارًا احترق بي في نيويورك، وقطارًا في لندن اصطدم بقطار آخر، واشتعل الحريق حتى كدت أختنق مع الآلاف تحت الأرض لولا حضور بوليس النجدة والإسعاف.

تصورت أنني أصبحت خارج مصر، لكني تذكرت أنني داخل محطة مترو الأنفاق، وأنني واقفة على الرصيف النظيف أتطلع إلى الأسهم والعلامات التي ترشدني إلى حيث أذهب.

من حسن حظي أن خط الجيزة يذهب مباشرةً إلى شبرا، رأيت فوق الرصيف زحامًا من طلبة الجامعة والطالبات، وفلاحات وخادمات منازل يحملن سَبَت الخضار، وموظفين وربات بيوت، فقراء ومن الطبقة الوسطى وفوق الوسطى، رأيت بعض أساتذة الجامعة، بعض السيدات الأنيقات من الطبقة العليا، ونساء بالطُّرَح والحجاب والنقاب، ورجالًا بالجلاليب وملابس العمل ... كل طبقات الشعب المصري واقفة فوق الرصيف الطويل تنتظر القطار، فوق رأسي رأيت جهاز تليفزيون مصري يتحدث باللغة الإنجليزية، اندهشت، لماذا الإنجليزية مع أن جميع الركاب من المصريين والمصريات؟! جاء القطار وهبط الناس وصعد الناس في طابور منظم جميل ذكَّرني بأوروبا، عيون الشباب تتطلع إلى المحطة والقطار بفرح وزهو، أو ربما هي عيوني التي ملأها الفرح والزهو فتصورت أن كل العيون مثل عيوني. أجمل شيء أن إحدى الطالبات فتحت كتابًا وراحت تقرأ رغم أنها كانت واقفة وليست جالسة في مقعد، تذكرت كم كنت أُعجب بالناس في أوروبا حين أراهم يقرءون في القطارات ولا يضيعون الوقت. قلبي يخفق بالفرح والحب لهذه الوجوه المصرية الحميمة، البشرة السمراء بلون بشرتي، العيون السوداء بلون عيوني، إلا أن الفرح والفخر يملؤها وليس الحزن القديم أو الهوان المزمن.

(٣) امرأة واحدة

انطلق القطار بالسرعة التي تنطلق بها القطارات في أوروبا وأمريكا، يحملني القطار على جَناح السرعة إلى شبرا في دقائق، وأنا أتطلع في سعادة إلى جدران المحطات المتعاقبة النظيفة الجديدة، وكل شيء يبدو مفرِحًا إلا بعض أسماء المحطات التي بدت كلها أسماء رجال حكموا مصر، كأنما مدينة القاهرة تحت الأرض يملكها الحكام الرجال كما ملكوها فوق الأرض ... ما هذا التقديس الموروث منذ الفراعنة لحكام مصر؟!

كان يمكن أن تكون هناك محطة واحدة باسم حاكم في التاريخ حرر بلادنا من الاحتلال الأجنبي مثلًا، لكن أن نضع أسماء كل الحكام، هذا الذي حرر مع هذا الذي لم يحرر، فهذا مؤلم فعلًا لمشاعر الشعب المصري الذي يدرك تمامًا أن ليس كل حاكم يستحق أن يمتلك محطة تحت الأرض، ألا تكفي المحطات فوق الأرض؟!

في أوروبا كنت أقرأ أسماء كبار العلماء أو الأدباء أو الفلاسفة الكبار الذين غيَّروا مسار الفكر البشري ليصبح أكثر إنسانيةً وعدلًا وحريةً وجمالًا. أغلبهم رجال بالطبع، وقليل جدًّا من أسماء النساء الفيلسوفات أو الأديبات المرموقات، إلا أن مدينة القاهرة تحت الأرض لم أقرأ اسم امرأة مصرية واحدة فوق إحدى المحطات! إلا اسم «سانت تيريزا».

ألا توجد امرأة واحدة في تاريخ مصر القديم أو الحديث تستحق أن يوضع اسمها فوق إحدى المحطات؟! وكم تفخر أوروبا بنسائها المشاركات في تحرير بلادهن أمثال جان دارك! ألا توجد في مصر واحدة شاركت في تحرير بلادنا خلال القرون الماضية؟! أو شاركت في الفكر والأدب والعلم؟!

وهل ينتقل العالم الذكوري الطبقي من فوق الأرض إلى تحت الأرض بهذا الشكل المؤلم؟! كأنما بلادنا مسكونة بالذكور فقط وأصحاب السلطة يركبون على أنفاسنا تحت الأرض أيضًا!

(٤) النقط السوداء

هبطت في محطة شبرا القريبة من بيتي، قبل أن أصعد إلى الشارع ذهبت إلى ناظر المحطة لأطلب خريطة لخطوط القطارات.

لا يمكن لأحد أن يعرف طريقه تحت الأرض دون خريطة، وفي كل مدن العالم يمكن الحصول على هذه الخريطة من شباك التذاكر.

فوجئت بأن ناظر المحطة ليس لديه خريطة، وأن شبابيك التذاكر ليس بها خرائط، لماذا؟ لم يكن لي أن أعود إلى بيتي دون خريطة أسترشد بها في رحلاتي القادمة داخل مترو الأنفاق. بعد نصف ساعة تقريبًا، وبعد أن قلت إنني كاتبة مهمة جدًّا، استطاع ناظر المحطة أن يحصل لي على خريطة، إنها مطبوعة بالألوان فوق ورق مصقول لامع ثمين. اندهشت كثيرًا؛ لأن خريطة مترو الأنفاق في أغنى بلاد العالم تُطبَع على ورق عادي لتكون في متناول الناس دون ثمن.

سألت ناظر المحطة فقال لي ما أدهشني ... قال: نحن لا نعطي هذه الخريطة إلا للسياح الأجانب؛ ولذلك لا بد أن يكون مظهرها براقًا جميلًا. قلت له: هذا المشروع «مترو الأنفاق» للشعب المصري وليس للسياح الأجانب، جميع الركاب والراكبات من المصريين والمصريات، فكيف تُطبَع الخريطة فقط للأجانب؟

وكيف تكون الإذاعة في التليفزيون على الأرصفة باللغة الإنجليزية؟!

ابتسم الناظر برقة وقال: واللهِ مش عارف!

أشياء صغيرة قد تفسد جمال الأشياء، مثل النقط السوداء فوق القلب الأبيض المملوء بالفرح. قاومتُ هذه السلبيات القليلة التي يمكن أن تعالَج عن طريق الكتابة والنقد من أجل أن يفرح الشعب المصري بمشروع جديد، يحرره من عبودية المواصلات فوق الأرض ومنها التاكسيات.

وبدلًا من أن أدفع ثمانية جنيهات لصاحب التاكسي دفعت خمسين قرشًا (نصف جنيه فقط) ثمن التذكرة من الجيزة إلى بيتي في شبرا.

أدخلت سيارتي الجراج، وأخرجت أصحاب التاكسيات من حياتي، وقررت ركوب المترو تحت الأرض كل يوم.

في ذكرى مرور نصف قرن
على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

حق الحياة[1]

كنت تلميذة صغيرة في المدرسة الثانوية حين صدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م بمدينة باريس، لم أسمع شيئًا عن هذا الإعلان في مدرستي، لم يُحدِّثنا أحد من المدرسين أو المدرسات عنه، ربما كتبت الصحف الصادرة من القاهرة شيئًا عنه، إلا أننا لم نكن نقرأ الصحف في المدرسة، وهي مدرسة داخلية للبنات في مدينة صغيرة جنوب القاهرة اسمها «حلوان». ومن نافذة عنبر النوم كنت أطل على الصحراء وتلال من الرمال، ومن الناحية الأخرى كانت ثكنات الإنجليز العسكرية، تبدو في الليل كالأشباح السوداء، تنطلق منها كشافات الضوء، تفحص السماء والأرض، وتستقر على وجوهنا نحن البنات الواقفات في النافذة مثل السجينات وراء القضبان، ونختفي منها وراء الشيش، إلا أنها تنفذ إلينا من الشقوق أو الفتحات في النوافذ، وإن اختبأنا تحت الأسِرَّة تسري إلينا ومعها أصوات العساكر الإنجليز العالية وضحكاتهم الساخرة وكلمات غزل باللغة الإنجليزية لا نفهمها، إلا أننا ندرك أنها كلمات نابية قبيحة المعنى، من الطريقة

---

[1] القاهرة، في ديسمبر ١٩٩٧م.

التي ينطقونها بها وقهقهاتهم الخشنة الفجة تهتك سكون الليل في مدينة حلوان الصغيرة الراقدة في حضن الصحراء الممدودة كبحر من الرمال حتى نهر النيل.

لم يُحدِّثنا أحد في المدرسة عن حقوق الإنسان، سواء كان هذا الإنسان رجلًا أو امرأةً، شابًّا أو طفلًا أو تلميذًا أو تلميذةً، وفي طابور الصباح قبل أن ندخل إلى الفصول كانت الناظرة تمر علينا بوجه غاضب منقبض العضلات، من خلفها وكيلاتها أو ضابطات الداخلية مثل العساكر الإنجليز، يدبُّون فوق الأرض بكعوب حديدية، فوق وجه كل منهم تكشيرة أكبر من تلك التي فوق وجه الناظرة، في يد كل منهم مسطرة طويلة حادة كالسيف، قد تهبط فجأة فوق أصابعنا ونحن واقفات في الطابور نرتعد من الخوف.

في طفولتي لم أعرف أنني «إنسان» ولي «حقوق» يمكن أن أطالب بها، في المدرسة كُنَّا نغنِّي في طابور الصباح كل يوم: «الله، الملك، الوطن»، في الفصل نسمع المدرسين والمدرسات يقولون إن الطاعة واجبة لله والملك والوطن، وإن الموت في سبيل الله والملك والوطن ليس موتًا وإنما هو المجد العظيم والدخول إلى جنة الخلد في السماوات العلا. بالطبع كُنَّا نصدق كل ما نسمعه في المدرسة، خاصةً من الرئيسة أو الناظرة، بدت بوجهها الصارم وكأنها مندوبة الله والملك والوطن، هؤلاء الثلاثة لم نكن نراهم، فالله مجرد كلمة نسمعها أو نقرؤها، والوطن أيضًا مجرد كلمة، والملك لا نراه إلا في الصور المنشورة في الصحف، لكن الناظرة كانت تتجسد أمامنا على شكل امرأة جاحظة العينين من وراء نظارة زجاجية ويد سميكة، أصابعها قوية تُمسك بعصًا طويلة لها شكل المسطرة.

كنت وصديقاتي البنات نحب الجري واللعب في فناء المدرسة مثل الأطفال في هذا العمر، كُنَّا نحب أيضًا الغناء والرقص، والعزف على العود أو البيانو أو الطبلة أو الرق أو الكمنجة أو غيرها من الآلات الموسيقية القديمة والحديثة. لم نكن نمارس هذه الهوايات إلا في الإجازات أو في أوقات الفراغ بعد الدراسة، إلا أن أوامر الناظرة كانت صارمة تمنع كل هذه الهوايات وتقول إنها مفسدة لأخلاق البنات.

الإجازة الصيفية الطويلة كنت أقضيها مع أسرتي في المدينة الصغيرة تشبه القرية، اسمها منوف، في وسط الدلتا، لم يكن مسموحًا للبنات المراهقات أن يخرجن إلى الشارع أو الحقول ليلعبن أو يركبن الدراجة مثل الأولاد الصبيان. كان أخي «طلعت» — وهو يكبرني بعام واحد — يلعب طوال الإجازة الصيفية، ويستمتع بالخروج إلى الشارع والحقول وركوب الدراجة والسهر مع أصدقائه في دار السينما أو المسرح. وسألت أمي: لماذا يستمتع أخي بهذه الحقوق رغم أنه راسب في المدرسة بينما أنا أُحرم منها وأقضي

الإجازة في المطبخ رغم أنني ناجحة في المدرسة بامتياز؟ وكان رد أمي الوحيد هو: «لأنه ولد وأنتِ بنت.» وسألتُ أبي السؤال نفسه، وكان رده مشابهًا لرد أمي، وأضاف عليه قائلًا: هذا هو أمر الله، وعليكِ الطاعة دون مناقشة. إلا أن عقلي لم يكن يقتنع بالطاعة العمياء، خاصةً إذا كان الأمر ليس عادلًا، فكيف أجتهد في المدرسة طوال السنة الدراسية ثُمَّ أعمل في الإجازة في المطبخ وتنظيف البيت، أمَّا أخي فهو يلعب في المدرسة ويلعب في الإجازة ولا يعمل في البيت مثلي، بل لا يرتب سريره ولا ينظف غرفته ولا يغسل الصحن الذي أكل فيه، وأقوم أنا بكل هذه الأعمال بدلًا منه! هل يمكن أن يأمر الله بالظلم؟!

سألتُ الله هذا السؤال في أحلامي وصلواتي إليه، إلا أن الله لم يرد عليَّ. وقال أبي إن الله ليس له لسان وليس له أذن وليس له جسد، وسألت أبي: بلسان مَنْ يتحدث الله حتى نسمعه نحن البشر؟

وقال أبي: يتحدث الله بلسان الأنبياء والرسل وأولي الأمر.

وفي المدرسة عرفت أن أولي الأمر هم الآباء، أولياء أمور التلميذات، وعرفت الصلة بين الله وأبي، فإن أبي هو الذي يتحدث بلسان الله في البيت، مثلما تتحدث الناظرة في المدرسة، وأن عصيان الأب يعني عصيان الله، يعني عصيان الناظرة، وهذا كله يعني عصيان الملك والوطن.

بعد أن بلغت سن الرشد وتخرجت من المدرسة الثانوية، وأصبحت طالبة في كلية الطب، بدأت أفهم العلاقة التاريخية بين هذه القوى في السماء وفوق الأرض، في المدرسة أو البيت أو الوطن.

ولأن أبي مسلم يؤمن بكتب الله الثلاثة (القرآن والإنجيل والتوراة)، فقد ورثتُ عنه هذا الإيمان، وقرأت كتب الله الثلاثة، ودُهشت للتشابه الكبير بينها، خاصةً فيما يتعلق بحقوق النساء والرجال، واكتشفت أن حقوق المرأة أقل من حقوق الرجل في الأديان الثلاثة، إلا أن كتاب التوراة أشد ظلمًا منه للنساء من كتاب الإنجيل ومن كتاب القرآن، مثلًا هناك آية في التوراة تقول إن نجاسة «دم الأم» التي تلد أنثى تكون ٦٤ يومًا، يعني ضعف نجاسة «دم الأم» التي تلد الذكر، وهي ٣٢ يومًا فقط، وتؤكد آيات التوراة على أن أمنا حواء هي أول من اقترف الخطيئة الكبرى وأكل من شجرة المعرفة التي حرَّمها الله.

إلا أن الله في كتابه الثالث «القرآن» لم يظلم حواء كل هذا الظلم؛ فالآية تقول إن آدم وحواء كلاهما أَزلَّهما الشيطان إبليس وأكلا من الشجرة، والشجرة في القرآن بلا اسم، ولا نعرف إن كانت شجرة المعرفة أو شجرة أخرى، كما أن الله في القرآن لم يوجِّه الإدانة

أو الخطيئة لحواء وحدَها بل شمل آدم أيضًا. أمَّا في الآية ٣٧ من سورة البقرة وهي آية الغفران أو التوبة؛ ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، كلمة ﴿عَلَيْهِ﴾ في القرآن بالمفرد وليس المثنى كما جاءت الآية السابقة بالعصيان، هكذا نفهم التوبة كانت من نصيب آدم بالمفرد، أي وحده، أمَّا حواء فقد حُرمت من التوبة، فهي لم تتلقَّ كلمات من ربها، كلمة ﴿تَلَقَّى﴾ جاءت بالمفرد في القرآن وليس بالمثنى كما في الآية السابقة ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾.

لماذا غفر الله لآدم ولم يغفر لحواء رغم أنهما اشتركا معًا في الإثم؟ أليس للمرأة حقوق الإنسان مثل الرجل؟ أم أن الرجل هو الإنسان والمرأة ليست الإنسان؟!

في عام ١٩٥٦م قرأتُ لأول مرة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأصابتني صدمة تشبه الصدمة في طفولتي حين قرأت لأول مرة كتب الله الثلاثة. في ديسمبر ١٩٥٦م كنت طبيبة ناشئة في الوحدة الصحية بقرية طحلة بدلتا النيل، كنت قد تدربت على السلاح في معسكر القرية لأتطوع في الحرب والدفاع عن الوطن أو مدينة بورسعيد التي ضُربت بالقنابل الإنجليزية والفرنسية والإسرائيلية في آنٍ واحد، وأصبح الواجب الوطني الأول هو النيل من هذا العدوان الثلاثي، الذي اتضح فيما بعد أنه عدوان رباعي (اشتركت فيه الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا على نحو غير مباشر أو غير مُعلَن)، كنت أتصور في هذا العمر من أول الشباب أن البند الأول في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سوف يحرِّم اعتداء دولة كبرى على دولة صغرى بالقنابل، أو اعتداء مجموعة من الدول الكبيرة على دولة صغيرة في أفريقيا لا تملك جيشًا مسلَّحًا تسليحًا حديثًا. وكنت أتصور أن البند الثاني سوف يُحرِّم الاستعمار الاقتصادي بمثل ما يُحرِّم الاحتلال العسكري لأي بلد في العالم. وكنت أعرف منذ الطفولة أن بريطانيا العظمى قد احتلت مصر عسكريًّا عام ١٨٨٢م، وأنها حوَّلت مصر إلى مزرعة للقطن لحساب بريطانيا وضد مصالح الشعب المصري، خاصةً الفلاحين الفقراء، وكنت منذ الطفولة أسمع جدتي الفلاحة الفقيرة تغنِّي مع نساء القرية: «يا عزيز يا عزيز، كُبَّة تاخد الإنجليز.» وكنت أتصور أن البند الثالث من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سوف يُحرِّم المقاييس المزدوجة التي تحكم عالميًّا بين الدول المختلفة، والتي تحكم محليًّا داخل الدولة الواحدة، والتي تحكم عائليًّا داخل الأسرة الصغيرة.

في مقدمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قرأت كلامًا عامًّا عن المساواة بين البشر بصرف النظر عن اللون أو العرق أو الجنس أو الجنسية أو الدين … إلخ، إلا أن هذا

الكلام العام لم يُترجَم إلى بنود وحقوق واضحة محددة، وجاء كلامًا مُرسَلًا عامًّا مثل الآيات في الكتب الدينية أو الدساتير الحكومية.

رغم النص الذي يؤكد المساواة بين الرجل والمرأة، إلا أن لغة الإعلان ذكورية تستخدم كلمة الإنسان بالمذكر كأنما الإنسان هو الرجل فقط. وهناك نص واضح يؤكد أن الأسرة هي الوحدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع، ولا بد من حمايتها بواسطة المجتمع والدولة، إلا أن كلمة الأسرة تعني الأسرة الأبوية السائدة في العالم، حيث يسيطر الرجال على النساء، وحيث تُحرَم من حقوق الإنسان الأساسية وأولها أنها إنسان كالرجل ولا بد أن يكون لها الحقوق نفسها داخل الأسرة.

ولم أجد في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أيَّ شيء يردُّ لي حقوقي الإنسانية المسلوبة كزوجة وأم، وكنت في نهاية عام ١٩٥٦م قد عشت تجرِبتي الأولى في الزواج والأمومة.

أدركت أن «الأم» محرومة من حقوق كثيرة يتمتع بها «الأب» لمجرد أنه ذكر، يكفي أن الأطفال لا يحملون اسم الأم، ولا يحق لهم الحصول على جنسية الأم، يتمتع الزوج بحق الطلاق المطلَق وحق الزواج بأكثر من امرأة، وحق حضانة الأطفال بعد سن معينة، وحق الولاية على هؤلاء الأطفال بعد طلاق أمهم، ولا يحق للأم الولاية على أطفالها وإن مات أبوهم لأنها أنثى، والولاية للذكور فقط، بل إن للزوج حق الولاية والوصاية على زوجته فلا تسافر إلا بإذنه مع أنه يسافر بدون إذنها.

لقد عانيت من هذا القانون في مصر بعد طلاقي من الزوج الأول، لقد حصلت على حق الوصاية على طفلتي وحضانتها حتى تبلغ السن القانونية فتصبح من حق أبيها، وفي عام ١٩٧١م بلغت ابنتي سن الخامسة عشر، وكانت في المدرسة الثانوية، وتم اختيارها ضمن فريق التنس للسفر إلى الجزائر في إحدى المباريات الخاصة بالبنات، إلا أن ابنتي حُرمت من السفر لأن ولي الأمر — وهو الأب — هو الوحيد الذي يملك الولاية عليها، وهو الذي يُصرِّح بسفرها خارج مصر أو لا يُصرِّح، لم تكن ابنتي تعيش مع أبيها منذ الطلاق، كانت تعيش معي، وكنت أتولى الإنفاق عليها كاملًا حتى بلغت سن الرشد، ولم نكن نعرف عنوان أبيها منذ سنوات، ولم يكن من حقي كأم أن أُصرِّح لها بالسفر لأنني امرأة وليس من حقي الولاية رغم أنني أتولى الإنفاق وأشتغل طبيبة مسئولة عن أرواح الناس.

أيضًا بعد موت أبي عام ١٩٥٩م حصلت على حق الوصاية على أخواتي البنات القاصرات، إلا أن الولاية عليهن لم تكن من حقي لمجرد أني امرأة، وكان عليَّ أن أبحث

عن أي رجل في الأسرة ليكون وليًّا عليهن رغم أنه لا يعيش معهن وأنا التي أعيش معهن وأتولى مسئولية الإنفاق عليهن والسهر على راحتهن.

إن القوانين الخاصة بالأسرة في مصر (أو غيرها في كثير من بلاد العالم) تَحرِم الزوجة والأم من بعض الحقوق الأساسية للإنسان، ومنها حق التنقل والسفر بحرية.

القانون في مصر حتى اليوم لا يزال يحرم المرأة من هذا الحق الإنساني الهام، مثلًا أنا لا أستطيع السفر أو أن أجدد جواز سفري دون موافقة زوجي، ولكن زوجي يستطيع أن يجدد جواز سفره دون موافقتي. هذا القانون في مصر يُسَمَّى «قانون الاحتباس»، بمعنى أن من حق الزوج أن يحبس زوجته.

وفي أوروبا وأمريكا حتى وقت قريب لم يكن للنساء الحقوق الإنسانية داخل مؤسسة الأسرة أو الزواج، ولم يشمل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م حقوق المرأة في حياتها العامة أو الخاصة.

وقد أعدتُ قراءة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مراحل مختلفة من عمري، حتى كتابة هذه السطور في شهر ديسمبر ١٩٩٧م، وقد مضى على الإعلان نصف قرن من الزمان. وأعتقد أن هذا الإعلان في حاجة إلى تطوير يواكب حركات تحرير الشعوب والنساء، وأن تُضاف بنود جديدة تعكس حقوق الشعوب في مواجهة الحكومات والدول، كما تعكس أيضًا حقوق الأطفال والنساء داخل أسرة متطورة أكثر عدالة وأكثر سعادة.

لا بد أن يشمل الإعلان على بند أساسي يمنع ازدواجية المقاييس بين الدول أو بين الأفراد، وأن يكون «الحق» هو الأساس وليس «القوة»، وأن تلتزم جميع الدول في العالم بنزع السلاح النووي والكيميائي وسائر أسلحة الدمار الشامل بما فيها سلاح الحصار الاقتصادي، أو العقوبات الاقتصادية، التي تنفذها الدول الكبرى ضد الدول الصغرى، والتي يروح ضحيتها الأطفال والنساء والفقراء وليس الأقوياء في الدولة أو الحكومات.

مثلًا، لماذا تفرض الولايات المتحدة الأمريكية على مصر وغيرها من الدول العربية والأفريقية نزع السلاح النووي والتوقيع على الاتفاقيات الخاصة بذلك، على حين لا يُفرَض على دولة إسرائيل أن تنزع سلاحها النووي ولا يُفرَض عليها التوقيع على المعاهدة ذاتها؟ ولماذا لا تنزع الولايات المتحدة الأمريكية سلاحها النووي فتكون قدوة لغيرها؟

مثل آخر، لماذا يُفرَض على دولة العراق الحصار الاقتصادي كعقوبة لأنها لم تنفذ قرارات الأمم المتحدة، وتُترك دولة إسرائيل دون عقوبات على الإطلاق، رغم أنها لا تنفذ قرارات الأمم المتحدة؟

ومن المعروف أن في العراق اليوم يموت ٥٠٠ طفل يوميًّا بسبب هذا الحصار الاقتصادي، ومع ذلك يحتفل العالم بمرور نصف قرن على صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

فهل هذا الإنسان في نظر العالم هو الرجل الأبيض في الشمال وحده؟!

ألا يحق للشعوب من الأطفال والنساء في عالم الجنوب أن يكون لهم حقوق الإنسان؟! أن يكون لهم حق الحياة وعدم الموت؟!

اختلاف الآراء ضرورة[1]

قرأت ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر (في الأهرام، ١٥/٦/١٩٩٨م) عن كتاب مكسيم رودنسون «محمد»، وما سبق أن كتبه عن هذا الموضوع، وقرأت أيضًا ما كتبه الأستاذ سلامة أحمد سلامة، وله رأي يختلف عن رأي صلاح منتصر. ولا شك أن اختلاف الآراء ظاهرة صحية وإيجابية، بل ضرورة لظهور الحقيقة أو الاتجاه الأقرب إلى الصالح العام وتقدم المجتمع، بالإضافة إلى تشجيع النساء على إبداء آرائهم حتى تتحول الأغلبية الصامتة في بلادنا إلى قوة متحركة مُشاركة في الحوار الدائر بين عدد قليل من أصحاب الأعمدة في الصحف.

لهذا أعتقد أن كل إنسان (وكل إنسانة) في مصر من حقه (ومن حقها) أن يعبر عن رأيه (ورأيها) في كل ما ينشر في الصحف وأجهزة الإعلام؛ بهذا يشمل الحوار الجميع، وليس فقط عددًا محدودًا من الصحفيين.

وأنا أتفق في الرأي مع ما كتبه سلامة أحمد سلامة، وأعتقد أن القرار الذي صدر بوقف تدريس الكتاب لم يكن مفيدًا، ولم يكسب منه إلا التيار السياسي الديني الذي يستخدم عبارة «إهانة الدين» وسيلة لتخويف ذوي الأفكار المختلفة، وهي عبارة مطاطة تتحول إلى سيف يسلط على رقاب بعض الناس دون البعض الآخر، والحكم يكون دائمًا للأقوى؛ فالقوة هي التي تحدد كل شيء وليس المنطق، يكفي أن يكتب صحفي له نفوذ كلمة صغيرة ضد كتاب ما حتى تسرع السلطة بمنعه أو تحويل الكتاب إلى المحاكمة،

[1] الأهرام، ١٦/٦/١٩٩٨م.

وربما يدخل السجن، ولا أنسى هذا الكاتب المصري «علاء حامد» الذي قضى فترة غير قصيرة في السجن وبين المحاكم؛ لأن أحد الصحفيين من ذوي النفوذ كتب في عموده اليومي أنه أهان الدين. وقد تم تكفير عدد من الأدباء والمفكرين من الرجال والنساء بتهمة إهانة الدين أو تشويه صورة الإسلام، وتم تنفيذ الحكم بالإعدام عليه (جسديًّا مثل فرج فودة) واجتماعيًّا وإعلاميًّا مثل آخرين كثيرين وأنا منهم.

وإذا كان كتاب مكسيم رودنسون قد مضى عليه أكثر من سبعة وعشرين عامًا، وهو موجود في المكتبات المصرية وفي مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٧١م، أي أنه في متناول أيدي الطلبة، بل والشباب العادي من خارج الجامعات، فما الذي حدث فجأة حتى يصبح هذا الكتاب خطرًا على الدين الإسلامي؟!

يقول صلاح منتصر: إن المشكلة هي تحول هذا الكتاب من قراءة اختيارية إلى مرجع عليه ٣٠٪ من درجات المادة لبعض الطلاب في الجامعة الأمريكية، فهل هذه مشكلة تستحق أن يصدر الوزير قرارًا بمنع الكتاب؟ وهل المنع هو الحل؟! ألا نعرف أن كل ممنوع مرغوب، وكم من كتب انتشرت وتنافس على شرائها الناس لمجرد أنها ممنوعة.

وهذا بالضبط هو ما حدث بالنسبة لكتاب مكسيم رودنسون الذي كان كتابًا مجهولًا لا يعرف عنه إلا قلة من الأساتذة في الجامعات وبعض طلابهم ممن يدرسون الفلسفة أو نقد الفكر الديني، فأصبح هذا الكتاب اليوم مثل حبوب «الفياجرا» يُباع في السوق السوداء، وكان في مكتبي نسخة منه باللغة الإنجليزية قرأتها منذ عشرين عامًا، فأخذت أبحث عنها بين مئات الكتب عدة أيام حتى عثرت عليها، وما إن عثرت عليها حتى سرقها مني أحد الأصدقاء؛ لأن النسخة اختفت تمامًا بعد أن جاءني في زيارة قصيرة. وحدث الشيء نفسه بالنسبة لرواية علاء حامد الممنوعة، والكتب الأخرى التي مُنعت، إلى حد أن أصبح الإعلان عن منع كتاب هو أنجح الوسائل للدعاية له. وإني أعتقد أن القرار الحكومي بمنع أي كتاب (جيد أو رديء) لا يفيد أحدًا إلا مؤلف الكتاب وناشره.

أمَّا الضرر الناتج عن مثل هذا القرار فهو كبير؛ لأنه ينسف فكرة الحرية أو الديمقراطية أو حقوق الإنسان أو التنمية أو الإصلاح أو غيرها من الكلمات الكثيرة المتداولة في بلادنا اليوم.

ويتساءل صلاح منتصر في مقاله عن العلاقة بين قرار منع كتاب رودنسون وانخفاض مستوى التعليم الجامعي أو انهيار تقاليد البحث العلمي، ويؤكد أن لا علاقة بينهما. وأنا أختلف معه في هذا؛ لأن التعليم الجامعي أو البحث العلمي إن لم يقُم على حرية

التفكير وحرية نقد أي شيء بما فيها الموروثات العلمية أو الدينية فإنه لا يكون تعليمًا صحيحًا ولا بحثًا صحيحًا. لعل آفة التعليم في بلادنا أنه يقوم على الخوف أو التخويف من السلطة الأعلى سياسيًّا ودينيًّا، ربما لهذا السبب تخلفت بلادنا في مجال الاختراعات العلمية والإبداعات الحضارية والأدبية، وقد قمت بالتدريس في بعض الجامعات خارج الوطن، وأدركت لماذا تفتقر بلادنا إلى المخترعين من الرجال والنساء في مجالات الحياة، بما فيها العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية ومنها علوم الدين والفقه والفلسفة، خاصةً الفلسفة فهي علم العلوم، وهي مفتاح العقل للتفكير؛ لأنها تعلِّم الإنسان كيف يفكر، ونحن في بلادنا لا نتعلم كيف نفكر، بل نتعلم كيف نتفادى التفكير حتى لا نقع في الخطأ أو الخطيئة، وحتى لا يتهمنا أحد أننا مسسنا المقدسات.

في طفولتي قال لي أبي: جادلي في كل شيء، وتشككي في كل شيء، حتى الدين؛ فالإيمان بالوراثة لا يكون إيمانًا. وقد تخرج أبي من الأزهر ودار العلوم، إلا أنه كان ناقدًا للتعليم في الأزهر ودار العلوم، وكان يردد دائمًا هذا المثل القديم: «علمني كيف أصطاد ولا تعطيني سمكًا.» كان يقول: «علمني كيف أفكر ولا تعطيني معلومات.»

إن العقل الذي يعرف كيف يفكر يخلق المعلومات ويصبح ثريًّا بالأفكار الجديدة، أمَّا العقل الذي لا يعرف كيف يفكر فإنه يظل فقيرًا وإن تم حشوه بالمعلومات الكثيرة.

طلاب الجامعات في العالم اليوم يناقشون بحرية وشجاعة بعض الاختراعات العلمية التي تناقض كثيرًا من الأفكار الدينية التي وردت عن نظرية خلق الكون والإنسان، وفي أيديهم كثير من الكتب الجديدة التي يقول عنها «التيار المسيحي اليميني»، إنها إهانة للدين أو هدم للإنجيل، إلا أن أحدًا لا يمنع هذا الكتب بقرار حكومي، ويتعلم هذا كيف يفرز الغث من السمين وكيف يخترع ويُقدِم على الابتكار والخلق.

ثلاث رحلات إلى بغداد[1]

«إذا تحمَّس ذوو السلطة لعمل شيء أَفقِد حماسي.» هذه العبارة سمعتها من أبي وأنا في السابعة من العمر. ألهذا السبب انسحبت من المبادرة الشعبية لمناصرة الشعب العراقي بعد أن تنافس من حولها أصحاب المال والسلطة؟! منذ عشرين عامًا كانت زيارتي الأولى للعراق، كنت في طريقي من الهند إلى مصر، قررت الهبوط من الطائرة في بغداد، أردت أن ألقيَ نظرة على الأرض التي خرجتْ منها إلهة اللغة والكتابة، امرأة سومرية اسمها «نيدابا» (هي قرينة الإلهة إيزيس في مصر) اكتشفت الحروف الأبجدية منذ سبعة آلاف عام.

نقلت البشرية من حدود الاتصال عبر الإشارات الجسدية والهمهمات، إلى حرية الانطلاق اللامحدود عبر اللغة والكلمات، «في البدء كانت الكلمة»، ولولا الكلمة ما وصلتُ إليكم في بيوتكم الآن عبر هذا المقال.

مع ذلك اختفى اسم «نيدابا» في التاريخ المكتوب؛ فهو تاريخ طبقي أبوي ديكتاتوري يحذف اسم الرائدات من النساء كما يحذف المبادرات الشعبية، ولا يسلط الضوء إلا على الأباطرة والفراعنة من الرجال، وزوجاتهم المصونات الحُرمات في بيوت الزوجية، أو عشيقاتهم الراقصات والمطربات في بيوت الهوى والبغاء. أمَّا «نيدابا» وغيرها من النساء المبدعات في مجال الفكر أو الكتابة فقد اختفت أسماؤهن تمامًا من التاريخ المكتوب، واختفى «اسم الأم» في المؤسسات الجديدة التي نشأت مع النظام الطبقي الأبوي، إنها مؤسسة الدولة والعائلة، فقدت المرأة الأم أهليتها وحقها في منح اسمها لأطفالها أو

---

[1] نُشر بجريدة الأهالي، ١٣ فبراير ١٩٩٨م.

جنسيتها أو دينها أو لغتها، تحولت المرأة إلى أجيرة بلا أجر تعمل في البيت أو في الأعمال الجسدية التي لا تتطلب الفكر أو الكتابة، فُرض عليها الصمت، وإن تكلمت فهي لا تتكلم بلسانها وإنما بلسان الرجل، أصبح المذكر في اللغة يشمل الذكر والأنثى معًا، أمَّا المؤنث فهو مقصور على الأنثى ولا يصح أن يشمل الذكر، وإذا اجتمعت ألْف امرأة في قاعة ومعهن ذكر واحد (وإن كان طفلًا)، فإن صيغة المذكر تتغلب على صيغة المؤنث.

وفي عصرنا الحاضر لا تزال القيم الطبقية الأبوية تسود المجتمع والتعليم والصحافة والإعلام، يكفي أن نفتح مجلة لنرى فوق غِلافها صورة راقصة مشهورة، إلى جوارها صورة الرئيس الأمريكي، أو السيدة هيلاري كلينتون أو الأميرة ديانا ... إلخ.

في زيارتي الأولى للعراق، ورغم مرور أكثر من عشرين عامًا، لا أنسى حرارة اللقاء مع النساء والرجال، دُهشت لأنهم يقرءون كتبي ويعرفونني أكثر مما يعرفني الناس في مصر. وكان الإعلام الحكومي المصري خلال السبعينيات يحجب أعمالي عن الناس، بل يشوهها إرضاءً للحاكم (السادات) وأتباعه من ذوي المال والسلطة.

(١) الزيارة الثانية

كانت الزيارة الثانية لبغداد منذ سبع سنوات، في يناير ١٩٩١م، كان جورج بوش قد أعد جيشه الأمريكي لضرب العراق مع ثلاثين جيشًا تابعًا. سافرت إلى بغداد ضمن الوفد النسائي العالمي لمنع الحرب، كنت أمثِّل جمعية تضامن المرأة العربية مع زميلة فلسطينية أردنية اسمها الدكتورة فتحية سعودي، واشتركنا في مظاهرة شعبية طافت شوارع بغداد، كان شعارنا «حرب الخليج ليست لتحرير الكويت، بل للسيطرة على بترول العرب وتقوية نفوذ إسرائيل في المنطقة».

وفعلًا حققت الحرب هذه الأهداف، وأصبحت إسرائيل هي القوة النووية الوحيدة في المنطقة، تضرب من تشاء وفي أيِّ وقت، بل امتد ذراعها الطويل القوي ليضرب مفكرين فرنسيين — أمثال «جارودي» — يناصرون القضية العربية ويكشفون أطماع دولة إسرائيل «من النيل إلى الفرات!»

حين عُدت من بغداد في يناير ١٩٩١م أوقفني البوليس في مطار القاهرة، فتشوا حقيبتي، وأخذوا كل شيء حتى مفكرتي الشخصية.

وصدر القرار الحكومي بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية في مصر، وتطوع للدفاع عنها ثلاثة عشر محاميًا، رفعوا قضية عاجلة بمجلس الدولة، إلا أنها لم تخرج من سراديب المحكمة حتى اليوم، ورغم مرور سبعة أعوام كاملة!

(٢) الزيارة الثالثة

كانت الزيارة الثالثة لبغداد في الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٩٧م، كانت جزءًا من الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقي ضد الحصار الأمريكي المفروض عليه باسم تطبيق الشرعية الدولية وخلف واجهة الأمم المتحدة رغم أنه يخالف ميثاقها.

بدأت الحملة بعرض فيلم مآسي الأطفال العراقيين تحت الحصار، كان ذلك يوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٧م أثناء انعقاد المؤتمر الدولي الخامس لجمعية تضامن المرأة العربية، والذي عُقد في مكتبة القاهرة الكبرى من ١١–١٣ أكتوبر الماضي. أثار الفيلم غضب المشاركين والمشاركات في المؤتمر ضد هذا الحصار اللاإنساني الذي يقتل ألف طفل كل يوم وأكثر.

في اليوم الأخير من المؤتمر تكونت اللجنة الشعبية لمناصرة الشعب العراقي ورفع الحصار عنه، كانت اللجنة مبادرة شعبية تمامًا انضم إليها الكثيرون من الأفراد والهيئات غير الحكومية، ونجحت خلال أربعة شهور في جمع مليون توقيع لرفع الحصار، وفي تنظيم سفر الوفد الشعبي إلى بغداد في الفترة من ٢٧ حتى ٣١ ديسمبر ١٩٩٧م.

لم يكن الهدف من السفر إرسال مساعدات أو معونات؛ فهذه المعونات ليست إلا قطرة في بحر احتياجات اثنين وعشرين مليونًا من الأطفال والأمهات والآباء المحرومين من أبسط الأشياء الضرورية للحياة، ولأن الشعب العراقي شديد الاعتزاز بكرامته، لا يريد أن يتحول إلى شعب يعيش على المعونات، بل هو شعب يناضل ضد السياسة الأمريكية الإسرائيلية في المنطقة.

كان الهدف من الحملة الشعبية والسفر هو إثبات أن الشعوب العربية ليست شعوبًا ميتة تمامًا، وأنها رغم انقسام الحكومات فهي قادرة على المبادرة والحركة والتضامن.

(٣) سيطرة أصحاب المال والسلطة

كانت تجربة هذه الحملة والوفد الشعبي الذي سافر إلى بغداد من أكثر التجارِب ثراءً، من الناحية الأدبية؛ فقد أوحت لي بكتابة مسرحية أو رواية جديدة تحت عنوان «ثلاث نساء وعشرون رجلًا».

كان أكثر المتحدثين عن التضامن العربي أقلهم تضامُنًا مع الوفد المسافر معه، مع الذين بدءوا العمل وتحملوا أعباءه منذ السفر حتى العودة.

وانقسم الوفد قبل أن يغادر مطار القاهرة إلى قسمين:

ركاب الدرجة الأولى من الطبقة العليا ذوي المال والشهرة والصداقة بأصحاب السلطة في القاهرة وبغداد، والأغلبية من الوفد من الطبقة الأدنى الذين تكدَّسوا في الأتوبيس من عمان إلى بغداد، سبع عشرة ساعة قضوها في مقاعدهم على الطريق الصحراوي الطويل.

أمَّا القلة القليلة من الطبقة العليا فقد استقلوا سيارة خاصة صغيرة قوية مثل النفاثة اختصرت المسافة إلى النصف.

كانوا ينظرون إلينا شزرًا من عليائهم، يترفَّعون عن الحديث إلينا، كأنما نحن العبيد وهم الفراعنة.

في طفولتي سمعت جدتي الفلاحة تقول: سألوا فرعون مين فرعنك؟ قال: مالقتش حد يصدني ... ربما لهذا السبب كنت أتصدى للفراعنة، في بلادنا ما إن يرأس أحدٌ مؤسسة وإن كانت مؤسسة دواجن، تحول إلى فرعون.

(٤) ثمن الحرية الغالي

لأن الحرية تؤخذ ولا تُعطى، فإن المدافعين والمدافعات عن الحرية والكرامة يدفعون ثمنًا باهظًا من حياتهم ومن سمعتهم. بعد عودتي من بغداد في الرحلة الأخيرة، وقبل أن يجف عرق السفر والإجهاد، بدأتْ حملة صحفية لتشويه صورتي وقلب المبادرة الشعبية التي بدأتها للتضامن مع الشعب العراقي إلى محاولة تطبيع مع الصحف الإسرائيلية! هكذا تنقلب الأشياء رأسًا على عقب في بعض الصحف المصرية كما انقلب في التاريخ، وبعد أن كانت «نيدابا» هي رائدة اللغة والكتابة والمعرفة، أصبحت هي رائدة الجهل والشر، ترمز إلى الشيطان وتستحق العقاب.

تصدرت إحدى المجلات الأسبوعية هذه الحملة، ونشرت خبرًا مكذوبًا في ١٢ يناير ١٩٩٨م يدَّعي أنني أعطيت حديثًا صحفيًّا (عن الختان) لصحفية إسرائيلية لا أعرف اسمها ولم أقابلها في حياتي، وفي الصفحة المقابلة نشرت خبرًا آخر عن الوفد الشعبي الذي سافر إلى بغداد، حذفت اسمي من الوفد، ووضعت اسم نائب رئيس التحرير مع أنه لم يسافر معنا إلى بغداد، ثُمَّ فوجئت بجريدة حزبية تردد الخبر نفسه في عمود لأحد الكُتَّاب.

هكذا لجأت إلى القضاء، ووكّلت أحد المحامين لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد هؤلاء الذين نشروا هذا الخبر الكاذب.

وانتهت رحلتي الأخيرة إلى بغداد، وحزنت على غياب الضمير عند بعض الناس، وتحولت الحملة الشعبية للتضامن مع الشعب العراقي إلى تبرعات من رجال المال والأعمال وتسابق أصحاب الشركات والأفلام.

تحت عيون الجميع[1]

كانت لي طفلة اسمها شجاعة،
تركتها مريضة في بغداد،
ترتجف في برد الشتاء،
بلا غذاء ولا دواء ولا غطاء.
فتحت الصحف بالأمس،
رأيت الأمريكي المريض بالجنس،
يتهمها بعدم الطاعة،
لقانون الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ولجنة التفتيش.
ضربها بصواريخ كروز،
تحت عيون الجميع،
يتابعون المشهد بقلق أو غير قلق،
وأنا مربوطة في سريري بالقيود،
منزوعة السلاح مكتومة الصوت،
وطفلتي شجاعة تموت،
تحت عيون الجميع.

---

[1] الأهالي، ٢٣/١٢/١٩٩٨م.

حول الحوار الفكري مع الرئيس[1]

كانت هي المرة الأولى التي أحضر فيها هذا اللقاء الفكري مع السيد رئيس الجمهورية (يوم السبت ١٨ يناير ١٩٩٧م بأرض المعارض)، دُهشت حين دخلت القاعة فوجدت الصفوف الأمامية قد حُجزت مقاعدها للوزراء وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين في المؤسسات الثقافية والصحفية، وهي مقاعد حمراء كبيرة تشبه مقاعد الدرجة الأولى في الطائرات.

بعد ذلك تأتي مقاعد الدرجة الثانية، والتي حُجزت لعدد كبير من الأدباء والأديبات الذين يشغلون مناصب كبيرة في المؤسسات الصحفية من درجة رئيس تحرير أو نائب رئيس تحرير أو مدير تحرير. بعد ذلك تأتي مقاعد الدرجة الثالثة وهي للأدباء والمفكرين الذين بلا منصب في الدولة أو أي مؤسسة صحفية، ومنهم أساتذة كبار لهم مؤلفات فكرية ذات قيمة محليًّا وعربيًّا وعالميًّا.

كان المفروض (حسب التنظيم) أن أجلس في هذه الصفوف الخلفية، إلا أنني رأيت أن اللقاء الفكري يستوجب جلوس المفكرين والأدباء والعلماء في الصفوف الأولى حتى يدور الحوار بينهم وبين السيد الرئيس؛ لأن الحوار معهم وليس مع الوزراء أو كبار رجال الدولة، كما حدث في المؤتمر الاقتصادي في الخريف الماضي، فقد جلس رجال الأعمال في الصفوف الأولى على حين جلس رئيس الوزراء والوزراء في الصفوف الخلفية، حينما سألوا الأستاذ «أحمد عز» — أحد رجال الأعمال — عن انطباعه عن المؤتمر، أشار إلى أن رجال

---

[1] الأهالي، الأربعاء ٢٩ / ١ / ١٩٩٧م.

الأعمال أصبح لهم احترامهم؛ والدليل على ذلك جلوسهم في الصفوف الأمامية، وجلوس الوزراء في الصفوف الخلفية.

لا أدري لماذا لم يُطبَّق هذا المبدأ الوجيه على المفكرين والأدباء والعلماء في الاجتماع الفكري مع السيد الرئيس؟ وهل رجال الأعمال أكثر احترامًا من المفكرين والأدباء والعلماء والمبدعين؟!

ربما لهذا السبب، ولأنني أعتقد أن الإبداع الفكري أهم من النشاط التجاري أو «البيزنس»، فقد رفضت الجلوس في المقاعد الخلفية وجلست في مقعد أحد الوزراء في الصفوف الأمامية، واقتنع المسئولون عن التنظيم بوجهة نظري، إلا أنني كنت أودُّ يكون ذلك هو القاعدة وليس الاستثناء.

وقد توقعت أن يكون الحوار مفتوحًا بيننا وبين الرئيس إلا أن المسئولين عن التنظيم طلبوا مني أن أكتب سؤالًا على ورقة، وقد تم تجميع هذه الأوراق عند المسئولين، ولا أعرف هل فرزوا هذه الأوراق، وقدموا للرئيس ما شاءوا من الأسئلة؛ لأن الاجتماع انتهى دون أن يحدث أي حوار فكري مع الرئيس، وتركزت معظم الأسئلة التي أجاب عنها في الأمور السياسية الجارية حول السودان وإسرائيل وأمريكا، ولم يكن هناك سؤال واحد حول الفكر أو الإبداع الفكري. وكنت قد قدَّمَت سؤالًا من هذا النوع، يتناول مشكلة مهمة للغاية، كنت أودُّ أن يدور جزء من الحوار حولها، فهل عندنا مشكلة تتعلق بالفكر والمفكرين أم لا؟ هل يمكن للنظام التعليمي الحالي أو التربوي أو الثقافي أو الإعلامي أن يُنتج المفكرين؟ وما الفرق بين المفكرين والموظفين ورجال الأعمال إلى آخر هذه الأسئلة أو الجدل الذي كنت أنتظره في هذا اللقاء الفكري مع السيد الرئيس إلا أن الاجتماع دار وكأنه مؤتمر صحفي.

هل يمكن أن يبدأ حوار في الصحف من هذا النوع يشترك فيه الجميع وليس فقط الأسماء التي دُعيت للاجتماع، وإنما جميع الذين يفكرون في بلادنا وتؤرقهم مشكلة الفكر والمفكرين والذين لا يُدعون إلى اللقاء الفكري مع الرئيس؟

رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة[١]

تاريخ اليوم هو ٢٣ نوفمبر ١٩٩٧م، وأنا واحدة من الشعب المصري، ومن حقي أن أخاطب رئيس الدولة مباشرةً دون المرور بالطبقة العازلة التي تحوطه من الوزراء وكبار المسئولين أو رؤساء التحرير.

وهذه هي الرسالة الثانية في حياتي كلها التي أبعث بها إلى رئيس الدولة، كانت الرسالة الأولى منذ ستة عشر عامًا بالضبط، يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨١م، كتبتها في زنزانة سجن النساء بالقناطر الخيرية، وطلبت فيها التحقيق في جريمة اعتقالي واعتقال الأدباء والمفكرين من الرجال والنساء دون تحقيق ودون ذنب فعلوه. خرجنا من السجن ذلك اليوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١م إلى بيت رئيس الدولة في اجتماع طويل معه، خرجنا بعده إلى بيوتنا، بعد أن وعدَنا بأن بابه مفتوح للشعب، ولا يمكن للطبقة العازلة أن تسد هذا الباب، إلا أن هذا سرعان ما أصبح مسدودًا.

وقد انقضت ست عشرة سنة لم أحاول فيها اختراق الطبقة العازلة، ولم أكتب رسالة ثانية إلى رئيس الدولة مفتوحة أو غير مفتوحة، حتى وقعت مذبحة الأقصر المروِّعة في معبد الدير البحري منذ أيام قليلة، رأيت أن الأمر جد خطير، وأن المذبحة هي مذبحة لنا نحن الشعب المصري قبل أن تكون مذبحة للسياح الأجانب. إنها ليست مذبحة ستين شخصًا جاءوا إلى مصر في سياحة عابرة، لكنها مذبحة ستين مليونًا من البشر داخل مصر كلها، تنزف قلوبهم ألمًا وحزنًا، ليس على دولارات السياحة التي يمكن أن تضيع، ولكن على

[١] القاهرة، ٢٣ / ١١ / ١٩٩٧م.

الإنسانية والكرامة والأخلاق والرحمة بالنساء والأطفال والشباب والرجال والآباء، على هذه الأرواح البريئة والدماء التي لطخت قلوبنا، وليس فقط أعمدة المعبد الفرعوني والتماثيل من الحجر. إن القلوب التي تنزف الدم وتتألم أهم من الأحجار وإن كانت أحجارًا كريمة أو آثارًا نفيسةً؛ فلا شيء يعلو على حياة الإنسان ودمه وجسده وكرامته.

وقد أصدر رئيس الدولة أمره بتغيير وزير الداخلية، وهو المسئول الأول عن الأمن في مصر، ولا بد أن تزداد المسئولية بازدياد المنصب، وقد تعودنا على أن الصغير أو الضحية هو الذي يُعاقَب وليس المسئول الأكبر.

وبدأت التحقيقات تكشف عن قصور الأمن، خاصةً كبار المسئولين في مدينة الأقصر، وأحدهم كان مديرًا لأمن الجيزة حين وقعت مجزرة السياح أمام فندق أوروبا، وتم إيقافه عن العمل، ثُمَّ عاد إلى الخدمة، وكوفئ بترقيته مساعدًا أول لوزير الداخلية لمنطقة جنوب الصعيد ومقره مدينة الأقصر (مجلة روز اليوسف، ١٤ / ١١ / ١٩٩٧م، ص١٩).

ليس هذا جديدًا علينا؛ فالمحسوبية والقرابة والعلاقات الشخصية هي التي تسود، وليس الكفاءة أو النزاهة أو طهارة اليد أو اللسان، هذه هي القاعدة في دواليب الحكومة والوزارات والمؤسسات جميعًا وليس في وزارة الداخلية فقط.

إن الأسباب وراء مذبحة الأقصر ليست قاصرة على الأمن؛ فالذين أمسكوا السلاح وبقروا بطون السياح، وخرقوا عيون الرجال، وقطعوا أثداء البنات، ومشوا بالسكاكين بين أفخاذ النساء، لقد فعلوا كل ذلك هاتفين اسم الله رافعين شعار الإسلام.

إن القتلة نوعان: نوع فدائي يقتل عن إيمان، ونوع آخر المرتزقة يقتل نظير الأجر، وهؤلاء لا يهمهم إلا الأجر، ويمكن أن يَقتلوا في أي بلد في العالم وأي شخص: أبيض، أسود، مسلم، مسيحي، يهودي، بوذي، لا يهمهم إلا الفلوس.

فهل الإرهابيون في بلادنا كلهم من هذا النوع الأخير؟ أليس هناك شباب يقتل عن إيمان وتديُّن شديد، بعد أن امتلأت أدمغتهم بالأفكار الخاطئة عن الدين والتديُّن؟!

إن الخطر وراء مذبحة الأقصر وغيرها من المذابح المتعددة السابقة ليس هم المرتزقة، أو أفراد قلائل خرجوا من مستشفى المجانين ثُمَّ ثبت أنهم عقلاء، كما نشرت بعض الصحف، فهؤلاء ومعهم المرتزقة يمكن القضاء عليهم بإصلاح الجهاز الأمني فقط، لكن الخطورة الأكبر ليست في هؤلاء، الخطورة ليست في «الجهاز الأمني»، ولكن في «الجهاز العقلي»، الذي يُفرخ الفكر الإرهابي الديني، ويُحوِّل الشباب المؤمن إلى سفاكي دماء.

إن عملية سفك الدماء قد تكون باليد التي تمسك السكين وتذبح، وقد تكون باليد التي تُصفِّق لمن يسفك الدم، وقد تكون باليد التي تمسك القلم وتحكم بالكفر أو الفساد

على غيرها ممن يؤمن بعقيدة أخرى أو دين آخر. وربما لا يختلف في الدين ذاته وإنما في بعض التفسيرات له، أو يدرج تحت بند «العلمانيين»؛ اللقب الغامض، لا أحد يعرف التعريف الصحيح له، ولا يساويه في الغموض إلى كلمة «الهُوية».

لقد عرف الصعيد في بلادنا ما يُسَمَّى «الإعدام حسب الهُوية»، وكانت كمائن الإرهابيين توقف سيارات الميكروباص وتفتش في بطاقات الركاب عن الهُوية، ثُمَّ تطلق الرصاص على غير المسلمين، فهل هوية الشخص هي الدين الذي يعتنقه؟ هل نحكم على الأقباط في بلادنا أنهم بلا هُوية مصرية؟ ولماذا يحدث هذا الخلط بين الهُوية والدين؟! لصالح مَنْ؟

لقد لاحظتُ في السنين الأخيرة أن كثيرًا من كبار الأساتذة في بلادنا قد تأسلموا وادعَوْا أن الهُوية هي الدين، وأصبح كل شيء عندهم إسلامي حتى أباريق الفضة والذهب في بيوتهم على الشكل الإسلامي، وأعمدة غرف الصالون والمصحف المُذهَّب الموضوع فوق المائدة الإسلامية المُحلَّاة بنقوش من الحجاز، والأثاث الفاخر الموزاييك المستورد، والشبابيك والمشربيات ذات الخروم المطرزة المطعمة بخيوط ذهبية مُقدسة، وأصبح الدفاع عن ترميم المساجد الأثرية وتغطية رءوس النساء بالطرحة أو «البونيه» أهم من ترميم عقول البنات والأولاد والمراهقين والشباب.

وأصبح كثير من القيادات الفكرية في بلادنا تخلط الوطنية بالدين، وتخلط الضمير النقي أو الأخلاق الحميدة بالهُوية الدينية أو العِرق أو العقيدة أو الجنس أو الجنسية أو اللون أو النسب. أصبح صاحب الهُوية الصحيحة كل من ارتدى الزي الإسلامي أو أمسك في يده سبحته، أو كل من لفَّت حول رأسها طرحة. ويندرج تحت بند الكفرة الفاسدين أو العلمانيين كل من لا يُبَسْمِل أو يُحَوْقِل أو لا يعلن أن الإسلام هو الحل أو لا يؤمن بالمُطلَق الثابت.

والسؤال الهام هو: مَنْ هو المسئول عن هذا الفكر في بلادنا؟ مَن الذي يملأ أدمغة الشباب في بلادنا بهذا الفكر الذي يُقسِّم البشر إلى كفرة ومؤمنين، ويحكم عليهم بأغطية رءوسهم أو شكل ذقونهم؟ أليسوا هم نجوم الفكر الديني في الصحف وأجهزة الإعلام، على رأسها التليفزيون؟!

هل هؤلاء النجوم هم المفكرون؟! أم أنه طغى على سطح الإعلام والصحافة والثقافة في بلادنا هؤلاء الذين لا يفكرون؟ لقد انقلبت مقولة ديكارت مِن: «أنا أفكر إذن أنا موجود» إلى «أنا لا أفكر إذن أنا موجود».

لقد شهدتُ في حياتي كلها اجتماعًا واحدًا للمفكرين مع رئيس الدولة (يناير الماضي في معرض الكتاب)، خرجت منه حزينة وغاضبة؛ فقد رأيت المفكرين يتوارَوْن في الصفوف الخلفية (أو في بيوتهم، لا يدعوهم أحد إلى هذه الاجتماعات) على حين يحتل الصفوفَ الأمامية الوزراءُ وكبار الموظفين في المصالح الحكومية، وهكذا ارتفعت كل الأصوات إلا المفكرين.

وكم أشعر بالحزن والإشفاق على شبابنا الذي يروح ضحية كل هذا، وأصبحتُ كلما التقيت بالشباب في أي جامعة أو معهد يسألونني أول سؤال: ما هي هُويتك؟ هل أنت مسلمة أو غير مسلمة؟!

منذ أربعين عامًا حين كنت طالبة بالجامعات لم يكن أحد يسألني هذا السؤال، وكان معي زملاء غير مسلمين في كلية الطب ولا أحد يتعرض لهم بالسؤال عن دينهم أو هُويتهم، فما الذي حدث لنعود إلى الوراء أكثر من نصف قرن؟! ولماذا نحاسب المسئولين عن الأمن ولا نحاسب المسئولين عن الفكر والإعلام والصحافة؟!

إني أكتب هذه الرسالة المفتوحة إلى رئيس الدولة، وقد حالت الطبقة العازلة السميكة دون وصول صوتي إليه في اجتماع المفكرين الوحيد الذي حضرته، ولم أحاول أن أخترق هذه الطبقة العازلة على مدى الأربعين عامًا الماضية، لكن مذبحة الأقصر قد فجَّرَت فيَّ كوامن الغضب المكبوت والحزن، ولأن رئيس الدولة هو المسئول الأول قبل وزير الداخلية عن سلامة الناس في بلادنا، والمفروض أن تزداد المسئولية بازدياد المنصب.

لهذا أكتب هذه الرسالة إليه لتكون شهادة علنية يقرؤها الناس في الصحف وليست ورقة تُطوى في الدُّرج!

كيف يحدث التزوير في التاريخ[1]

منذ عشر سنوات تقريبًا، دُعيت إلى مؤتمر أدبي دولي في جنوب إسبانيا (قرطبة)، حضره عدد من الأدباء والنقاد في العالم، لم يكن هناك من المصريين إلا الدكتور لويس عوض وأنا. سُرِرتُ لوجود الدكتور لويس عوض رغم اختلاف وجهات النظر الأدبية أو النقدية. ألقيت كلمتي في المؤتمر، ورأست إحدى الجلسات، ألقى الدكتور لويس عوض كلمته ورأس جلسة أخرى، حظيت مشاركتي بالتقدير وكذلك أيضًا مشاركة الدكتور لويس عوض.

بعد أن عُدنا إلى الوطن، بينما أتصفح إحدى الصحف — غالبًا جريدة الأهرام — وجدت مقالًا كبيرًا عن مؤتمر إسبانيا بقلم الدكتور لويس عوض، أدهشني أنه ذكر جميع المشاركين في المؤتمر إلا أنا، لم يُشر بكلمة واحدة إلى المشاركة التي قدمتُها ولا الجلسة التي رأستها، وأصبح هو المصري الوحيد الذي دُعيَ إلى المؤتمر وشارك فيه.

أرسلتُ إلى الصحيفة مقالًا أرد به على الدكتور لويس عوض، إلا أن هذا المقال لم يُنشَر، وكان مقالي تحت عنوان: كيف يحدث التزوير في التاريخ؟

حين كنت تلميذة بالمدرسة الابتدائية كنت أصدق ما أقرؤه في الصحف أو كتب التاريخ، لكن أبي كان يُحذِّرُني دائمًا ويقول لي إن الصحافة تكتب عن الملك فاروق اليوم لأنه يملك الحكم، وحين يزول الحكم تتغير الحقائق وتظهر حقائق أخرى، وفي كتب التاريخ أيضًا هناك بطولات كثيرة تنقلب إلى العكس بعد فترة طويلة أو قصيرة.

[1] نُشر بمجلة الهلال، القاهرة، ١٩/ ٢/ ١٩٩٧م.

جاءتني مجلة الهلال (عدد نوفمبر ١٩٩٦م) من أيام قليلة؛ إذ كنت خارج الوطن حين صدرتْ، وأدهشني مقال بقلم الأستاذة صافيناز كاظم عن زميلاتها بالسجن خلال سبتمبر ١٩٨١م، كيف يحدث التزوير في التاريخ وكيف تغيرت الحقائق بمثل هذه السهولة؟ مثلًا حيث دخلتُ العنبر لأول مرة لم أكن في حالة ذهول كما حاولتْ أن تصوِّرني، بل ابتهجتُ كثيرًا لرؤيتها ورؤية زميلات وصديقات أخريات، ومددت يدي لها لأصافحها كما صافحت الأخريات في سعادة وود كثير، إلا أنها رفضت أن تمدَّ يدها بالمصافحة وقالت: أنا لا أصافح الكافرين والكافرات! هذه العبارة كانت أشد قسوة من قضبان السجن، لا تختلف في نبرتها عن صوت السادات وهو يهدد في الإذاعات: سأضربهم! سأفرمهم في السجون لأنهم خانوا الوطن.

هكذا عشت في السجن عذاب النارَيْن: الإدانة بالكفر أو الإلحاد والإدانة بالخيانة الوطنية، إلا أن الإدانة بالكفر كانت أشد إيلامًا لأنها تأتيني من داخل العنبر ذاته من داخل السجن ذاته من داخل الزميلات اللاتي يُعانين مثلي آلام السجن وآلام الإدانة بالخيانة الوطنية.

صديقتي عواطف عبد الرحمن قالت لي: يا نوال، أنتِ طبيبة نفسية، وصافيناز كاظم لا تعني ما تقول، فهي تمرُّ بأزمة نفسية وتتناول أقراص التربتيزول، وبدأت أبتسم في وجه صافيناز كاظم وأقول لها: «صباح الخير.» إلا أنها كانت تكشر في وجهي ولا ترد.

وفي يوم رأيتها توجه لعواطف عبد الرحمن من عبارات السباب والاتهامات ما لا يمكن السكوت عنه أو اللامبالاة. وكانت صافيناز كاظم تتمادى في إهانتها لنا باعتبارها مؤمنة بالله والرسول وتقرأ القرآن، أمَّا نحن فقد حكمتْ علينا بالكفر والزندقة. هكذا قررتُ مقاطعتها، ولم أعد أقول لها صباح الخير، والغريب أنها اعتبرتْ ذلك عدوانًا عليها أو تآزرًا مع عواطف عبد الرحمن، في حين أنني وجدت أن التسامح أو الود لا ينفع معها، وقد جعلَتِ الحياةَ بالنسبة لنا جميعًا نوعًا من الجحيم. وبالإضافة إلى السباب والإهانات والاتهامات بالكفر، فهي تفرض علينا الصمت حين تقرأ القرآن بصوت عالٍ، ونحن نحترم القرآن بالطبع، إلا أنها اتخذت من القرآن وسيلة لإرهابنا وفرض الصمت علينا طوال النهار، وفي الليل هي تصحو في أي وقت يحلو لها وتقرأ القرآن بصوت عالٍ يوقظ الجميع، وهي تفرض علينا أن ننام ونور الكهرباء مُضاء في العنبر لأنها تخاف من الصراصير، وإذا اعترضتْ واحدة مِنَّا وضعتْها في القائمة السوداء. لقد خلَقت صافيناز كاظم جوًّا إرهابيًّا داخل السجن لجميع الزميلات، حتى هؤلاء المنقبات والمحجبات مثلها

ضاقوا منها حين كانت تفرض عليهم الطريقة التي تصلي بها والطريقة التي تفسر بها الإسلام والطريقة التي تحكم بها على الأخريات، إلى حد أنني طلبت من إدارة السجن أن يضعوني في زنزانة منفردة بعيدًا عن جحيم العنبر، عن المشاجرات اليومية (بل كل ساعة) بين صافيناز كاظم وإحدى المسجونات.

بالطبع رفضت إدارة السجن طلبي، وعِشت في العنبر عدة أيام أو أسابيع حتى أُصيبت إحدى الزميلات بانهيار عصبي حاد إثر مشاجرة بينها وبين صافيناز؛ مما أجبر إدارة السجن على نقل صافيناز كاظم من العنبر.

تألمتُ كثيرًا وأنا أقرأ في مجلة الهلال ما كتبته صافيناز كاظم في مقالها، حاولتْ أن تقلب الحقائق رأسًا على عقب، وهي تتهم زميلات بالأنانية لمجرد أنهن كنَّ يعترضن على الاستبداد أو السلطة المطلَقة التي حاولتْ أن تفرضها علينا باعتبار أنها الوحيدة فينا التي تعرف الله والباقيات مارقات في الكفر أو جاهلات بالدين.

وهي تمزج الجدية بالسخرية حتى لا يحاسبَها أحد، وتتلاعب بالكلمات، وأي اختلاف في الرأي بين الزميلات لا تَفهمه إلا نوعًا من الحقد أو الغيرة، وإن بكت لطيفة الزيات حُزنًا على أخيها المريض المحبوس (في طرة)، فهي لا تفهم هذا البكاء، تتهكم عليه بأغنية سطحية، وإن أخطأت أمينة رشيد في نطق العربية الصحيحة قالت عنها «فرانكوفونية»، وأنها تحب نفسها في السر، أمَّا الأستاذة صافيناز كاظم فكانت الإله الذي لا يُخطئ أو يبكي أو يحب ذاته!

حين مرضت صافيناز كاظم بمرض الجرب الجلدي كنت أنا التي شخَّصت المرض، وهو تشخيص سهل لأي طبيب، وكان يتردد علينا طبيب السجن، وهو شاب وإنسان صادق، قلت له: هذا جرب يا دكتور؟! قال: نعم يا دكتورة نوال، وسوف أبلغ إدارة السجن فورًا. وفعلًا حدث ذلك، إلا أن هذا الطبيب الشاب اختفى لا نعرف كيف، وجاءنا طبيب آخر أنكر تمامًا أنه مرض الجرب، وقال إنه هرش عادي. كانت إدارة السجن تخشى من تسرُّب هذا الخبر إلى الخارج، وقد سعينا إلى تسريب الخبر خارج السجن، وحين خرجت لأول جلسة لأُدلي بأقوالي أمام المدَّعي الاشتراكي طلبت تسجيل حادث مرض الجرب في التحقيق ووجهت الإدانة إلى طبيب السجن الذي خرق ميثاق نقابة الأطباء وخالف ضميره الإنساني، كما وجهت الإدانة لإدارة السجن والنظام بأسره.

لم تذكر صافيناز كاظم كل ذلك، بل ساقت واقعة أخرى، حين أصابها الإسهال ذات يوم فأعلنت أنه الكوليرا، ولأنني لم أجارِها في هذه التمثيلية حاولت تصويري كأنما أنا أهملت مرضها الخطير هذا، أسأل الله لها التوبة والمغفرة وما هو خير وأبقى.

الصمت جريمة ... ومعًا نكسر باب السجن[1]

قضيت ليلة الثلاثاء أول يوليو ١٩٩٧م جالسة في مقعد خلفي داخل الطائرة النفاثة، تجتاز المحيط الأطلسي، تمر الساعة وراء الساعة، اثنتا عشرة ساعة، رأسي يسقط فوق صدري حين يغلبني سلطان النوم، قدماي تتورمان، تؤلمانني، لا أستطيع أن أمدهما أمامي؛ فليس هناك مساحة. حين كنت شابة لم يكن السفر مرهقًا بل إنه المتعة، وإن ركبت فوق ظهر قطار، أو فوق ظهر سفينة أو حتى فوق الطائرة، وكان الأمل كبيرًا في تغيير العالم بحيث يختفي الظلم، ويصبح الناس سواسية كأسنان المشط، بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو العرق أو العقيدة.

وأنا في العشرين من عمري تصورت أن الثورة ستقوم بعد أيام قليلة، وفي الثلاثين من العمر تصورت أنها ستأخذ عدة شهور، وفي الأربعين تصورت أنها تحتاج إلى بضع سنين، وبعد أن تجاوزت الستين عامًا أصبحت الثورة بعيدة تحتاج إلى قرن من الزمان أو قرون.

مع ذلك، أجد نفسي داخل الطائرة المتجهة إلى نيويورك؛ فقد وصلتني دعوةٌ للمشاركة في مظاهرة يقودها أطفال العالم؛ للاحتجاج على الظلم الواقع على ملايين الأطفال من الشعوب المقهورة (وعلى رأسها شعب العراق) المحاصرة اقتصاديًّا، لأسباب سياسية، يحكمها مبدأ واحد هو البطش بالضعفاء، وأولهم الأطفال وثانيهم الأمهات.

---

[1] الأهالي، ٢٧ / ٨ / ١٩٩٧م.

الإرهاق الجسدي يضاعف حالة اليأس من حدوث أي ثورة تغيِّر النظام العالمي الجديد القديم، فما بال ثورة أطفال؟

تحركتُ في مقعدي كأنما أفكُّ حزام المقعد، كأنما أهم بالنزول من الطائرة والعودة من حيث أتيت، لقد قبلت هذه الدعوة الطفولية في لحظةٍ طفولية من لحظات الأمل الخارق لطبقات اليأس؛ فالطفلة في أعماقي لم تَمُت بعد، قد تصحو فجأة وتدفع جسدي المرهق اليائس إلى الاندفاع نحو مجالات الأمل الجنونية، والتحليق في السماء حتى الهبوط فوق المريخ.

حينئذٍ أحبها رغم جنونها، هذه الطفلة العنيدة غير القابلة لمنطق الكهولة، وآلام العمود الفقري، فهي تأخذني بعيدًا (ولو مؤقَّتًا) عن العيون الذابلة والأجسام البطيئة الحركة والعقول الملفوفة بالحجاب أو الوجوه المغطاة بالمساحيق وأقنعة التنكر.

وصلت إلى نيويورك الساعة ١١:٣٠ صباحًا، مطار كيندي هو أفضل مكان يفقد الإنسان فيه نفسه، لا يكاد يلتقط أنفاسه حتى يجد نفسه داخل ما يُسَمَّى بالسيارة الصفراء تنطلق مثل نحلة مجنونة نُزع عنها ذنَبها، وكل شيء يلهث، وأنا ألهث وأقول للسائق الهندي: بسرعة جدًّا جدًّا إلى المظاهرة أرجوك؛ لأنها ستبدأ الساعة ١٢ ظهرًا، أمامَك نصف ساعة فقط تصل إلى تقاطع شارع ٤٧ مع الأفينيو الأول، رصيف أمام مبنى الأمم المتحدة، أرجوك أسرع إلى المظاهرة!

صوتي يلهث، يتهدج بالانفعال، يشتد الانفعال العاطفي والحماس الثوري حين يكون الجسد مرهقًا، والرجل الهندي ذو الوجه الناحل الشاحب رمقني بلا انفعال، مثل جميع سائقي التاكسي في نيويورك، صوت هادئ تمامًا، لا تهمه ثورة ولا تغيير العالم، وسمعته يقول بلكنة أمريكية هندية إنجليزية: «إيه؟ مظاهرة إيه؟!»

صوته بارد مثل دش الماء الصاقع ينزل فوق رأسي الساخنة الملتهبة بالتعب، وعدم النوم، الحماس الطفولي، الذي صوَّر لي مظاهرة الأطفال كأنما تشمل جميع أطفال العالم، بمن فيهم الأطفال الهنود الذين يعيشون في الهند وأمريكا وكل البلاد، تصورت أن شوارع نيويورك من مطار كينيدي حتى مبنى الأمم المتحدة سوف تمتلئ بالأطفال، يهتفون ضد الحصار الاقتصادي وضد الأمم المتحدة التي أصبحت خاضعة للولايات المتحدة الأمريكية، ونُطلِق عليها اليوم اسم «الأمم المتحدة الأمريكية».

إلا أن هذا السائق الهندي الأمريكي لم يسمع عن المظاهرة، ورمقني بإشفاق كمن يرمق شخصًا هبط من المريخ ولا يعرف شيئًا عن النظام العالمي الجديد فوق الكرة

الأرضية. ودفعه الإشفاق إلى الإسراع بي إلى مكان المظاهرة، فوصلت في الساعة ١١:٣٠ ظهرًا قبل موعد المظاهرة بنصف ساعة. وكانت هناك مظاهرة أخرى من المهاجرين المقهورين في أمريكا وبعض الزنوج وبعض النساء وبعض الرجال والأطفال أيضًا؛ فهذا المكان فوق الرصيف أمام مبنى الأمم المتحدة هو ساحة المظاهرات الشعبية، وعلى كل فئة مقهورة أن تحجز المكان فوق الرصيف بالساعة أو الساعة والنصف، فإذا انقضى وقتها لَمَّت عزالها من المنشورات والكراسي والمنصة والميكرفون وانصرفت لتُخلي المكان لمظاهرة أخرى. لا تكف المظاهرات الشعبية في أمريكا، يحرسها البوليس لإعطاء صورة ديمقراطية؛ فالمطلوب هو الصورة فقط، نحن نعيش في عالم من الصور، أمَّا العالم الحقيقي فهو يمضي في طريقه دون أن يهتزَّ له جفن.

(١) ونكسر معًا باب السجن

بدأت الوجوه العربية تتدفق على الساحة، نساء وأطفال ورجال، يحملون اللافتات ضد الحصار، بدأت أسترد الحماس والأمل، اللغة العربية تسري في أذني مثل الموسيقى، الأطفال يتجمعون على شكل صفوف حاملين اللافتات:

- أنقذوا الأطفال من الموت.
- اكسروا الحصار فهو جريمة.
- أوقفوا بطش الولايات المتحدة الأمريكية بالشعب العراقي.
- حرروا الأمم المتحدة من النفوذ الأمريكي.

ثُمَّ انطلق الأطفال يغنُّون فوق المنصة، والجميع يغني معهم، حتى المارة في الشوارع توقفوا يستمعون إلى الغناء، ثُمَّ انخرطوا في المظاهرة، رجال ونساء وأطفال، من مختلف الجنسيات والألوان واللهجات، يغنُّون بصوت واحد دون أن يفهموا الكلمات، لكن اللحن الموسيقي مفهوم بصرف النظر عن اللغات:

يد واحدة لا يمكن أن تكسر باب السجن،
يدان اثنتان لا يمكن أن تكسرا باب السجن،
لكن إذا جمعنا الاثنتين مع الاثنتين مع الخمسين،
أصبحنا الملايين،

وسوف يأتي هذا اليوم،
سوف نرى جميعًا هذا اليوم،
ونكسر معًا باب السجن.

فوق المنصة تعاقب المتحدثون من النساء والرجال والأطفال ... كلمات قصيرة كلها قوية معبرة، شعارها واحد: الحصار جريمة لا بد أن تنتهي! أصوات مختلفة اللهجات، بعضها مصري، بعضها عراقي، بعضها ليبي، بعضها سوري، بعضها جزائري، لهجات البلاد العربية، بما فيها فلسطين. يدرك الفلسطينيون أكثر من غيرهم معنى الحصار، رأيت الوحدة العربية فوق الرصيف دون حاجة إلى الحكومات العربية، تتآلف الشعوب العربية رجالًا ونساءً وأطفالًا بعيدًا عن حكوماتهم، إذا ما جاءت الحكومات انفضَّت الوحدة وتلاشت.

بعد الكلمات فوق المنصة المنصوبة فوق الرصيف، بدأت المظاهرات تجوب شوارع نيويورك، يتقدمها موكب من عربة تجرها الخيول تحمل نعش الطفل المجهول، تمشي المظاهرات على إيقاع طبول اللحن الجنائزي، يتقدمها الأطفال من مختلف الجنسيات يهتفون ضد الحصار الذي يقتل الأطفال جوعًا في العراق وليبيا وكوبا والبوسنة وزائير ورواندا وغيرها من بلاد العالم.

نادَوا باعتبار الحصار جريمة في حق الشعوب: أوقِفوا الموت البطيء للأبرياء تحت اسم العقوبات.

هذه المظاهرة في أول يوليو توَّجت المظاهرات الشعبية في مِائة مدينة من بلاد العالم، وفي ٦٧ مدينة في الولايات المتحدة خلال الأسبوع الأخير من يونيو ١٩٩٧م، وهو أسبوع التضامن مع الشعب العراقي لرفع الحظر غير القانوني، والذي راح ضحيته حتى الآن ٤٥٠٠٠٠ طفل. نَقلت وسائل الإعلام الأمريكية أجزاء من هذه المسيرة في برامجها عبر محطات التليفزيون لأول مرة منذ ٧ سنوات، إلا أن شرطة نيويورك قبضت أثناء المظاهرة على بعض النساء والرجال والشباب. أحد الشباب رقد فوق أسفلت الشارع أمام سيارة البوليس ليوقف تحركها بالمعتقلين والمعتقلات، إنه شاب أمريكي اشترك في المظاهرة، وراح يهتف ضد الحكومة الأمريكية. ورجل عربي عجوز يتقدم نحو الشرطة ويقول لهم في غضب: اعتقلوني معهم يا مجرمون! يُمسكه رجال الشرطة ويحملونه في الهواء، ثُمَّ يلقون به داخل السيارة البوكس.

كل هذا رأيته بعيني وشهدته، أكذوبة الديمقراطية، وازدواجية المقاييس، وقد حصل المسئولون عن المظاهرة على تصريح من الأمن بعمل المظاهرة، إلا أن الأمن الأمريكي لم يأْبَه بهذا التصريح، واعتقل بعض النساء والرجال دون أن يَخرجوا عن حدود القانون.

في لقائنا مع الأمين العام المساعد للأمم المتحدة (كان الأمين العام خارج نيويورك) قدمنا احتجاجًا رسميًّا على هذا الاعتقال غير القانوني، والذي لم يحدث إلا لهذه المظاهرة دون غيرها من المظاهرات، لمجرد أنها مظاهرة عربية، يتصاعد العداء للعرب في الولايات المتحدة الأمريكية.

دام اللقاء مع الأمين العام المساعد حوالي الساعة، اسمه «إبراهيم فال»، وهو سنغالي، استمع جَيِّدًا لكل أعضاء وعضوات الوفد العالمي الذي قابله، كانت مطالبنا الأساسية للأمم المتحدة كالآتي:

أولًا: أن تتحمل الأمم المتحدة مسئوليتها أمام الشعوب التي أنشأتْها، وأن تمنع الدول الأعضاء فُرادَى أو مجتمعين من اتخاذ أي قرار لا يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة أو الاتفاقات المودَعة في أمانتها؛ مثل اتفاقية جنيف وغيرها.

ثانيًا: على الأمم المتحدة أن تمنع استخدام الحصار كسلاح ضد الشعوب بسبب قرارات سياسية اتخذتها حكوماتهم، هذا الحصار جريمة، وخرق للقانون الدولي، لا يدفع ثمنه إلا الأبرياء من الشعوب، خاصةً الأطفال الذين لا يشاركون في أي قرار سياسي.

ثالثًا: اعتبار سلاح الحصار أحد أسلحة الدمار الشامل، ويجب حظره ومنع استخدامه تمامًا في أي بلد في المستقبل.

ضمن المشاركين في المظاهرات وزير العدل الأمريكي السابق «رامزي كلارك»، الذي تدخل لدى الشرطة الأمريكية للإفراج عن المعتقلين والمعتقلات أثناء المظاهرة، وفعلًا تم الإفراج عنهم في اليوم ذاته.

كانت إحدى المعتقلات امرأة مصرية كانت تمشي إلى جواري، رأيت ثلاثة من رجال الشرطة ينقضُّون عليها، أحدهم يضع ذراعيها خلف ظهرها ويكبل يديها بالحديد، ويدفعها زميلاه إلى سيارة البوكس.

مشهد همجي عنيف غليظ يعامل بالغلظة نفسها المرأة كالرجل والطفل والعجوز والعربي والأمريكي والهندي، لا فرق.

هذه هي المساواة الوحيدة التي شهدتُها في نيويورك في اليوم الأول من يوليو ١٩٩٧م، وقد هجم رجال الشرطة على شابة أمريكية، قيَّدوها بالحديد وألقَوْا بها في العربة إلى جوار

زميلتها المصرية، وفعلوا ذلك بالشاب والعجوز والأسود والأبيض، هكذا تحققت المساواة تحت يد الشرطة الأمريكية.

لم يحدث في التاريخ البشري أن يجري قتل شعب كامل مثل الشعب العراقي بأطفاله ونسائه ورجاله، عن عَمْد وسَبْق إصرار، بحُجة تطبيق الشرعية الدولية التي تتذرع بها الأمم المتحدة على اقتراف هذه الجريمة منذ حرب الخليج عام ١٩٩٠م.

على حين تُداس هذه الشرعية الدولية كل يوم من جانب دول أخرى، على رأسها إسرائيل، والصمت هو اشتراك في الجريمة.

(٢) العودة إلى الوطن

عند عودتي إلى الوطن شهدتُ الصراع بين القيادات الفكرية والدينية والطبية حول موضوع ختان الإناث، وهذه جريمة أخرى تُرتكَب في حق النساء والبنات والأطفال الإناث، جريمة ارتُكبت في صمت كبير، على مدى سنين وقرون، كُتمت أصوات النساء خوفًا من الاتهام بالفساد أو انعدام الأخلاق أو انعدام الكرامة أو تأييد الغرب أو الولايات المتحدة الأمريكية. أغرب ما قرأت في الصحف هو التهديد الأمريكي بقطع المعونة عن مصر إن لم يصدر قانون يمنع ختان الإناث!

شر البلية ما يُضحك، إن الولايات المتحدة الأمريكية تتعاطف مع الأطفال البنات المصريات ضحايا الختان، لكنها لا تتعاطف مع الأطفال في بلادٍ أخرى الذين يموتون جوعًا بسبب الحصار الأمريكي لهم! تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية سياسة إسرائيل التي تَسفِك الدماء في فلسطين كل يوم منذ تسعة وأربعين عامًا.

أمر مضحك مؤلم، لا يدفع ثمنه إلا الأطفال الذكور والبنات اللائي يتخلى عنهن الكبار لمجرد إثبات الوطنية أو الهُوية في ساحة الصراعات السياسية.

عالم السياسة لا تحكمه المبادئ أو القيم الإنسانية، بل تحكمه القوى المهيمنة والمصالح الآنية وغير الآنية، يروح ضحية هذه الصراعات الدولية والمحلية، الشرائح الضعيفة في المجتمع وعلى رأسهما الأطفال البنات.

إلا أن هؤلاء النساء والرجال الواثقين في وطنيتهم والواثقات في وطنيتهنَّ، لا يأبهون ولا يأبهن لهذه المناورات السياسية، ويرفضون الصمت؛ لأن الصمت اشتراك في الجريمة سواء كانت حصارًا اقتصاديًّا أم ختانًا جسديًّا أو عقليًّا.

الاستخراب وليس الاستعمار[1]

في جريدة الأهرام الصادرة ١٨ أبريل ١٩٩٧م، قرأت مقالًا بقلم الأستاذ فهمي هويدي، تحت عنوان: «لا سلام مع الاستيطان»، وأتفق معه في أن من واجبنا أن نُسقط القناع من على الاستيطان والمستوطنات، وأن نصحح اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة في الصراع العربي الإسرائيلي. ويقول فهمي هويدي عن لسان إحدى الباحثات الألمانيات «فيكتوريا فالس»: إن كلمة مستوطنة ليست سوى بدعة صهيونية تعطي انطباعًا بأن المسألة لا تخرج عن محاولة إعمار أراضٍ خالية، بينما الأمر عكس هذا تمامًا، فهذه المستوطنات تُقام فوق حيازات مصادرات الأهالي، وعلى أنقاض بيوت الفلسطينيين أو زراعات يملكونها.

كثيرون من الناس في الشرق والغرب يؤيدون هذا القول، فهذه باحثة ألمانية تكشف المشروع الصهيوني السياسي والعسكري، إلا أنها تستبدل كلمة مستوطنات بكلمة أخرى هي مستعمرات، ويقول الأستاذ فهمي هويدي في مقاله على لسانها: المستوطنات في حقيقتها ليست سوى مستعمرات؛ إذ هي نوع من الاستعمار. وهنا نتوقف قليلًا لندرك أن كلمة «استعمار» أيضًا لا تصلح لكشف الخراب أو الاستخراب الذي قام به الاستعمار القديم ويقوم به الاستعمار الجديد بمختلف أشكاله العسكرية والاقتصادية والثقافية والإعلامية. إن كلمة استعمار ليست إلا بدعة أوروبية (بريطانية فرنسية وغيرها) أعطت انطباعًا بأن الاحتلال العسكري الأجنبي هو نوع من الحماية والدفاع عنَّا، ونوع من

---

[1] أبريل ١٩٩٧م.

الإعمار والتنمية والتقدم لبلاد من الهمج والبرابرة، بينما الأمر عكس ذلك تمامًا؛ فقد تم إفقار البلاد التي احتلتها الجيوش الأجنبية في مصر والهند وجميع البلاد الآسيوية والأفريقية والعربية وغيرها، لقد تم استنزاف موارد هذه الشعوب الاقتصادية والحضارية لتنمية البلاد الأوروبية وتطويرها.

لماذا إذن لا نغير كلمة «استعمار» أيضًا ما دمنا بصدد تغيير اللغة السياسية والمصطلحات المستخدمة في الصراعات الدولية، إن كلمة «استخراب» تكشف أكثر عن المشروعات الاستعمارية القديمة والجديدة.

قد يقول بعض الناس: هذه مجرد قشور لا تمس جوهر المشاكل، إلا أن «اللغة» هامَّة في عمليات الفهم والمعرفة، خاصةً ونحن نعيش اليوم عصر ما يُسَمَّى عصر المعلومات، تلعب فيه اللغة دورًا أساسيًّا في الإعلام السياسي الذي أصبح أخطر من السلاح العسكري في الحرب والسلم معًا؛ مثلًا في حرب الخليج عام ١٩٩١م كان الإعلام الأمريكي يسبق السلاح الأمريكي في الضرب والتمويه وإطلاق الدخان لإخفاء الحقائق، إن التمويه وخداع العدو من أهم وسائل الحرب العسكرية، وفي الحروب الاقتصادية تصبح اللغة السياسية والإعلامية هي السلاح الأكبر في عمليات التمويه وقلب الحقائق.

المشكلة في كل هذا الصراع اللغوي والإعلامي أننا لا نكتشف الحقائق إلا بعد الهزائم، وها نحن نكتشف أن كلمة الاستيطان تخفي الأساس الحقيقي الذي يقوم عليه الصراع العربي الإسرائيلي، ومَن كشف ذلك؟! باحثة ألمانية في الندوة العلمية لشئون القدس التي عُقدت في روما تحت رعاية الحكومة الإيطالية على حد قول الأستاذ فهمي هويدي في مقاله. بالطبع أنا لستُ ضد أن نتعلم من الآخرين في الشرق والغرب؛ فالنضال ضد الظلم ليس قاصرًا على بلاد معينة أو جنسيات معينة أو أديان معينة. أذكر أنني التقيت بمناضلة أمريكية من أصل يهودي اسمها «سالما جيمز» كانت أكثر من النساء العربيات كشفًا للمشروع الصهيوني في إسرائيل. وقفت «سالما جيمز» في المؤتمر الدولي للمرأة في نيروبي عام ١٩٨٥م وهاجمت الحكومة الإسرائيلية، وقالت بالحرف الواحد: إن المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري بريطاني أمريكي. إلا أن بعض النساء الإسلاميات رفضن مصافحة سالما جيمز باعتبارها يهودية، وبعض النساء العربيات رفضن الاستماع إليها أو الجلوس بجوارها.

نحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في أشياء كثيرة ورثناها في اللغة والقيم والسلوك نتصور أنها صحيحة، على حين هي خاطئة وضارة بنا، وقد تسللت إلينا عبر الإعلام المضلل والنظم التعليمية القاصرة.

نحن أيضًا في حاجة إلى أن نكتشف بأنفسنا نواحي النقص في اللغة السياسية والثقافية والإعلامية التي نستخدمها كل يوم ولا ننتظر حتى نسافر إلى مؤتمر دولي في روما أو باريس أو نيروبي لنسمع الباحثين والباحثات الألمان أو الأمريكان، ثم نبدأ نكتشف الحقائق. لماذا نكون دائمًا رد فعل للآخرين ولا نبادر نحن بتغيير اللغة والكلمات التي نستخدمها دون أن ندري، مثل كلمة الاستعمار؟!

آلهة ورجال[1]

منذ نشوء النظام العبودي أو ما يُسَمَّى النظام الطبقي الأبوي أصبح الحاكم يتنكر في زي الإله، لم تنفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية في التاريخ حتى يومنا هذا، وإلا فلماذا يتحدث بابا الفاتيكان في أمور السياسة ويعقد الاجتماعات مع الملوك والرؤساء في جميع أنحاء العالم؟ وفي بلادنا لماذا يفعل شيخ الأزهر أو مفتي الديار أو كبار المشايخ ورجال الدين الإسلامي ما يفعله البابا في العالم المسيحي؟

وفي حرب الخليج أو حرب البترول الأخيرة في يناير ١٩٩١م، لماذا تمتم الرئيس الأمريكي «جورج بوش» بآيات من الإنجيل وهو يعلن الحرب على شيطان العراق «صدام حسين»؟ ولماذا يردد حتى اليوم رئيس الحكومة الإسرائيلية «بنيامين نيتانياهو» آيات التوراة عن الأرض الموعودة وهو يُطلق النيران على الشعب الفلسطيني الأعزل ويستولي على أرضه وخيرات بلاده؟ ولماذا تنتشر الحركات المسيحية الأصولية في الغرب، وتحمل في الولايات المتحدة اسم التحالف المسيحي، الذي يقف مع أقصى اليمين في الحزب الجمهوري، ويشجع العودة إلى القيم الطبقية الأبوية أو القيم العائلية التقليدية والتراجع عن حقوق المرأة وضرب عيادات الإجهاض وإطلاق الرصاص على من يعملون فيها، مع المطالبة بإعادة الصلوات والتعليم الديني في المدارس؟

[1] من محاضرة في لندن، ٤ نوفمبر ١٩٩٧م.

ولماذا تصعد أكثر الأحزاب الهندوكية رجعية إلى السلطة في الهند، وتنتشر الاضطرابات الطائفية والمذابح في كثير من الولايات؟ وفي أوروبا في ظل ما يُسَمَّى العلمانية أو فصل الدين عن الدولة secularism تبقى الكاتدرائيات وقباب الكنائس شامخة في السماء تصلصل أجراسها كأحد الأعمدة الأساسية التي تقوم عليها الأنظمة الرأسمالية الحاكمة.

وفي بلادنا العربية والإسلامية، لماذا ترتفع منارات الجوامع وتعلق عليها الميكروفونات ومكبرات الصوت لتدوِّي آلاف الأصوات خمس مرات في اليوم وقت الأذان؟

ولماذا هذه اللقاءات المستمرة المعلنة وغير المعلنة مع القيادات السياسية في العالم الأول المُسَمَّى اليوم بالشمال وبين القيادات الدينية الأصولية في العالم الثالث أو ما يُسَمَّى الجنوب؟ أهناك ترابط بين القوى الرأسمالية الدولية في عصر ما بعد الحداثة وبين تصاعد التيارات الأصولية الدينية في جميع أنحاء العالم، سواء كانت مسيحية أو يهودية أو إسلامية أو بوذية أو هندوكية أو غيرها؟ وما أثر هذه التيارات الدينية السياسية على حياتنا في الشرق الأوسط، خاصةً نحن النساء؟ وهل يكون القرن الواحد والعشرين أفضل من هذا القرن؟ وماذا نفعل نحن الشعوب المقهورة نساءً ورجالًا في عصر العولمة وما بعد الحداثة؟!

(١) مشاهد متناقضة

خلال سبتمبر الماضي ١٩٩٧م أمضيت بضعة أيام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية، سبحت في المياه الزرقاء الدافئة لأغسل متاعب القاهرة، مدينتي التي عشت فيها أغلب عمري، وعُدت إليها في بداية هذا العام بعد غياب خمسة أعوام فيما يشبه المنفى. لقد وقفت ضد حرب الخليج أو حرب البترول عام ١٩٩١م، فإذا بالضربات تنهال عليَّ، أصدرت الحكومة قرارًا في ١٥ مايو ١٩٩١م بإغلاق الجمعية التي أنشأتها والمجلة التي أصدرتها، وتحويل أموالها إلى جمعية أخرى تحمل اسم «نساء الإسلام»، وفي ليلة ٩ يونيو ١٩٩٢م وضعت الحكومة حراسة مسلحة على بيتي في شارع مراد بالجيزة، وبودي جارد يرافقني في جميع حركاتي، لماذا؟ لأن حياتي مهددة واسمي وُضع في قائمة الموتى الصادرة عن بعض التيارات الأصولية الإسلامية في مصر والمملكة العربية السعودية! هكذا وجدت نفسي تحت حماية القوى ذاتها التي تبغي إزالتي من الوجود، بعضها يحمل وجهًا سياسيًّا والبعض الآخر يحمل وجهًا دينيًّا، وكلاهما مترابط متحالف معًا رغم بعض التناقضات العارضة أو الصراعات المؤقتة.

قد يختفي الترابط أو التحالف لأهداف سياسية قريبة أو بعيدة، إلا أن التناقضات قد تظهر، خاصةً في حياة النساء، هذا القطاع من البشر المحروم من القوة السياسية والاقتصادية والدينية، إنه أول قطاع يُضرَب في الأزمات في الحرب وفي السلم، ويعيش كبش فداء للازدواجية الثقافية والأخلاقية التي تقوم عليها الأنظمة السياسية والدينية على حدٍّ سواء.

على شاطئ البحر في بلادنا أصبح مألوفًا أن ترى نساء مرتديات الحجاب أو النقاب يتمشَّيْن على البلاج، وإلى جوارهن نساء عاريات داخل البكيني، بل إنني رأيت امرأة تسبح في البحر وهي مرتدية نقابًا أسود حول وجهها وعباءة سوداء وحذاءً جلديًّا أسود، كانت تقاوم الأمواج المتكسرة على الشاطئ تثبِّت كعبيها في الرمال حتى لا تغرق، وإلى جوارها زواجها يسبح بحرية داخل المايوه الكاشف عن جسده كله ما عدا جزء صغير أسفل البطن وما بين الفخذين.

وفي شوارع القاهرة أصبح مألوفًا أن ترى النساء المحجبات لا يظهر منهن إلا الوجه والكفان، والنساء السافرات المرتديات الميكروجيب أو الفستان ما بعد الحديث الكاشف عن مساحات أكثر فأكثر من الصدر أو الظهر أو الفخذين.

وعلى شاشة التليفزيون المصري (مثل غيره في منطقة الشرق الأوسط) أصبح مألوفًا أن ترى الشيخ الإسلامي الوقور الذي يشجع النساء على التحجب درءًا للفتنة، يعقبه على الفور راقصة شبه عارية يتلوى جسدها في إعلان عن بضاعة أمريكية جديدة أو سلعة مستحدثة من منتجات الشركات المتعددة الجنسيات.

لهذا لم يعد غريبًا أن ترى في الشوارع نساء وفتيات يخفين شعورهن تحت الحجاب، على حين يرتدين الرموش الصناعية ويلوِنَّ وجوههن بالمساحيق وشفاههن بإصبع الروج وعيونهن بالكحل وأجسادهن داخل الثوب الإسلامي الطويل، تتلوى في مشية مغرية فوق الكعوب العالية الرفيعة.

هذه المشاهد تبدو متناقضة، وهي كذلك بالفعل، إلا أنها مترابطة تمثل الوجهين أو الوجه المزدوج للنظام العالمي الجديد وما يُسَمَّى العولمة أو الكوكبة ما بعد الحداثة.

إنها رغم شعارنا ما بعد الحديث لا تزال في جوهرها نظامًا طبقيًّا أبويًّا في حاجة إلى الدين كسلاح سياسي وثقافي في صراعها ضد الشعوب.

لماذا تحتاج العولمة إلى التيارات الأصولية الدينية؟

أصبحت كلمة العولمة هي الشكل ما بعد الحديث للاستعمار الجديد، وهي كلمة معقدة، تزداد تعقيدًا مع الحياة وتطور أساليب الاستغلال الاقتصادي في عالم سريع

التغير تحت وطأة الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الحديثة. سأحاول تبسيط هذه العولمة وحاجتها إلى الأديان في هذه النقاط التالية:

(١) تعني العولمة أن الثورة والقدرات الإنتاجية والتجارية والعسكرية تتركز أكثر وأكثر في يد القلة؛ الأقل فالأقل من الأفراد والشركات، مثلًا يوجد اليوم في العالم ٤٣٥ فردًا يملكون نصف الثروة في العالم، ويوجد ٥٠٠ شركة متعددة الجنسيات تسيطر على ٨٠٪ من التجارة العالمية و٧٥٪ من الاستثمارات.

(٢) لا يمكن للقلة القليلة أن تواصل جني أرباحها واحتكاراتها إلا عن طريق السيطرة بالعنف، بالحروب العسكرية، أو بالضغوط السياسية والاقتصادية التي تتخفى تحت اتفاقات دولية أو شعارات حرية السوق والليبرالية والديمقراطية.

(٣) لكن هذا كله لا ينجح دون السيطرة على العقول وإفراغها من المعرفة، وحشوها بالمعلومات الكاذبة المضللة؛ لهذا أصبحت الوسائل الإعلامية والثقافية أهم من أيِّ وقت مضى في هذا العصر الذي يشهد ما يُسَمَّى الثورة المعلوماتية، وهنا يأتي دور الأديان والحاجة إلى إحيائها وتفسيرها على نحو يخدم مصالح الأقلية الحاكمة.

(٤) رغم الاختلافات بين الأديان إلا أنها تتفق في فرض الطاعة المطلقة للرب في السماء ومندوبه فوق الأرض، سواء كان الحاكم في الدولة أو رب العائلة الكبيرة، أو الأب في الأسرة الصغيرة التي هي نواة المجتمع شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا. في مصر مثلًا، كان رئيس الدولة أنور السادات يعطي نفسه لقب رب العائلة الكبيرة، ولقب آخر هو الرئيس المؤمن، إن سلطة الأبوة مع الإيمان الديني يشكلان الدعامة الأساسية للنظام الطبقي الأبوي الذي بدأ في العهود العبودية، واستمر في قهر النساء والفقراء، ولا يزال حتى اليوم يحكمنا دوليًّا ومحليًّا بأشكال سياسية واقتصادية وثقافية ودينية مختلفة؛ لهذا السبب تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية أنظمة دينية أصولية مثل تلك السائدة في المملكة العربية السعودية وبلاد الخليج، ولذلك أيضًا ساندت الولايات المتحدة حكومة السادات في مصر وساعدته على تقوية التيارات الأصولية الدينية لضرب القوى العلمانية المصرية الناصرية والاشتراكية والوطنية الديمقراطية، كما تعاونت الولايات المتحدة الأمريكية مع بعض الحركات الأصولية الإسلامية في حرب أفغانستان ضد النظام المحلي المتحالف مع الاتحاد السوفياتي. ومن المعروف أن منظمة حماس (وهي تيار إسلامي أصولي) قد لقيت التشجيع من الحكومة الإسرائيلية لضرب منظمة التحرير الفلسطينية، وما إن تحقق لها ذلك حتى بدأت حربها ضد حماس والرغبة في القضاء عليها.

(٥) تعني العولمة أن تسيطر القلة الثرية الحاكمة دوليًّا على السوق العالمية، يتم ذلك عن طريق إلغاء الحدود بين البلاد أو إلغاء حماية الدول للإنتاج المحلي مثل رسوم الجمارك أو الضرائب. إن العولمة في جوهرها نوع من الاستعمار الاقتصادي المباشر وغير المباشر، وضرب الإنتاج المحلي الزراعي والصناعي والثقافي والفني.

(٦) تحاول الدول والشعوب في عالمنا الذي يسمُّونه العالم الثالث أن تدافع عن استقلالها الاقتصادي لتخرج من قبضة القوى الدولية إلا أنها تفشل في هذه المهمة؛ لأسباب متعددة، منها فساد الحكومات المحلية وتعاونها المعلن أو غير المعلن مع القوى الرأسمالية العالمية، وبطشها بالشعوب إن حاولت المقاومة بشكل منظم فعال؛ لهذا لا يبقى أمام هذه الشعوب المقهورة محليًّا وعالميًّا من سبل المقاومة إلا الانغلاق على الذات، والعودة إلى الماضي، والتمسك بالتراث القديم بسلبياته وإيجابياته، ومن هنا الردة الثقافية والفكرية التي نشهدها في بلادنا اليوم، والأصوات المتزايدة التي تطالب بالعودة إلى الهوية الأصلية أو الخصوصية الثقافية أو الدينية أو القومية أو العرقية. إنه نوع من الدفاع عن النفس، وهي حركة شعبية تقاوم قوًى عالمية ومحلية أكبر منها؛ بهذا يغلب عليها اليأس الذي يزيد من انغلاقها على الذات والارتداد إلى الماضي.

(٧) تشجيع القوى الرأسمالية العالمية، هذه الردة الثقافية في بلادنا؛ لأنها تجرد الشعوب من قدرتها على المقاومة الحقيقية لتحقيق الاستقلال الاقتصادي، وتحرفها إلى معارك ثانوية في مجال الروحانيات والأديان والصراعات الثقافية أو الحضارية، توهمها أن الصراع الحقيقي هو الصراع الثقافي، وترفع شعارات من نوع التعددية الثقافية، أو احترام الخصوصيات الثقافية والدينية والعرقية والطائفية، وتنجح عن هذا الطرق في تقسيم الشعوب وتمزيقها إلى ملل وطوائف متناحرة، كما تنجح في تشجيع الفكر المتخلف والخرافات الروحانية، بالإضافة إلى أن الصراع الثقافي أو الديني أو العرقي لا يمثل خطرًا حقيقيًّا على المصالح الاقتصادية الدولية، طالما أن القدرات الاقتصادية لهذه الشعوب مكرَّسة لخدمة الشركات المتعددة الجنسيات.

(٨) الدليل على ذلك أنه رغم الخلافات التي تنشأ أحيانًا بين التيارات الإسلامية الأصولية والدول الغربية، إلا أن شبكة الشركات والبنوك الإسلامية ترتبط تمامًا بالاستعمار العالمي الجديد، بل إن الجزء الأساسي من أموال الطبقات الحاكمة في بلادنا العربية يتواجد في البنوك والشركات والبورصات في الدول الغربية ويخضع لأهدافها ومصالحها ضد مصالح الشعوب العربية.

(٩) إن تصاعد التيارات الأصولية الإسلامية في المنطقة العربية بعملياتها الإرهابية وقتل الأبرياء من الرجال والنساء والسياح تسهِّل على الاستعمار الجديد أن يستبدل الإسلام كعدو جديد بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، هكذا يبرر تصاعد التسليح وتشكيل الأهداف العسكرية والتدخل في شئون البلاد الداخلية وغير ذلك من وسائل السياسة الدولية المعاصرة.

(١٠) يكشف كل ذلك أسباب انتشار شعارات من نوع الصراع بين الثقافات أو بين الحضارات التي ظهرت في السنين الأخيرة، سعى لوضع نظرياتها شخصيات أمريكية في الجامعات والمعاهد مثل صمويل هانتنجتون وبرنار لويس وفرانسيس فوكوياما وغيرهم، وانتقال هذه الأفكار عن طريق العدوى أو التقليد إلى عدد من المثقفين في بلادنا.

(١١) تحتاج عمليات العولمة الاقتصادية إلى عولمة ثقافية وإعلامية من أجل تصريف بضائعها وسط الشعوب الفقيرة ذات القيم الثقافية والدينية المختلفة؛ لذلك تسعى القوى العالمية لخلق أنماط استهلاك موحدة عالميًّا، وقيم شرائية وأخلاقية ونفسية واحدة، وقيم جمالية للنساء متشابهة، وهي تسعى لتشجيع الاستهلاك، وخلق حاجات مزيفة غير ضرورية لدى البشر؛ فهي تثير غرائز الشباب عن طريق أفلام الجنس والجريمة والتنافس، وتُشعل غيرة النساء بالإعلانات التِّجارية، وتدفعهن لشراء الرموش الصناعية والمساحيق والحلقان في الآذان وأدوات الزينة والكعوب العالية، وتنتشر الفلسفة الاستهلاكية القائمة على الشراء النهم للكماليات وسط شعوب محرومة من الضرورات.

في قريتي كفر طحلة في دلتا النيل أصبح مألوفًا أن تتأرجح الفتاة الريفية الفقيرة على الكعب العالي الذي ينغرز في حفر الشوارع الزراعية أو أكوام السباخ، وتشتري زجاجة عطر مستورد تُخفي به رائحة العرق بدلًا من قطعة صابون محلي تستحم به.

لقد نجحت العولمة الثقافية في تخريب العقول وتخريب الاقتصاد المحلي سواء بسواء.

(١٢) إلا أن الشعوب تقاوم هذا الاعتداء على مواردها المادية والفكرية، إنها مقاومة طبيعية إنسانية من أجل البقاء، وهي ترى أمامها الآلاف من الأطفال يموتون جوعًا أو مرضًا، والآلاف من الشباب يعيشون حياة أشبه بالموت في ظل البطالة واليأس والمخدرات، إلا أن المقاومة الشعبية في غيبة الوعي أو التنظيم السياسي الواعي تنحرف في أحيان كثيرة عن الطرق الكفيلة بإنجاحها ودفعها إلى الأمام، فإذا بها تقاوم العولمة السوقية الاستهلاكية بالعودة إلى الماضي أو تراثها القديم بسلبياته وإيجابياته، ولكل تراث قديم سلبيات وإيجابيات، سواء في الشرق أو الغرب، إلا أن رد الفعل الشعبي غير الصحيح في

بلادنا (حتى المثقفين منهم) يرى أن الحضارة الغربية ليس فيها إلا الإباحية والفساد الأخلاقي والاستغراق في ملذَّات الدنيا والماديات، وأن الحضارة الشرقية أو الحضارة الإسلامية ليس فيها إلا النقاء والطهر والروحانيات والفضيلة، هكذا ترتفع الأصوات تنادي بالعودة إلى الإسلام والتمسك بالقيم الروحانية، وارتداء الزي الإسلامي للنساء (الحجاب مثلًا) أو اللحية والجلباب للرجال، والعودة إلى قيم العائلة القديمة، واللغات المحلية، وكتاتيب القرية، والزراعات والحرف التقليدية وغير ذلك مما قد يكون مفيدًا أحيانًا في إحياء بعض إيجابيات حضارتنا المصرية والعربية والإسلامية والقبطية، إلا أن القوى العالمية والمحلية المسيطرة لا تشجع هذا النوع الإيجابي من المقاومة الشعبية، وتسعى للقضاء عليه لحساب القوى الأصولية الدينية، إسلامية كانت أو قبطية، التي تشعل نيران الفتنة الطائفية وتحوِّل المعركة الشعبية عن مسارها الطبيعي ضد الاستعمار العالمي والحكومات المحلية المتعاونة معه إلى معارك بين المسلمين والأقباط، فإذا بالرصاص ينطلق في صدر رجل لمجرد أنه قبطي، أو في صدر امرأة لأنها لا ترتدي الحجاب، أو لأنها سائحة أجنبية جاءت من الغرب لتزور بلادنا.

لقد عشنا في مصر السنين العشر الأخيرة في ظل هذا الإرهاب الذي أطلقوا عليه اسم الإرهاب الأصولي الإسلامي. تحقق للاستعمار الجديد وقوى العولمة، كل أهدافها، وعثرت على عدوها الجديد الذي تدخل به إلى القرن الواحد والعشرين، وتوهم العالم أن الحرب ضده ضرورية ضرورة الحرب ضد الشيطان؛ فالعالم المحكوم بإله طاغٍ أو قلة من الآلهة الطغاة لا يمكن أن يبقى ويستمر دون وجود الشيطان، وإن اختفى الشيطان من الكون فسوف لا يكون هناك شر؛ وبالتالي يصبح العالم في غير حاجة إلى إله.

إن الفلسفة الدينية الثنائية تخدم إلى حد كبير فلسفة الاستعمار الجديد كما خدمت فلسفة الاستعمار القديم، فهي الثنائية القديمة التي على أكتافها قام النظام العبودي ثُمَّ الإقطاعي حتى الرأسمالي الحديث؛ لهذا السبب كان الدين سلاحًا سياسيًّا في جميع العصور حتى اليوم؛ فالدين في جوهره أيديولوجية سياسية بالإضافة إلى تعاليمه الخاصة بالحياة الشخصية للرجال والنساء وقيوده الجنسية على النساء فحسب، تأكيدًا للسلطة الأبوية وسيطرة الذكر في العائلة، فوق الأرض، وفي السماء.

(١٣) إلا أن الدين سلاح ذو حدين، قد يخدم الآلهة والقلة الحاكمة في استبدادها وظلمها، وقد ينقلب ضدها إلى سلاح في يد المقهورين من الفقراء والمقهورات من النساء؛ ذلك أن الكتب الإلهية تحتاج دائمًا إلى البشر كي يفسروها، وإلا تتعطل عن العمل أو التأثير في

حياة الملايين الذين لا يقرءون هذه الكتب السماوية، فما بال أن يفهموا ما بها من طلاسم أو رموز ترمز إلى حياة بشر عاشوا منذ آلاف السنين في الصحراء، يركبون الإبل ويشربون من الآبار، ليس عندهم ثلاجات ولا سيارات ولا طائرات ولا كمبيوتر وإنترنت!

من هنا المشكلة الرئيسية في الدين، وهي التفسير، مَنْ يُفسِّر آيات الله للشعوب؟ وقد مرَّت ببلادنا مراحل متقدمة سياسيًّا، خاصةً بعد الحرب العالمية الثانية وانهزام القوى النازية والفاشستية، وضعف الاستعمار البريطاني، بدأت الحركة الوطنية الشعبية في مصر تزدهر، يحدوها أمل جديد في التخلص من الاحتلال البريطاني والحكم الملكي المحمي بهذا الاحتلال، انتشرت حينئذٍ التفسيرات المتقدمة المستنيرة للإسلام، والتي بدأها مِن قبلُ الروادُ الإسلاميون في أوائل هذا القرن مثل الشيخ جمال الدين الأفغاني ومصطفى عبد الرازق والشيخ محمد عبده وغيرهم ممن فسروا الإسلام على نحو يدعو إلى إعمال العقل والاجتهاد والسعي إلى الحرية والعدالة واستقلال الوطن، كما أنهم دافعوا عن حقوق المرأة واعتبارها إنسانًا كالرجل حسب آية القرآن التي تقول: ﴿هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف، ١٨٩)، كما حاربوا تعدد الزوجات واعتباره ممنوعًا في الإسلام حسب آية القرآن التي تشترط العدالة بين الزوجات كأساس لحق التعدد، وأن هذه العدالة مستحيلة؛ لذلك لا بد من الاكتفاء بزوجة واحدة فقط: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء، ٣)، هكذا قال الله في القرآن.

(١٤) إلا أن هذا الاتجاه الوطني الإسلامي المتقدم كثيرًا ما يُضرب من القوى الحاكمة دوليًّا ومحليًّا، فهو خطر عليهما معًا؛ لأنه يحول الإسلام من سلاح للاستبداد والاستغلال وتقسيم الشعوب إلى سلاح للعدالة والوحدة والاستقلال في يد الشعوب.

ويحاول الإعلام العالمي في ظل العولمة أن يطمس الفروق بين هذا الاتجاه الوطني الإسلامي المستنير والتيارات الأخرى الأصولية الإسلامية، كما أنه يشجع الأخيرة ويصوِّرها على أنها هي الإسلام وهي العرب، وأنهم ليسوا إلا عصابات إرهابية تطلق الرصاص على الأبرياء وتفرض الحجاب والختان على النساء.

لا شك أن هذه العصابات الإرهابية موجودة في بلادنا، وهي تعمل تحت اسم الإسلام، وتفسره تفسيرًا يخدم أغراض التخلف والتمزق، وتنشغل بحجاب المرأة وعزلها عن الحياة العامة أكثر مما تنشغل بالنهب الاستعماري الاقتصادي، وتقتل المفكرين المستنيرين أو تضع أسماءهم في قوائم الموتى، ويرتفع صوتها ضد القلة من الأقباط، وتصمت صمتًا كاملًا عن عمليات التخريب الاقتصادي التي تتم تحت اسم مشروعات التنمية التي يفرضها

البنك الدولي وصندوق النقد العالمي، وما يندرج تحت اسم الإصلاح الاقتصادي أو التكامل أو التعاون أو التكيف الهيكلي وغيرها من المشروعات التي أثقلت بلادنا بالديون الأجنبية، وأدت إلى مزيد من الفقر والبطالة والجوع للفقراء والنساء والشباب.

(٢) الطريق إلى مستقبل أفضل

رغم أن القوى العالمية الاستعمارية تزداد ضراوةً وسلاحًا، وإن إمكاناتها العلمية تتطور بسرعة في المجال العسكري النووي والاقتصادي والإعلامي، إلا أنني أعتقد أن قوة الشعوب هي الباقية، وهي التي هزمت في الماضي العبودية والإقطاع والاستعمار القديم، وسوف تهزم في المستقبل الاستعمار الجديد والعولمة الاستغلالية من أعلى الهرم وتستبدلها بعولمة أخرى شعبية إنسانية من أسفل الهرم، تسعى إلى العدل والحرية والسلام والمساواة بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العرق أو الدين أو غيرها.

إن وجودي هنا في لندن اليوم وإسماع صوتي هذا للعالم كواحدة من الشعب المصري يؤكد أن أصوات النساء والرجال والشباب والأطفال المنادين بالحرية والعدالة الحقيقية سوف تُسمع أكثر وأكثر، وأن الوعي الجديد كالضوء يمكن أن يقضيَ على الظلام، وسوف تتجمع هذه القوى الشعبية المتقدمة في كل بلد من بلاد العالم شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، تشكل عالمية جديدة أو عولمة شعبية تقاوم العولمة من أعلى التي تفرضها القلة الحاكمة عالميًّا ومحليًّا.

لقد بدأتْ أصوات جديدة تنطلق من بلادنا العربية والأفريقية تطالب بعدالة التجارة العالمية، وترفض المعونات، انطلق هذا الشعار: تجارة عادلة وليس معونات Fair Trade and not Aid وفي مصر بدأت الأصوات ترتفع أكثر وأكثر ضد المعونة الأمريكية، التي اتضح أن فوائدها تعود إلى الولايات المتحدة الأمريكية وليس في مصر، وقد أشاعت الولايات المتحدة أن مصر وغيرها من البلاد التي تتلقى هذه المعونات لا يمكن أن تعيش دون هذه المعونات الاقتصادية والعسكرية، وراحت تهدد بقطعها لفرض الضغوط السياسية والاقتصادية ضد مصالحنا، ولصالح الاستعمار الرأسمالي عالميًّا ودولة إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، هذه الضغوط تتخفى أحيانًا تحت شعارات إنسانية نبيلة مثل حقوق الإنسان أو حقوق المرأة. وفي هذا العام ١٩٩٧م تحمست الولايات المتحدة الأمريكية فجأة لموضوع ختان البنات في مصر واشترطت تحريمه قانونًا لصرف المعونة الأمريكية لمصر؛ مما أضر ضررًا بليغًا بالحركة النسائية المصرية المطالِبة بتحريم الختان، الذي أصبح

فجأة كأنما هو لصالح الاستعمار الأمريكي أكثر مما هو لصالح النساء المصريات بل المجتمع المصري كله.

إن قضية التحريم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في منطقة الشرق الأوسط قد أصبحت قضية معقد صعبة بسبب تزايد القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية للاستعمار الجديد وحليفته في المنطقة دولة إسرائيل؛ ومما أدى إلى هذه الأزمات الاقتصادية والثقافية والدينية التي نعاني منها، والتي يروح ضحيتها أضعف شرائح المجتمع وهن النساء والفقراء.

وليس أمامنا — نحن الشعوب نساءً ورجالًا داخل مصر أو خارجها في بلاد العالم أجمع — إلا أن نوحِّد صفوفنا، وأن نسلح أنفسنا بالحقوق والوعي والتنظيمات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية لخلق قوة عالمية شعبية جديدة يكمن دورها الفعال في التصدي لهذه القوى العالمية الاستعمارية الجديدة وكشف طرقها الحديثة وما بعد الحديثة لتضليل العقول ونهب الموارد.

عودة إلى الوطن[١]

إذا كانت فكرة إخلاء عالمنا الإنساني من الأسلحة المدمرة فكرة عظيمة حقًّا، فلماذا لا تسبقنا الدول النووية في نزع سلاحها؟! وكيف نسبق نحن مع أننا لا نملك أي سلاح نووي؟

إن الخطر النووي لا يأتي من داخل بلادنا وإنما من الخارج؛ لأننا لا نملك السلاح والآخرون في الخارج هم الذين يملكونه!

رائحة الوطن تعيدُني إلى طفولتي، فإذا بي أدندن بأغنية أم كلثوم «على بلد المحبوب ودِّيني» … أهز رأسي مع اللحن كطفلة السابعة من العمر، يخفق قلبي بالحنين، قدمي تدق الأرض بالإيقاع الجميل، ينتبه الرجل الأمريكي الجالس إلى يميني في الطائرة النفاثة المتجهة جنوبًا من نيويورك إلى القاهرة، يرمقني باندهاش، امرأة شعرها الكثيف الأبيض بلون الثلج يوحي بالكهولة، لكن هزات رأسها مع صوت غنائها يكشفان عن الطفولة.

الرجل الفرنسي الجالس إلى يساري يمد أذنه ليلتقط كلمات الأغنية، ويسألني الأمريكي في استطلاع: بأي لغة تغنين؟ وقلت: الأم (العربية). منذ طفولتي أزهو بها، سمعت من الناس أنها إلهية خلقها الله، أمَّا اللغات الأخرى — ومنها الإنجليزية — فهي لغات بشرية، من صنع بني آدم، أو الأصح بني حواء، وإلا فلماذا يقولون دائمًا لغة الأم وليس لغة الأب؟!

[١] الأهالي، ١٥ / ٥ / ١٩٩٦م.

ومددت عنقي كالعنقاء أتباهى بانتمائي إلى الأم حواء، ولأنني أعرف أكثر من لغة، لكن الرجل الأمريكي لا يعرف إلا الإنجليزية، ينطقها بلكنة أمريكية تؤذي آذان الأساتذة الإنجليز، من ذوي الثقافة العالية، يقولون عن الأمريكيين إنهم أفسدوا كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ، وأشد ما أفسدوه هو اللغة، لا أحد مثل الإنجليز يكره الأمريكيين، لا يمكن لبريطانيا أن تغفر لأمريكا الإثم الأكبر، ألا وهو مساعدة حركات التحرير في أفريقيا وآسيا على الاستقلال، ليس حبًّا في الاستقلال، وإنما سعيًا لإحلال أمريكا محل بريطانيا في إرث الاستعمار الكبير.

الفرنسيون أيضًا يكرهون الأمريكيين، التنافس على امتلاك المستعمرات هو سبب الصراع، وتعود فرنسا إلى مستعمراتها القديمة المفقودة، تحاول استردادها تحت شعارات ثقافية براقة.

كان الرجل الفرنسي يتابع الحوار باهتمام، وسألني بلهجة باريسية: من أي بلد عربي أنت؟ وقلت: أنا من مصر. اتسعت عينا الرجل الأمريكي متسائلًا: هل مصر من البلاد العربية؟! وأدركت أنه لا يمكن أن يكون من الأساتذة الأمريكيين؛ فهؤلاء (رغم إحلالهم لكلمة «الشرق الأوسط» في القاموس السياسي محل كلمة «العالم العربي») يعلمون تمامًا أن مصر من البلاد العربية. وقال الفرنسي إنه قادم إلى مصر في مشروع ثقافي جديد لترجمة أعمال أدبية من العربية إلى الفرنسية. وقال الأمريكي إنه يأتي في مشروع استثماري ولشراء إحدى الشركات المصرية المعروضة للبيع.

أصابني كلاهما بالاكتئاب، ولست من المصابين بعداوة الأجانب أو «الآخر»، أو ما يُسَمَّى بالإنجليزية «الزينوفوبيا»، ولكني ضد جميع أشكال الاستغلال، وإن تنكرتْ في ثياب ثقافية أو اقتصادية بريئة. وارتطمت العجلات بأرض المطار، وانفتح الباب على الوطن، رأيت الوجوه المشرقة بضوء الشمس، الأصوات الحانية بالدفء، اللهجة الناعمة منذ نعومة الأظافر.

حمد الله ع السلامة ... أهلًا وسهلًا ... الدنيا نورت!

الفرحة بالعودة إلى أحضان الوطن لا تساويها فرحة، والحزن أيضًا لما يعانيه الوطن لا يساويه حزن، عشت في جامعة «ديوك» السنوات الأربع الماضية، على الساحل الشرقي الجنوبي للمحيط الأطلنطي، أستاذة زائرة، أقوم بتدريس مادة جديدة أسميتها «الإبداع والتمرد»؛ فالإبداع هو القدرة على التمرد منذ الطفولة ضد الظلم أو القهر أو التفرقة بين البشر بسبب الجنس أو العرق أو العقيدة أو الطبقة أو اللون، حقيقة بديهية لا تحتاج إلى عبقرية ... فالعبقرية هي القدرة على الاحتفاظ بالحقائق البديهية أو الأسئلة الطفولية.

في السابعة من عمري كنت أسأل أمي كلما تطلعت إلى السماء في الليل: مين اللي خلق النجوم يا ماما؟ ربنا يا بنتي، ومين اللي خلق ربنا يا ماما؟! سؤال بديهي يسأله الأطفال جميعًا ذكورًا وإناثًا، سودًا وبيضًا، من الطبقات العليا أو الدنيا، لا فرق.

يكبر الأطفال ويُفرَض عليهم النسيان، نسيان هذه الأسئلة البديهية البسيطة بساطة الإبداع أو العبقرية، يولد بها جميع البشر، يعيش بها الإنسان الطبيعي مبدعًا متجدِّدًا أو يموت بها الإنسان المكبوت عاجزًا متجمدًا.

بعد الغربة تصبح العين حساسة لكل جديد في الوطن تلتقط الجميل والقبيح معًا، تنسى القبيح لتحتفظ بالفرح والتفاؤل، ربما هو التفاؤل الطفولي الساذج لا يفارقني، أردد لنفسي المثل الشائع: رُبَّ ضارة نافعة، وأقرأ في الصحف عن منافع بيع الشركات المصرية. قرأت في السنين الماضية كثيرًا في علم الاقتصاد والقطاع العام والخصخصة والسوق الحرة، لكن عقلي عاجز عن طرد السؤال الطفولي: لماذا يحدث هذا البيع للشركات في بلادنا ولا يحدث في أمريكا؟ ويشهق الناس كيف تقارنين مصر بأمريكا؟

كنت أسأل نفسي في السابعة من عمري: لماذا تظهر صورة الملك في الصحف ولا تظهر صورة أمي؟ ولماذا يكتبون عن الشاعر أحمد شوقي ولا يكتبون عن أبي الشاعر السيد السعداوي؟ وينقضي أكثر من نصف قرن والأسئلة نفسها تراودني، لا يقبل عقلي هذه التفرقة بين الأفراد أو الدول بسبب النفوذ أو الفلوس.

وأصابتني الدهشة الطفولية حين وقَّعَت مصر على اتفاقية نزع السلاح النووي، وتساءلت: لماذا لم توقِّع أمريكا أيضًا؟ وضحك الناس: ياه أمريكا كلها! دي إسرائيل رفضت التوقيع! يملؤني الغضب الطفولي الجامح، أقوى غضب وأنقى غضب هو غضب الأطفال. فين العدل يا ناس؟ عدل إيه يا طفلتي! العالم تديره المصالح والقوة وليس العدل!

ويشتد غضبي حين تسارع ٤٢ دولة أفريقية للتوقيع على نزع السلاح، ومن قبلهم وقَّعت بلاد أمريكا اللاتينية، وبلاد البحر الكاريبي، ومنطقة جنوب المحيط الهادي. بمعنى أن معظم بلاد النصف الجنوبي من الكرة الأرضية أصبحت بلادًا غير نووية أو خالية من السلاح النووي، على حين تظل بلاد الشمال (وعلى رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا) تحتكر السلاح النووي لنفسها (ومعها إسرائيل بالطبع)، وقد عرفنا عن خطورة الترسانة النووية الإسرائيلية ومفاعل ديمونة في صحراء النقب (صحرائنا)!

يهدِّئون غضبي، يربتون على كتفي: معلهش! إن شاء الله سوف توافق إسرائيل على نزع سلاحها النووي في المستقبل القريب إن شاء الله!

في أمريكا سمعتهم يقولون إن بلادنا متأخرة عن إسرائيل، وإن إسرائيل تسبقنا في كل شيء، فلماذا لم تسبقنا إسرائيل (كعادتها) في مثل هذا الأمر العظيم الذي تتشدق بعظمته البلاد النووية الكبرى؟!

وإذا كانت فكرة إخلاء عالمنا الإنساني من مثل هذه الأسلحة المدمرة فكرة عظيمة حقًّا، فلماذا لا تسبقنا الدول النووية في نزع سلاحها؟! وكيف نسبق نحن مع أننا لا نملك أي نووي؟!

إن الخطر النووي لا يأتي من داخل بلادنا وإنما من الخارج؛ لأننا لا نملك السلاح، والآخرون في الخارج هم الذين يملكونه!

أسئلة طفولية بديهية تزنُّ في عقلي مثل ذبابة عنيدة، أهشها بيدي لأقرأ صحف الصباح، أتفادى الصفحة الأولى وأخبار السياسة والتناقضات الصارخة. أفتح صفحات الثقافة والأدب، هناك احتفال كبير بطه حسين، ومرور ٧٠ عامًا على صدور كتابه «في الشعر الجاهلي»، الندوة يشارك فيها ٣٩ رجلًا من الأساتذة والأدباء والمفكرين، ليس من بينهم امرأة واحدة! ألا توجد امرأة مفكرة أو أديبة تصلح للمشاركة في ندوة عن طه حسين؟!

وأفتح مجلة أدبية، منذ أكثر من شهرين أرسلت إليها نسخة من كتابي الأخير «أوراقي ... حياتي»، لكن مثل هذا العمل الأدبي ليس له مساحة في تلك المجلة أو غيرها من المجلات الأدبية؛ فالمساحة كلها يشغلها الرجال فوق الستين أو الشابات الأديبات تحت الثلاثين أو غير الأديبات، أرى صورهن بشعورهن الطويلة المرسلة، وعيونهن المسدلة الجفون كالقطط المغمضة، وتحت كل صورة خبر أدبي أو غير أدبي: «عادت فلانة من رحلتها الباريسية، حيث زارت مصانع المكياج الأنثوي الحديث»، أو «وقعت فلانة وهي تتزحلق على جليد سويسرا»، أو «اتخطبت فلانة بعد قصة حب» ... إلخ.

وسألت الناس عن سبب هذه الظاهرة، فقالوا: إن معظم رؤساء تحرير المجلات والصحف في مصر وكذلك مالكو الصفحات الأدبية أو النقد الأدبي، معظمهم رجال تجاوزوا الستين من العمر وأكثر، وهم بالطبيعة ينجذبون إلى الشباب بحكم مقاومة الفناء.

ألهذا السبب يتم تجاهل الأديبات أو المفكرات أو الأستاذات اللائي تجاوزن الأربعين أو الخمسين، فما بال من تجاوزت الستين من العمر؟!

على ساحل المحيط الأطلنطي كنت أرى الرجال العجائز فوق السبعين يتطلعون إلى الفتيات الشابات، تنجذب عيونهم إلى الأجساد العارية داخل البيكيني، لكن عيون الفتيات تنجذب إلى أجسادهم أو وجوههم، لا يُفيق الرجل من الوهم إلا عند الإفلاس أو ضياع الفلوس والحب معًا.

ربما هو توفيق الحكيم الذي قال ما معناه: إن المرأة المفكرة لا يمكن أن تكون شابة جميلة، والشابة الجميلة لا يمكن أن تكون مفكرة.

هذه الفكرة الطبقية الأبوية تسود العالم منذ نشوء العبودية وطرد النساء من مجالات السياسة أو الفكر. وكانت المرأة في الحضارات القديمة السابقة على النظام العبودي هي إلهة العقل أو المعرفة أو الذكاء. في مصر القديمة كانت «إيزيس» إلهة المعرفة، وفي اليونان كانت «أثينا» إلهة الحكمة، وفي العراق كانت «نيدابا» أول من اكتشفت الحروف والكتابة، وأمنا «حواء»، ألم تسبق زوجها آدم إلى شجرة المعرفة؟!

ولماذا نذهب بعيدًا، وفي حاضرنا نماذج لنساء مقاتلات شجاعات ومفكرات عظيمات في بلاد العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا. التقيت بواحدة منهن في باريس في مارس الماضي، إنها امرأة إيرانية مسلمة استطاعت بعقلها الحكيم وقيادتها الرشيدة أن تصبح رئيسة إيران المنتخبة لتولي فترة الحكم الانتقالي بعد سقوط النظام الحالي في إيران، اسمها «مريم رجوى»، لا تستخدم الماكياج الأنثوي الحديث، ولا تسدل جفونها كالقطط المغمضة، ولكنها قائدة حركة المقاومة الإيرانية من الرجال والنساء، والتي قدمت مِائة ألف شهيد منذ عهد الشاه إلى عهد الخميني.

بدت لي كالحلم الطفولي، وأحلم أنها جلست على العرش مكانه، وها هي امرأة من عمر أمي حينئذٍ (٤٢ عامًا) قد انتُخبت لتجلس مكان الخميني، ربما لهذا السبب لا يفارقني التفاؤل، ولا تغيب عن عقلي الأسئلة الطفولية أو الحقائق البديهية من نوع: «لا يقهر القوة إلا القوة».

المواطنون سواء في الظلم[1]

يُذكِّرُني قانون الصحافة الجديد بقانون العيب الذي دخلنا به السجون في سبتمبر ١٩٨١م.

تذكِّرني كلمة «تكدير» و«ازدراء» في قانون الصحافة الجديدة بكلمات من نوع «العيب» والتقاليد العائلية وأخلاق القرية، والتي دخلنا بها السجون منذ أربعة عشر عامًا، ثُمَّ تغير العهد وخرجنا من السجون أبرياء وبريئات بلا ذنب ولا جريمة ولا يحزنون.

قضينا في السجن ثلاثة شهور، ثُمَّ خرجنا دون تعويض أدبي أو مادي عن الظلم الذي وقع علينا.

وهذا هو الحبس الاحتياطي الذي يتم جزافًا وتعسُّفًا، والذي يدافع عنه المسئولون في مجلس الشعب اليوم تحت اسم المساواة والعدل؛ لأن توزيع الظلم على المواطنين بالتساوي هو العدل.

والمفروض رفع الظلم وإلغاؤه وليس تعميمه.

لقد تم اكتشاف مادة في الدستور (رقم ٤٠) تنص على أن المواطنين متساوون أمام القانون.

لهذا يجب تطبيق مبدأ الحبس الاحتياطي التعسُّفي على الجميع دون تفرقة بين حمَلة الأقلام وحمَلة المطاوي قرن غزال أو الجنازير.

---

[1] جريدة العربي، ١٣/٦/١٩٩٥م.

وأنا بالطبع مع الدستور، وخاصةً هذه المادة التي تساوي بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو الطبقة أو العقيدة ... إلخ، وأطالب بتطبيق هذه المادة على الجميع فعلًا وليس من يكتبون في الصحافة فقط.

المفروض أنه كلما زادت السلطة زادت المسئولية والمحاسبة والعقوبة على الأخطاء أو المعلومات الخاطئة المنشورة على الناس.

ونحن نعرف أن الصحافة ليست إلا السلطة الرابعة، وهناك ثلاث سلطات أخرى، وهي السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، والمفروض تطبيق الحبس الاحتياطي على هذه السلطات الثلاث قبل تطبيقها على سلطة الصحافة.

المفروض أيضًا تعديل جميع القوانين في مصر لأنها كلها غير دستورية ولا تنطبق عليها المادة ٤٠ التي تساوي بين المواطنين، فهل يساوي قانون الزواج والطلاق بين المواطنين بصرف النظر عن نوع الجنس؟!

وهل يساوي قانون الجنسية بين الأب والأم في منح الجنسية المصرية لأطفالهم؟

لماذا لا يدافع المسئولون في مجلس الشعب عن هذه المساواة الدستورية لجميع المواطنين وليس فقط لفئة واحدة من الناس؟

المفروض أن القانون خُلق ليحمي الشعب ضد أصحاب السلطة وليس العكس، وأنه كلما زادت السلطة زادت المسئولية والمساءلة وقلَّت الحماية والحصانة وليس العكس.

منطق معكوس يؤكد لنا أن العدالة في بلادنا عمياء معصوبة العينين.

وأن القوة هي التي تغير وتعدل القوانين وليس الحق.

إن قضية الصحفيين أصبحت اليوم هي قضية الساعة، فالصحافة لها صوت عالٍ، وهي السلطة الرابعة في الدولة، وهم قادرون على الدفاع عن حقوقهم بما لهم من مساحات كبيرة في الصحف.

لكن هناك فئات أخرى مظلومة في بلادنا، ومنها «النساء والزوجات والأمهات والأطفال» ما زالوا بلا حول ولا قوة في هذه الساحة التي تنتصر فيها القوة على الحق دائمًا.

بين الطب والأدب[1]

شمس فبراير هنا في ديرهام تذكِّرني بشمس مصر والهند في الشتاء، قوية دافئة، قادرة على تبديد السحب. شمس الجنوب كما يسمُّونها هنا، لكن السحب تتجمع من وراء نافذتي الزجاجية، خلف أطراف الأشجار في الغابة القريبة، يسمُّونها غابة «ديوك»، ويدوِّي صوت الرعد والبرق، ويهطل المطر سيولًا تشبه سيول إثيوبيا وسري لانكا، والغابات الاستوائية، ثُمَّ تسطع الشمس من جديد، قوية دافئة. كم أحب القوة مع الدفء، والشمس أحبها كأنما هي أمي، أعانق شعاعها الممدود إليَّ عبر حواجز الزجاج والشجر.

أمامي فوق الشاشة أرى بيل كلينتون، واقفًا في اجتماع شعبي في مدينة ديترويت، إنه يعقد هذه الاجتماعات الشعبية مع الناس ليظل على اتصال بناخبِيه، وأسمعه يقول: أدركت بعد أول ثلاثة أسابيع فقط من العمل في مكتبي بالبيت الأبيض أن من السهل جدًّا أن ينعزل رئيس الولايات المتحدة عن الناس الذين انتخبوه، إنه يصبح أسيرًا لبيروقراطية لا نهائية من الأوراق والاجتماعات واللجان، سوف أعلن حربًا على هذه البيروقراطية، وسوف أخفض عدد اللجان والوظائف داخل البيت الأبيض. يمكن إلغاء — على الأقل — نصف هذه اللجان والوظائف دون أن يؤثر ذلك على العمل، بل لعله يسرع بإنجاز العمل.

وقالت لي فينيسا، إحدى طالباتي في الفصل: يحاول بيل كلينتون تخفيض الإنفاق الحكومي وإلغاء حوالي ١٠٠٠٠ وظيفة بيروقراطية في البيت الأبيض، وإنه مشغول بالخطة الاقتصادية التي سوف يعرضها على الكونجرس يوم ١٧ فبراير ١٩٩٣م.

---

[1] فبراير ١٩٩٣م.

فوق الشاشة تقدمت امرأة بيضاء ترتدي معطفًا من الفرو، وسألت بيل كلينتون: هل ستزيد نسبة الضرائب علينا؛ نحن الذين يُطلَق عليهم الطبقة الوسطى؟! وقال بيل كلينتون: ربما. وبادرته المرأة غاضبة: لماذا؟ ألم تعِدْنا في حملتك الانتخابية أنك لن تزيد الضرائب؟! قال: نعم، ولكني عرفت أن الدَّيْن القومي يزيد بمقدار ٥٠ بليون عما كنت أعرفه أثناء الانتخابات، على الجميع أن يتحملوا أعباء الأزمة الاقتصادية الناتجة عن سياسة الحزب الجمهوري السابقة، علينا أن نوزع العبء على القادرين من الطبقة الوسطى، وعلى الشركات الصناعية الكبرى أن تدفع ضرائب أكثر لأنها تكسب أكثر، إنها تدفع الآن ٣٤٪ ضرائب فقط، وربما تزيد قريبًا إلى ٣٦٪، لا بد أن يدفع الأثرياء ويتحملوا عبئًا أكثر من الفقراء.

وقالت فينيسا: يحاول بيل كلينتون عن طريق هذه الاجتماعات الشعبية أن يضغط على الكونجرس من أجل الموافقة على زيادة الضرائب وخفض الإنفاق الحكومي والاستهلاك.

قلت: أعتقد أن سياسته الداخلية أفضل من سياسة بوش السابقة، خاصةً بالنسبة للفقراء والنساء.

قالت: نعم، لكن سياسته الخارجية أسوأ.

هناك تناقض بين السياسة الداخلية والخارجية؛ لأنه ينظر إلى مصالح الأمريكيين الذين انتخبوه فقط!

وسمعت صوت أحد الشباب يسأله فوق الشاشة: كيف تعلن عن مبادرة سلام في يوغوسلافيا؟ هذه المبادرة لا تعني إلا أنك مستعد للتفاوض مع مجرم الحرب في الصرب! لماذا توافق على مكافأة مجرمي الحرب من الصرب في حين أنك رفضت من قبل صدام حسين ووجهت إليه الضربات الصاعقة؟!

ينقطع الإرسال التليفزيوني وتظهر سيارة أمريكية طويلة ترقص فوقها امرأة في يدها كأس من النبيذ، لا أعرف إن كان الإعلان عن نوع جديد من النبيذ أو نوع جديد من السيارات. وتضحك هايدي وتقول: أو نوع جديد من المايوهات (لاحظت أن المرأة كانت ترتدي مايوهًا من قطعتين). ويقول «كريس»، أحد الطلاب في الفصل، وهو أيضًا طالب بكلية الطب (ويدرس إلى جوار الطب الموسيقى والأدب والإبداع): أنا أُفضِّل بيل كلينتون عن جورج بوش، إنه شاب على الأقل، يبدو لي أقل خداعًا من غيره، لكنه على الأقل أول رئيس أمريكي يُعيِّن امرأة وزيرة للعدل.

قلت له: في مصر منذ ستة آلاف سنة كان عندنا في مصر وزيرة للعدل ورئيسة للقضاة اسمها «معات» (حاولت أن أتذكر أمجاد الماضي البعيد لأنسى أننا لا يوجد عندنا قاضية واحدة اليوم).

وانتهت فترة الإعلانات، وظهر بيل كلينتون يتحاور مرة أخرى مع الناس في اجتماعاته الشعبية الجديدة، دار الحديث حول مشاكل الصحة والأمراض. سألتْه طفلة في التاسعة من عمرها بصوت واضح جريء: كيف تضمن لي كرئيس للولايات المتحدة صحة جيدة بلا أمراض في حين أن أبي وأمي عاطلان فقيران؟! صفَّق لها الناس بحماس، وصفَّق لها أيضًا بيل كلينتون، وقال: سأجعل التأمين الصحي في أمريكا يغطي جميع الناس.

لكن «كريس» طالب الطب والأدب قال لي: لا، ليس هذا هو الحل، الحل الوحيد للقضاء على الأمراض وعلى رأسها مرض «الإيدز» أو «الدرن» (الذي يتزايد انتشاره مؤخَّرًا بين الطبقات الفقيرة) هو أن تعطي الحكومة مزيدًا من الاهتمام والإمكانيات للطب الوقائي وليس الطب العلاجي، الطب الوقائي يقضي على أسباب المرض في المجتمع، لكن الطب العلاجي يقضي على المرض فقط ولا يقضي على الأسباب.

ذكَّرني كلام «كريس» بالسنين الأولى حين تخرجت في كلية الطب، وشعرت أن الطب الوقائي هو الأساس وليس الطب العلاجي، لكني كنت أرى أساتذة الطب العلاجي يركبون السيارات الفاخرة، تبدو عليهم علامات الثراء والسلطة، أمَّا أطباء الطب الوقائي، فكنت أراهم يتشعبطون في الترام (الذي كان يسير في شارع القصر العيني)، وتبدو عليهم علامات الفقر وشحوب الوجه.

وانفجرنا بالضحك، وقال «كريس»: تمامًا، الأمر هنا هكذا حتى اليوم، وأنا سوف أتخصص في الطب الوقائي رغم كل شيء!

وضحكت فينيسا قائلةً: «كريس» غاوي فقر. وقال «كريس»: لا، ولكني أودُّ أن أبذل جهدًا لتغيير مهنة الطب هنا في أمريكا، وأن تتحول إمكانيات البحوث الطبية من المجال العلاجي إلى المجال الوقائي، هذه معركة، إذا لم نخضها نحن الشباب فمَن يخوضها؟!

تذكرت نفسي حين كنت شابة، وحين بدأت أنشئ مع زملائي من الأطباء جمعية للطب الوقائي والثقافة الصحية، وإصدار مجلة الصحة، وعمل مشروعات ثقافية للفلاحين والفلاحات. هل كنت أنفخ في قربة مخرومة؟! أجل، من الأفضل أن أنسى سنين الشباب الأولى (وكوني طبيبة) لأتحدث عن الأدب.

(١) كافيربوي في أمريكا

إنه الروائي الأفريقي الأمريكي «مارك ماثابان»، اسم ربما لا يعرفه أحد في بلادنا، لكنه أصدر ثلاث روايات أصبح لها دويٌّ في الولايات المتحدة. جاء إلى هنا، إلى جامعة «ديوك» يوم ١١ فبراير ١٩٩٣م ليلقيَ محاضرة عن العنصرية في الولايات المتحدة، إن الروائيين في أمريكا يُعتبَرون ضمن العلماء أو الأساتذة الذين يمكن لهم أن يلقوا المحاضرات في الجامعة (وإن لم يحملوا أية شهادات). وُلد مارك ماثابان في قرية فقيرة قُرب جوهانسبرج في جنوب أفريقيا، كان يلعب بالكرة الشراب في الشارع مع الأطفال السود الفقراء، ثُمَّ بدأ يلعب بكرة التنس، ثُمَّ أصبح بطلًا رياضيًّا، ثُمَّ هجر الرياضة ليكتب الروايات، وترك الحكم العنصري في جنوب أفريقيا وجاء إلى أمريكا، أصبح في سنين قليلة من ألمع الروائيين هنا. أول رواياته بعنوان «كافير بوي» Kaffir Boy، تحكي عن حياته الأولى في جنوب أفريقيا. روايته الثانية جاءت بعنوان: كافير بوي في أمريكا، تحكي عن تجربته في أمريكا كرجل أسود، ويقول مارك ماثابان: مشكلة البيض والسود في أمريكا أن كلًّا منهما يتكلم عن الآخر وليس مع الآخر، إن أحداث لوس أنجلوس الأخيرة تدل على أن العنصرية في أمريكا لا تزال موجودة، ربما أشد من العنصرية التي عرفتها في جنوب أفريقيا، هناك حكم عنصري واضح المعالم، لكن العنصرية هنا تتخفى (مثل النظام العالمي الجديد) تحت شعار براق من الإنسانية والمساواة وحقوق الإنسان، إن البطل الأسود الذي أثَّرَ في حياتي ليس مارتن لوثر كينج وليس مالكوم إكس، ولكنه بطل التنس الأسود «آرثر آشي» الذي مات منذ أسبوع واحد، لكنه ترك بصماته على حياتي وغيَّرني إلى إنسان أعرف حقوقي وأدافع عنها.

(٢) ذكريات لها رائحة البنزين

أهدتني «إنارا» — واحدة من طالباتي في قسم المرأة والإبداع — كتابًا جديدًا لمؤلف اسمه «ديفيد وونارونير». الكتاب عبارة عن سيرة ذاتية، قالت لي إنارا: قرأت الكتاب أربع مرات وبكيت كثيرًا وأنا أقرؤه، سيرة حياة رجل فقير يتعرض للاغتصاب وهو صبي في الخامسة عشرة، يعتدي عليه رجل كبير، يعيش حياة مفعمة بالألم، يتعرض صديق عمره لمرض

الإيدز، يراقبه وهو يموت يومًا وراء يوم. يقول المؤلف في نهاية الكتاب: الحب مثل الألم مثل القسوة، يربط أحداث الحياة، لم أندم في حياتي على شيء سوى أنني ظللت صامتًا سنين طويلةً، لم أنطق إلا مؤخَّرًا عن طريق كتابة هذه السيرة الذاتية. أجل، الصمت هو الموت، وقد أعادت إليَّ الكتابة الحياة.

سمعة مصر [1]

بدلًا من أن نبحث عن الأسباب الحقيقية التي تُسيء إلى سمعة بلادنا في الخارج، فإننا نقدم كبوش فداء من الأدباء أو الأديبات أو المخرجين السينمائيين أو المسرحيين أو أصحاب الدراسات العلمية.

المعروف في جميع أنحاء العالم أن الأعمال العلمية أو الأدبية ذات القيمة الإنسانية هي الأعمال الناقدة الكاشفة عن أمراض هذا المجتمع بهدف العلاج، وإلا فلماذا يكتب الأديب أو الأديبة، وعمَّ يبحث العالم إذا كان كل شيء على ما يُرام وليس في الإمكان أبدع مما كان؟

وأعظم الأعمال الباقية في التاريخ الإنساني هي أعمال هؤلاء الأدباء والأديبات الذين أمسكوا القلم وكأنه مشرط الجراح، وكشفوا عن عيوب مجتمعاتهم أو مشاكلها من فقر أو ظلم أو استبداد أو استغلال داخلي أو خارجي.

أعظم أعمال «طه حسين» هي «الأيام»، التي كشف فيها عن عبودية الفقر والجهل في القرية التي عاش فيها، وأعظم أعمال «ديستيوفيسكي» هي «الجريمة والعِقاب» التي جعلت عيون الشعب الروسي تتفتح على الأسباب الحقيقية للجريمة، وكيف كان الضحية يُعاقَب والجاني يُطلَق سراحه، وأعظم أعمال «يوسف إدريس» هي «الحرام»، التي كشف فيها عن أن الحرام الحقيقي هو الظلم والفقر واستعباد النساء، وأعظم أعمال «فرجينيا وولف» هي «غرفة خاصة»، التي أسقطت بها الزيف الاجتماعي الإنجليزي، والقيم

[1] نُشر بجريدة الأهرام، ١٨/ ٦/ ١٩٩٢م.

الأخلاقية المزدوجة التي عُرفت بـ «الأخلاق الفيكتورية البيورتيانية»، أعظم أعمال «يوسف شاهين» هي فيلم «باب الحديد»، الذي كشف فيه عن الفساد الاجتماعي المتخفي تحت ستارة شفافة من النفاق والكذب، وأعظم أعمال «الشيخ علي عبد الرازق» هو «أصول الحكم في الإسلام»، وغير ذلك من الأعمال الإبداعية الناقدة للفكر السائد.

إن العلماء أو الأدباء أو الأديبات أو الفنانين الحقيقيين هم الذين يملكون هذه الحاسَّة النقدية والشجاعة الأدبية؛ وبالتالي هم أعظم السفراء خارج بلادهم؛ لأن العالم كله يقدِّر أعمالهم، والدليل على ذلك هو نجاح أعمالهم واكتسابها شهرة عالمية.

إلا أن هناك بعض الناس الذين لا يعملون ويضيرهم أن يعمل الآخرون، أو الذين حاولوا ترويج أعمالهم عالميًّا بمثل ما روَّجوها محليًّا، فكان نصيبهم الفشل. هؤلاء لا يكفُّون عن تجريح الآخرين، وينهالون عليهم بأقلامهم، يشوِّهون صورتهم، ويدَّعون أن أفلامهم أو رواياتهم أو أعمالهم الأدبية أو العلمية لم تحظَ بهذا النجاح العالمي إلا لأنها تُسيء إلى سمعة مصر!

وقد آن الأوان لكشف هذا المنطق المعكوس، فإن أعمال «ديستيوفيسكي» لم تُسئ إلى سمعة روسيا، بل إن جميع الذين أساءوا إلى روسيا قد اندثروا وماتوا، وبقيَ اسم «ديستيوفيسكي» في التاريخ يفخر به الشعب الروسي حتى اليوم. و«فيرجينيا وولف» ماتت منتحرة احتجاجًا على كل من أساءوا إليها، ومات كل من أساء إليها، ونسيهم الشعب الإنجليزي، لكن اسم «فيرجينيا وولف» باقٍ في التاريخ، يفخر به الإنجليز. ورغم حملات الإعلام ضد طه حسين أو يوسف إدريس أو الشيخ علي عبد الرازق أو غيرهم، فإنَّ أسماءهم تبقى ولا تُنسى، على حين يندثر في التاريخ أسماء من أساءوا إليهم.

إن الذي يُسيء إلى سمعة أيِّ بلد في الخارج إنَّما هو موقف هذه البلد من القضايا الكبرى مثل قضية الحرية أو العدالة أو الديمقراطية.

إن الذي يُسيء إلى سمعة البلد هو أن يعيش هذا البلد عالة على غيره لا يملك طعامه رغم موارده الطبيعية الثرية.

أمَّا أكثر ما يُسيء إلى العرب في الخارج، فهم هؤلاء الرجال الذين يسيرون في شوارع لندن أو باريس يُحملِقون في النساء الشقراوات على حين تمشي نساؤهم خلفهم داخل خيمة سوداء، لا يظهر منهم إلا عين واحدة أو نصف عين.

مأزق الصحافة الرسمية في مصر[1]

هذا المقال لم يشأ أحد أن ينشره في مصر، أغلقت جميع المؤسسات الصحفية أبوابها أمام أي نقد موضوعي للصحافة المصرية، إنها صحافة رسمية في جوهرها، خاضعة لسلطة الدولة، إلا تلك الصحف التي تملكها التيارات الدينية المتطرفة، أو مجموعات يمينية أو يسارية تنشر لأعضائها أساسًا.

وفي ٣ مارس ١٩٩٠م نشر صحفي في عموده اليومي بجريدة الأهرام مقالًا تحت عنوان: «سلمان رشدي جديد في مصر»، اتَّهم فيه أحد الكُتَّاب «علاء حامد» بالإلحاد؛ لأنَّه نشر رواية «مسافة في عقل رجل»، تسخر من الأنبياء والأديان، وطلب تقديمه للنيابة العامة.

أصابني غضب شديد، ولم أكن أعرف الكاتب ولا الرِّواية، وتصورت أنَّ كثيرًا من الأقلام سوف تكتب ضد هذا الصحفي بالأهرام، وضد تقديم الكاتب للنيابة، لكني لم أقرأ شيئًا يُذكَر؛ فأرسلت ردًّا إلى جريدة الأهرام قلت فيه: إن عمل الصحفي هو الكتابة وليس استدعاء النيابة للكُتَّاب. ولم تنشر الجريدة مقالي بالطبع؛ فقد دأبت هذه الجريدة وغيرها من الصُّحف على تجاهل المقالات الناقدة لكبار الصحفيين المعيَّنين فيها بواسطة الدولة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع فوجئت باستدعاء من محكمة أمن الدولة — طوارئ — بمصر القديمة، تطلبني لأدلي بشهادتي في قضية مرفوعة ضد هذا المؤلف بسبب هذه الرواية. وكان المؤلف هو الذي طلب شهادتي، وأرسل إليَّ الرِّواية، فقرأتُها، ووجدت أنَّها

[1] القاهرة، ٢ / ١ / ١٩٩٢م.

في مضمونها ناقدة للأفكار والقصص أو الأساطير الواردة في الكتب الدينية، لكن الأسلوب خالٍ من الجاذبية الأدبية حسب ذوقي الخاص، لكني رأيت أنَّ من حق المؤلف أن يكتب ما يشاء على شكل رواية أو شعر أو أي عمل إبداعي آخر، وعلى الآخرين المعارِضين أن يردُّوا عليه بكتاب آخر؛ ولهذا ذهبت إلى المحكمة وشهدت في صف المؤلف وحرية الفكر والتعبير، وقلت إن الأعمال الأدبية يجب ألا يُحكم عليها بالمقاييس الدينية أو الأخلاقية السائدة، وليس من حق مؤسسة الأزهر أن تتدخل في مجال الفنون أو الإبداعات الأدبية.

ثُمَّ انقضى عامان ولم أسمع شيئًا، حتى فوجئت بهذه الضجَّة في الصحافة المصرية؛ فقد تكلم أخيرًا كبار الصحفيين في الجرائد والمجلات الرسمية، واعترضوا على قرار المحكمة بحبس المؤلف والناشر ٨ سنوات، ودافعوا عن حرية التعبير، وطلبوا من رئيس الجمهورية التدخل لإلغاء القرار حفاظًا على صورة الدولة المصرية في الخارج كدولة ديمقراطية.

وقد اكتشفت أن هذا الحماس من قبل هؤلاء الصحفيين الرسميين لم يأتِ إلا بعد أن أُذيع خبر حبس الكاتب والناشر في الإذاعة البريطانية، وانتقل عبر الموجات الأثيرية إلى العالم الواسع.

وكان المفروض أن تحدث هذه الضجة الصحفية منذ عامين، ويتصدى كل الذين يكتبون الآن لزميلهم الصحفي بالأهرام الذي طلب استدعاء النيابة للمؤلف وحكم عليه بالإلحاد، لكن هؤلاء جميعًا صمتوا، وهذا الصمت نوع من التضامن غير المُعلَن مع زميلهم الصحفي الذي يملك عمودًا يوميًّا في جريدة كبرى هي الأهرام، والتخلي عن مسئوليتهم تجاه حرية التعبير وتجاه روائي غير معروف بلا روابط مع السلطة أو الشِّلَل الصحفية الرسمية.

لكن الصحافة في بلادنا أصبحت لا تقل قسوةً وقهرًا عن محاكم أمن الدولة طوارئ، وغابت عنها حقوق الإنسان الأساسية حتى في دفاعها عن هذه الحقوق؛ ذلك أنه دفاع شكلي ليس غايته حماية الإنسان وتأكيد حقوقه، بقدر ما هو دفاع عن الدولة وصورتها الديمقراطية في الخارج، وتدعيم موقع الصحافة وهؤلاء الصحفيين الرسميين في علاقتهم بالسلطة القائمة.

لهذا السبب ساد الصمت عامين كاملين، وكان الجميع يعرفون أن هذا المؤلف يتعرض للقهر في المحاكم، بل اعتُقل فترة من الوقت دون أن يتكلم أحد.

وقد ساد الصمت أيضًا في الصحافة الرسمية المصرية حين صدر قرار حكومي غير قانوني بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية في مصر ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها «نساء الإسلام».

وبدأت صحف التيارات الدينية المتطرفة تؤيد قرار الحكومة وتتهم جمعيتنا بالإلحاد. وأرسلتُ ردودًا إلى هذه الصحف فلم تُنشَر، وأرسلتُ مقالات إلى جميع الصحف الرسمية في مصر، فلم يُنشَر شيء، حتى خبر إغلاق الجمعية لم تنشره جريدة الأهرام، أمَّا جريدة الأخبار فلم تنشر إلا بيانًا حكوميًّا كاذبًا ضد الجمعية.

ودافع عن حق الجمعية وعارض قرار الحكومة قلة قليلة من الصحفيين وصمت الباقون جميعًا.

إن الصحافة الرسمية في بلادنا تلعب لعبة مزدوجة خطيرة؛ فهي تخشى التيارات الدينية المتطرفة المتصاعدة، ولذلك تساندها أو تجاملها على حساب حرية الفكر والتعبير، وهي في الوقت نفسه تريد الحفاظ على موقعها من السلطة القائمة وصورتها التي ترسمها لنفسها عن الديمقراطية وحرية التعبير والفكر.

إنه مأزق خطير تعيش فيه الصحافة الرسمية المصرية، وهذا هو سر تناقضها الواضح، أو ترددها ما بين الصمت الكامل (أو التضامن الخفي) على إهدار حقوق الإنسان وحرية التعبير، ثُمَّ هذه الهبَّات المفاجئة المؤقتة من الصراخ دفاعًا عن حرية التعبير وحقوق الإنسان، وهي هَبَّات كلامية فحسب دون تحمل أي مسئولية؛ ومن هنا ادِّعاء معظمهم أنهم لم يقرءوا الرواية، أو أنها رواية تافهة هزيلة، وأنهم إنما يدافعون فقط عن حرية التعبير بشكل عام.

وهم بذلك يُعفون أنفسهم من التعرض لمضمون الرواية الذي ينقد الأديان، وبصرف النظر عن قيمة الرواية الأدبية فإن مضمونها يستحق المناقشة، لكنهم يخافون على أنفسهم من أيِّ اتهام بواسطة التيارات الدينية المتطرفة.

وسوف تظل الصحافة الرسمية المصرية في هذا المأزق، لا تعرف الخروج منه (بسبب الخوف والتمسك بالسلطة)، كما فعلت الصحافة الرسمية في معظم البلاد العربية إلى أن تتولى التيارات الدينية المتطرفة الحكم بالانتخابات أو بغير الانتخابات.

أزمة الخليج والاستعمار[1]

كشفت أزمة الخليج العربي عن وجه الاستعمار القبيح، خلعت الولايات المتحدة الأمريكية كل الأقنعة الأيديولوجية التي كانت ترتديها في غزوها العسكري هنا وهناك، وأرسلت جيوشها وطائراتها إلى الخليج العربي لتحارب من أجل بترولها، نعم بترولها، هكذا تعتبر أمريكا بترول العرب هو بترولها.

وكشفت البلاد الاستعمارية الأخرى مثل بريطانيا وفرنسا النقاب عن وجهها أيضًا.

مسمار جحا في الوطن العربي هو بترول السعودية والكويت! مَنْ يكسب من بترول العرب؟ إنها أمريكا وأوروبا واليابان، يعاني الملايين في الوطن العربي من الفقر والجوع، على حين تتدفق عائدات البترول في بنوك الغرب، وتثرى ثراءً فاحشًا قلة قليلة يعيشون في باريس ونيويورك ولندن والرياض والكويت.

وانتظرنا من اجتماع القمة العربية بالقاهرة يوم الجمعة ١٠/٨/١٩٩٠م أن يشجب التدخل الأمريكي العسكري في الخليج بمثل ما يشجب التدخل العسكري العراقي في الكويت، لكن قرار القمة العربية لم يشجب إلا حاكم العراق، أمَّا حاكم أمريكا فقد صمت عنه الجميع.

كان المنطقي أن يطلب الرؤساء والملوك العرب خروج القوات الأجنبية الاستعمارية من الخليج، وأن يتولى العرب حل مشكلة العراق والكويت بطريقتهم، ومن أجل مصالح البلدين، وليس من أجل مصالح أمريكا.

---

[1] القاهرة، ٢/١/١٩٩٢م.

لكن هذا لم يحدث!

ويا لها من إهانة لنا جميعًا، أن يصمت الرؤساء والملوك العرب عن إدانة التدخل الأمريكي في شئوننا المحلية والإقليمية.

الرأي السائد في الصحف هو رأي الرؤساء والملوك العرب وليس الآراء الأخرى، ليس من حق أحد أن يدين أمريكا، الصحف ترحب بإدانة العراق فَحسب، وتتسابق الأقلام لإدانة صدام حسين وحده.

وبالرغم من أن بعض المفكرين الأمريكيين ينقدون التدخل الأمريكي في الخليج العربي، وتصل آراؤهم إلى الصحف ووسائل الإعلام، لكن المفكرين العرب الذين ينقدون التدخل الأمريكي لا يجدون وسيلة للتعبير عن رأيهم المخالف.

إن القرار الصادر عن القمة العربية في رأيي قرار غير صائب؛ لأنه لم يطالب بإخلاء القوات الأمريكية من الخليج العربي قبل التفاوض لحل مشكلة العراق والكويت، وهو غير صائب أيضًا لأنه وافق على إرسال قوات مسلحة عربية إلى السعودية دون أن يصرَّ على أن تخرج القوات الأمريكية منه أولًا، وإلا فسوف تعمل القوات الأمريكية مع القوات العربية لضرب العراق، وهذه حرب كلها في صالح أمريكا، وإلا فلماذا تحارب أمريكا برجالها وعتادها في الخليج العربي؟!

ومَنْ هم هؤلاء الجنود العرب الذين سيُحاربون مع أمريكا ضد إخوانهم العراقيين؟!

إن العاملين الأتراك في القواعد الأمريكية بالأراضي التركية أضربوا عن العمل، ورفضوا أن يحاربوا مع أمريكا ضد إخوانهم في العراق، فهل يُضرب الجنود العرب عن العمل إذا فُرض عليهم السفر إلى الخليج العربي للحرب مع الجنود الأمريكيين ضد العراق؟!

إن أمريكا تدَّعي أنها تحارب لأنها ترفض استيلاء دولة على دولة أخرى بالقوة المسلحة، فلماذا لا تحارب أمريكا بعتادها ورجالها ضد إسرائيل لتحرر فلسطين والأرض المحتلة بمثل ما تريد تحرير الكويت؟!

كانت فرصة أن تخرج القمة العربية يوم ١٠/٨/ ١٩٩٠م بقرار قوي مُوحَّد يكشف النقاب عن وجه الاستعمار الأجنبي في عالمنا العربي، يرفع رءوسنا من المهانة والإذلال؛ بالتالي يصبح قادرًا على حل مشكلة العراق والكويت بما فيه صالح البلدان.

لكن هذا الوضع وهذا القرار الذي جاء عن القمة لم يؤدِّ إلا إلى ضعف الأمة العربية وخوفها من بطش أمريكا، وخضوعها لتهديداتها، وكشف أيضًا عن أن أزمة الوطن العربي هي هذه الدويلات النفطية التي هي محميات أمريكية في الواقع والحقيقة.

أنا لم أسافر إلى العراق منذ عشرين عامًا، ولم أمدح أبدًا حاكم العراق في أي يوم ولا أي حاكم عربي آخر، ولست مع القوة المسلحة لحل أي مشكلة.

لكن أرى أن قرار القمة العربية جاء مُخيِّبًا للآمال والشعور الوطني العربي العام، وكشف عن أن الشعوب العربية رغم صمتها وهوانها وعدم قدرتها على الإضراب مثل عمال تركيا، لكنهم أكثر عروبةً وأكثر شجاعةً من ملوكهم وحكامهم وكُتَّابهم، على الأقل بسبب إحساسهم بالغضب والاستياء رغم تهليل الصحف والأبواق!

محاكمة جورج بوش[1]

كنت مستغرقة في روايتي الجديدة، أسبح مع شخصياتها في عوالم من الخيال لا تخطر ببال الكثيرين حين أخرجني جورج بوش بالقوة المسلحة من عالم الفن العميق المدهش إلى عالم السياسة والكذب والمؤامرات. كان ذلك في الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٩١م، حين أصدر جورج بوش قراره المنفرد (دون عرضه على الكونجرس) بإرساله قواته العسكرية إلى الخليج العربي، والتي بلغت ٢٠٠ ألف جندي خلال أسابيع قليلة، وسمعته وهو يفتح شفتيه المتلاشيتين، ويعلن بصوته المعدني أن الأمر ليس إلا للدفاع عن المملكة العربية السعودية، ولم تكن السعودية قد طلبت منه الدفاع عنها، أو أنه (كما اتضح فيما بعد) أرغمها على طلب الحماية الأمريكية من خطر العراق.

ومنذ أغسطس ١٩٩٠م حتى اليوم يوليو ١٩٩١م، أي عشرة شهور كاملة، وأنا أعيش عالم السياسة الدولية والعربية، أشهد بعيني أقبح عالم يمكن أن يعيش فيه البشر، عالم الكذب السياسي والإعلامي الفاضح قد يذهب بعقل الإنسان العاقل إلى ما يُشبه الجنون، وأي جنون؟!

رأيت في بغداد يوم ١٠ يناير (قبل الحرب بستة أيام)، فتاة عراقية تبصق أمام السفارة الأمريكية في بغداد، وتقول لأحد مُصوِّري شبكة التليفزيون الأمريكي «كفى كذبًا»؛ فالعراق يريد الحل السِّلمي، لكن جورج بوش يريد الحرب.

ورأيت في العاصمة عمَّان الأردنية يوم ١١ يناير شابًّا فلسطينيًّا يُحدِّث نفسه كالمجانين، ويصرخ في الشارع قائلًا: «يا ناس يا هوه، إسرائيل تحتل أراضي ثلاثة بلاد

---

[1] نُشر بجريدة الأهالي، ٣/ ٧/ ١٩٩١م.

عربية، وتقتل الآلاف مِنَّا، وتحتل فلسطين منذ أربعين عامًا، ولا يرسلون إليها قوة عسكرية كتلك التي أرسلوها إلى الخليج!»

وعُدت إلى القاهرة، وأذهلني ما رأيته وسمعته وما قرأته في الصحف ... تهليل، وتنظيم لقوات جورج بوش العسكرية في الخليج. كان ذلك في بداية الحرب، ولم أُطِق الحياة في مصر، كنت أظن أنني أعيش في إحدى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى ملامح الوجوه أصبحت غريبة عني؛ فحملت حقيبتي وسافرت ... كان ذلك أول فبراير ١٩٩١م ...

وحضرت مؤتمرًا نسائيًّا عالميًّا ضد الحرب في جنيف، حضرتْه مندوبات عن أكثر من ٢٦ دولة، منها الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وبلجيكا وكندا واليابان، هذه الدول اشتركت في الحرب بالجيوش المسلحة أو الأموال والمعدات، لكن النساء المندوبات عنها وقفن في المؤتمر ضد حكوماتهن.

وكانت أكثرهن هجومًا على جورج بوش هي المندوبة الأمريكية التي بكت في المؤتمر مع المندوبات العربيات من العراق وفلسطين والأردن والجزائر وتونس وغيرها، ثُمَّ صرخت بصوت عالٍ قائلةً: «هذا الجورج بوش يجب أن يُقدَّم للمحاكمة كمجرم حرب!»

وأصدر المؤتمر بالإجماع (فيما عدا المندوبة الإسرائيلية) قرارًا بإدانة الاعتداء الأمريكي المسلح على شعب العراق، والمطالبة بسحب القوات الأجنبية جميعها من الخليج وحل الصراع بواسطة الطرق السلمية والمفاوضات.

في جنيف عاودني الحنين إلى الوطن فعُدت، لكن ما إن قرأت الصحف حتى شعرت بالغربة، كأنما هؤلاء الكُتَّاب والمحرِّرون ليسوا إلا جنودًا في حرب الجنرال شوارزكوف، وفكرت في حمل السلاح والانخراط في حرب ضد هذا الجنرال الأمريكي الشبيه بالدب الأبيض، والذي سُئل عن عدد ضحايا الحرب من المدنيين في العراق، فقال: هذا العدد لا يهمني!

سافرت خلال فبراير ومارس ١٩٩١م إلى أكثر من دولة، وداخل الولايات المتحدة نفسها تحدثت في أكثر من مدينة، منها نيويورك وواشنطن وبوسطن وبيرلنجتن وعدد من الجامعات. وفي نيويورك، وأنا راقدة فوق السرير في الفندق أعاني من آلام الانزلاق الغضروفي، شهدت على الشاشة احتفالات جورج بالانتصار في الحرب ضد العراق ... أي جنون هذا؟

ثلاثون جيشًا ضد جيش واحد من جيوش العالم الثالث؟! خسر العراق أكثر من ١٢٠٠٠٠ جندي، وخسرت الولايات المتحدة ١٢٠ جنديًّا فقط، هذا خلاف تدمير العراق

اقتصاديًّا وعسكريًّا، ومقتل ما لا يقل عن ٢٥٠٠٠٠ من المدنيين العراقيين، وهدم جميع منشآت الحياة الضرورية من محطات توليد الكهرباء وتنقية المياه وإنتاج الأغذية ولبن الأطفال والدواء والطرق والكباري ووسائل الاتصال والمواصلات.

يفتح جورج بوش شفتيه المتلاشيتين ويضحك مزهوًّا بالنصر، وأكاد أفقد عقلي؛ فأحمل حقيبتي وأعود إلى القاهرة، لكن ما إن أفتح التليفزيون المصري وأشهد تلك الاحتفالات بالنصر حتى يختلط على الأمر، وأظن أنني لا زلت في الولايات المتحدة.

أضرب بقبضتي في الهواء كالمجانين، أليس هناك من هيئة عادلة واحدة في العالم قادرة على محاكمة جورج بوش؟

بينما أنا أكلم نفسي كنزلاء العباسية دق جرس التليفون، وجاءتني دعوة رامزي كلارك لحضور جلسة الاستماع الأولى لمحاكمة جورج بوش على جرائم الحرب في الخليج يوم السبت ١١ مايو في مدينة نيويورك.

كنت عاجزة عن المشي فوق قدمي دون الشعور بآلام وعذاب يشبه عذاب القبر، ولم يكن في إمكان جسمي أن يسافر لولا الجنون، وقد سافرت لا أعرف كيف حملتْني قدماي رغم الألم، ولم أندم على ذلك. وقد شهدت جلسة الاستماع التي استغرقت ثماني ساعات متصلة يوم ١١ مايو ١٩٩١م بنيويورك، وأثلج صدري رامزي كلارك من فوق المنصة وهو يوجه إلى جورج بوش تسع عشرة تهمة يصفها بأنها أبشع جرائم الحرب في تاريخ البشرية، وتتدرج التهم من التآمر والتخطيط لحرب الخليج منذ عام ١٩٨٩م إلى قتل الآلاف من الشعب العراقي، واستخدام الأسلحة الممنوعة دوليًّا كالنابالم، وإفساد الأمم المتحدة، وتخريب ذمم الدول كلها عن طريق دفع بلايين الدولارات أو إرسال معونات سلاح أو طعام أو إعفاء من فوائد ديون أو تسهيل قروض من البنك الدولي أو … أو … أمَّا تلك البلاد التي عارضتْ جورج بوش مثل «اليمن» فكان عقابها هو الحرمان من المعونة المقدرة بملايين الدولارات. كل ذلك من أجل ماذا؟ من أجل السيطرة على منابع البترول العربي وسيادة إسرائيل والتحكم في العالم العربي سياسيًّا واقتصاديًّا.

وفي القاعة الفسيحة يوم جلسة الاستماع الأولى احتشد الناس، شغلوا المقاعد كلها، ووقف الباقون على أقدامهم ثماني ساعات متصلة، كانت شمس نيويورك ساطعة في ١١ مايو ١٩٩١م وزهور الربيع فوق الأشجار تتفتح، وصوت رامزي كلارك يدوِّي عبر الميكروفون يُدلي بشهادته حين سافر إلى العراق في الأسبوع الأول من فبراير ١٩٩١م والحرب مشتعلة، وقرأ علينا وثيقة لجنة التحقيق في جرائم حرب الخليج، ثُمَّ وجه

لجورج بوش وأعوانه تسع عشرة تهمة أولها الإعداد والتخطيط لهذه الحرب منذ عام ١٩٨٩م، وآخرها إبقاء القوات الأمريكية المسلحة في الخليج بصفة دائمة.

كان جميع الحاضرين في القاعة من الأمريكيين إلا القليل، بلغوا أكثر من خمسمِائة رجل وامرأة، كانوا يصفِّقون بعد أن انتهى رامزي كلارك من تلاوة نص الاتهام، وصاح أحد الشباب غاضبًا: عارٌ عليك يا بوش!

وحين عُرض الفيلم الذي صوَّر التدمير والقتل في بغداد والبصرة سمعتُ الرجال والنساء يبكون، وبعضهم ينهنه بصوت عالٍ، وقالت لي إحدى النساء الأمريكيات وهي تمسح عينيها: أشعر بالحزن لأنني أمريكية ولأن حكومتي فعلتْ هذا بالشعب العراقي.

رغم الألم، كنت أشعر بشيء من الراحة، على الأقل هناك هيئة في العالم لديها الشجاعة لمحاكمة جورج بوش.

وحين عُدت إلى الوطن سألني أحدُ كبار الأساتذة الذين ساندوا الحرب وتعجَّلوها، ولماذا لم تتحدثي عن محاكمة صدام حسين؟!

وابتسمتُ في هدوء قائلةً: إن الجميع يُطالِبون بمحاكمة صدام حسين بما فيهم أنت، فلماذا لا يتحدث واحد أو واحدة عن محاكمة جورج بوش؟! هل هذا مُحرَّم؟!

ورمقني بنظرة غريبة، ثُمَّ تأبَّط ذراع زوجته وسارا إلى حفل السفارة الأمريكية أو حفل توديع السفير الأمريكي القديم واستقبال الجديد.

أيهما نلوم: الكبار أم الصغار؟[1]

تلقت الوفد هذا المقال من الدكتورة نوال السعداوي، ولما كانت الكاتبة قد تعرضت فيه إلى شخصية دينية مرموقة هو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، فإنَّ الوفد تنشر المقال ومعه تعليق من الشيخ الشعراوي.

* * *

في الصفحة الأولى من جريدة الأهرام (١٧ / ٣ / ١٩٨٨م)، رأينا صورة كبيرة لرئيس الدولة وهو يُصافِح الشيخ متولي الشعراوي، وسلَّمه وسام الجمهورية من الطبقة الأولى، وفي اليوم نفسه والأيام الثلاثة السابقة كانت الصحف والمجلات تنشر علينا قصة تحطيم الآلات الموسيقية وضرب الطلبة المشاركين في الحفل الفني داخل جامعة أسيوط، وفي تصريح لوزير الداخلية (المصور، ١٨ / ٣ / ١٩٨٨م) قال: إن سلطات الأمن لم تدخل جامعة أسيوط إلا بناءً على طلب رئيس الجامعة الذي استنجد بالبوليس بعد أن اقتحمت جماعة من الإسلاميين الحرم الجامعي والصالة التي أُقيم بها الحفل الموسيقي ووصلت المعركة إلى حد إراقة الدماء.

ولا يزال الناس يتحدثون عن هذا الحادث، وقد راعهم أن تصل الأمور ببعض الجماعات الإسلامية إلى حد اعتبار الموسيقى حرامًا ومن فِعل الشيطان، وبدأ بعض الكُتَّاب والصحفيين يُعبِّرون عن غضبهم ويتساءلون: هل الموسيقى حلال أم حرام؟ (جريدة الأهرام، ١٦ / ٣ / ١٩٨٨م).

---

[1] جريدة الوفد، ٢٢ / ٣ / ١٩٨٨م، العدد ٣٢٦، صفحة ٦.

وتذكَّرت على الفور حديث الشيخ متولي الشعراوي الذي نُشر في جريدة اللواء الإسلامي (١٦ يوليو ١٩٨٧م)، وقال فيه بالحرف الواحد:

> إن هؤلاء الذين ينامون على صوت موسيقى بيتهوفن وليس على ترتيل القرآن لا يعرفون الله.

وقال أيضًا في الحديث نفسه:

> إن الفنانين والفنانات الذين تابوا على يديه واعتزلوا فن التمثيل لهم جنات النعيم؛ لأنَّهم تابوا إلى الحق بعد ضلال.

وكنت أتوقع أن تُثير مثل هذه الأفكار (البعيدة عن الإسلام الصحيح) أقلام الصحفيين والكُتَّاب في بلادنا، لكني لم أقرأ أيَّ رد؛ فكتبتُ مقالًا في هذا الشأن، وأرسلته إلى جريدة «الأهرام»، التي لم تنشره، وقيل لي إن الجريدة لا تنشر نقدًا يتعلق بالشيخ الشعراوي … ودُهشت، ولم أكن أعرف أن في بلادنا شخصًا فوق النقد ومناقشة أفكاره. ونُشر المقال في جريدة الأهالي (٥ أغسطس ١٩٨٧م)، وتلقيت بعد نشره عددًا من الرسائل والمكالمات التليفونية، بعضها يمدح شجاعتي الفكرية وعمق فهمي للإسلام (الذي يحترم الموسيقى والفنون)، والبعض الآخر يهدِّدني بالقتل، وأدركت لماذا لم يُعلِّق أحد على حديث الشيخ الشعراوي.

وكان لا بد ألا يمرَّ مثل هذا الحديث دون أن يُحدث جدلًا واسعًا بين المثقَّفين والمثقَّفات والكُتَّاب والكاتبات حول: هل الموسيقى حرام أم حلال؟! فإن مثل هذا الجدل والحوار الفكري هو الذي يُضيء الطريق أمام الشباب وطلاب الجامعات، ولا يتركهم فريسة للأفكار المتخلفة تحت شعارات دينية. أمَّا أن نسكت ونصمت تمامًا في الوقت الذي يجب فيه أن نتكلم، ثُمَّ نتكلم بل نصرخ بعد فوات الأوان، فهذا هو الذي دفعني إلى كتابة هذا المقال.

وأكثر من ذلك هو ذلك الوسام من الطبقة الأولى الذي يحصل عليه واحد من أكبر الدعاة الإسلاميين في بلادنا، وهو الذي كتب في ١٦ يوليو ١٩٨٧م أن الموسيقى حرام، فهل نلوم الشباب أم نلوم أكبر الدعاة؟ وأيها نلوم أكثر: الذي يضع الفكرة الخاطئة في الرءوس أم اليد التي تنفذ الفكرة وتمسك بآلة الضرب أو القتل؟! وأيهما نلوم: الشيخ الكبير أم الشاب الصغير؟!

إن هذا التناقض الواضح الذي يدلُّ على التردد والخوف والتراجع هو الذي يُسهِّل للشباب المتطرف أن يقتحم ويضرب بالجنازير الحديدية والمطاوي وغيرها. ويُشجِّع

بعض الدعاة على ركوب موجة الردة الحضارية وكسب نوع من الشعبية الزائفة على حساب الدين الصحيح والقيم الصحيحة والفنون الجميلة وعلى رأسها الموسيقى.

إن صمت الكُتَّاب والكاتبات أو ترددهم وتراجعهم يلعب دورًا كبيرًا في هذا المجال. وقد قرأت في الصُّحف أن رؤساء الجامعات قرروا (بعد حادثة جامعة أسيوط) أن يمنعوا الحفلات الموسيقية التي يقيمها الطلاب في نهاية العام. وإذا كان هذا الخبر صحيحًا، فإن مثل هذا التراجع والخوف من جانب المسئولين يؤدي في النهاية إلى مزيد من تلك الأحداث المؤلمة وتسهيل العنف والضرب تحت اسم الدين.

وفي بلادنا عدد قليل من المفكرين والكُتَّاب ذوي الشجاعة الأدبية والفكرية، ومنهم من يؤلف كتبًا عن الإسلام الصحيح غاية في الأهمية، إلا أن هؤلاء لا ينالون إلا الهجوم، أو التجاهل والصمت، وحين يجد الواحد منهم نفسه وحيدًا في المعركة فإنه ينسحب بهدوء، وقد يكف عن الكتابة تمامًا. وقد آنَ الأوان أن يكفَّ أصحاب الأقلام عن صمتهم، حين تكون الكلمة واجبة، وأن يكفَّ المسئولون عن تناقضهم وتراجعهم أمام هجمات الردة الحضارية، وأن يتكاتف كل من يهمه صالح هذا البلد من أجل الدفاع عن الحق والمنطق وحماية الإسلام من الدجل السياسي والتجارة باسم الدين.

إن أجهزة الإعلام — وعلى رأسها التليفزيون — أسلحة خطيرة يمكن أن تُستخدم لتنوير الناس، ولا أدري لماذا يُفسَح المجال بالساعات للشيخ محمد متولي الشعراوي دون أن يُفسَح المجال للآراء الأخرى التي ترد عليه؟ والغريب أن الحكومة تصرخ الآن بعد أحداث جامعة أسيوط، في حين أن أجهزة الإعلام الحكومية — وعلى رأسها التليفزيون — لا تزال تمنع أكثر الآراء استنارة من الوصول إلى الناس.

تعليق الشيخ الشعراوي

> إن مجرد التعليق على كاتبة هذا المقال يرفعها كثيرًا، ولكن على أية حال هي وجهة نظر تُحترَم، ويكفيني أن يكون هذا الهجوم الذي نالني بالمقال ممهورًا بإمضاء صاحبته؛ فذلك أبلغ رد، لأن الكل يعرف لمن تعمل لحسابه، ويعلمون لمن يعمل الشيخ لحسابه، وشتان بين من في جانب حساب خالق، ومن في جانب رعونة مخلوق. وأنا أحمد الله، وأعتبر ما يُقال من هذا الصنف وسامًا آخر؛ لأني لو لم أُغضب هؤلاء أعتبر نفسي فاشلًا في مهمتي، فزيدوني حملات لأزداد بالله ثقات.

رحلة الأيام الستة[1]

رأيتها تسير، حولها موكب من موظفي البلاط، وجهها مشدود العضلات مثل كبار رجال الدولة، جسمها فيه ارتخاء الراحة ونصف قرن من الطاعة بلا سؤال، عيناها فيهما انطفاء حزن دفين، يعومان تحت سحابة مائية لونها أصفر، قدماها داخل حذاء جلدي ثمين تتحركان بوقار وهيبة أصحاب المناصب العالية، لكن الكعب العالي يُحدِث على بلاط المطار صوتًا أنثويًّا، يُصبح مع اهتزازة الردفين السمينين شيئًا جارحًا أو فتنة مستترة داعية للرذيلة، ورأسها مرفوع ملفوف داخل الحجاب علامة امتلاك الفضيلة وقصر منيع في الجنة.

كنت واقفة في الطابور الطويل أمام باب الطائرة الخلفي مع ركاب الدرجة الدنيا، وهي تهبط (أمام باب الدرجة الأولى) من سيارة أنيقة كتب عليها VIP وتعني بالعربية: «الأشخاص ذوي الأهمية الكبرى».

والتقت عيوننا، تجاهلتني كعادة ذوي الأهمية الكبرى في مواجهة الواقفين في الطوابير، كانت زميلة دراسة، جلستْ إلى جواري ستة أعوام متصلة، وفي امتحان آخر العام تمد عنقها ناحية ورقتي لتنقل الإجابة.

داخل الطائرة رأيت المضيفة المصرية تبتسم وتنحني بأدب جمٍّ لكل مَن حادثها بلغة أجنبية. تلاشت الابتسامة الملائكية وحلَّت مكانها تكشيرة شيطانية حين تحدثت معها باللغة العربية، وتجاهلتني المضيفة الحسناء بمثل ما تجاهلتني زميلة الدراسة.

[1] نُشر بجريدة الأهالي، ٥/ ١٠/ ١٩٨٨م.

(١) محاولة جديدة لتفسير القرآن

ثلاثة أيام قضيتُها في مؤتمر دولي نسائي يضم خمسًا وثلاثين امرأة من البلاد الإسلامية، في بيت تحوطه جبال فرنسا وسويسرا، في عزلة كاملة عن العالم عشنا نحاول الإجابة عن هذا السؤال: لماذا انخفضت قيمة المرأة عن الرجل في الأديان؟

وكان معنا أستاذة جامعية من الباكستان، تحدثت سبع ساعات متصلة عن إيمانها العميق بأن الله ساوى بين المرأة والرجل في القرآن. لقد قضَتْ هذه الأستاذة — واسمها الدكتورة «رفعت حسن» — خمسة وعشرين عامًا في دراسة القرآن ومحاولة تفسيره حسب إدراكها أن «الله هو العدل»، وأن اللغة العربية قد تم تحويرها أو تذكيرها (جعلوها مذكَّرة) لتخدم مصالح الذكور ضد مصلحة النساء. وتوصلت الدكتورة رفعت حسن إلى معانٍ مختلفة تمامًا عن المعاني القديمة التي شاعت في المدارس الإسلامية المختلفة. ومن أهم ما توصلت إليه أن القرآن لم ترِد به آية واحدة تذكر حواء بالاسم أو تقول إنها خُلقت من ضلع آدم.

كانت ترتدي الساري الباكستاني بلون أزرق سماوي، وعيناها سوداوان واسعتان مملوءتان بالإيمان بالله العادل، وقالت بحماس: «في القرآن يقول الله إنه ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، كلمة النفس هنا مؤنثة، ومعنى ذلك أن المرأة خُلقت أولًا ثُمَّ جاء زوجها من بعدها، بخلاف المفسِّرين القدامى الذين قالوا إن النفس هي «آدم»، لكن «آدم» اسم مذكر، فكيف تكون نفسه مؤنثة؟ القرآن واضح اللغة، لكن رجال الدين ترجموا لغة القرآن ترجمة سياسية حسب مصالحهم، وليس ترجمة لغوية صحيحة. الترجمة عمل سياسي، وكذلك أيضًا التفسيرات.»

لم تَقبل امرأة من سري لانكا كلام د. رفعت، وتساءلت: أليس هناك حديث للرسول محمد ﷺ يقول فيه إن المرأة خُلِقَت من ضلع أعوج؟

وردَّت د. رفعت حسن قائلةً: «درستُ هذا الحديث من شقَّيْه: الإسناد والمحتوى، وجدت أن الإسناد ضعيف؛ لأن الذي رواه أبو هريرة، وكان الإمام أبو حنيفة يرفض الأحاديث التي رُويَت عن أبي هريرة، ولا يقبل إلا الأحاديث التي رواها ثلاثة أشخاص على الأقل ممن صاحبوا النبي، وتمتعوا بثقة الجميع. أمَّا ابن خلدون فلم يكن يقبل الأحاديث إلا بمحتواها، ولم يكن يهتم بالإسناد أو من رواها. ثُمَّ إن الآية القرآنية أقوى من الحديث النبوي، وإذا اختلف الحديث مع الآية أُخذ بالآية وتُرك الحديث، ومن الضروري في كل الأحوال أن نُرجع الحديث أو الآية إلى ظروفها والبيئة التي صدرت فيها.»

ذكَّرتني د. رفعت حسن برابعة العدوية في حماسها لجوهر الدين وحبها لله (رمز الحق والعدل)، أكثر من خضوعها للطقوس المكررة الموروثة، ألم تقُل رابعة العدوية إنها تريد حرق الجنة وحرق الجحيم حتى يحب الناس ربهم دون طمع في جنته أو خوف من ناره؟!

عبَرتُ الجبال الفاصلة بين فرنسا وسويسرا، ووجدت نفسي في «جنيف» أُطلُّ على البحيرة اللؤلؤية، يسبح فيها الإوَز الأبيض، وعصافير الجنة تزقزق، وشباب في عمر الزهر يتمشى بين خضرة الجبال وأشعة الشمس. السيارة تنطلق بي إلى مبنى الأمم المتحدة الفخم فوق الربوة العالية، حشود عربية أمام الباب؛ إنه المؤتمر الخامس للمنظمات غير الحكومية حول القضية الفلسطينية.

على صدري وجدت لافتة مشبوكة بدبوس تحمل اسمي واسم المنظمة الدولية غير الحكومية التي أمثلها: «جمعية تضامن المرأة العربية» (أكره تعليق اللافتات على الصدور، وبعد أن مررت من بوابة الأمن نزعتُها ووضعتُها في حقيبتي).

تنقلت بين القاعات حيث اللجان المختلفة، تعرفت على كثير من الوجوه العربية والفلسطينية: خالد الحسن، وإميل حبيبي، وعصام عبد الهادي، وفتحي عرفات، ومنذر عنتباوي، وفاروق أبو عيسى، وثريا أنطونيوس التي أهدتني كتابها الأخير باللغة الإنجليزية، وشابات كثيرات من الأرض المحتلة، وشابات فلسطينيات من عرب ١٩٤٨ اللائي لم يغادرن فلسطين منذ نشوء إسرائيل، يقدن المظاهرات داخل تل أبيب والقدس تضامُنًا مع الانتفاضة، تشترك معهن بعض النساء الإسرائيليات، علقت إحداهن على صدرها في المؤتمر لافتة كبيرة مكتوب عليها بالعربية والعبرية:

«يسقط الاحتلال الإسرائيلي» – «الانتفاضة هي الطريق إلى السلام».

شابة فلسطينية من أم الفحم اسمها «ريما» أشارت إلى هذه المرأة الإسرائيلية وقالت لي: اسمها «أرنا»، وهي تخرج معنا في المظاهرات حاملة العلم الفلسطيني، وابنها أيضًا يشترك معها، وفي مظاهرة «أم الفحم» (٢١ أغسطس ١٩٨٨م)، ضربها الجنود الإسرائيليون بكعوب البنادق، ولم تكفَّ عن الاشتراك معنا حتى اليوم.

اقتربتْ «أرنا»، وجلست معنا وقالت: أنا أشترك في المظاهرات ضمن حركة متصاعدة داخل إسرائيل لإنهاء الاحتلال، من حق الشعب الفلسطيني أن يكون له دولته المستقلة فوق أرض وطنه. من خلال تنشيط الناس أقاوم فكرة الصهيونية، ومن خلال النضال

يُدرك الناس — عرب ويهود — أن الانتفاضة هي الطريق إلى السلام العادل، لقد أدَّت الانتفاضة إلى تحريكنا داخل إسرائيل لنتساءل عن أصل نشوئها منذ عام ١٩٤٨م؟

ومن الجليل قابلت «امتياز» و«مها»، وهما أول من ضربهما البوليس الإسرائيلي حين بدأت المظاهرات. ناولتني «مها» بعض الصور للمظاهرات تتقدمها النساء، تحمل إحداهن طفلة خُلعت عينها اليسرى (بواسطة رصاصة مطاطية يستخدمها الجنود الإسرائيليون)، وذراعها الأيمن مكسورة داخل الجبس.

وأقبلت نحوها الدكتورة شارلوت (وهي أستاذة جامعة نمساوية)، وفي يدها بعض نماذج من الرصاص المصنوع من المطاط أو الزجاج. وضعت الرصاصة في يدي، إنها في حجم الزيتونة، شفافة تشبه «الطساس»، الذي كُنَّا نلعب به ونحن أطفال، ونضرب به البلي الصغير.

وقالت الدكتورة شارلوت: «تستخدم إسرائيل هذا النوع الجديد من الرصاص حتى لا يُرى بالأشعة، ويعجِز مشرط الجراح عن إخراجه من الجسم، ويظل كامنًا مسبِّبًا النزيف والالتهابات حتى الموت. ومن ١٠ ديسمبر ١٩٨٧م حتى ١٧ أبريل ١٩٨٨م تسبب هذا الرصاص المطاطي أو الزجاجي في خلع ٢٣ عينًا من عيون الشعب الفلسطيني، أكبرهن امرأة عمرها ٧٣ عامًا، وأصغرهن طفلة عمرها ٣ شهور.»

وفي الاستراحة رأينا فيلمًا بعنوان: «الانتفاضة طريق الحرية»، أخرجته المخرجة الإنجليزية «جيني مورجان». أدت مواقفها المؤيدة لقضية فلسطين إلى فقدانها منصبها في التليفزيون البريطاني، وأصبحت الآن «حرة»، تُخرج ما تشاء من أفلام. حصلتُ على نسخة من الفيلم، طوله عشرون دقيقة فقط، لكنه يُصوِّر الانتفاضة والمواجهة بين الشعب الفلسطيني الأعزل والجيش الإسرائيلي المدجج بالسلاح الأمريكي. مشهد لا يُنسَى في الفيلم: الأم الفلسطينية تحمي بجسدها وذراعيها طفلها من قبضة الجنود، التفوا حولها بالبنادق يحاولون انتزاع طفلها من بين ذراعيها وهي تقاومهم حتى الموت.

وفي الردهة الواسعة خارج القاعات قال لي الدكتور فتحي عرفات شقيق ياسر عرفات: إذا امتدت الثورة إلى النساء والأطفال، فلا شيء يوقفها إلا إحقاق الحق.

أعظم ما في المؤتمر أنه جمع بين الساعين والساعيات إلى الحرية والسلام العادل بصرف النظر عن الجنسية أو اللون أو الدين أو الجنس أو اللغة.

وفي الركن الآخر من الردهة كان يدور نقاش حاد أشبه بالسباب بين شابة فلسطينية من «نابلس» ورجل فلسطيني من عرب ١٩٤٨م، كان الرجل غاضبًا يتهم الفتاة بأنها

من الموساد، وهي تقول عنه لا يجيد إلا الخطب الثورية في المؤتمرات، ثُمَّ يعود إلى بيته في إسرائيل ليضرب كل من يحمل العلم الفلسطيني تحت شعار «احترام القانون».

وهكذا وجدت نفسي وسط معركة وراء الستار بين فريقين من الفلسطينيين، وزحفتْ سحابة قاتمة فوق السماء الزرقاء بين الجبال الخضراء، واختلط رذاذ المعارك الكلامية بين الأشقاء والإخوة.

في مطار القاهرة وقفتُ أمام موظف الجوازات، نظر إلى وجهي بعضلات مشدودة، ثُمَّ ارتخت عضلات وجهه وهو ينظر إلى الرجل الأمريكي وحيَّاه بابتسامة عريضة، وحين جاء دور الفتاة الفلسطينية حملق في أوراقها طويلًا ثُمَّ ردها إليها وقال بوجه مشدود: انتظري هناك!

سيارة الأجرة تحملني وحقيبتي عبر الشوارع، مدينة الأسمنت والجدران والعمارات بلا أشجار ولا أوراق خضراء، وطوابير البشر تتدافع بالأذرع داخل الأتوبيس، والشجرة الصغيرة أمام بيتي أصبح مكانَها جدارٌ من الطوب والأسمنت المسلح، منذ خلعها من الأرض البلدوزر الأمريكي عام ١٩٧٥م، لكن الوجوه الثلاثة في أسرتي الصغيرة أشرقتْ بعيون مملوءة بالشمس والخضرة، وفي العناق الطويل أنهيت غربتي وعُدت إلى الوطن.

المبالغة في مدح رئيس الدولة[1]

في بداية توليه الحكم عام ١٩٨١م، أعلن الرئيس حسني مبارك أنه لا يريد أن تُنشَر صوره في الإعلانات، ولا يريد مقالات مدح وإطراء، وأن أهم ما يريده هو العمل والإنتاج والعدالة الاجتماعية.

ومنذ توليه الحكم زار الرئيس مبارك عددًا كبيرًا من مواقع العمل والمؤسسات الإنتاجية، والتقى بفئات مختلفة من الشعب. ولم تكن زيارته للمؤسسات الصحفية هي الزيارة الأولى للمؤسسات الإنتاجية (باعتبار أن الصحافة مؤسسة تنتج الكلام)، إلا أن الصحفيين صوَّروا هذه الزيارة وكأنما هي اللقاء الأول بين الرئيس والشعب.

ولا غرابة في ذلك؛ فالصحفيون هم أعلى الفئات صوتًا؛ ولذلك تحظى أمورهم بحجم أكبر من حقيقتها.

ولا شك أن زيارة رئيس الدولة للجامعات مثلًا أو للمصانع لا تقل أهمية عن زيارته للمؤسسات الصحفية، وقد تكون أكثر أهمية، وكلنا نعرف أن سلطة رئيس الدولة هي أعلى سلطة في البلد، ومن هنا الأهمية الكبيرة لنزول الرئيس إلى مواقع العمل وضرورتها، إلا أننا ندرك أيضًا أن المشاكل في بلادنا لن تحلها الزيارات الرسمية ولن يحلها فرد واحد، إنما هي تقتضي مساهمة كل فرد في مصر.

إن المبالغة في تضخيم دور الفرد الحاكم ليس إلا نتيجة تصغير دور الشعب، إن المبالغة في مدح أيِّ عمل يقوم به صاحب السلطة ليس إلا نتيجة المبالغة في تجاهل أيِّ

---

[1] جريدة الوفد، ١٠/ ١/ ١٩٨٥م، العدد ٤٤، السنة الأولى، صفحة ٤.

عمل يقوم به من لا سلطة له، كما أنَّ المبالغة في مدح الحاكم وهو في السلطة ليس إلا الوجه الآخر للمبالغة في ذمه حين يخرج من السلطة.

وإنني أتفق مع الرئيس مبارك في حربه ضد الفساد والرشوة وتُجَّار العملة، كما أنني أتفق معه تمامًا في أن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية هما أساس الحكم، لكني أختلف معه في الطريقة التي يمارس بها الديمقراطية، ولا يزال كثيرٌ من القوانين — ومنها قانون الأحزاب وقانون الانتخابات وقانون الطوارئ وغيرها — قيودًا على الديمقراطية الحقيقية، كما أن أغلب قطاعات الشعب وأكثرها عددًا لا تزال خارج الممارسة الديمقراطية (الشباب والنساء). كذلك أرى أن هناك تفرقة بين الأحزاب، وأن الحزب الحاكم يحظى بنصيب الأسد في كل شيء، وخاصةً في أجهزة الإعلام التي تدخل كل بيت، كما أن أسماء بعض الكُتَّاب والمفكرين والأدباء والأديبات لا تزال ممنوعة من الحديث في الراديو أو التليفزيون، تضمهم القائمة السوداء، أو القائمة «الرمادية»، وهي قائمة جديدة لا سوداء ولا بيضاء، وأصحابها ممنوعون أيضًا ولكن بقرار شفهي وليس قرارًا مكتوبًا.

وكنت أتوقع أن يزور الرئيس مبارك صحف المعارضة أيضًا بمثل ما زار الصحف القومية.

وقد قرأت ما نُشر في الصحف عن زيارة الرئيس لهذه الصحف، ووجدت أن هناك بعض المقالات التي يمكن أن تندرج تحت «المبالغة في مدح الرئيس»، ولا أحد ينكر أن الرئيس مبارك قد يستحق المدح أحيانًا، لكن المبالغة في هذا المدح قد تضر ولا تفيد.

وفي جريدة «الأهرام»، قرأت تصريحًا للأستاذ أحمد بهاء الدين يقول فيه: إن أهم حدث ثقافي في عام ١٩٨٤م هو زيارة الرئيس مبارك للمؤسسات الصحفية. وتصريح آخر للدكتور يوسف إدريس يقول فيه: إن خطبة الرئيس مبارك كانت أهم حدث ثقافي لعام ١٩٨٤م. وقد يكون ذلك صحيحًا في نظرهم، إما لأنَّ الساحة الثقافية خاوية تمامًا ولا يتحرك فيها إلا فارس واحد هو رئيس الدولة، وإما أنهم لا يبذلون الجهد الكافي للتعرف على أعمال الأفراد الآخرين.

وقد قرأت أيضًا أن الأستاذ توفيق الحكيم غادر فراش المرض حتى لا يتخلف عن لقاء الرئيس عند زيارته جريدة الأهرام. وهذا حماس عظيم وشعور طيب تجاه رئيس الدولة قد يشاركه فيه الكثيرون، ولكني كنت أودُّ من أديب كبير مثل توفيق الحكيم أن يظهر شعوره الطيب أيضًا تجاه زميلة له في اتحاد الكتاب أرسلت إليه رسالة من السجن بعد أن حبسها السادات دون تحقيق، لم يردَّ الأستاذ توفيق الحكيم على الرسالة ولم يكتب حرفًا واحدًا يعترض على اعتقال عدد من الأدباء والأديبات دون تحقيق.

لقد تأملت الصورة التي نُشرت في الصفحة الأولى لجريدة الأهرام بعد زيارة الرئيس مبارك لها، تأملت وجوه كبار الكُتَّاب عندنا يتوسطهم الأستاذ توفيق الحكيم، أكثر من ثمانين رجلًا (ليس بينهم امرأة واحدة)، ولا يقل عمر الواحد منهم عن خمسة وخمسين عامًا (ليس بينهم شاب واحد)، تعرفت على معظم وجوههم، وابتسمت في أسًى، لقد رأينا هذه الوجوه في الصور من قبلُ جالسين أمام السادات وأمام عبد الناصر.

ظلُّوا صامتين أمام عبد الناصر، ثُمَّ عاد إليهم الوعي بعد موته، وظلُّوا صامتين أمام السادات، ثُمَّ تكلموا بعد موته، وها هم أمام الرئيس مبارك، أيتكلمون؟ أم يصمتون أيضًا حتى موته؟

الطاعة والمعارضة في السياسة وغيرها[1]

يحظى الإنسان بالإعجاب إذا وقف أمام الحاكم وقال رأيه بصدق دون خوف، لكن الناس لا تُعجب بمن ينتظر موت الحاكم ليقول رأيه.

لا شك أن النقد الماضي وتقييمه أمر ضروري، لكن الناس لا تُعجب بمن لا يرى الأخطاء إلا بعد أن تُصبح ماضيًا.

ويُعجب الناس بالكلمات الإنسانية الجميلة، مثل العدالة الاجتماعية والحرية والإنتاج وطهارة اليد واللسان، لكن الناس لا تُعجب بمن يحوِّل هذه الكلمات إلى أسطوانات تدور ليل نهار، أو ندوات لا تكف، وحوار لا يكف.

(١) الحوار كثير والعمل قليل

ما أسهل الحوار إذا لم يؤدِّ إلى فصلٍ أو نقلٍ أو سجن، وما أسهل الصمت إذا كان في الكلام ضرر، إلا أن الكلمة المنطوقة أو المطبوعة أصبحت وكأنما هي الوسيلة الوحيدة لإثبات الوجود، حتى في الأحزاب السياسية، تحتل الجريدة أو الكتابة في الجريدة أهمية أكبر من العمل مع الناس، أو ما نطلق عليهم الجماهير.

لا يمكن أن ننكر ما للصحافة أو الكتابة أو الحوار من تأثير، لكن هل تصبح الكلمة هي الفارس الوحيد.

---

[1] نُشر بمجلة الهلال، فبراير ١٩٨٢م.

لا شك أن الأضواء تسلَّط على الكلمة أكثر مما تسلَّط على العمل. الذين امتطوا الكلمة عرفهم الناس واشتهروا، أمَّا الذين يعملون ويكدون في العمل فلا أحد يعرفهم. من يستغرق في عمل عميق جاد لا يجد الوقت للكلام، ومن يتكلم كثيرًا لا يجد الوقت للعمل أو التفكير المتعمق.

هناك دائمًا علاقة عكسية بين العمق والانتشار الواسع، وهناك علاقة طردية دائمة بين كثرة الكلام وقلة الفعل. وقد أصبحت العادة أن ينتظر الناس ما يقوله رئيس الدولة ليرددوه، ما أسهل الترديد!

في الماضي القريب ترددت كلمات مثل: الأمن الغذائي، والثورة الخضراء، والحضارة، والرخاء. وهذه الأيام أصبحنا نسمع كثيرًا عن الجدية والعمل والقدرة والانفتاح الإنتاجي والنفاق، وأخشى أن نسمع قريبًا عن ندوة جديدة بعنوان: «طهارة اليد واللسان».

لا يمكن أن ننكر أن المشاكل كثيرة: مشكلة الشباب، مشكلة العنف والإرهاب، المشكلة الاقتصادية، الفساد، الرشوة، السلبية، التسيب، التسمم بالأطعمة الفاسدة، الهواء وتلوث البيئة ... إلخ.

هذه المشاكل كلها موجودة، لكن المشكلة ليست في وجود المشاكل، ولكن في نظرتنا إلى هذه المشاكل، كيف نشخصها ونكتشف أسبابها الحقيقية وكيف نعالجها، ولا يشير أيُّ واحد مِنَّا إلى نفسه، وتتجه إصبعه دائمًا متَّهِمًا الآخرين وينسى نفسه، أو يتكلم كلامًا جميلًا، فإذا شاهدنا ما يفعل وجدنا فعله مناقضًا لكلامه.

رأينا مُفكِّرًا كبيرًا يرأس ندوة عن مشكلة الديمقراطية، وسمعناه يقول: إن المشكلة الأساسية هي مصادرة الرأي الآخر، ومع ذلك لاحظنا أن المفكر الكبير كان أكثر أعضاء الندوة مصادرةً للرأي الآخر أثناء المناقشة.

مثال آخر: ذلك المفكر الكبير يُغرقنا بكلمات عن المساواة والحرية، فإذا رأيناه في بيته نرى الأب المستبد برأيه والزوج المسيطر الذي لا يقبل المناقشة. ثُمَّ هذا الكاتب الكبير الذي ينقد سلبية الشعب المصري، لكنه ينتهي بأن يدعونا إلى انتظار ما سوف يفعله رئيس الدولة؛ أي يدعونا إلى السلبية.

لا شكَّ أنَّ رئيس الدولة في مصر له من السلطات ما ليس لغيره، وفي يده تغيير القوانين والسياسات والأشخاص، وهذه مشكلة كبيرة تتعارض مع الديمقراطية، لكن المشاكل التي نعاني منها ضاربة بجذورها في مجتمعنا وفي تاريخنا وفي بيوتنا وفي أنفسنا مما لا يكفي معه تغيير السياسات أو الأشخاص أو القوانين.

إن هذا الانتظار لما سوف يفعله أو يقوله الحاكم نوع من السلبية الجماعية التي تعوَّدنا عليها في حياتنا العامة والخاصة، والحياة الخاصة ليست إلا نموذجًا مُصغَّرًا من الحياة العامة.

في حياتنا الخاصة يعتمد الأطفال والشباب والنساء على فرد واحد هو الأب (أو الجد في الريف)، قد يشتغل الطفل أو الشاب أو المرأة في الحقل، لكن العمل هنا لا يُكسبهم الاعتماد على النفس أو حق إصدار الرأي أو القرار؛ فالرأي والقرار لصاحب السلطة الأوحد، الأب أو الجد.

إن حياتنا الخاصة ليست ديمقراطية، فكيف يمكن أن تكون حياتنا العامة ديمقراطية؟ الطفل أو الشاب الذي لا يتعود مناقشة أبيه والاختلاف معه لا يمكن أن يناقش رئيسه أو يختلف معه، والمرأة التي تُفرَض عليها الطاعة منذ الولادة لا يمكن أن يكون لها رأي مستقل عن أبيها أو زوجها أو رئيسها في العمل.

يقول الأب: إن طاعة الله واجبة، وطاعة الأب واجبة، وفي عصور قديمة تنكَّر الأب في زي الإله، وفي عصور حديثة ارتدى الحاكم رداء الأب، وأصبحت الطاعة هي الفضيلة الأولى في حياتنا.

العقل ينفي الطاعة ويوجب الجدل والمناقشة، والطاعة تنفي العقل وتوجب الموافقة على آراء الآخرين.

والإنسان عقل، قوة الإنسان وطاقته هي العقل، إذا لم يجد العقل الطريق أمامه مفتوحًا خرجت قوة الإنسان وطاقته بغير عقل، خرجت قوة مدمرة عدوانية إرهابية تضرب وتقتل.

دلَّت الأبحاث النفسية أن أكثر الأطفال عدوانية كان لهم آباء شديدو السيطرة والاستبداد بالرأي. ما معنى الاستبداد بالرأي؟ معناه أن تنفي عقول الآخرين وتفرض رأيك.

الطفل إنسان له عقل كامل وليس ناقصًا كما يتصور البعض، والمرأة أيضًا ليست ناقصة العقل، الإنسان في طفولته أو شبابه له عقل يختلف عن عقل أبيه؛ لأنه يعيش ظروفًا لم يعِشْها أبوه، وبقدر ما يحتاج الطفل أو الشاب لتجرِبة أبيه يحتاج الأب أيضًا لتجرِبة ابنه ورأيه وإحساسه أو تجرِبة ابنته ورأيها وإحساسها.

كثيرٌ من الناس لا يتصورون إمكانية مناقشة فكرية عميقة بين أبٍ وطِفله أو طِفلته. أذكر أنني ناقشت أبي حين كنت في العاشرة من عمري حول فكرة وجود الله وعدالته،

ولماذا يُخاطَب بلغة التذكير دائمًا. ولم يفزع أبي من أسئلتي، ولم ينهرني أو يخوِّفني من التفكير في أي شيء، لم يضع سقفًا لتفكيري لا أتجاوزه؛ ولهذا تعودت أن أناقش كل شيء، ولا أوافق على رأيٍ ما إلا باقتناع، إذا اقتنعت وافقت، وإذا لم أقتنع اعترضت.

الاقتناع يعني التفكير وتشغيل العقل، أي الجدل والمناقشة ثُمَّ الموافقة أو المعارضة.

كثيرٌ من الناس يتصورون أن «المعارضة» شيء يتعلق بالسياسة أو الأحزاب السياسية فقط، ولكن المعارضة أو القدرة على المعارضة أسلوب في حياة الإنسان، وقدرة عقلية ونفسية يكتسبها الإنسان في الطفولة وتنمو معه كلما كبر، أو تنكمش وتذبل.

المعارضة ليست عُضوًا ينبت فجأة للإنسان بدخوله حزب المعارضة، أو بصدور قرار يدعو إلى الديمقراطية، ولا يمكن أن تخلوَ بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ومكاتبنا وأعمالنا وحقولنا ومصانعنا من الديمقراطية، ثُمَّ تظهر فقط تحت قبة البرلمان.

وقد طالب الكثيرون بالقضاء على النفاق، لكن ما هو النفاق؟ أليس هو المحصلة الطبيعية للطاعة؟ الطفل الذي يُطيع بغير اقتناع يتعلم أن ينافق أباه، والمرأة المطيعة منافقة، والمرءوس المُطيع منافق. الطاعة هي الوجه الآخر للخوف، الخوف يؤدي إلى النفاق، لكننا لا نصل إلى جذور الأشياء، والسبب هو الخوف، الخوف من أن نصل إلى التناقض الصارخ أو الازدواجية المريضة في القيم والتقاليد التي دَرجنا عليها، سنصل حتمًا إلى اكتشاف أن النفاق والطاعة وجهان لعملة واحدة.

وأخطر الرذائل هو ما يرتدي ثوب الفضائل، وأخطر الفضائل ما يرتدي ثوب الرذائل. إذا أردنا علاج النفاق فلا بد أن نعيد النظر فيما نسميه فضائل أو رذائل، علينا أن نقول إن الطفل الفاضل هو الطفل الذي يناقش ويجادل وليس الطفل المطيع، علينا أن نقول إن الزوجة الفاضلة هي التي تناقش وتجادل وليست هي الزوجة المطيعة.

لكننا ما زلنا نقول عن الطفل المجادل إنه مشاغب، والمرأة المجادلة تعتبر شاذة أو غير طبيعية أو مشاكسة، أمَّا المرءوس المجادل فهو شخص حقود وغير أهل للثقة.

أي رئيس عادل لا يخشى الجدل، والأب أو الزوج العادل لا يخاف النقاش، والإله العادل يدعو إلى الحوار وتشغيل العقل.

إن غياب العدالة والمساواة بين البشر على اختلافهم هو الذي يُحرِّم الجدل أو الحوار أو المعارضة، وهو الذي يُحوِّل الطاقة العقلية الإنسانية من البناء والخَلق والتقدم إلى الضرب والعدوان والتأخر.

العدوان نوع من المقاومة الإنسانية الطبيعية ضد سد المنافذ أمام العقل، وقد يتجه العدوان إلى الإنسان نفسه، فيقتل نفسه بنفسه. إن هذه السلبية الفردية والجماعية التي

نتصف بها كأفراد وشعب ليست إلا نوعًا من المقاومة البطيئة، أو الإضراب الدائم الخفي الخائف من أن يظهر، إضراب عن بذل الجهد في عمل أو لهو أو فرح، أو حتى حُزن.

السلبية الوجه الآخر من اليأس، واليأس هو النهاية الطبيعية للخوف.

حيثما يعيش الخوف يعيش النفاق، وحيثما تُفرَض الطاعة يُفرَض الخوف.

وأمام الموظف المصري تقرأ رقعة نُحاسية حُفرت عليها «الطاعة»، «الصبر». «في الطاعة السلامة وفي التفكير الندامة» الحكمة الخالدة المحفورة في ذهن الموظف المصري منذ عهد الفراعنة. وكل الناس في مصر موظفون، الوزير موظف، والناقد الأدبي موظف، والأديب موظف، وصاحب الفكر موظف.

سألتُ مرة أحد الأدباء: لماذا يكتب ما لا يقتنع به؟ فقال ببساطة: إذا فُصلتُ أو نُقلتُ من الجورنال، فهل تتولين أنت الإنفاق على أولادي في المدارس؟ وسألتُ مرة أحد الوزراء السابقين: لماذا لا تقول رأيك إلا في الجلسات الضيقة؟ فقال: لأضمن أنه لن يصل ... قلت: وإذا وصل، فماذا تخاف؟ ونظر إليَّ بدهشة، ونظر الحاضرون جميعًا إليَّ بدهشة وكأنني كائن عجيب هبط من المريخ.

أغرب ما في الأمر أن أحدًا لا ينظر إلى نفسه، لا الكبير ولا الصغير، والعيون كلها تتجه إلى رئيس الدولة في انتظار ما يفعله ليُصلح الكون، هل يمكن لفرد واحد أن يُصلح الكون؟!

حدث في صباح ٢٥ نوفمبر ١٩٨١م[١]

أُحملق في الظلام، لم يكن الفجر شقشق بعد، متكورة حول نفسي كجنين في بطن أمه، أتلمس الدفء من الجدران التي تحوطني، هل أنا مت وعدت إلى الرحم الأصلي، أم أنني لم أُولد بعد؟!

الصمت والظلمة يلتفان حولي كعباءة سوداء، كثافة مثلجة تضغط على أذني في صفير متصل لا نهائي، أخرج رأسي من بين القضبان، أرقب أول نقطة ضوء، أول قطرة ندًى، ظمأ شديد يُلهب حلقي، ماذا تعشَّيت بالأمس؟ لا أذكر.

لا أذكر شيئًا، حتى ملامح طفلي نسيتها، أعظم صفات الإنسان أنه يَنسى، وهل كنت أحيا في السجن إذا تذكرت ملامح طفلي؟ عيونه حين يصحو من النوم فلا يجدني ولا يعرف أين أنا.

ذلك الصباح، هل فتح عينيه؟ منذ متى؟ ثمانون يومًا ... ثمانون عامًا ... ثمانون قرنًا ... ربما ... فالزمن في السجن غير الزمن، والساعة الواحدة تمتد أمامنا بغير نهاية كالدهر.

الصوت العذب الحزين يشق السكون، الناي المنفرد في الظلمة تغريد كصوت الأم، كالدعاء، كالبكاء، كالضحكة الطويلة يطلقها طفل، أو صرخة وحيدة في الليل.

كل فجر أنتظره وأسمعه، وكل غروب أيضًا، لماذا لا يغرد الكروان إلا في السكون والظلام؟ لماذا لا يُحلِّق في هذه اللحظة الساقطة بين الليل والنهار؟ طائر وحيد في الكون.

---

[١] نُشرت بجريدة الأهرام، ٨/ ١٢/ ١٩٨١م.

أرفع رأسي إلى السماء، أريد أن أرى الكروان، لم أر في حياتي أيَّ كروان، لكن السماء سقف أسود مسدود، والكروان يسمعه الإنسان في السجن دون أن يراه.

يكفيني أن أسمعه دون أن أراه، يكفيني أن تسقط قطرة الضوء، وأحرك قلمي فوق الورق دون أن أرى الكلمات، لا يهم أن أرى الكلمات، لا يهم أي شيء سوى أن تُولَد الكلمات فوق الورق ولا تُدفَن تحت الجدار.

زحف ضوء النهار، ارتديت حذائي الكاوتش لأبدأ التمرينات، حركة الجسم تعني الحياة، قوة الجسم تعني قوة العقل وقوة النفس، وفي السجن يحتاج الإنسان لمجموع قواه.

يغسل العرق غزير الأرق ويغسل التعب، ووضعت رأسي تحت الماء البارد، الآن فقط أشعر بانتعاش، وجوع أو ظمأ مجنون لكوب من الشاي.

لم أكَد أحوط الكوب الساخن بيدي حتى سمعتُ صوتًا يناديني، قلت لنفسي: يا فتاح يا عليم. ودار المفتاح الحديدي الضخم دوراته الثلاث وانفتح الباب:

– أنتِ مطلوبة الآن.

– تحقيق؟

– لا نعرف.

أدخلوني في سيارة بسرعة البرق، انطلقت السيارة تجري وتلهث، كل شيء أمام عيني يجري ويلهث، الدنيا كلها تلهث، ما الذي حدث!

– إلى أين تحملونني؟

– خير إن شاء الله.

– لا أفهم شيئًا.

– سنحملك إلى مكان مُعيَّن.

– ما هو هذا المكان المُعيَّن؟!

– ستعرفين حين تَصلِين.

أسندت رأسي إلى مسند السيارة، أنا إنسانة ولست «طردًا» يُحمَل من مكان إلى مكان، أنا لست ريشة في مهب الرياح. عيناي ترقبان الشوارع والناس، امرأة تسير في الشارع وتُحرِّك ذراعيها بحرية، يبدو أنها في طريقها إلى بيتها، اتسعت عيناي بدهشة، السير في الشارع أعجوبة، والذهاب إلى البيت أمر خارق للعادة، ضربٌ من المستحيل، لم أسمح لنفسي أن أحلم به، مثل هذه الأحلام قد تُضعف الإنسان في السجن، وبالغريزة وحدها غابت عني الأحلام البعيدة.

لمحت امرأة تقود سيارة وتنصرف في طريق جانبي، كيف يتحرك الناس بهذه البساطة في الشوارع؟ لكن الحرية تاج على رءوس الناس لا يراها إلا المسجون.

توقفت السيارة أمام قصر كبير لا أعرفه، فجأة تذكَّرت شكله واسمه، وعادت إليَّ كل ذاكرتي دفعة واحدة، حتى وجه طفلي رأيته.

– قصر العروبة؟

– نعم، وستقابلين السيد رئيس الجمهورية الآن. خفقة قلب سريعة، وابتسامة حذرة، لا زلت أحمل السجن داخلي، والسجن هو أن تشكَّ فيما تسمع حتى ترى بعينيك وتلمس بيديك.

في البهو الأنيق رأيت الوجوه المتعددة، بعضها مندهش لا يُصَدِّق، بعضها فرِح، بعضها متألم يسترجع آلامه، الأصوات تتعانق، القلوب تخفق، الضوء قوي مُبهِر يؤلم العيون المرهَقة، عيون شابة وعيون عجوز، وعيون ليس لها عمر كأنما هي أكبر من الزمن، لا تَشيخ ولا تموت، عيون الإنسان المصري البسيط يدخل بحذائه المترب وملابسه المعفرة ليقول كلمته أمام التاريخ.

كنت قد أعطيته كلماتي فوق ورقة السجن، وقرأها كلها، ثُمَّ قلب الورقة وقرأ الوجه الآخر، وكان يمكن أن أكتفي وأمضي دون أن أقول شيئًا، لكني رفعت يدي وقلت كلمتي؛ ليسمعها، فهل سمعها أم راحت هباءً في الهواء؟

كل شيء بدا كالحلم، تصورت أنَّهم سيحملونني مرة أخرى إلى السجن، إلا أنَّ أحدًا أوقفني وأنا خارجة عند باب القصر، وصاح مندهشًا وهو ينظر إلى حذائي: حذاء كاوتش في قصر العروبة؟! ... قلت — وأنا أخطو إلى الشارع أحمل حريتي في عيني كضوء الشمس: ولماذا تنظر إلى حذائي يا صديقي! انظر إلى عيني.

هنـــداوي